



تاريخ الدولة العثمانية

[النشأة - الازدهار]

وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة

تأليف الدكتور

سيد محمد السيد محمود



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

تاريخ الدولة العثمانية

النشأة والازدهار

" وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة "

دكتور/ سيد محمد السيد محمود

أستاذ التاريخ والحضارة العثمانية المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبر ، القاهرة ت. ٣٩٠٠٨٦٨



الناشر

مَكْتَبَةُ الْأَكْبَرِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محمود ، سيد محمد السيد

تاريخ الدولة العثمانية : النشأة والازدهار

وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة -

سيد محمد السيد محمود . - القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠٠٧ .

٤٦٤ ص ؛ سم .

تدمك ٢ ٢٥٣ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الإمبراطورية العثمانية

١ - العنوان

٩٥٣,٠٩

عنوان الكتاب: تاريخ الدولة العثمانية

الدكتور: سيد محمد السيد محمود

رقم الإيداع: ٢٠٥٧٩ لسنة ٢٠١٠ م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-468-253-2

مَكْتَبَةُ الْأَكْبَرِ

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) -

e-mail: adabook@hotmail.com

الإهداء

إلى كل من بذل جهداً

لإمالة اللئام عن حقائق التاريخ العثماني

ووضع الجيل الجديد على طريق إجراء دراسات منصفة

حول تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها

تقديم

أن الحمد لله فحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وبعد ...

لقد احتل التاريخ العثماني مساحة زمانية ومكانية مديدة ربطت بين العصرين الوسيط والحديث والجناحين الشرقي والغربي على مدى أكثر من ستة قرون متتالية . فقد شهدت الدولة العثمانية مرحلة المخاض العسير في الانتقال بين العصرين الوسيط والحديث ، حيث سقطت دول وإمبراطوريات وقامت أخرى ، وزالت أسرات حاكمة وظهرت أخرى ، وأعيد تقسيم مناطق الربع المسكون من العالم من جديد . وخلال هذه المرحلة ، لعبت الدولة العثمانية دوراً هاماً في منطقة امتدت من بلاد فارس والخليج العربي شرقاً وحتى بلاد النمسا والمغرب غرباً ، ومن جنوب موسكو والقفقاس وبولندا شمالاً وحتى بلاد الحبش والمحيط الهندي جنوباً ، فكانت العنصر الفعال في حالات المدّ والجذر في تلك المنطقة سواء خلال عصر نشأتها وازدهارها أو في عصر الضعف والانهيار.

والحقيقة أن هذا التأثير البعيد المدى للتاريخ العثماني امتد حتى عصرنا الحاضر . فقد نتج عن المخاض الأخير للدولة العثمانية مشكلات إقليمية لازالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية حتى اليوم ، الأمر الذي يجعلنا في حاجة ماسة لدراسة تاريخ هذه الدولة دراسة محايدة بعيدة عن التعصب والإنحياز أو التحامل والتشويه ، وذلك للبحث عن جذور هذه المشكلات ، ومن ثم لإمادة اللثام عن الكثير من الحقائق المغيبة حول تاريخ الدولة العثمانية . عندئذ سينجلي أمام القاصي والداني حقيقة الادعاءات التي أطلقها البعض حول الإستعمار العثماني ، ومساوئ الحكم العثماني ، ودور الدولة العثمانية في تأخر العالم العربي ورجعيته ، وغيرها من القضايا التي لا زالت تلقي بظلالها على الدراسات العثمانية في العالم العربي حتى اليوم .

وقد حاولت في هذا الكتاب تقديم مادة خصبة لدارسي التاريخ العثماني توفر لهم خلفية تاريخية واضحة المعالم عن دولة آل عثمان خلال مرحلتي التأسيس والازدهار ؛ كما حرصت على الاستعانة بأحدث الدراسات والأبحاث التركية وما توصلت إليه من نتائج ، وحاولت ألا يكون هذا العرض سرداً للوقائع السياسية والعسكرية للدولة فقط ، فقامت بتدليلها بعرض أهم الإنجازات الحضارية التي حققتها الدولة مع التركيز على تشكيلاتها ونظمها الإدارية والمالية والعسكرية .

وقد قسمت الكتاب إلى مدخل وأربعة فصول وخاتمة ، فتعرضت في المدخل لتاريخ الدول التي قام الترك بتأسيسها قبل اعتناقهم الإسلام وبعده ، وفي الفصل الأول تتبعت وقائع الدولة العثمانية خلال مرحلة التأسيس وأهم إنجازاتها الحضارية ؛ أما في الفصل الثاني ، فقد استعرضت وقائع الدولة العثمانية خلال عصر الازدهار ؛ وفي الفصل الثالث تتبعت عوامل الخلل التي أدت إلى ضعف الدولة ؛ أما الفصل الرابع والأخير فقد خصصته لعرض الملامح العامة لنظم الدولة العثمانية وتشكيلاتها العرفية والإدارية والعسكرية . وأخيراً اختتمت هذا العرض بتحليل شامل للمراحل التي مرت بها الدولة خلال مرحلتي التأسيس والازدهار ، وذلك حتى ظهور الملامح الأولى لضعف الدولة واضطراب مؤسساتها .

هذا ، وإنني إذ أرجو أن أكون بهذا العرض السريع لمرحلتي النشأة والازدهار في الدولة العثمانية قد استطعت إمطة اللثام عن كثير من المفاهيم التي هي في أمس الحاجة إلى الإيضاح ، لأتمني أن يفيد منه القارئ والدارس .

والله ولي التوفيق ، ، ،

دكتور

سيد محمد السيد محمود

سوهاج ٢٠٠٧

المحتويات

الموضوع	الصفحة
- الإهداء	٣
- تقديم	٤
- المحتويات	٦

المدخل (١٣ - ٧٤)

- مكانة الترك في التاريخ	١٣
- الدول التي أقامها الترك قبل اعتناقهم الإسلام : الكوكتورك	١٨
- الدول والإمارات التي أقامها الترك في ظل الإسلام : إعتناق الترك للإسلام ، النفوذ التركي في الدولة الإسلامية	٢٢
- الدولة السلجوقية : ترسيخ أركان الدولة السلجوقية في إيران والعراق ، ازدهار الدولة السلجوقية ، معركة ملازگرد ، سلاجقة كرمان ، سلاجقة الشام ، سلاجقة الأناضول ، ظهور ملامح ضعف الدولة السلجوقية	٣٠
- دولة سلاجقة الأناضول / الروم : تأسيس دولة سلاجقة الأناضول ، سلاجقة الروم بعد سليمان بن قتلмыш ، عصر قليج أرسلان ، سلاجقة الروم تحت التبعية المغولية ، نكبة كوسه داغ	٤٦
- إمارات الأناضول المستقلة في مطلع القرن ١٣م	٥٦
- مصادر ومراجع الفصل	٦١
- تاريخ وحدث	٦٨

الفصل الأول

مرحلة التأسيس (٧٤ - ١٨١)

- ظهور إمارة آل عثمان ٧٤
- الملامح الأولى لإمارة عثمان ٨٢
- أورخان غازي المؤسس الحقيقي للإمارة العثمانية ، ضم أملاك إمارة قراسي ، استقرار العثمانيين في تراقيا الشرقية ، انتقال العثمانيين إلى الروميلي ، الملامح الأولى لتشكيلات الدولة العثمانية ، ٨٧
- الأناضول والبلقان في عهد مراد خداوندگار : فتح أدرنه ، حركات المقاومة في تراقيا ، معركة چيرمن ، توسيع النفوذ العثماني في الأناضول ، بدء نشوب النزاع بين العثمانيين والقرمانيين ، استئناف الفتوحات العثمانية في البلقان ، التحالف البلقاني ضد العثمانيين ، معركة قوصوه ٩٨
- مولد فكرة الدولة المركزية في عهد ييلدرم بايزيد : ضم العثمانيين لإمارات بحر إيجه ، خروج بايزيد لحملة الأفلاق ، ضم بلاد البلغار ، حصار العثمانيين للقسطنطينية ، فتح سلانيك ، ضم إمارة جندار ، التحالف الصليبي ومعركة نكبولي ، التوسع العثماني في بلاد اليونان والمورة ، إحكام الحصار على القسطنطينية ، إنفراد العثمانيين بالنفوذ المطلق في الأناضول ، مقتل علاء الدين علي ابن قره مان ، ضم سمسون وسيواس وملاطيه ، ملامح مشروع الدولة المركزية ، الزحف التيموري على الشرق ، معركة أنقره ١١٢
- الدولة العثمانية في مرحلة الفتور : سليمان جلبي حاكما على الروميلي ، أنفراد محمد بحكم الأناضول ، موسى جلبي يسيطر على الروميلي ، توحيد شطري الدولة على يد محمد جلبي ١٣١
- إعادة تشكيل الدولة العثمانية ١٣٨
- محاولات محمد جلبي لاستعادة نفوذ الدولة : إخضاع محمد بن قرمان ، إحياء النفوذ العثماني في الأفلاق ، فرض النفوذ العثماني على جندار ، خروج ،

- حركة بدر الدين الباطنية في الأراضي العثمانية ، مصطفى جلبي بن بايزيد..... ١٣٩
- **اسهامات مراد الثاني في إعادة تشكيل الدولة :** انفراد مراد بالعرش ، توطيد الإستقرار في الروملي والأناضول ، إخضاع اسفنديار بن جندار ، استعادة النفوذ العثماني في الأفلاق ، ضم إمارتي آيدين ومنتشة ، ترسيخ النفوذ العثماني لدى أبناء قرمان ، ضم أملاك أبناء كيرميان ، استعادة سلانيك ويانيا ، التحالف القره ماني المجري ، تشكيل تحالف صليبي ضد العثمانيين ، معاهدة أدرنه - سجدين ، تنحي مراد الثاني عن العرش ، معركة وارنا ، المورة تحت النفوذ العثماني، بدء حركة عصيان الأرناؤوط ، معركة قوصوه الثانية ١٤٨٠٠٠
- **مصادر ومراجع الفصل الأول** ١٦٥
- **تاريخ وأحداث** ١٧٥

الفصل الثاني

الدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية ، مرحلة الإزدهار (١٨١ - ٣٣٥)

- **محمد الثاني فاتح عصر الإمبراطورية :** توطيد حالة الإستقرار في الأناضول والروملي ، التفكير في فتح القسطنطينية ، استعدادات إمبراطورية تنهار ، الحصار الأخير للقسطنطينية ، فتح القسطنطينية ، عصر جديد وإمبراطورية وليدة ، توطيد الحكم العثماني وسط وجنوبي البلقان ، ضم بلاد الصرب والمورة للأراضي العثمانية ، النشاط البحري العثماني ، توطيد الحكم العثماني في جنوب البحر الأسود ، ضم أماصر وإمارة جندار وإمبراطورية طرابزون ، توطيد الحكم العثماني شمالي البلقان ، الأفلاق ولاية عثمانية ، ضم العثمانيين لبلاد البوسنة والهرسك ، التقارب التركماني الأوروبي ، الإعتراف بالنفوذ العثماني ، تشكيل تحالف صليبي جديد ، انطلاق حرب الستة عشر عاماً ، إنفراد العثمانيين بالنفوذ المطلق في الأناضول ، إنهاء حكم القره مانين ، تفكك

الحلف الصليبي والإتفاق العثماني - البندقي ، دخول القرم تحت النفوذ العثماني، خروج حملة إيطاليا وفتح أوترانتو ، خروج حملة رودس وحصارها ، التنافس العثماني المملوكي علي إمارة ذو القدر ، سمات الدولة المركزية في عصر محمد الفاتح.....١٨١

- الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني : السلطنة العثمانية بين بايزيد وحجم سلطان ، وقوع جم سلطان في الأسر ، فتح مدينتي كلي وآق كرمان ، المواجهة بين العثمانيين والمماليك ، المساعدات العثمانية لمسلمي الأندلس ، الحرب العثمانية البندقية ، فتح ابنه بختي ، فتح مودون وقورون ونوارين ، تحول الحرب العثمانية البندقية لحرب صليبية ، الإتفاق العثماني البندقي المجري ، ظهور الخطر الصفوي الشيعي في الأناضول ، السنوات الأخيرة من حكم بايزيد ومشكلة ولاية العهد ، تنازل بايزيد عن الحكم لسليم٢١٦
- القيادة العثمانية للعالم الإسلامي عهد ياووز سلطان سليم : توطيد سليم لسلته في أرجاء الدولة ، انفراد سليم بالحكم ، سياسة سليم الشرقية ، تصفية التجمعات العلوية في الأراضي العثمانية ، حملة سليم على إيران ، استعدادات سليم وخروجه للحملة ، معركة چالديران وهزيمة الجيش الصفوي ، ضم كماه وإمارة ذوالقدر ، ضم ولاية دياربكر ، عودة سليم من حملة إيران ، تطوّر العلاقات العثمانية المملوكية وخروج سليم لمصر ، معركة مرج دابق وسقوط الشام ، الحملة على مصر وموقعة الريدانية ، السلطان سليم الأول في القاهرة ، نتائج سقوط الدولة المملوكية في مصر والشام ، اهتمام سليم بتطوير البحرية العثمانية ، وفاة سليم وتولية ابنه سليمان القانوني٢٣١
- عصر الذروة ، عهد سليمان القانوني : توطيد أركان الدولة في مطلع عهد سليمان ، عصيان جانيردي الغزالي في الشام ، ضم إمارة ذو القدر ، فتح بلجراد ، فتح جزيرة رودس ، عصيان المماليك في مصر٢٤٩

- الدولة العثمانية دولة عالمية : حملات سليمان القانوني علي بلاد المجر ، معركة موهاج ، حصار فيينا الأول ، حملة الألمان ، المجر بعد معاهدة ١٥٣٣ م ، تشكيل إمارة أمراء بودين ، إمارة أمراء طمشوار ، النشاط العلوي في الأناضول وبدء حملات الدولة على إيران ، حملة العراقيين وضم بغداد ، حماية النفوذ المطلق ، حملة سليمان الثانية على إيران ، فتوح بلاد الكرج ، الحملة الأخيرة على إيران ، معاهدة أماسيا ، النشاط البحري العثماني في عهد القانوني ، الصراع العثماني-الأوروبي في البحر المتوسط وشمال أفريقيا ، بربروس قائداً للأسطول العثماني ، البندقية في التحالف الأوروبي ، معركة بروه زه ، محاولة شارلكن احتلال الجزائر ، التعاون العثماني-الفرنسي ، ضم طرابلس غرب ، معركة جربة ، حملة مالطة ، حملات الدولة في المحيط الهندي وبحر عمان ، حملة الهند وفتح عدن ، إلحاق بلاد اليمن بالأراضي العثمانية ، تشكيلات إمارة أمراء الحبش ، المواجهات العثمانية-البرتغالية ، الصراع على العرش بين أبناء سليمان القانوني، حملة القانوني الأخيرة علي بلاد المجر ، فتح سيكتوار، وفاة سليمان ٢٥٧.....
- بداية طريق العودة من القمة ، عهد سليم الثاني : مشكلة إنعام الجلوس ، فتح جزيرة ساقيز ، توطيد الحكم العثماني في بلاد اليمن ، السياسة الشمالية للدولة ومشروع قنال الدون - فولجا ، التفكير في شق قنال السويس ، فتح جزيرة قبرص ، معركة لبانتو ، إستعادة تونس ٢٩٦.....
- خطوة جديدة في طريق العودة من القمة، عهد مراد الثالث: نفوذ النساء في السراي العثماني، اضطراب الأوضاع في إيران وبدء حملات الشرق، فتح بلاد الكرج، معاهدة إستانبول، مقتل الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا.... ٣٠٧
- المصادر والمراجع ٣١٢
- تاريخ وحدث ٣٢٧

الفصل الثالث

عوامل الخلل وأسباب الإنهيار (٣٣٥ - ٣٩٥)

- الرحلة من عصر الإزدهار إلى الضعف والانهيار : الدولة العثمانية في طور الضعف ، الإدراك المبكر لمظاهر الإنهيار ، بذور الضعف والانهيار ، النظم والسياسات الداخلية ، السياسة الخارجية ، عوامل اضمحلال الدولة ، العوامل الداخلية ، العوامل الخارجية ٣٣٥
- المصادر والمراجع ٣٩٠

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية للدولة العثمانية في مرحلتي التأسيس والازدهار (٣٩٥ - ٤٥٣)

- انجتماع العثماني من البداوة إلى الحضارة : أسرة آل عثمان ، مشكلة اعتلاء العرش لدى العثمانيين ، سلطات السلطان العثماني ٣٩٥
- نظم الدولة العثمانية ، تشكيلاتها ومؤسساتها : الديوان الهمايوني ، الوزير الأعظم ، وزراء القبة ، قاضيسكر الأناضول وقاضيسكر الروميلي ، الدفتردار ، النيشانجي ، أمير الأمراء ، الأمراء السناجق ، التقسيمات الإدارية ٤٠٣
- التشكيلات العسكرية : قوات المركز / القابو قولي ، فرقة عجمي أوغلان ، أوجاق اليكيجري ، أوجاق جبه جي ، أوجاق طوبجي ، سوارى لقابوقولي ، قوات الولايات ، قوات سوارى التيمار ، جند العزب ، جند آقينجيلر ، القوات البحرية العثمانية ٤٢٢
- المؤسسات العلمية في الدولة العثمانية : تطور المؤسسة العلمية في الدولة ، تطور الأوضاع الأدبية في الدولة العثمانية ، الحركة الصوفية في الأناضول ، حماية العلماء والمفكرين في الدولة ٤٣٧
- المؤسسات الاجتماعية لدى العثمانيين : الجوامع ، العمارات ، المستشفيات ، منازل القوافل والخانات ، الزوايا ٤٤١

- المصادر والمراجع ٤٤٥
- الخاتمة ٤٤٩
- الخرائط ٤٥٤

المدخل

مكانة الترك في التاريخ الإسلامي

أهم الدول التي أقامها الترك قبل اعتناقهم الإسلام وبعده

الغوكتورك ، القره خانيون

الغزنويون ، سلاجقة إيران والعراق ، سلاجقة الأناضول

(٩٨ ق. هـ. - ٧٠٨ هـ / ٥٢٥ - ١٣٠٨ م)

مكانة الترك في التاريخ

لقد أكدت الدراسات الحديثة أن الترك قد احتلوا مكانة مرموقة كأحد أقدم شعوب العالم وأكثرها استمراراً وبقاءً عبر العصور ، حيث أثبتت هذه الدراسات أن تاريخهم راح يضرب بجذوره في أعماق التاريخ إلى ما يقرب من أربعة آلاف عام¹ .

والحقيقة أن حركات الهجرة المستمرة التي بدأت من مواطن الترك في وسط آسيا منذ وقت مبكر ، تبين أن الترك من أعظم الشعوب كثافة سكانية في العالم ، الأمر الذي جعلهم يلعبون دوراً هاماً في التاريخ البشري . إلا أن حالة الترحال الدائم للترك وانتشارهم في محيط مكاني وزماني شاسع ، جعل تتبع أخبارهم وتحرير تاريخهم من الصعوبة بمكان ، حيث يمكننا مشاهدة جماعات تركية مختلفة في أماكن متباعدة في كل عصر . ومن ثم فإنه لا يمكن حصر تاريخ الترك في سيرة جماعة بشرية سكنت - لدود جغرافية واضحة المعالم ، وإنما يمتد هذا التاريخ فيشمل الدول والحكومات التي أقامها الترك في مناطق مختلفة من العالم سواء تحت اسم الترك أو أي اسم آخر. فبينما نجد أن بعض الجماعات التركية في أحد المواطن كانت تعيش في شكل عشائر بدوية متنقلة ، نجد أن بعضها الآخر عاش في ظل حياة مدنية متطورة ؛ وفي الوقت الذي كانت فيه جماعات تركية تفقد نفوذها السياسي في منطقة ما ، كانت جماعات تركية أخرى تصل في نفس الوقت إلى ذروة السطوة والنفوذ في مناطق أخرى . ولذلك راح التاريخ التركي يتداخل مع تاريخ الكثير من الشعوب الأخرى، في العالم شرقاً وغرباً² .

¹ Bainbrige M., Dünya'da Türkler, çev. Mehmet Harmancı, s. İstanbul 1995; Dönmez Y., Türk Dünya'sının Beşerî ve İktisadî Coğrafyası, İstanbul 1968. كذا أنظر و. بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ،

ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٥٨ .

² Özey Ramazan, " فيما يتعلق بالدول التي أقامها الترك في مناطق مختلفة من العالم ، أنظر: " Tarihte Türk Devletleri ve Hakimiyet Alanları", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, cilt.I/ 266-276.

وهكذا ، أسس الترك دولاً كثيرة علي مدى تاريخهم الطويل . وقد حصرت بعض المصادر التاريخية تلك الدول التي أسسها الترك ما بين ١١٣-١٨٠ دولة شملت آسيا وقسم كبير من أوروبا والقسم الشمالي من أفريقيا . والحقيقة أن كل هذه الدول لم تكن ذات تأثير مباشر في السياسة العالمية ، إلا أن المؤرخين المتخصصين راحوا يسلطون الضوء نحو ست عشرة دولة تركية استطاعت تحقيق سطوة ونفوذ عالمي عظيم ، حتي أطلق عليها اسم " الدول التركية الكبرى " . وقد ذكر أحد الباحثين هذه الدول علي النحو التالي :

١. دولة الهون : وقد شملت مناطق شاسعة من آسيا ، فامتدت من بحر اليابان وحتى بحر الخزر ، في الفترة ما بين ٢٥٠-٢١٦ قبل الميلاد .
٢. إمبراطورية الهون الغربية في بلاد التركستان .
٣. دولة الهون في أوروبا في الفترة ما بين ٤٣٤-٤٦٩ م .
٤. دولة الهون البيض في خراسان وأفغانستان وإيران ، خلال الفترة ما بين ٣٥٠-٥٥٧ م^٣ .
٥. دولة الگوكتورك في آسيا الوسطى في الفترة ما بين ٥٥٢-٧٤٤ م .

³ بخصوص إمبراطورية الهون التي تعد من أعظم الإمبراطوريات التي أسسها الترك عبر تاريخهم الطويل ، أنظر : Nicola Di Cosmo, " Hun İmparatorluğu'nun Kuruluşu ve Yükselişi ", Türkler, I/709-719; Kerimova Risalet, " Hun İmparatorluğu ile Çin Doğu Türkistan Mücadelesi", çev. Nurşen Özsoy, Türkler, I/743-748; Koca Selim, " Hun İmparatorluğu'nun Doğuşu ", Gazi Eğitim Fakültesi Dergisi, sayı VI, (Ankara 1990); Richord Rafe De Crespingy, " Hun Konfederasyonu'nun Bölünmesi ve Yıkılması ", Türkler, I/ 749-75; Ogel Bahaeddin, Büyük Hun İmparatorluğu Tarihi, Ankara 1981; Kafesoğlu İbrahim, Eski Türk Tarihi, Ankara 1980

٦. خانبة الأيغور ، وامدت حتف السهل جنوبف بخرة بايكال فف الففرة ما بفن
٧٤٤-٨٤٠م^٤ .

٧. دولة آوار فف بلاد المكار ، تفككت خلال القرن التاسع المفلادف .

٨. دولة الخزر ، تأسست فف القرن السابع فف أوروبا الشرقف .

٩. دولة القراخانفن فف أواسط أسفا فف الففرة ما بفن ٨٤٠-١٢١٢م .

١٠. الدولة الغزنوفف فف بلاد الأفغان والهند ، وهف معاصرة لدولة القراخانفن .

١١. دولة السلاجقة الكبرف ، وسفطرة على شرق العالم الإسلامف فف الففرة ما بفن
١٠٤٠-١١٥٧م .

١٢. دولة الخوارزمشاه ، وهف معاصرة للسلاجقة تأسست جنوبف بخرة آرال ،
وحكمت خلال الففرة ما بفن ١٠٩٧-١٢٣١م^٥ .

١٣. دولة التفمورفن فف المناطق الممتدة من بحر إفجه وحتف وسط أسفا والمفط الهندف
فف الففرة ما بفن ١٣٧٠-١٥٠٧م .

١٤. دولة البابور فف بلاد الهند خلال الففرة ما بفن ١٥٥٦-١٨٥٨م .

١٥. خانبة التون أوردر فف المنطقة ما بفن البحر الأسود وبحر الخزر فف الففرة ما بفن
١٢٢٧-١٥٠٢م .

^٤ حول العشائر والبطون التركية ودورهم السفسف قبل إعتناقهم الإسلام ، أنظر : Tasağıl
Ahmet, Göktürkler, Ankara 1995; aynı mlf. , " İslam öncesi
Devrede Orta Asya'da Yaşayan Türk Boyları ", Türkler, II/323-
367; Kabulov Karim, " Orhun Türkmenlerinin Aslı ", Türkler,
II/118-126; İzgi Ö., Uygurların Sıyasî ve Kültürel Tarihı Hukuk
Vesikalarına göre, Ankara 1987.

^٥ Merçıl E. , İlk Müslüman Türk Devletleri, Ankara 1977;

١٦. الدولة العلية العثمانية ، وهي دولة عالمية ، تأسست في سكود بالقرب من بورصة، وشملت مناطق شاسعة في القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ووصلت إلى أقصى اتساع لها في أوائل القرن ١٧م (الأناضول ، قفقاسيا ، القرم ، جنوب أوكرانيا ، المناطق التي تشملها اليوم دول رومانيا ، يوغسلافيا ، بلغاريا ، اليونان ، المجر سوريا ، الأردن ، لبنان ، فلسطين ، العراق ، المملكة العربية السعودية ، اليمن ، دول وإمارات الخليج العربي ، مصر ، تونس ، ليبيا ، الجزائر ، وجزر البحر المتوسط) ، واستمرت حتي سقطت عام ١٩٢٢م^٦ .

وسوف نلقي الضوء بإذن الله تعالى في كتابنا هذا علي الدول التركية قبل اعتناق الإسلام ، حيث نقدم دولة الكوكتورك نموذجاً لها ، ثم نفصل الحديث أكثر حول الدول التركية التي تأسست بعد اعتناق أغلب الترك الإسلام من خلال عرض ملامح عامة عن نشأة هذه الدول وأهم ملامحها ، كالدولة القره خانية ، والدولة الغزنوية ، ثم نحاول أن نفصل القول أكثر حول دولة السلاجقة ، وذلك قبل البدء في سرد وقائع تاريخ الدولة العثمانية .

^٦ حول الدول التي أسسها الترك في ظل الإسلام ، أنظر : Merçil Erdoğan, Müslüman Türk Devletleri Tarihi, Ankara 1993, Ramazan Ozey, Tarihte Türk Devletleri ve Hakimiyet Alanları, Türkler, I/266-276

أولاً

الدول التي أقامها الترك قبل اعتناقهم الإسلام

إن الحقيقة التي ينبغي علينا الإشارة إليها قبل الحديث عن أهم الدول التي أسسها الترك قبل اعتناقهم الدين الإسلامي ، هي أن دولة الكوكتورك تعتبر أولى التشكيلات السياسية التي أسسها الترك بإسمهم . وعلى الرغم من أن الدراسات التركية الحديثة تشير إلى أن هناك بعض الامبراطوريات الأخرى التي يعتقد أن شعوباً تركية قامت بتأسيسها مثل إمبراطورية الهون ، فإن امتزاج أجناس أخرى في المنطقة كالصينيين والمغول بالجنس التركي خلال هذه الحقبة الزمنية البعيدة يجعلنا نتردد في إطلاق اسم الترك علي مثل هذه الدول ، ولا نجد سوى دولة الكوكتورك نموذجاً لتلك الدول التي أسسها الترك قبل الإسلام .

دولة الكوكتورك

تعتبر دولة الكوكتورك أول تشكيل سياسي معروف يحمل اسم " الترك " في التاريخ. وقد حكمت هذه الدولة منطقة تمتد من البحر الأسود ومنغوليا وحتى حدود الصين الشمالية خلال الفترة ما بين عامي ٥٢٥ - ٧٤٤ م . والحقيقة أن سمات هذه الدولة لم تختلف كثيراً عن مجتمع البدو الرحل الذي كان سائداً من قبل ، غير أن وضع حدود سياسية معلومة للدولة ، واتخاذ عاصمة لها ، وخضوع الحكام المحليين لسلطتها المركزية ، كان أبرز ما يميزها . أما إداري الدولة فلم يكن لهم مقر ثابت ، بل كانوا يتنقلون مع القبائل هنا وهناك صيفاً وشتاءً بحثاً عن الماء والكأ . وقد انحصرت قوانين الدولة في تلك الأوامر التي كان يصدرها رؤساء الكوكتورك وفقاً لمقتضيات الظروف ،

وذلك علاوة على قواعد الديانة الشامانية التي كانت تنظم الحياة اليومية للناس في الدولة^٧.

وقد انقسمت دولة الگوكتورك بعد تأسيسها بقليل إلى فرعين أساسيين : شرقي وغربي . وقد خضع هذان الفرعان خلال القرن السابع الميلادي لحكام شمالي الصين خضوعاً اسمياً . وفي عام ٦٨٢م استطاع الفرع الغربي استعادة استقلاله ، وتمكن من المحافظة على هذا الإستقلال حتى عام ٧٤٤م . والحقيقة أن ما تم اكتشافه من نماذج للكتابة بالتركية فيما عرف بإسم "نقوش أورخون" يعود لهذا العصر ، حيث تأكد من خلال هذه النقوش أنه كان لدولة الگوكتورك علاقات تجارية نشطة مع جيرانها من الدول المتحضرة ، حتى أنها قامت بعقد اتفاق عسكري مع بيزنطة ضد الساسانيين في إيران^٨.

وعقب انهيار دولة الگوكتورك انقسمت ممالكها ، وتوزعت أراضيها في بلاد ما وراء النهر بين العشائر التي عاشت بالقرب منها . وكان من بين هؤلاء عشائر الأوغوز والقارلوق الذين سيطروا على المناطق التي تقع بين جيحون والبراري الشمالية الشرقية . أما عشائر الأيغور فقد سكنوا في حوض نهر ينسي في الفترة ما بين عامي ٧٤٥ - ٩٤٠م ، حيث استطاع القيغيز طردهم من تلك المناطق فيما بعد . وإعتباراً من أواخر القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر الميلادي تمكن القيقاق من الاستيلاء على

^٧ بخصوص العشائر التركية في آسيا الوسطي وبلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي ، والأديان التي كانوا يعتنقونها أنظر : " Kabulov Karim, " Orhun Türkmenlerinin Aslı " Türkler, II/118-126.; Akbulur Dursun Ali, Arap Fütûhâtına kadar Meveraunnehir ve Horasan'da Türkler, basılmamış Doktora Tezi, Erzurum 1984; İnan Abdulkadir, Eski Türk Dini Tarihi, İstanbul 1976.

^٨ بخصوص نقوش أورخون ، والمعلومات التي وردت فيها عن العنصر التركي ، انظر : Talar

Tekin, Orhon Yazıtları, Ankara 1988;

المنطقة الممتدة من نهر إيركش وحتى نهر جيحون⁹ . والحقيقة أنه لم تستطع أي من تلك الدول أن تملأ الفراغ الذي تركته دولة الگوكتورك ، حيث وقعت جميعاً تحت تأثير الحضارة الإسلامية التي كانت تقع على الحدود الجنوبية منها.

وهكذا ، راحت ضفاف نهر جيحون تشهد مرحلة اندماج ثقافي بين حضارة الدولة الإسلامية الراقية وحضارة دولة الگوكتورك ومن جاء بعدها من الدول التركية . الحقيقة أن ملامح هذه العلاقة انحصرت في مظاهر ثلاثة هي :

أ- محاولات القبائل التركية عبور نهر جيحون للإنتقال إلى الإراضى الإسلامية بخرسان ، وتعدياتهم على مناطق الحدود الشرقية للدولة الإسلامية . وقد أدى هذا في البداية لإقامة المسلمين القلاع وتشديد الحصون على طول نهر جيحون. إلا أن الإشتباكات التي لم تنقطع بين الطرفين لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان نتج عنها في النهاية دخول بلاد ما وراء النهر في ظل الحضارة الإسلامية .

ب- وجود البلاد التي كانت خاضعة للدولة الگوكتورك والدول التي خلفتها على طريق القوافل التجارية التي كانت تربط المراكز الحضارية القديمة في الشرق والغرب بعضها ببعض . وقد أدى ذلك إلى الإقتراب أكثر من الحضارة الإسلامية المجاورة ، حيث كان التجار المسلمون يحملون مع بضائعهم إلى بلاد الترك مبادئ الدين الإسلامي وخلق الأمانة والصدق والإيثار ، فكان ذلك من أهم أسباب دخول الترك في الإسلام .

ج- نشاط الدعوة إلى الإسلام الذي راح يمارسه الدعاة المسلمون بين الجماعات البدوية الموجودة على ضفاف نهر جيحون من الترك . وكان الدعاة يتنقلون من مكان إلى مكان في تلك المناطق ويطبقون الزوايا والتكايا بين العشائر التركية

⁹ Kurat A.N., IV-XVII. Yüzyıllarda Karadeniz Küzeyindeki Türk Kavimleri ve Devletleri, Ankara 1972; İzgi Ö., Uygurların Siyasî ve Kültürel Tarihi Hukuk Vesikalarına göre, Ankara 1987.

لنشر الدين الإسلامي بينهم ، حيث ارتبط اعتناق هؤلاء الترك للدين الإسلامي بانتقال المظاهر الحضارية للدولة الإسلامية إلى مجتمعات الترك البدوية ، ومنذ ذلك الحين بدأت الهجرات الجماعية للإيراضي الإسلامية في خراسان وإيران والعراق^{١٠} .

¹⁰ لتفصيلات أكثر حول انتشار الإسلام في آسيا الوسطى أنظر : Kitapçı Zekeriya, Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler, Konya 1994.

دول وامارات الترك في ظل الإسلام

لقد أتاح مبدأ المساواة في الدين الإسلامي للترك الذين اعتنقوا الدين الجديد التنقل بين بلدان الدولة الإسلامية بكل حرية ، وتولي المناصب القيادية في مختلف مؤسسات الدولة ، ومن ثم كان لهم دور بارز على الساحة السياسية والعسكرية والحضارية على مدي التاريخ الإسلامي ، وأمكن لهم تشكيل بعض الإمارات والدول المستقلة خلال فترات الضعف التي أصابت الخلافة العباسية .

اعتناق الترك للإسلام

عقب معارك القادسية (١٤هـ / ٦٣٥ م) و نهاوند (٢٠هـ / ٦٤١ م) ، انساح المسلمون يفتحون بلاد فارس ، حيث التقوا بالترك لأول مرة عند نهر جيحون بينما كانوا يتعقبون أثر يزدجرد الثالث آخر ملك ساساني . وفي عهد معاوية ابن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) بعث عبيد الله بن زياد بجيش إلى بخارى ، حيث استطاع في طريقة فتح مدينة " بيقند " الإستراتيجية . وبلغ بخاري في عام ٥٣هـ / ٦٧٢ م وفرض عليه ملكتها جزية مقدارها مليون درهم . وبعد ثلاث سنوات عاد المسلمون إلى بخاري ثانية ، حيث مدوا فتوحاتهم إلى بلاد الصغد وسمرقند . وعلى الرغم من وجود دولة الكوكتورك في تلك النواحي خلال هذه الفترة ، إلا أنها لم تستطع تقديم أية معونة للعشائر التركية لمواجهة الزحف الإسلامي . والحقيقة أن الفتوحات الإسلامية في تلك المناطق قد توقفت لفترة ، فلم تشهد بلاد الترك حالة من الاستقرار الفعلي إلا بعد تعيين الحجاج بن يوسف والياً على العراق (٩٤هـ / ٧١٢ م) . ومرة أخرى استأنفت الفتوحات الإسلامية لبلاد الترك بتوجه جيش كبير تحت قيادة قتيبة بن مسلم إلى خراسان ، حيث زحف منها إلى بلاد ما وراء النهر . ولم يتوقف هذا الزحف إلا بعد أن تمت له السيطرة على بخارى وفرغانة في العام التالي ، فهاجم قتيبة بن مسلم أمراء الأيغور هناك (٩٥هـ / ٧١٣ م) . والحقيقة أن الشواهد التاريخية تدل على أن

المسلمون العرب ظلوا حتى أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي يكتفون بصد غارات الترك من جهة الشرق ، ولم يكن دخولهم إلى بلاد الترك خلال هذه الفترة إلا لتأمين حدود الدولة الإسلامية¹¹ .

وهكذا حكم المسلمون مناطق التركستان حكماً مباشراً منذ أوائل القرن الأول الهجري/ الثامن الميلادي وحتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، حيث ألحقت تلك المناطق بولاية حراسان . وكان حكام حراسان من قبل الخلافة يبعثون نواب عنهم إلى بلاد ما وراء النهر . وقد ظل الوضع على هذا الحال حتى تأسيس السامانيين لدولتهم وأتخاذهم بخاري عاصمة لهم عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م . ومنذ ذلك الحين أخذ السامانيون على عاتقهم مهمة التصدي لغارات الترك ، ومحاولة نشر الإسلام بين التجمعات التركية هناك¹² .

وفي الحقيقة ، لم يكن اعتناق الأتراك للإسلام نتيجة لهذه الفتوح ، بل كان بمحض رغبة الترك أنفسهم ، حيث أقبل الترك بعد فترة قصيرة على دين الله أفراجاً ، وصاروا يزودون عن تلك العقيدة الجديدة في غيرة وحماس شديدين . إلا أن هناك عوامل ساعدت على انتشار الدين الإسلامي بين الترك كان على رأسها :

أ- هجرة المسلمين العرب إلى المناطق المفتوحة تدريجياً ، واستيطانهم بها ، وحملهم مبادئ الإسلام وقيم الحضارة الإسلامية لتلك المناطق . ولم يكن ممكناً للعشائر

¹¹ فيما يتعلق بفتوحات العرب الأولى لبلاد ما وراء النهر ، وعلاقتهم في عهد الدولة الأموية مع العشائر التركية أنظر : بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، تعريب صلاح هاشم ، القاهرة ١٩٨١م ؛ Kitapçı Zekeriya , Arapların Türkistana Girişi, İstanbul 2000; Ayca İrfan, " Emevîler Dönemi Sonuna kardar Müslüman Arapların Türklerle İlk Münasebetleri ", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, IV/317-328.

¹² بخصوص دور السامانيين في نشر الدين الإسلامي بين التجمعات التركية في بلاد ما وراء النهر ، أنظر : Kitapçı Zekeriya, Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler, Konya 1994

التركية الانتساب للمدينة الإسلامية إلا بإعتناقهم الإسلام الذي كان يمثل كل مظاهر هذه المدينة .

ب- حركة التبادل التجاري بين الترك والعرب . فكما كان الترك يحرصون خلال هذه المرحلة من تاريخهم على التردد على الثغور الإسلامية للحصول على الغلال الزراعية ، جذبت منتجات بلاد الترك بما تتميز به التجار العرب . فيذكر المقدسي أن التجار المسلمين كانوا يجلبون من بلاد الترك ثياب التركستان والجلود والقسي الجيدة ، ومن سمرقند الديباج ، ومن فرغانة الرقيق الترك وآلات السلاح والسيوف والنحاس . ومن المعروف أن قوافل التجار في تلك العصور كانت تحمل أيضاً الأفكار والأخبار والتيارات الفكرية والعقائدية والروحية مع البضائع . وهكذا ، فإن نشاط التجار المسلمين في تلك المناطق حمل بين ثناياه مبادئ الإسلام وأركانه .

ج- النشاط الدؤوب للجماعات الصوفية في الدعوة لنشر الدين الإسلامي بين الترك في المناطق المفتوحة ، حيث واكب هذا النشاط حركة الفتوح الإسلامية في بلاد ما وراء النهر . وتؤكد الوثائق أن المدارس المستقلة التي انتشرت في خراسان وبلاد ما وراء النهر خلال القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي قد لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام بين الأتراك في تلك المناطق . ويذكر القزويني أنه عندما دخل الإسلام بلاد ما وراء النهر حرص أهلها على بناء الرباطات وعمارة الطرق والأوقاف ، ولم تكن هناك قرية ولا مفازة إلا وفيها من الرباطات العدد الكثير .

د- مساهمة مسلمي خوارزم في تأسيس المستعمرات الإسلامية بالقرب من نهر سيحون ، ومد نشاطهم نحو الغرب والشمال الغربي ، حيث كان يقيم الخزر وبلغار الفولجا الذين كانوا أكثر اتصالاً بالمدينة الإسلامية . وتؤكد الدراسات الحديثة أن الشعوب التركية البعيدة عن حدود الدولة الإسلامية كانت أسبق إلى دخول الإسلام عن تلك التي تربطها بالدولة الإسلامية حدود مشتركة ، ذلك

بأن الإحتكاك الذي كان يحدث بين الجارين المتلاصقين جعل شعور العداء يغلب علي حسن التفاهم ، مما شكل حاجزاً أمام انتشار الدعوة الإسلامية ، في حين أن الشعوب والأمم التركية البعيدة كانت تصلها الدعوة الإسلامية عن طريق التجار والدعاة بأسلوب هادئ حسن^{١٣} .

النفوذ التركي في الدولة الإسلامية

لقد أتاح دخول الترك في الإسلام ، وتتابع هجراتهم من مناطق شتى في وسط آسيا كفرغانة وطاش وما وراء النهر إلى خراسان وإيران والعراق منذ أوائل القرن الثاني الهجري / النصف الثاني من القرن الثامن وخلال القرن التاسع الميلادي ، وانخراطهم في المجتمع المسلم ، أتاح لهم احتلال مواقع هامة في الدولة الإسلامية . فكان منهم الجنود الأشداء والحرس المخلص والقواد الأفذاذ ، وصار لهم تأثير عظيم في إدارة مختلف شئون الخلافة العباسية في بغداد ، وعهدت إليهم وظائف هامة كجباية الأموال والولاية والحجابة وأمارة الأمراء^{١٤} .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت على أكتاف العنصر الفارسي ، انحصرت أعداد الترك في حاضرة الدولة العباسية ، وذلك حتى أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . وفي عصر الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) تم تشكيل أول فرقة حرس خاص من الترك ، ألا أنه حدثت زيادة مفاجئة في أعداد هؤلاء الجنود

¹³ فيما يتعلق بانتشار الإسلام بين الترك في بلاد ما وراء النهر والأسباب التي ساعدت علي ذلك ،

وأعتناق العديد من ملوكهم الإسلام ، أنظر : Kitapçı Zekeriya, Türk Boyları Arasında İslam Hidâyet Fırtınası, Konya 2001; aynı mlf., Türkistan'da Müslüman olan İlk Türk Hükümdarları, İstanbul 1988; Sevc N., " Türklerin İslamiyete Gecisini Kolaylastıran Sebebler, TDA dergisi, İstanbul 1980.

¹⁴ حول فعاليات الترك السياسية في العصر العباسي انظر : Karapınar Mahmut,

Abbasîler Dönemi Türklerin Siyasî Faâliyetleri, Türkler, IV/352-363.

منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م) ، حيث وصلت أعدادهم إلى ما يقرب من أربعة آلاف جندي تحت قيادة قواد من الترك أيضاً . وكان الخليفة المعتصم قد أحس بخطورة العنصر الفارسي عليه بعد أن رأى تعصب الفرس لأخيه المأمون الذي كانت أمه فارسية ، ففكر في الإعتماد علي الترك ، وخاصة أن أمه كانت تركية ، فاستكثر المعتصم من خدم الترك حتي بلغ عددهم ثمانية عشر ألف مملوك تركي . ولما شكوا أهل بغداد إلى المعتصم عسف جنوده من الأتراك ، قام الخليفة بتشديد مدينة " سرمن - راي " أي سامراء ، حيث انتقل إليها ومعه رجاله من الترك (٢٢١هـ / ٨٣٦م) وجعلها مقراً جديداً لحكمه^{١٥} .

وهكذا ، أضاف دخول الترك إلى الديوان العباسي عنصراً جديداً للتراع العنصري الذي كان مشتتاً بين العرب والفرس ، حيث تمكن العنصر التركي من التفوق علي العنصرين الآخرين بمرور الوقت . ولم يقتصر استخدام العنصر التركي علي شئون الجندية والحراسة فقط ، بل أن المعتصم أعتمد عليهم في كثير من شئون الإدارة والحكم ، فضلاً عن إدراج أسمائهم في ديوان الجند .

وفي عهد الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) والخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م) ، بدأت سيطرة هؤلاء الترك علي مقاليد الحكم تزداد باطراد . ولما أحس المتوكل بازدياد نفوذ الترك في الدولة وتسببهم في كثرة الدسائس والمؤامرات ، نقل عاصمته إلى دمشق (٢٤٣هـ / ٨٥٠م) ، إلا أنه لم يطب له المقام فيها ، فعاد إلى سامراء . وإذا كان المتوكل قد حاول بعد عودته التخلص من زعماء

¹⁵ بخصوص اتخاذ الخلفاء العباسيين جند من الترك ، وزيادة نفوذ هؤلاء الجنود في بغداد ، أنظر :

Azımlı Mehmet, Abbasîler Döneminde Türklerden Oluşturulan Ordu, Hassa Ordusu, Türkler, IV/364-374.

الترك ، إلا أن مقتله زاد من نفوذهم ، وبدأ الصراع بينهم يشب على مختلف المناصب^{١٦}.

ومن ناحية أخرى ، تمكن قواد الترك هؤلاء من تأسيس عدة دول وامارات استقلت عن الخلافة العباسية في مصر والشام وبلاد ماوراء النهر وخرسان وإيران والهند والأناضول . فقد استطاعوا تأسيس الدولة الطولونية (٢٦١-٢٩٢هـ / ٨٧٥-٩٠٥م) ، ثم الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م) في مصر ، غير أن هاتين الدولتين لم يكتب لهما الإستمرار طويلاً نظراً لبعدهما عن مواطن الترك في وسط آسيا . أما أول دولة اسلامية تمكن الترك من تأسيسها بالمعنى الحقيقي ، فكانت تلك التي نجح القره خانيون في تأسيسها في بلاد ما. وراء النهر خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي.

وكان ضعف واضمحلال الدولة السامانية (٢٦١-٣٩٥هـ / ٨٧٤-١٠٠٤م) خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري قد مهد لظهور دولة لقبائل الإيغور في منطقة تركستان الشرقية عند سفوح جبال تيان شان . فقد استطاع زعيمهم إيليك خان توحيد قبائلهم ، ليأتي بعده ابنه ساتوق بغرا خان (وفاته : ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) ويدخل في دين الإسلام هو وأتباعه ممن كانوا علي البوذية والمسيحية وغيرها ، ويؤسس تلك الدولة التي أطلق عليها اسم " القره خانيون " . ويعتبر ساتوق بغرا خان هو أول من سن سنة اعتناق الإسلام جمعياً لدي الترك ، حيث انطلق مع أتباعه ليغزو المناطق المجاورة التي لم يدخلها الإسلام ، ثم راح يضم المناطق الغربية مما كان في حوزة السامانيين حتي استولي علي سمرقند نفسها . وعلى أثر موت أبو القاسم نوح بن منصور الساماني في عام ٣٨٧هـ / ٩٩٧م ، اضطربت الدولة السامانية ، الأمر الذي أتاح لإيليك خان التوغل مجدداً في بلاد ما وراء النهر ، حتي ضم أغلب أراضي السامانيين

¹⁶ حول نشاط الجماعات التركية التي وصلت إلى حاضرة الخلافة العباسية ، وسيطرتهم علي مقاليد

الحكم والسياسة في الدولة ، أنظر : Karapinar Mahmut, Abbasîler Dönemi Türklerin Siyasî Faâliyetleri, Türkler, IV/352-363.

(٣٩٥هـ/١٠٠٤م) ، فامتد ملكه من حدود الصين وحتى بحر الخزر . وقد استمر نفوذ دولة القره خانيين سائداً في بلاد ما وراء النهر ، حتى بدأ في الضعف منذ أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وأخيراً انهارت دولتهم في حوالي عام ٦١٣هـ/١٢١٦م^{١٧} .

تعتبر الدولة التي أقامها الغزنويون في غزنة وبلاد الهند نموذج واضح للدور السياسي والعسكري والحضاري الذي قام به الترك في العالم الإسلامي . فقد كان ظهور هذه الدولة إعلاناً عن تفوق العنصر التركي على العنصر الإيراني في ميدان الزعامة في هذا القسم من العالم الإسلامي . وكان الغزنويون يعملون في البداية كولاة للسامانيين في إقليم غزنة الذي ينتسبون إليه ، حيث استطاعوا أن يستقلوا بما تحت أيديهم ويخلفوا الدولة السامانية نفسها في مناطق شاسعة من أملاكها . وكان مؤسس هذه الدولة الذي يدعي سبكتكين قد أكتفى بفتح إقليم السند وبعض مناطق البنجاب ، إلا أن ابنه محمود استطاع التوغل في بلاد الهند فغزاها سبع عشرة غزوة على مدي سبعة وعشرين عاماً فيما بين عامي ٣٩٠-٤١٧هـ/١٠٠٠-١٠٢٦م ، فغزا لاهور والمثلثان كما دخل كشمير ، فكان أول من نشر الإسلام بها على نطاق واسع . فكانت حجرات أكبر المراكز التجارية الهندية ، وسومناث أقوى مراكز المقاومة والعدوان الهندوكي ، من أعظم فتوحات محمود الغزنوي في بلاد الهند . والحقيقة ، كان محمود الغزنوي من أعظم ملوك المسلمين قاطبة في عصره ، فقد امتد ملكه من بلاد الهند الشرقية حتى فارس وما وراء النهر^{١٨} .

^{١٧} بخصوص تأسيس القراخانيين أول دولة إسلامية تركية في بلاد ما وراء النهر ، أنظر : Genç Reşat, Karahanlılar Tarihi, Türkler, IV/445-459 Jorgen Paul, Karahanlılar, cev. Seyda Yilmaz, Turkler, IV/460-468.

^{١٨} فيما يتعلق بالغزنويين ودورهم في نشر الدين الإسلامي في بلاد الهند والسند ، أنظر : Mercil Erdogan, Gazneliler, Turkler, IV/479-508, Yakubavesky Ay, “Gazneli Mahmud, Gazne Devletinin Mensei ve Karakteri Meselesine dair”, cev. Ahmed Caferoglu, Ulku Mecmuasi (1939), c. XII, XIII, sayi 72, 73, 75, 76

وعقب وفاة محمود الغزنوي (٤٢١هـ / ١٠٣٠ م) خلفه ابنه مسعود الذي جانبته الصواب في سياسته العسكرية ولم يستطع ملء الفراغ الذي تركه أبيه ، حيث أخذ بناء الدولة العظيم ينهار على يديه ، ثم على أيدي خلفائه الضعاف من بعده . وكانت حروبه مع السلاجقة والقره خانيين الذين اقتسموا أملاكه في الشمال والغرب ، وانصرافه لحياة اللهو الترف ، من أهم أسباب انهيار دولته على يد الغوريين الأفغان عام ٥٨٢هـ / ١١٨٦ م ، حيث خلفهم في بلاد الهند الغوريون بعد أن استمر سلطانهم فيها أكثر من قرنين من الزمان^{١٩} .

وقبل ظهور دولة السلاجقة التركية في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، كانت الدولة الغزنوية قد ضعفت قبضتها على مناطق خراسان وما وراء النهر ، وشرعت الدولة البويهية الشيعية في لفظ انفاسها الأخيرة ، فضلاً عن زيادة نفوذ الترك وسيطرتهم على المناصب المدنية والعسكرية في مركز الخلافة العباسية في بغداد ، الأمر الذي مهد الطريق لقيام دولة تجمع المنطقة تحت زعامة سياسية ودينية واحدة تمثلت في دولة السلاجقة .

¹⁹ لتفصيلات أكثر حول الغزنويين وانجازاتهم في الدولة الإسلامية أنظر : Merçil Erdoğan ,

Gazneliler, Türkler, IV/479-508

الدولة السلجوقية

أسستها مجموعة من القبائل التركية التي تحمل اسم " الغز " أو " الأوغوز " ، هاجرت من أقصى بلاد الترك خلال القرنين الثالث والرابع الهجري تحت ظروف سياسية واقتصادية قاهرة ، حيث حاولت الاستقرار في اقليمي ما وراء النهر وخراسان²⁰.

وقد أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، حيث سكنت تلك القبائل الهضاب القريبة من بحير خوارزم ، وبالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوین (الخزر) ، وفي الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون . وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم " السلاجقة " نسبة إلى رئيسها سلجوق بن بقاق الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته ، ثم قادها إلى تلك المنازل في حوالي عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م²¹ . وكانت منازل السلاجقة في ذلك الوقت تجاور

²⁰ عاشت قبائل الأوغوز في المنطقة التي تمتد من نهر سيحون وتلك التي تقع بين بحر الخزر وبحيرة آرال. وكانت تجمعاتهم تتشكل من ٢٤ قبيلة انقسمت إلى فرعين أساسيين : أوج أوق وبوز أوق . ويتنسب السلاجقة إلى شعبة تعرف بـ " قينق " من فرع أوج أوق . وكانت شعبة قينق تلك تقيم بين قبائل الأوغوز عند منابع نهر سيحون : (Faruk Sümer, Oğuzlar (Türkman , Ankara 1972, s/ 12-13

²¹ تذكر المصادر أن عشائر الأوغوز كان يحكمها في أوائل القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري حاكم يدعي " يابغو " . وكان 'دقاق الملقب بـ تمير يالغ حد الأسرة السلجوقية صاحب مكانة قوية في دولة الأوغوز تلك . ولما توفي 'دقاق قام يابغو بتعيين ابنه سلجوق قائداً للجيش ، وسرعان ما اكتسب سلجوق نفوذاً كبيراً في الدولة ، الأمر الذي أخاف يابغو ، وأراد الفتك به . وهكذا ، جمع سلجوق قبيلته ومقربيه وغادر بهم متوجهاً إلى منطقة جند التي كانت تعد احدي مدن الثغور بين الدول التركية والدولة الإسلامية . وكان لرحيل سلجوق دور كبير في سقوط دولة يابغو الغزية علي يد القيچاق . ويرى بعض الباحثين أن الدافع وراء رحيل سلجوق كان ضيق الأرض في تلك المناطق وعدم كفاية المراعي اللازمة بها : Köymen M. A., Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri, I, Ankara: 1979. كذا أنظر :

ممتلكات السامانيين والقره خانيين والغزنويين ، فأدي جوار السلاجقة لهم إلى، اعتناقهم الإسلام وتعصبهم للمذهب السني الذي كان يرعاه الخليفة العباسي في بغداد^{٢٢}.

وعلى أثر تقرب سلجوق للسامانيين بتقديم مساعداته لهم ، أذنوا له بالاستقرار بالقبائل التي يقودها بالقرب من نهر سيحون ، حيث اتخذ مدينة " جند " قاعدة له . ومنذ أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي راح السلاجقة يستقرون في بلاد ما وراء النهر . فصارت منازل عشائر السلاجقة تقع بالقرب من بخاري في الشتاء وبالقرب من سمرقند في الصيف .

وخلال سنوات قليلة أعدّ السلاجقة جيشاً وافر العدد قوي العدد حتي صاروا قوة يخشي بأسها . وقد ساعدتهم اسلامهم وحرصهم على التمسك بأهداب الدين والتقرب لأئمتهم علي الظفر باحترام الناس والحكام . وقد أدى ذلك كله إلى خشية القره خانيين من طموحاتهم ، فحرصوا عليهم السلطان محمود الغزنوي الذي ارتبط معهم برباط المصاهرة بعد أن أكدوا له خطورة وجودهم في تلك المناطق (٤١٥هـ/١٠٢٤م). ولما كان السلاجقة يحاولون توسيع ممتلكاتهم في المناطق المجاورة لهم ، أحس محمود الغزنوي بخطورهم علي نفوذه في المنطقة ، فسعي للحد من نفوذهم .

وهكذا ، دعي محمود الغزنوي رئيس السلاجقة آنذاك إسرائيل ابن سلجوق للقاءه بالقرب من جيحون متظاهراً برغبته في كسب ودّهم ، حيث قام بالقبض عليه هو وزعماء السلاجقة ، وألقي به في أحد سجون الهند^{٢٣} .

Merçil Erdoğan , Selçuklu Devletleri Tarihi, Ankara 1995;

Köymen M A., Selçuklular Devri Türk Tarihi, Ankara 1982.

²² أنظر عبد النعيم حسانين ، سلاجقة ايران والعراق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص. ١٦ -

١٧ . لما كان الدين الإسلامي ينتشر بين التجمعات التركية المجاورة لجند ونواحها ، اعتنق سلجوق وعشيرته الدين الإسلامي ، حيث قام بمنع الضريبة السنوية التي كان يأخذها يابغو من المسلمين في

المنطقة : Kitapçı Zekeriya , Türkistan'da İslâmiyet ve Türkler,

Konya 1988; aynı mlf. , Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve

Türkler, Konya 1994.

العبور إلى خراسان : اختار السلاجقة لقيادتهم ميكائيل الذي فكر في

الانتقال بعشائرتهم إلى إقليم خراسان ، فأرسل إلى السلطان محمود الغزنوي يلتمس منه الإذن له ولقومه بالمرور عبر الأراضي التي تخضع لسلطانه والتوجه إلى إقليم خراسان ، والاقامة في المنطقة الواقعة بين مدينتي "نسا" و"باورد" ، فأذن له . والحقيقة أن انتقال السلاجقة إلى خراسان يُعد بداية لمرحلة جديدة من مراحل تشكيل دولتهم ، فأخذوا يدعمون قوتهم وينتشرون في النواحي المجاورة لهم . فلما أحس أهل "نسا" و"باورد" بخطرهم أرسلوا إلى محمود الغزنوي بالشكوي منهم (٤١٨هـ/١٠٢٧ م) ، فأمر وإلى طوس بإجلائهم ، غير أنهم انتصروا عليه انتصاراً ساحقاً .

توفي ميكائيل وله إبنان هما جفري بك وطرغل بك ، استطاعا جمع السلاجقة وتكوين جيش قوي . وقد انتهز الأخوان فرصة وفاة السلطان محمود الغزنوي (٤٢١هـ/١٠٣٠ م) ، حيث طلبا من والي نيسابور السماح لقومهما بالإقامة بالقرب منها ، فرفض الوالي واستعان بمسعود بن محمود الغزنوي ، فأسرع إلى نيسابور في عام ٤٢٦هـ/١٠٣٤ م لدفع هذا الخطر السلجوقي ، إلا أن السلاجقة استطاعوا الحاق الهزيمة به واجباره لعقد الصلح معهم . وبذلك ، دعم السلاجقة نفوذهم في خراسان ، ولم يبق أمامهم سوى إعلان دولتهم^{٢٤} .

حاول مسعود الغزنوي اجلاء السلاجقة عن خراسان ، فهاجمهم بالقرب من سرخس في شعبان ٤٢٩هـ/١٠٣٧ م ، حيث دارت معركة شرسة انتهت بانتصار السلاجقة أيضاً . وعقب هذا الانتصار أسرع طغرل بالتوجه إلى نيسابور والإستيلاء عليها ، وجلس على عرش مسعود فيها في ذي القعدة من نفس العام ، وأعلن قيام دولة السلاجقة . وأصبح طغرل أول سلطان للسلاجقة.

²³ عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٢١-٢٤ ؛ كذا انظر : Köymen M. A., Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri, I, Ankara 1979.

²⁴ عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٢٤-٢٥

لم يكد مسعود الغزنوي يعلم بذلك حتى عزم على التوجه بنفسه لتأديب السلاجقة ، حيث وقع آخر اشتباك بين الطرفين عند " دندانقان " عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م ، انتهى بهزيمة مسعود وتخليه عن إقليم خراسان تماماً للسلاجقة . وهكذا ، اجتمع حول الدولة السلجوقية الوليدة جند كثيرون من جميع أطراف خراسان حتى أنهم ظفروا باعتراف الخليفة العباسي عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠م^{٢٥} .

ترسيخ أركان الدولة السلجوقية في إيران والعراق : أخذ السلاجقة

في توطيد دعائم دولتهم في إيران والعراق ، حيث اجتمع طغرل بأخيه جغري بك وعمه موسى بيغو وغيرهم من رجالات السلاجقة ، واتفقوا علي تعيين طغرل قائداً عاماً للجيشهم ، وسلطاناً علي دولتهم ، وتعاهدوا أن يدينوا له بالولاء . فاستعان طغرل بأفراد أسرته ، وعين كل واحد منهم والياً علي ولاية وسيره إليها ، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة له . وولي وجهه شطر جرجان وطبرستان للقضاء علي حكم أنوشيروان الزيارى ، حيث أعلن الأخير خضوعه له وتعهد بطاعته وأداء ضريبة سنوية له ، ثم لم يلبث طغرل أن عزله ، وعين والياً من قبله عليها ، فكان هذا إيذاناً بسقوط الدولة الزيارية في إيران . توجه طغرل بعد ذلك لفتح خوارزم ، فتمكن من ضمها (٤٣٤هـ/١٠٤٢م) ، ثم رحل إلى الري ، حيث دخلها في نفس العام ، واتخذها عاصمة له ومقرراً لحكمه .

انتقل بعد ذلك طغرل بك إلى الأقاليم الغربية ، حيث أرسل فرقة من جنده لفتح كرمان ، ثم توجه عام ٤٤١هـ/١٠٤٩م إلى همدان مرة أخرى لتوطيد حكم السلاجقة هناك بعد أن أعلن أخيه إبراهيم إينال تمرداً فيها . وفي أوائل عام ٤٤٢هـ/١٠٥٠م خرج طغرل بك لفتح إصفهان والأجزاء الجنوبية من إيران ، فتم له ذلك بعد حصار طويل لها في محرم من عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م . وبعد أن أسقط دولة الديلمة في تلك المنطقة ، توجه لترسيخ حكم السلاجقة في إقليم أذربيجان عام

²⁵ عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٢٥-٢٧

٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، فدخل تبريز ، ومدّ نفوذه حتى شمل أجزاء من بلاد الروم^{٢٦} . وهكذا عاد طغرل إلى الرّي بعد أن بسط نفوذ السلاجقة علي كافة أنحاء إيران ، وأخذ يستعد لدخول بغداد^{٢٧} .

ومن ناحية أخرى ، كانت الخلافة العباسية في بغداد تمر بظروف مضطربة جعلت طغرل يفكر جدياً في الإستجابة لدعوة الخليفة العباسي القائم بأمر الله له لزيارة بغداد . غير أن ما شجع طغرل لآخذ هذه الخطوة أسباب ، أهمها : سيطرة البويهيين ، ونفوذ الأتراك ، وضعف الخليفة العباسي . فكان قائد الجنود الترك في بغداد شيعياً يميل إلى الفاطميين ويحاول بسط نفوذهم علي بغداد إذا واثته الفرصة وإسقاط الخلافة العباسية السنية . وكان اسم الملك الرحيم أبي نصر البويهّي يذكر في الخطبة، ولكنه كان ضعيفاً أمام قائد الجند التركي ولم يكن علي وفاق معه. أما الخليفة العباسي فلم يستطع الصمود

²⁶ كان البيزنطيون علي رأس أعداء الدولة الإسلامية آنذاك ، وكانت دولتهم قد دخلت مرحلة من الصحوة خلال القرن العاشر الميلادي ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية تتعرض للتفكك والتمزق . ففي عام ٩٢٧م استولي الروم علي أرض روم ، وأحبروا حكام ملطية ودياربكر علي دفع أتاوة سنوية . وفي عام ٩٤٨م ، استولوا علي مرعش ، وبعد عشرة أعوام سيطروا علي طرسوس ودياربكر ، وفي عام ٩٦٤م استردوا قبرس من المسلمين وسيطروا علي حماة وحمص واللازقية . وبذلك ، تبدل الموقف بين المسلمين والروم خلال القرن العاشر الميلادي ، فتحول المسلمون من الهجوم إلي الدفاع. إلا أن ظهور السلاجقة خلال القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري أدى إلي تحول حديد في ميزان القوى مرة أخرى ، حيث كشفوا عن حماسهم تلاء غزو الأجزاء الشرقية من الدولة الرومانية عام ١٠٤٨م/٤٤٠هـ حتي بلغوا طرابزون . وعلي الرغم من الصلح الذي عقده طغرل بك مع إمبراطور بيزنطة ، إلا أن الاشتباكات لم تتوقف بين الطرفين علي طول الحدود مع الدولة الإسلامية : Köymen M A., Selçuklular Devri Türk

Tarihi, Ankara 1982

²⁷ عبد النعيم حسانين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص. ٢٧-٣٧

أمام هذه القوي ، وكان ينتظر مجيئ السلطان السلجوقي السني طغرل لإنقاذه من تبعية ونفوذ القوي الشيعية المسيطرة علي مركز الخلافة العباسية^{٢٨} .

إنفراد السلاجقة بالنفوذ في بغداد : سار طغرل في محرم من عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م إلى همدان ، ومنها توجه إلى العراق . ولما علم الملك الرحيم بمجيئه ، أتفق مع الخليفة العباسي علي التعاون مع طغرل ، فأمر الخليفة بذكر اسم طغرل في الخطبة بعد اسم الملك الرحيم . ودخل السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين بغداد دخول الظافرين ، وأعترف الخليفة به سلطاناً علي جميع المناطق الموجودة تحت يده . ولم يلبث أن أمر طغرل بالقبض علي الملك السرحيم وأرساله أسيراً إلى الريّ ، فأسقط الخليفة اسمه من الخطبة . وبذلك دالت دولة بني بويه الشيعية وزال نفوذها من بغداد ، حيث حلت محلها دولة السلاجقة السنية^{٢٩} .

²⁸ عبد النعيم حسنين ، المرجع السابق ، ص. ٣٨ وما بعدها . حول العلاقة بين السلاجقة في عهد

طغرل بك والعباسيين انظر : **Suleyman Genc, Tugrul Bey Zamanında Selcuklu-Abbasi İlişkileri, Turkler, VI/639-658**

²⁹ تفرق المصادر المعاصرة بين الأتراك الذين استحلوا إلى بغداد منذ عصر الخليفة المأمون وتزاوجوا علي أرضها ، وبين أتباع طغرل بك من الأتراك السلاجقة الذين غلبت عليهم روح الإنضباط وكانت لهم قيادة توجههم وتشرف عليهم . وترجع هذه المصادر سبب الاختلاف بين الفريقين إلى أن السلاجقة نزحوا إلى بلاد ما وراء النهر في وقت شهد استقرار الإسلام في تلك البلاد وتغلغله في قلوب أهلها . ولذلك جاء إسلام السلاجقة منذ البداية راسخاً يتسم بصديق الإيمان وسلامة النسبة . والحقيقة أن إقامة السلاجقة لفترة تربو عن نصف قرن من الزمان في بلاد ما وراء النهر قبل نزوحهم إلى الدولة الإسلامية جعلتهم يتشربون مبادئ الدين الإسلامي وروح هذا الدين ، فتأثروا بحضارته وتهدت طباعهم وفقاً لتعاليم الإسلام . ولذلك ، لم نشهد أي مظاهر للعنف أو سفك دماء وسلب أموال عندما دخل السلاجقة بغداد ، بل كانت حماسهم الشديدة للدفاع عن الإسلام والزود عن أرضه وأهله أمام أعداء الإسلام من أهم ما تميزوا به من سمات **Merçil Erdoğan** : : **Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş Devri, I, Ankara 1979,s. 83 vd.**

ومن ناحية أخرى ، كان قائد الجند التركي ويدعي البساسيري قد خرج عن طاعة الخليفة العباسي منذ ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، واتصل بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله . فلما سمع بزحف طغرل صوب مركز الخلافة العباسية في بغداد ، انسحب البساسيري منها وتوجه إلى الموصل ، حيث تمكن من احتلالها وقراءة الخطبة بإسم الفاطميين فيها . وهكذا ، اضطر طغرل إلى الخروج من بغداد لقمع هذه الفتنة في ذي القعدة من عام ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م . وبعد هزيمة البساسيري وفراره صوب الشام ، أتم طغرل السيطرة على الموصل والمناطق المجاورة لها ، وعين أخيه إبراهيم إينال عليها ، ثم قفل عاداً إلى بغداد .

لم يبق إبراهيم إينال علي عهده ، ورفع راية العصيان ضد أخيه طغرل تاركاً الموصل ومتوجهاً إلى همدان ، فاضطر طغرل للخروج خلفه ، حيث التقى به بالقرب من همدان وألحق به الهزيمة ، ثم قبض عليه وأمر بقتله في ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م . انتهز البساسيري هذه الفرصة ، وأعاد احتلال الموصل ، ودخل بغداد نفسها في ٨ ذي القعدة ٤٥٠هـ / أول يناير ١٠٥٩م ، وأمر بقراءة الخطبة في بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي . ثم توجه البساسيري إلى واسط استولي على البصرة . فلما علم طغرل بهذه التطورات ، ثارت حميته وعاد إلى بغداد ، فأسرع البساسيري بالفرار إلى الشام . أرسل طغرل جيشاً في أعقابه ، فالتقى به بالقرب من الكوفة ، حيث انتهت المواجهة بين الطرفين بمصرع البساسيري في أواسط ذي الحجة ٤٥١ / أواخر يناير ١٠٦٠م .

وهكذا ، بسط طغرل نفوذه علي العراق بعد هذه الانتصارات المتلاحقة كما بسطها علي إيران من قبل . إلا أن المنية لم تمهله لإقتطاف ثمار إنجازاته تلك ، حيث مرض ثم توفي في الثامن من رمضان من عام ٤٥٥ / التاسع من سبتمبر ١٠٦٣م . ويعتبر طغرل هو المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية ، فهو الذي رتب أمورها وبسط نفوذها

وأظهر قوتها ، ووضع أساساً متيناً لدولة السلاجقة الكبرى . فكان سلطاناً قوياً مظفراً ، مسلماً يحب أهل السنة ويميل إليهم³⁰ .

ازدهار الدولة السلجوقية : لم يكن لطرغل ولد يرث العرش من بعده ، فأصبحت ولاية العهد مثار تنافس بين أفراد البيت السلجوقي . وكان أخوه جغري قد توفي عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م تاركاً عدداً من الأبناء أكبرهم آلب أرسلان ، فخلف أبيه في حكم خراسان وما وراء النهر ، وكان يعاونه وزير قوي يدعي أبا علي حسن بن علي بن اسحق الطوسي ويلقب بنظام الملك . فلما توفي طغرل (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) ، رأى آلب أرسلان أنه أحق الناس بعرش السلاجقة ، فأعلن نفسه سلطاناً عليهم . إلا أنه واجه منافسة من بعض أفراد الأسرة السلجوقية ، فاستطاع تنحية أخيه الأصغر سليمان بمساعدة وزير طغرل أبو نصر الكندري ، وإلحاق الهزيمة بقتلمش بن إسرائيل بالقرب من الرّي عام ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، وبعمه بيغو بالقرب من هراة عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م . وهكذا انفرد آلب أرسلان بعرش السلاجقة بدون منازع³¹ .

تدارس آلب أرسلان وضع الدولة مع وزير نظام الملك ، حيث رسماً معاً سياسة السلاجقة في المرحلة المقبلة ، وحددا أهدافهم القريبة والبعيدة . واستقر رأي آلب أرسلان علي العمل علي تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة قبل التطلع لفتح أقاليم جديدة . فجعل أهدافه القريبة تدعيم نفوذه في إيران والعراق ، وأهدافه البعيدة فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته من ناحية ، واسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة من ناحية أخرى .

³⁰ بخصوص توطيد السلاجقة لنفوذهم في بغداد وقضائهم علي منافسيهم انظر : Genç Süleyman, Fatimi- Abbasi- Selçuklu Münasebetleri ve Besasırî İsyanı, S.95- 129.

³¹ عبد النعيم حساين ، المرجع السابق ، ص.٤٦-٥٤ Köymen M A., Alp Arslan ve Zamanı, Ankara 1972

أخذ ألب أرسلان يتفقد أجزاء دولته مترامية الأطراف ، فبدأ بالمناطق الجنوبية ، وتوجه من خراسان إلى اصفهان ، واستولى على شبانكاره في عام ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م ، وعلي فارس في عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م ، ثم توجه إلى كرمان ، وعاد إلى مرو بعد أن اطمأن لرسوخ حكم السلاجقة في إيران والعراق ، وزال ما كان يخشاه من قيام فتن وثورات داخلية هنا وهناك . وقبل أن يهتم بتحقيق أهدافه البعيدة ، أراد تأمين ظهره أولاً فارتبط برباط المصاهرة مع الغزنويين في غزنه والهند ومع القره خانيين في بلاد ما وراء النهر . وبذلك ، تفرغ السلاجقة لتحقيق أهدافهم الكبرى بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته . وكانت دولة الروم قد تجاوزت على مناطق متفرقة من الشرق الإسلامي في ظل ضعف الخلافة العباسية ، فأراد ألب أرسلان أن يضع حداً لهذه التجاوزات^{٣٢}.

معركة ملازكرد (٤٦٤هـ / ١٠٧١م) : تجاوز ألب أرسلان إقليم أذربيجان

وراح يغزو بلاد الروم المجاورة له حتى تمكن خلال فترة قصيرة من الاستيلاء على المناطق الواقعة بين بحيرتي وان وأورمية ووضع يده على قلاعها ، كما فتح جورجيا وبلاد الأرمن ، وأخذ ينشر الإسلام وحضارته في تلك المناطق^{٣٣} . أغضبت فتوحات ألب أرسلان إمبراطور الروم رومانوس ديوجينيس ، فصمم على القيام بحركة مضادة ، حيث سار علي رأس جيش كبير لغزو الشام ، وتمكن من التغلب على أمير حلب التابع للفاطميين . فلما علم ألب أرسلان بذلك ، أرسل جيشاً بقيادة ابنه ملكشاه نصم بلاد الشام وتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة. عندئذ أعلن والي حلب انضمامه

³² عبد النعيم حسانين ، المرجع السابق ، ص. ٥٣-٥٩ ، كذا أنظر : Köymen M A., Alp

Arslan ve Zamanı, Ankara 1972

³³ لقد أحدث اعتلاء ألب أرسلان السلطنة بعد طفرح بك تغييراً جوهرياً في سياسة السلاجقة ، حيث وضع السلطان الجديد سياسة أكثر صرامة تجاه الروم لوقف تجاوزاتهم علي الأقاليم الإسلامية ، وتنشيط حركة الفتوح الإسلامية في بلاد الروم . ففي عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م فتح ألب أرسلان عاصمتا أرمينية آني و قارص ، حيث أصبح الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للتوغل داخل الأناضول حتي وصلوا إلي فيضرية عام ٤٦١هـ / ١٠٦٧م : Köymen M A., Alp Arslan ve

Zamanı, s. 45-62

للسلاجقة قبل وصول ملكشاه إلى بلاده ، وأحل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي . وخلال هذه الحملة ، تمكن ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) . ونجح الجيش السلجوقي في تأمين الجيش الزاحف صوب بلاد الروم .

فلما علم إمبراطور الروم بذلك ، جمع جيشاً جراراً من مختلف الشعوب المسيحية ، وعسكر به في نواحي " ملازگرد " بالقرب من " أخلاط " . فأعلن ألـب أرسلان أن الإسلام في خطر وأنه لا سبيل لإنقاذه إلا بالقضاء على هذه العصابة الكافرة ، ودعاهم لبذل الروح في سبيل الله . وهكذا هجم جند السلاجقة على الجيش الروماني في معركة حامية الوطيس ، فأمعنوا في الروم أسراً وتقتيلاً حتى وقع رومانوس نفسه أسيراً في أيديهم وحاقت الهزيمة بجنده . لم يفرج عن إمبراطور الروم إلا بعد أن اقتدي بمبلغ كبير من المال ، وعقدت معاهدة بين الطرفين مدتها ٥٠ عاماً تعهد الروم فيها بدفع الجزية للسلاجقة ، وتنازل عن الأناضول نهائياً (٤٦٤هـ / ١٠٧١م)^{٣٤} .

لقد كانت موقعة ملازگرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ غربي آسيا بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر اجزاء الأناضول مما مهد للتقويض أركان الدولة نفسها على أيدي الأتراك العثمانيين فيما بعد . وكانت هذه الموقعة نتائج بعيدة الأثر ، أهمها :

١. إحياء حركة الفتوح الإسلامية في بلاد الروم من جديد ، وبدء مرحلة من الكرّ الإسلامي صوب الغرب ، واسترداد مكانة العالم الإسلامي التي كانت قد أهتزت كثيراً .

³⁴ أنظر ، عبد النعيم حسنين ، المرجع السابق ، ص. ٥٣-٥٨ ولفصليات أكثر حول معركة

ملازگرد أنظر : Sevim Ali, Malazgirt Meydan Savaşı, TTK., Ankara 1971.

٢. حلول الحضارة الإسلامية بعقائدها ونظامها وآدابها وجميع مظاهرها في الأناضول محل الحضارة اليونانية والآداب المسيحية التي كانت تسيطر على تلك المناطق .

٣. انتشار اللغة الفارسية لغة الجنود الفاتحين بين أهالي الأراضي المفتوحة في مختلف أنحاء الأناضول .

٤. انسحاق القبائل التركمانية في الأناضول وتشكيل إمارات تركمانية لأول مرة في القسم الشرقي من الأناضول^{٣٥} ، ثم دولة سلاجقة الروم ، ثم الإمارات التركمانية التي حلت محلها في وسط وغرب الأناضول . فكان لهذا النشاط السياسي في الأناضول دور عظيم في ترسيخ الحكم الإسلامي في تلك المناطق ثم في أوروبا الشرقية لأول مرة ، ومن ثم القضاء على الأمبراطورية البيزنطية وإعلان " القسطنطينية " حاضرة للدولة العثمانية .

لم يعيش ألب أرسلان حتى يجني ثمار نصره العظيم ويواصل فتوحاته ويحقق أهدافه البعيدة ، فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من موقعة ملازگرد علي يد أحد الثائرين ببلاد القره خانيين في ١٠ ربيع الأول ٤٦٥هـ / ٢٩ نوفمبر ١٠٧٢م ، بعد أن حكم تسعة أعوام ونصف العام تقريباً.

والحقيقة أن عصر ألب أرسلان جسّد عظمة الإسلام وقوة الدولة السلجوقية وسطوة الخلافة العباسية السنية ، حيث قام وزير ألب أرسلان نظام الملك بدور هام في انجاح أهداف السلطان وتوجيه سياسة الدولة . وقد ظهرت قوة هذا الوزير بوضوح عقب مصرع ألب أرسلان ، فساعد أبنه وخليفته ملكشاه حتي استطاع أن يلي العرش

³⁵ لقد كان انتصار ملازگرد ١٠٧١م ، نقطة تحول في التاريخ التركي ، حيث انفتحت أبواب

الأناضول أمام العشائر التركمانية ، وبدأت حركة الهجرة المتابعة إليها من خلال بوابة أزييجان:

Kafesoğlu İbrahim, Doğu Anadolu'ya İlk Selçuklu Akını, Köprülü Armağan, İstanbul 1951, s.55 vd.

ويوطد سلطنته ويوسع حدوده ويستكمل ما بدأه أبوه في تنفيذ الأهداف العليا الواردة
السلجوقية³⁶.

توطيد أركان الدولة في عهد ملكشاه :

حملته التي قام بها لتأديب القره خانيين ، فلما قتل والده ، رجع هو علي رأس الجيش إلي
خراسان وجلس علي عرش نيسابور وأسند الوزارة إلي نظام الملك ، وكتب إلي حكام
الأطراف بذلك حتي يطيعوا أمره ويخضعوا له كما كتب إلي الخليفة العباسي في بغداد
ليصدر التفويض له بالسلطنة ويأمر بأن يذكر اسمه في الخطبة . وهكذا استقام الأمر
لملكشاه فتوجه من نيسابور إلي الرّي ليكمل ما بدأه أبوه³⁷ .

سلاجقة كرمان :

لما علم قاورد نبأ وفاة شقيقه ألب أرسلان ، توجه إلي
الرّي وأعلن أنه أحق بالسلطنة من ابن أخيه ملكشاه ، إلا أن ملكشاه سبقه في الوصول
إليها ، حيث التقى به بالقرب من همدان وانتصر عليه وأمر بقتله ، وأقر كرمان بيد
أولاده فتوارثوا حكمها إلي عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، حيث سميت دولتهم في التاريخ
باسم "سلاجقة كرمان" .

سلاجقة الشام :

وأسند ملكشاه أمر بلاد الشام إلي أخيه تاج الدين تتش في
عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ، وسمح له بأن يفتح ما يستطيع فتحه . فتوجه تتش في عام
٤٧١هـ / ١٠٧٨م إلي حلب لإستعادتها ، إلا أن محاصرة الفاطميين لدمشق ، واستنجد
أميرها بتتش ، جعل تتش يرفع الحصار عن حلب ويتوجه إلي دمشق ، حيث انسحب
الجيش الفاطمي هناك ، ودخلها تتش دخول الفاتحين عام ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م ، واتخذها
مقرّاً لحكمه وأسس فيها دولة "سلاجقة الشام" .

³⁶ أنظر عبد النعيم حساين ، المرجع السابق ، ص. ٥٩-٦٠ وما بعدها .

³⁷ Kafesoğlu İbrahim, Sultan Melikşah Devrinde Büyük
Selçuklu İmparatorluğu, İstanbul 1953, s. 23-41

سلاجقة الأناضول : عمل ملكشاه علي توطيد نفوذ السلاجقة في الأناضول ،

فعين سليمان بن قتلмыш ابن إسرائيل والياً عليها ، فوضع يده علي ولايتي قونيسه وآق سراي . وقد تمكن سليمان من توطيد نفوذ السلاجقة في بلاد آسيا الصغري ، وحاول توسيعه بفتح أقاليم جديدة ، ففتح مدينة أنطاكية عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م وكانت تحت حكم قياصرة الروم . إلا أن فتحها أشعل الفتنة بين أفراد البيت السلجوقي ، حيث فكر سليمان في الاستيلاء علي حلب وضمها إلي منطقة نفوذ سلاجقة الروم بعد أن تم له فتح أنطاكية . فلما سار سليمان إليها وحاصرها ، استنجد حاكمها بتتش الذي اسرع لصد سليمان عن حلب ، حيث وقعت بين الطرفين معركة طاحنة بالقرب من المدينة ، انتهت بانتصار تتش وقتل سليمان في صفر من عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، فدخل تتش حلب وضمها لحوزته . توجه ملكشاه بنفسه إلي الشام للإطمئنان عن الأوضاع في تلك المنطقة ، فدخل حلب وطمأن أهلها ، حيث أقر حكم تتش علي بلاد الشام ، وحكم أبناء سليمان بن قتلмыш علي بلاد الروم .

لم يبق أمام ملكشاه إلا أن يخضع إقليم ما وراء النهر . وقد واثته الفرصة عام ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م ، عندما شكوا علماء ما وراء النهر من ظلم أميرها أحمد خان ، فغادر ملكشاه إصفهان يرافقه وزيره نظام الملك ، حيث أعد جيشاً كبيراً في خراسان عبر به نهر جيحون وفتح بخاري وسمرقند وهزم أحمد خان وقبض عليه . وهكذا ، بسط ملكشاه نفوذ السلاجقة علي هذا الإقليم ، ثم لم يلبث أن خضع له والي كاشغر ، فأمتد نفوذ السلاجقة شرقاً فشمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب ، وانضوت تحت لوائهم أقاليم ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغري والعراق والشام^{٣٨} .

³⁸ أنظر عبد النعيم حسنين ، المرجع السابق ، ص. ٦٣-٦٨ . ولتفصيلات أكثر حول تقسيم دولة

السلاجقة الكبار ، ونشأة دول سلاجقة كرمان والأناضول والشام والعراق أنظر : Merçil

Erdoğan, Selçuklu Devletleri Tarihi, Ankara 1995

ظهور ملامح الضعف في الدولة السلجوقية : لقد ظهرت علي مسرح

الأحداث في أواخر عهد ملكشاه بعض التحديات الداخلية التي كان لها الأثر العظيم في اهتزاز أركان الدولة السلجوقية بعنف . وقد تمثلت هذه التحديات الداخلية في :

أ- عودة نشاط الإسماعيلية من جديد .

ب- الصراع علي النفوذ المطلق في توجيه شئون الدولة بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك .

ج- الصراعات التي نشبت بين أفراد البيت السلجوقي علي الحكم في مختلف الولايات.

فقد عاود النفوذ الإسماعيلي للظهور في عصر ملكشاه علي يد أحد أنصار المذهب النزاري الإسماعيلي ويدعي حسن الصباح . أخذ حسن الصباح يجدد الدعوة للمذهب الإسماعيلي النزاري في إيران ، حيث التف حوله خلق كثير ، استطاع بهم الإستيلاء علي قلعة " أنوت " عام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، فاتخذ من هذه القلعة مقراً حصيناً لدعوته . ولما كثر مريدوه استطاعوا تكوين معقل حصينة يتحصنون بها في المناطق الجبلية من شمال إيران وشرقيها ، وفي المناطق الممتدة من حدود آذربيجان إلي كرمان . وكانت للإسماعيلية فرق تمتاز بالحماسة والاستعداد للتضحية ، فكثرت بينهم الفدائيون الذين أستعين بهم في نشر الدعوة لهذا المذهب واغتيال الأعداء من القواد والأمرأ والسلاطين الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريقهم ، مما أثار الاضطراب في جميع أنحاء الدولة السلجوقية . ولعل أبرز عمل ينسب إلي الإسماعيلية في عهد ملكشاه ، هو قتلهم لوزيره نظام الملك في العاشر من رمضان من عام ٤٨٥هـ / ١٩ أكتوبر ١٠٩٢م .

وعلي صعيد آخر ، كان الوزير نظام الملك قد تقدم به العمر ، فاستعان بأبنائه وأقاربه وأتباعه في إدارة أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف ، فسيطروا علي مرافق الدولة المختلفة وتصرفوا في الأمور وفقاً لإرادتهم واستغلوا مكانة نظام الملك لدي الدولة

ولدي السلطان السلجوقي أسوأ استغلال ، الأمر الذي جعل السلطان ملكشاه ينفر منه . والحقيقة أن دسائس منافسي نظام الملك في الدولة ، وتحريض ترکان خاتون زوجة السلطان التي كان نظام الملك يتصدي لمطالبتها بأن يكون إبناً محمود ولياً للعهد ، وشكوي والي مرو من أحد أحفاد نظام الملك ، قد ساعد علي تعميق الهوة بين ملكشاه ونظام الملك . غير أن السلطان حشي من انفراط عقد الدولة ، ومن انتشار الفوضى في أنحاءها إذا ما أقدم علي خلع نظام الملك من الوزارة . وبينما كانت مراسلات التهديد والوعيد بين الطرفين مستمرة قام أحد فدائي الإسماعيلية بقتل نظام الملك وهو في طريقه لبغداد بي رفقة السلطان ملكشاه .

وعقب مصرع نظام الملك ، توجه ملكشاه إلي بغداد ، حيث عين تاج الملك الشيرازي في الوزارة ، غير أن السلطان لم يلبث أن توفي بعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً (١٥ شوال ٤٨٥هـ / ٢٣ نوفمبر ١٠٩٢ م) ، فانفراط عقد السلاجقة ، وتمزقت وحدتهم ، وصدق قول نظام الملك في رده علي رسالة السلطان: " إن ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وإن اتفاقهما رباط كل رغبة ، وسبب كل غنيمة ، ومي اطبقت هذه زالت تلك .. " ٣٩ .

لقد كان قتل نظام الملك وموت ملكشاه في ظروف غامضة بعده بقليل ، واختفائهما من المسرح السياسي من أهم الأحداث التي وقعت في تاريخ الدولة السلجوقية . فقد انتهى بإخفاء السلطان ووزيره عهد القوة والإزدهار ، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام كثر فيه النزاع بين أفراد البيت السلجوقي ، فلم تعد الدولة تخضع فيه لسلطان واحد ، بل تنازعها أكثر من سلطان في نفس الوقت وتقاسمها أمراء

³⁹ أنظر عبد النعيم حسنين ، المرجع السابق ، ص. ٨٩-٧٧. وفيما يتعلق بأثر نظام الملك الخالد

"سياست نامه"، أنظر : Nizamü'l-mülk, Siyaset-nâme, hazırlayan

A.Köymen, Ankara 1990.

السلاجقة الذين لم يعد همهم سوي القضاء علي بعضهم البعض ، فأدت كثرة القتال بينهم إلي إسقاطهم جميعاً في النهاية⁴⁰ .

وإذا كانت دول السلاجقة في خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والشام راحت تتساقط واحدة تلو الأخرى خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، نتيجة لتناحر أفراد البيت السلجوقي ، وعدم قواهم علي مواجهة التحديات الخارجية، إلا أن سلاجقة الأناضول ، وعلي الرغم من ابتلائهم بنفس داء الصراع علي كرسي الحكم ، استطاعوا المحافظة علي وجودهم السياسي حتي أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي .

⁴⁰ بخصوص مرحلة الضعف والاضطراب في الدولة السلجوقية ، انظر : Özaydın A ,

Sultan Berkıaruk Devri Selçuklu Tarihi (1092- 1104) İstanbul
2001

دولة سلاجقة الأناضول

كان شهاب الدولة قوتلمش بن إسرائيل قد توجه أثناء حكم طغرل بك (٤٣١-٤٥٥هـ / ١٠٤٠-١٠٦٣م) إلى منطقة أذربيجان ، حيث جمع تحت لوائه القبائل التركمانية في المنطقة ، وقام بحملات متتالية على شرقي الأناضول . والحقيقة أن قتلش استطاع في وقت قصير اكتساب نفوذ كبير هناك ، وتشكيل قوة تمكنها أن يلعب دوراً هاماً في تلك المنطقة .

وعقب وفاة طغرل بك ، طمع قتلش في حكم الدولة السلجوقية في إيران والعراق ، مما أدى إلى نشوب حروب بينه وبين ألب أرسلان انتهت بقتله وأسر أبنائه في أوائل عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م . وتقول احدي الروايات التاريخية أن ألب أرسلان قد همّ بقتل أبناء قتلش ، إلا أن وزيره نظام الملك رأي أن يكفي بإبعادهم إلى مناطق الحدود البيزنطية غربي إيران ومساعدتهم على الإقامة في نواحي أورفة وبيره جك^{٤١} .

⁴¹ والحقيقة أن كيفية انتقال سليمان شاه وأخوته إلى الأناضول والتاريخ القطعي لتأسيس دولة سلاجقة الأناضول يحيطهما الغموض ، حيث بقيت هاتين القضيتين مثار نقاش بين الباحثين حتي اليوم. فهناك روايات كثيرة ومختلفة حول وصول السلاجقة إلى الأناضول واستقرارهم بها ، فتقول احدي هذه الروايات : أنه لما شارك سليمان شاه وأخيه الأكبر منصور في معركة ملازكرد وأبليا بلاءاً حسناً فيها ، خصص ألب أرسلان منطقة الأناضول ليحكمها سليمان شاه . أما الرواية الأخرى فتقول أنه لما توفي طغرل بك وتولي ألب أرسلان ، خرج قتلش على السلطان الجديد الذي أوقع به الخديعة وقتله (١٠٦٤م)، أراد السلطان قتل أبنائه أيضاً ، إلا أن وزيره ظام الملك أشار على السلطان بأن قتلهم سيكون بشير شوم على الدولة ، وأن ارسالهم للأناضول وانشغالهم بالفتح وجهاد سيصرفهم عن الخروج على الدولة ، فإن استشهدوا فسيكون شرف لهم وللسلاجقة ، وإن انتصروا فسيكونون سبياً في تحقيق فتوح جديدة للدولة : للاطلاع على تفصيلات أكثر انظر : Ibrahim Kafasoglu, " Anadolu Selcuklu Devleti Hangi Tarihte Kuruldu? ", TED.(sayi 10-11), Istanbul 1981,s. 25-64, ayn. Mlf., Doğu Anadolu'ya İlk Selçuklu Akını, Köprülü Armağanı, Istanbul 1951, s. 7 vd., Ali Sevim, Anadolu Fatih Kutulmuşoğlu Süleyman, Ankara 1990, s. 12vd.

ومهما يكن من أمر ، فقد أتاحت معركة ملازكرد (٤٦٤هـ / ١٠٧١م) لعشائر الأوغوز في الزحف صوب الأناضول والإنتشار في مختلف نواحيها ، حيث وجد سليمان وأخيه الأكبر منصور وأخويه الصغيرين إيلغ وديلاط الذين فرّوا أو رحّلوا إلى نواحي أورفه وبيره جك في أوائل عصر ملكشاه (٤٦٤-٤٨٧هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) وجد الفرصة أمامه سانحة للاتصال بالتجمعات التركمانية في تلك المناطق وقيادتها لفتح مختلف أنحاء الأناضول بتشجيع من السلطان ملكشاه وتحت رعايته (٤٦٦هـ / ١٠٧٣م)^{٤٢}.

تأسيس دولة صلاحية الروم (الأناضول) :

أعترف سليمان بن قتلمش بنفوذ صلاحية إيران والعراق في الأناضول ، وصار حاكماً لمناطق وسط وشمال الأناضول (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) . وهكذا ، عهد ملكشاه إليه بفتح المناطق الواقعة بين نهر قيزيل ايرماق والبحر الأسود وإسكان القبائل التركمانية في المناطق المفتوحة . استطاع سليمان فتح مدينة قونية ، حيث اتخذها أولاً مركزاً لحكمه . ولما تقدم في فتوحاته شمالاً وتمكن من فتح مدينة إزنيق (٤٧١هـ / ١٠٧٨م) ،

⁴² لقد ظهرت علي مسرح الأحداث في شرقي الأناضول خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي ١١٤٠د كبير من الإمارات التي أسسها قواد عديدون من السلاجقة علاوة علي أبناء قتلمش . فقد ظهرت إمارة أبناء صالتوق في أرضروم وحواليها ، وأبناء منكوجك في أرزنجان وكماه ، وآل دانشمند في وادي يشيل إرماق ، وآل سوكمن في حوض بحيرة وان ، وأبناء إينال في منطقة ديار بكر ، وأيضاً أبناء ديلماج ، وآل أرتوق في مردين وشن كفا ، وأبناء جوبوق في منطقة الازيغ ومن بعدهم أبناء أرتوق في خربوط ، حيث راحت هذه الأسرات تحكم مناطق شرقي الأناضول علي مدي قرنين من الزمان تقريباً : أنظر ، Osman Turan, Doğu Anadolu'da Türk Devletleri Tarihi, Istanbul 1993,s.5-6, keza bk. Cahen Claude, Osmanlılardan önce Anadolu, cev. Erol Üyepazari, Istanbul 2000, Sefer Solmaz, Danışmandlar, Türkler, VI/430-451, Ali Ongül, Mengücekler, Türkler, VI/452-460, Ali Ongül, Saltuklular, Türkler, VI/461-470, Aydın Usta, Artuklular, Türkler, VI./471-483, Recep Yasa, Ahlatşahlar, VI./484-490.

نقل إليها مقر إدارته في الأناضول . وقد امتدت فتوحاته حتى وصلت إلى بحر مرمرة وسواحل بحر إيجه ، وأصبحت القسطنطينية على مرمى بصره . وهكذا ، بدأ سليمان في إرساء قواعد حكمه في طول البلاد وعرضها ، فولي الولاة وعين القضاة ، ورفرت راية السلاجقة علي معظم أنحاء الأناضول^{٤٣} .

وإذا كان سليمان بن قتلмыш قد أجبر امبراطور بيزنطة الكسي كومنين على توقيع معاهدة سلام بين الطرفين ألزم فيها الأول بحماية الثاني ضد منافسيه علي العرش ودفع فيها الثاني للأول خراجاً سنوياً ، فقد تمكن أيضاً من الاستفادة من التراع الذي شب بين حاكم انطاكية وابنه الذي وعد بتسليم سليمان المدينة شريطة تأييده ضد أبيه . والحقيقة أن تسلم سليمان بن قتلмыш لمدينة انطاكية بالفعل عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م ، جعله يطمع في حكم حلب فهاجمها . وبذلك ، هرع حاكم دمشق السلجوقي تاج الدين تش لنجدة والي حلب ، حيث وقعت معركة شرسة بين الطرفين بالقرب من حلب انتهت بمقتل سليمان في نفس العام^{٤٤} .

والحقيقة أن فتوحات سليمان بن قتلмыш في الأناضول ، وسرعة بسط نفوذه علي أنحائها يعود إلى عدد من الأسباب ، أهمها :

١ . انتشار روح الجهاد بين القبائل المهاجرة إلى الأناضول ، والرغبة في مد الفتوح الإسلامية إلى عمق الأراضي البيزنطية .

٢ . تشجيع ألب أرسلان لسليمان ، وحث سليمان لأمرائه في الأناضول علي توطيد مقام القبائل التركمانية في المناطق المفتوحة .

^{٤٣} عبد النعيم حسنين ، المرجع السابق ، ص . ، كذا لتفصيلات أكثر راجع : Ali Sevim,

Anadolu Fatihı Kutulmuşoğlu Süleyman, Ankara 1990, s.76vd., Osman Çetin, "İskanlarla Anadolu'nun Türk Vatanı Haline Gelmesi", Türkler, VI/260-268, Şeker Mehmet, Anadolu'nun Türk Vatanı Haline Gelmesi, Türkler, VI/269-282.

^{٤٤} أنظر في هذا الخصوص: Ali Sevim, Anadolu Fatihı Kutulmuşoğlu

Süleyman, S. 149vd.

٣. إتباع ألب أرسلان سياسة حكيمة تقوم علي مبادئ الدين الإسلامي السمحة إزاء الأهالي الروم ، وذلك بتوفير الأمن لأرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، والاكتفاء بأخذ الجزية ممن لم يدخل في الإسلام ، وتمكينهم في أراضيهم بعد أداء الخراج عنها وفقاً لقواعد الإسلام السمحة .

٤. الاستفادة من نشوب الخلافات بين المتنافسين علي العرش البيزنطي .

٥. ضعف الدفاعات البيزنطية علي طول الحدود في الأناضول^{٤٥} .

وعقب موت سليمان بن قتلмыш ، لم يشأ السلطان السلجوقي ملكشاه تعيين قليج أرسلان بن سليمان محل أبيه المتوفي ، بل استدعاه إلي إيران ، حيث أمر بسجنه هناك . وكان سليمان بن قتلмыш قد وكل أميراً يدعي أبا القاسم لإدارة شئون البلاد إثر توجهه إلي أنطاكية وحلب . فلما وصلت الأنباء بمقتل سليمان وأسر ابنه قليج أرسلان ، جمع أبو القاسم شتات الولاة تحت حكمه ، واستولي علي بعض الجزر في بحر ايجه مما أشعر الروم بأن دولة السلاجقة لازالت قوية رغم تفككها ، فسعي الروم للاتفاق مع أبي القاسم . ثم إن أبا القاسم أراد أن ينال رضا السلطان ملكشاه ، فولي أخاه أبا الغازي حاكماً علي " أرنيق " ، ثم توفي (٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م) .

سلاجقة الأناضول في عهد قليج أرسلان : والحقيقة أن نجم سلاجقة الروم

قد لمع مرة أخرى بعد وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه (رمضان ٤٨٥هـ / أكتوبر ١٠٩٢ م) ، فما أن توفي بركياروك^{٤٦} العرش حتى أطلق سراح قليج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш ، وولاه علي الأراضي التي كانت تحت حكم أبيه ، فتوجه قليج أرسلان إلي

⁴⁵ فيما يتعلق بتترك وأسلمة الأناضول ، انظر : Mustafa Kafalı, " Anadolu'nun

Fethi ve Türkleşmesi", Türkler, VI/177-194

⁴⁶ بخصوص تفاصيل أكثر حول عصر السلطان السلجوقي بركياروك ، أنظر : A. Özaydın,

Sultan Bdrkyaruk Devri Selçuklu Tarihi (1092-1104), İstanbul 2001

أزنيق ، وأنتزعتها من أبي الغازي ، حيث جعلها عاصمة للملكه ؛ وحارب الولاة والأمراء الخارجين علي إدارته ، واستطاع إعادة الدولة إلي تماسكها وقوتها مرة أخرى .

حاول قليج أرسلان إنجاز ما عجز عنه أبوه سليمان ، وسعي بناء أسطول فوي يمكنه به فتح القسطنطينية . وبالفعل شرع في بناء الأسطول في ميناء " جناق قلعه " . وبالرغم من سرية هذا المشروع ، أحاطت بيزنطة به علماً ، وأدركت الخطر الذي يحيط بها . وهكذا ، استنجد إمبراطور الروم الكسيوس كومنينوس بابا روما أربانوس الثاني في عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م . فهب بابا روما لمساعدته سعياً لإرجاع الكنيسة اليونانية إلي نفوذ روما ثانية ، والاستيلاء علي بيت المقدس ، وألقى خطبة في " كليرمونت " بفرنسا استحث فيها مسيحيي أوروبا علي سلوك الطريق إلي كنيسة القيامة ، وانتزاعها من أيدي المسلمين . وقد استجاب لدعوة البابا نحو مئة وخمسين ألف رجل أكثرهم من الفرنسيين وضعوا جميعاً الصليب علامة علي صدورهم ، وبذلك بدأت الحملة الصليبية الأولى التي سلكت طريقها عبر الأناضول^{٤٧} .

استطاع قليج أرسلان التربص بالفرق الاستطلاعية الأولى لجيوش الصليبيين في مسالك الأناضول ، حيث ألحق بها ضربات موجعة عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م . ولما علم بأن هذه الفرق سوف يتبعها جيش كبير لا قبل له به ، أرسل لطلب النجدة من مركز الدولة السلجوقية في إيران . غير أن رجال البيت السلجوقي كانوا منشغلين بصراعهم الداخلية علي العرش ، فلم يلب أحد طلبه . وهكذا ، استولت الجيوش الصليبية علي أزمير ، ثم التقت بقليج أرسلان عند أسكي شهر . غير أن قليج أرسلان فضل الانسحاب بقواته ، حيث بدأ في شن حرب عصابات ضد الجيوش الصليبية المتتالية العابرة للأناضول . وقد استفاد الإمبراطور البيزنطي من عبور الصليبيين للأناضول وسيطرتهم علي بعض المراكز فيها ، حيث تمكن من استعادة أزنيق وبعض الجزر القريبة

⁴⁷ بخصوص العلاقات السلجوقية - البيزنطية ، أنظر : Ayönü Yusuf, Selçuklu-

Bizans İlişkileri , Türkler, VI/598-617, Işın Demirkent, Haçlı Seferleri ve Türkler, Türkler, VI./651-668

من سواحل مرمرية وإيجة . وإذا كان قليج أرسلان قد تعاون لفترة مع الدانشمنديين⁴⁸ وألحق خسائر كبيرة في صفوف الصليبيين ، إلا أنه سرعان ما اختلف معهم ، وضم بعض ممتلكاتهم في انقره وقيصرية ، ثم توجه غرباً ، حيث استرد المناطق التي كان البيزنطيون قد استولوا عليها . وبذلك أعاد قليج أرسلان مرة أخرى بسط نفوذه على الأراضي التي كانت تحت يده من الأناضول⁴⁹ .

وبعد وفاة السلطان بركياروك (٤٩٨هـ / ١١٠٤م) ، لم يعترف قليج أرسلان بوصاية دولة السلاجقة الكبار ، فأعلن استقلاله التام عنها ، وسعى للاستيلاء على عرش إيران ، مما أدى لدخوله في مواجهات ضد إمارات خربوط والموصل ودياربكر ، حيث هزم في آخرها ، ومات غريقاً عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م⁵⁰ .

وقد انقسمت دولة سلاجقة الأناضول في عهد مسعود بن قليج أرسلان (وفاته: ٥٥١هـ / ١١٥٦م) إلى أقسام ثلاثة : فأصبحت العاصمة قونية وأقسري ونيكده تحت حكم ابنه قليج أرسلان الثاني ، وأنقره ونواحي جانقري تحت سيطرة ابنه الثاني شاهنشاه ؛ أما سيواس وأماسيا ونيكحصار ونواحيها ، فكانت تحت يد روج ابنه نظام الدين ياغيصان الذي كان يعترف بحكمه . إلا أن قليج أرسلان الثاني استطاع السيطرة على البلاد جميعها والقبض على إدارة الدولة بعد وفاة ياغي بصان

⁴⁸ بخصوص العلاقات السلجوقية الدانشمندية والتعاون فيما بينهم لصد الحملات الصليبية على التي

عبرت الأناضول : Muharrem Kesik, Türkiye Selçukluları ile

Danışmendîler Arasındaki İlişkiler, Türkler, VI/537-546.

⁴⁹ فيما يتعلق بالمواجهات التي تمت بين سلاجقة الأناضول وجيوش الحملات الصليبية الأولى ، أنظر :

Işın Demirkent, Haçlı Seferleri ve Türkler, Türkler, VI/651-668; ayn. Mîf., Türkiye Selçuklu Hükümdarı Sultan I. Kılıç Arslan, Ankara 1996, s. 78-92; Ayönü Yusuf, Selçuklu- Bizans İlişkileri , Türkler, VI/598-617

Işın Demirkent, Türkiye Selçuklu Hükümdarı Sultan I. Kılıç ⁵⁰ Arslan, s. 231.

عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ، وإلحاق الهزيمة بأخيه شاهنشاه وبالجيش البيزنطي الذي حالفه في معركة عرفت باسم "ميرياكفالون" في نواحي جيوريل (٥٧٢هـ / ١١٧٦م) ^{٥١} .

ومرة أخرى أرتكب قليج أرسلان الثاني خطأ جسيماً في نهاية فترة حكمه ، حيث عين ابنه غياث الدين كيخسرو حاكماً على قونية ، ثم قسم بلاده على بقية أبنائه . وبذلك نشب صراع دموي بين الأخوة في حياة أبيهم الذي توفي على أثره عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢م . استطاع ركن الدين سليمان التغلب على أخوته عام ٥٩٢هـ / ١١٩٦م ، فوحد إدارة الدولة تحت قيادته ، وقام بتوسيع حدوده بانتزاع أضرروم من أسرة سلتوق عام ٥٩٨هـ / ١٢٠١م ، ودخلت ديوركي وأمراء منكوجك تحت نفوذه ، ودفع ملك الأرمن له الجزية . إلا أنه قبيل وفاة سليمان عام (٦٠١هـ / ١٢٠٤م) قام اللاتين باحتلال استانبول ، حيث اضطر الروم للفرار منها وتأسيس مركزين للإمبراطورية في إزنيق وطرابزون . وعلى الرغم من الصراعات التي شبت بين أبناء سليمان ، فقد استطاع غياث الدين كيخسرو فتح انطاليا على البحر المتوسط (٦٠٣هـ / ١٢٠٦م) ، وتمكن عز الدين كيكافوس من فتح مدينة سينوب على البحر الأسود (٦١١هـ / ١٢١٤م) ^{٥٢} .

دولة سلاجقة الروم تحت التبعية المغولية : وخلال عصر علاء الدين

قيقباد (٦١٦-٦٣٤هـ / ١٢١٩-١٢٣٧م) الذي يعتبر عصر ازدهار سياسي واقتصادي وعمراني لدولة سلاجقة الأناضول ، سقطت مملكة خوارزم الكبرى ^{٥٣} في يد المغول الذين زحفوا صوب الغرب ، حيث أجبروا السلطان الخوارمي جلال الدين

⁵¹ لتفصيلات أكثر حول عصر مسعود بن قليج أرسلان انظر : Muharrem Kesik,

Türkiye Selçuklu Devleti Tarihi, Sultan I. Mesud Donemi (1116-1155), Ankara 2002

⁵² حول هذه الوقائع انظر : Mercil Erdogan, Türkiye Selçukluları,

Türkler, VI/503-538

⁵³ فيما يتعلق بدولة خوارزمشاه ودورها في شرقي الأناضول انظر : Hasan Gayikoglu,

Harizmsahlar ve Dogu Anadolu, Türkler, IV/917- 931

منكوبرتي علي الانسحاب إلى آزر بيجان عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ، ودفعوا العديد من القبائل التركمانية للهجرة إلى الأناضول . ففي الوقت الذي كان فيه علاء الدين قيقباد قد استطاع أن ييسط سيطرته علي كافة سواحل البحر المتوسط والإستيلاء علي أرزنجان وكماه وشرقي قره حصار في شرقي الأناضول ، كان الزحف المغولي صوب الغرب قد دفع جلال الدين خوارزمشاه لطلب المساعدة من السلاجقة والأيوبيين والخليفة العباسي (٦٢٧هـ / ١٢٣٠م) . إلا أن وفاة جلال الدين في العام التالي واحتلال المغول لبلاده ، جعل أمراء خوارزم يلتحنون للسلطان السلجوقي الذي سمح لهم بالاستقرار في شرقي الأناضول . ولما قامت القوات المغولية بالإغارة على المنطقة الواقعة بين أرضروم وسيواس الخاضعة للسلاجقة ، وشهد علاء الدين قيقباد قوة بأسهم ، أراد تفادي عواقب نزاهم بطلب عقد اتفاق معهم . إلا أن طلبه قوبل بالرفض ، حيث رضخ أخيراً لطلبهم بالاعتراف بتبعيته لهم قبيل وفاته عام (٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) .

موقعة كوسه حاج (٦٤١هـ / ١٢٤٣هـ) : وعلي الرغم من ظهور الخطر

المغولي في المنطقة ، إلا أن حكام السلاجقة والأيوبيين والأرتوقيين لم يتخذوا أية تدابير لمواجهة هذا الخطر الداهم ، واستمروا في خلافاتهم الداخلية التي لم تتوقف حتى وصلت الجيوش المغولية إلى أبواب الأناضول ، وراحت تقضي علي الأخضر واليابس في المنطقة . وهكذا ، استولت الجيوش المغولية التي كانت تحت قيادة بايجو نوين علي أرضروم بعد حصار قصير لقلعتها ، حيث قتل ذكورها وسبي نساءها وخربت دورها . ولما وصلت هذه الأنباء إلى غياث الدين كيخسرو الثاني ، خرج علي رأس جيش يبلغ ٣٠ ألفاً من الفرسان ، وتوجه بهم إلى سيواس ، حيث وقعت المواجهة بين الطرفين في نواحي كوسه داغ شمالي سيواس في ١١ محرم ٦٤١ / ١ يولية ١٢٤٢ .

انتهت المعركة بهزيمة الجيش السلجوقي وفرار غياث الدين ، حيث قام حاكم مدينة سيواس بتسليم المدينة للمغول . وبعد أن قام بايجو بالاستيلاء علي قيصري والتحاء غياث الدين إلى حدود إمبراطورية الروم بإزنيق ، قام الوزير السلجوقي مهذب الدين

بعقد اتفاقية تبعية مع بايجو تقضي بدفع ضريبة سنوية للمغول ، حيث عاد الجيش المغولي علي أثرها لمعسكرهم بأذربيجان .

لم يوقف استيلاء المغول علي الأناضول الصراع الدائم بين رجالات البيت السلجوقي في الأناضول علي السلطة ، حيث قسمت البلاد بين ركن الدين قليج أرسلان الرابع وعز الدين كيكاوس الثاني في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي . وفي ظل هذا التقسيم وذلك الصراع ، أخذ النفوذ المغولي يزداد تدريجياً ، كما مكن بعض الأمراء التركمان وحتى إمبراطور بيزنطة من التدخل في شئون سلاجقة الأناضول .

وهكذا ، ضعفت مكانة حكام السلاجقة في ظل سيطرة المغول المظنفة نسبي إدارة البلاد ، حتى أصبح للإيلخان ولاية في الأناضول ، وعجز الأهالي عن أداء الضرائب المتزايدة للمغول ، ولم يعد أمراء الحدود يعترفون بأية تبعية للسلطان السلجوقي ، حيث راحوا يتصرفون باستقلالية تامة ، وذلك في الوقت الذي كانوا يدفعون فيه للخزينة الإيلخانية مقداراً سنوياً من المال والهدايا تجنباً لتدخلاتهم . ومن ناحية أخرى ، سلب المغول من الحاكم السلجوقي أيضاً حق تعيين الوزير السلجوقي ، بل أصبح أصحاب الكلمة في الدولة هم الأشخاص المعتمدين من قبل الحاكم الإيلخاني . وفي أواخر القرن ٧هـ / ١٣م وعلي أثر هزيمة غياث الدين مسعود أمام الحاكم المغولي بالتو ، حبس غياث الدين في قلعة همدان ، ولم يعين علي البلاد أحد من أسرة آل سلجوق ، وقسمت الولايات السلجوقية إلي أربعة أقسام قام المغول بإدارتها إدارة مباشرة تحت إشراف مجير الدين أمير شاه (٦٩٥هـ / ١٢٩٦م) .

لم تستقر أوضاع الأناضول في ظل الحكم المغولي المباشر ، حيث اضطر غازان محمود خان لإعادة السلطنة للعائلة السلجوقية ثانية . وبذلك ، عين علاء الدين قيقباد حفيد عز الدين كيكاوس الثاني حاكماً سلجوقياً في نهاية عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٦م ، إلا أن هذا التعيين لم يحل دون اشتعال الفلاقل بين المغول والسلاجقة ، حيث عزل علاء الدين قيقباد الثالث علي الرغم من زواجه من ابنة شقيق غازان خان ، وأعيد غياث الدين مسعود سلطاناً اسماً للسلاجقة عام ٧٠١هـ / ١٣٠٢م . وقد قضى آخر

السلطين السلاجقة بقية حياته في قيصري ، حيث توفي مشلولاً في عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨ م ، ولم يعين المغول بدلاً منه حاكماً من الأسرة السلجوقية ، بل وجهت الإدارة العامة في الأناضول لأحد الأمراء المغول^{٥٤} .

وكانت الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية قد ضعفت دفاعاتها عقب انتقال مركز الإمبراطورية من إزنيق إلى استانبول التي استطاع ميخائيل باليولوج استعادتها عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١ م ، حيث بدأ أمراء الحدود (اوج أميرلري) التابعين لدولة سلاجقة الأناضول يتوسعون تدريجياً صوب الغرب علي حساب الأراضي البيزنطية . وقد ساعد هؤلاء الأمراء علي التوسع علي طول الحدود البيزنطية العوامل التالية :

- أ- تصرف قواد القلاع التابعين للإمبراطورية البيزنطية باستقلالية .
- ب- تأثير حالة النفور العامة تجاه ميخائيل باليولوج الذي اغتصب السلطة في استانبول .
- ج- تعرض المدن الموجودة بمنطقة تراقيا والتابعة لبيزنطة لاحتلال البلغار والصرب .
- د- سيطرة البنادقة والجنويون علي إدارة أهم موانئهم التجارية في المسورة وجزرهم في بحر ايجه وبعض موانئهم في البحر الأسود .
- هـ- عدم وجود جيش أو اسطول منتظم للإمبراطورية لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية .

وهكذا ، مهد ضعف نفوذ الإمبراطورية البيزنطية علي ممتلكاتها سواء في الأناضول أو في البلقان ، والضغط المغولي علي شرق ووسط الأناضول ، وتفكك دولة سلاجقة الأناضول وصراع رجالها علي السلطة ، مهد لظهور تشكيلات سياسية مستقلة في القسم الغربي للأناضول خلال النصف الثاني من القرن ٧هـ / ١٣ م .

إمارات الأناضول المستقلة

في مطلع القرن ٧ هـ - ١٣ م

كان الصراع المستمر مع البيزنطيين قد جعل الأمويين ثم من بعدهم العباسيين يقيمون تشكيلات عسكرية خاصة علي الحدود الغربية للدولة الإسلامية ، حيث حرص سلاجقة الأناضول فيما بعد علي اقامة تشكيلات مماثلة فيما يعرف باسم " الأوج " علي طول الحدود الغربية للدولة . وكان دور هذه التشكيلات ينحصر في صدّ غارات العدو والاغارة علي أراضيه كلما سنحت الفرصة . وقد اعتمدت هذه التشكيلات علي عشائر التركمان . وكانت أكبر هذه الحاميات أهمية في غرب الأناضول تلك الموجودة علي حدود الإمبراطورية البيزنطية في " نيقية " (إزنيق) .

وهكذا ، كانت دولة سلاجقة الأناضول تقوم بتعيين بعض القوات للدفاع عن الثغور البرية والبحرية ، حيث اكتسبت القوات العرفية للثغور البرية علي الحدود الغربية للدولة أهمية عظيمة حتي استعان بها السلاطين لتقوية جيوشهم . ومن ناحية أخرى فقد جرت العادة علي أن تضفي الحكومة السلجوقية علي أي رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمره ويلتحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب " أوج بكي " أي حاكم الحدود ، حيث كانت تجعله تحت إمرة رئيس يطلق عليه اسم " أوج أمير " أمير الحدود . وكان هؤلاء الحكام يؤدون للدولة ضرائب نقدية وعينية . وعلي الرغم من ذلك ، لم يكن للحكومة السلجوقية سلطان فعلي عليهم ، حيث كانوا يقومون بالإغارة علي الأراضي البيزنطية لحسابهم الخاص ، فيسببون للدولة كثيراً من المشكلات السياسية الخارجية ، وربما حرقها إلي حروب مع البيزنطيين . وكان هؤلاء الأمراء لا يتخرجون من شق عصا الطاعة كلما أتاحت لهم الفرصة ، والتصرف باستقلالية ، وقد لا يؤدون الضرائب إلا بعد تهديد الدولة لهم ، كما كانوا في أحيان كثيرة ينحازون إلي أحد المتصارعين علي عرش السلاجقة .

وعلي الطرف الآخر ، كانت الإمبراطورية البيزنطية في نيقية علي وفاق مع السلطنة السلجوقية في قونية خلال الربع الأخير من القرن ١٣م/٧هـ ، غير أنها كانت تقوي من خطوطها الدفاعية لمواجهة غارات التركمان . وقد استطاعت تلك الفيالق البيزنطية التي عرف في المصادر الإسلامية باسم " الخرائطة " أن تقوم بمهامها خير قيام في عهد إمبراطورية نيقية . إلا أنه عقب نقل العاصمة إلى بيزنطة ثانية (٦٥٩هـ / ١٢٦١م) ، أهملت هذه التشكيلات البيزنطية ، حيث صودرت الأراضي التي كان ريعها موقوف عليها ، الأمر الذي أدى إلى خروجها في حركات عصيان 'نكل' بها تنكيلاً عظيماً^{٥٥} .

وهكذا ، مكن ضعف الدفاعات البيزنطية وضعف النفوذ السلجوقي في المناطق الحدودية ، مكن حكام الحدود من التركمان من التوسع في أراضي بيزنطة بالتدريج ومن تقوية النفوذ المحلي لأمراء الحدود ، الأمر الذي ساعدهم علي تكوين تشكيلات سياسية جديدة علي الحدود البيزنطية . ففي مطلع القرن ١٤م/٨هـ استطاع الأمير چوبان ومن بعده ولده الوالي الإلخاني دميرداش أن يوطدا نفوذهما في مناطق الحدود أحياناً بالسياسة وأحياناً أخرى بحمد السيف^{٥٦} .

وكانت أراضي مناطق الحدود الغربية من الأناضول مقسمة إلى اقطاعات متفاوتة القيمة يعطي أقلها دخلاً لجند الحدود المعروفين بإسم " غازي " وفقاً للتقاليد الإسلامية وبإسم " آلب " وفقاً للتقاليد التركمانية الغزية . وقد فعل الضغط المغولي علي شرق ووسط الأناضول فعله في الدفع بالعديد من العشائر التركمانية للهجرة من وسط

⁵⁵ بخصوص الإمارات التركمانية التي نشأت في الأناضول ، أنظر : Ayönü Yusuf, Selçuklu- Bizans İlişkileri , Türkler, VI/598-617; Merçil Erdoğan, Anadolu Beylikleri, Türk Dünyası El Kitabı, Ankara 1976; Yücel Yaşar, Anadolu Beylikleri Hakkında Araştırmalar, I.-II. Ankara 1991

⁵⁶ فما يتعلق بالإمارات التي قامت شمال غربي الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، أنظر : Yücel Yaşar, XIII-XV Yüzyıllar küzeybatı Anadolu Tarihi , Çoban oğulları, Candar oğulları Beylikleri, Ankara 1980

الأناضول صوب الغرب ، كما كان لعجز بيزنطة عن الدفاع عن رعايا الروم في غربي الأناضول وثقل الضرائب التي كانت تُفرض عليهم ، دور هام في دخول بعض من هؤلاء الرعايا في طاعة أمراء الحدود مقابل دفع الجزية علي النفس والمال .

ومن ناحية أخرى ، كان العلماء ممن درسوا في العواصم الإسلامية كالشام وإيران ومصر والقرم يرافقون بعض هؤلاء الأمراء ، حيث لعبت هذه الفئة دوراً هاماً سواء في وضع أسس الجهاز الإداري أو في وضع نواة المؤسسات الثقافية الإسلامية في إمارات الحدود تلك .

ولما كانت تلك المناطق تقع في أقصى " دار الإسلام " من الناحية الغربية ، اصطبغ الصراع فيها بمفهوم الجهاد في سبيل الله ، حيث وفدت علي هذه المناطق أيضاً جماعات مختلفة من المجاهدين والمتطوعين والمتصوفة ، ذكر منهم المؤرخ التركي عاشق باشا زادة في حويلته " تواريخ آل عثمان " جماعات الـ " آلبلر " ، " الغزاة " ، " الفتيان " ، " آخيان روم " ، " الأخية الفتيان " و " أبدالان روم " ^{٥٧} .

والحقيقة أن تطورات هامة وقعت في الأناضول في أواسط القرن ٧هـ / ١٣م ، مهدت لظهور إمارات تركمانية مستقلة علي طول الحدود السلجوقية مع إمبراطورية الروم يأتي علي رأسها :

١. ظهور الخطر المغولي شرقي الأناضول ، ثم سيطرتهم علي كافة مقاليد الإدارة في الأناضول.

٢. الإكهار المفاجئ لدولة سلاجقة الأناضول، وخضوع السلاجقة للإدارة المغولية، وصراع البيت السلجوقي علي السلطة عام ١٢٤٣م / ٦٤١هـ.

⁵⁷ لتفصيلات أكثر حول الظروف التي أحاطت بتشكيل إمارات غربي الأناضول التركمانية ومنها إمارة آل عثمان ، أنظر : محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ،

القاهرة ١٩٦٥ ؛ Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I, Ankara 1947

٣. هجرة الكثير من العشائر التركمانية من وسط الأناضول أمام الزحف المغولي ، واستقرارها علي طول الحدود الغربية لدولة سلاجقة الأناضول ، وشروعها في القيام بتحركات استقلالية بخروجها علي الحكومة السلجوقية الخاضعة للمغول ، ونقضها المعاهدات التي عقدتها مع أباطرة الروم .

٤. ضعف الدفاعات البيزنطية علي حدودها الشرقية إثر التخلي عن أزيق (نيقية) كعاصمة للإمبراطورية وعودة الإمبراطور إلي القسطنطينية (٦٥٩هـ / ١٢٦١م) ، الأمر الذي أتاح لتشكيلات الغزاة التركمانية للتوسع علي حساب الأراضي البيزنطية .

وبذلك ، بدأت هذه العشائر التركمانية تتجمع تحت قيادة بعض أمراء الحدود الغزاة وتقوم بالتوسع التدريجي غرباً مستفيدة من حالة الضعف والإنهيار التي كانت تمر بها كل من دولة سلاجقة الأناضول والإمبراطورية الرومانية ، وذلك علاوة علي ضعف قبضة الإدارة المغولية علي مناطق الحدود الغربية . وهكذا ، بدأ أمراء الحدود يؤسسون إمارات صغيرة في المناطق التي راحوا يستولون عليها معترفين بالنفوذ الإلخاني (المغول الغربيين) ، حيث راحوا يدفعون لهم الخراج لضمان عدم التعرض لهم . وفي الوقت الذي كانت فيه دولة سلاجقة الأناضول تحتضر ، اقتصر دور الولاة العموميين التابعين للإلخانيين في الأناضول علي توفير الانضباط في البلاد وجمع الضرائب .

ولما تولى باينجار قائداً جديداً للمغول عام ١٢٩٨م / ٦٩٨هـ قام بتنصيب علاء الدين قيقباد الثالث علي عرش السلاجقة ، إلا أن خروج أحد قواده ويدعي سولش ضده بحركة عصيان في العام التالي ١٢٩٩م / ٦٩٩هـ ، أضعف النفوذ المغولي-الإلخاني في منطقة الحدود الغربية فجأة ، الأمر الذي مكّن أمراء الحدود بتكثيف هجماتهم علي الحدود البيزنطية وإعلان استقلالهم في الفترة ما بين ١٢٩٩-١٣٠١م / ٦٩٩-٧٠١هـ .

وهكذا ، ظهر علي مسرح التاريخ في الأناضول خلال مطلع القرن ٨هـ / ١٤م إمارات تركمانية عديدة ، أهمها : أبناء قرمان في لارنده وسليفكه ، وأبناء حميد في أقشهر واسيرطه وبورد ، وأبناء گرميان في كوتاهيه وأفيون وآلاشهر ، وإمارات أبناء منتشه وأبناء آيدين وأبناء صاروخان وأبناء قراسي علي سواحل بحر أيجه ، وإمارة أبناء جندار في قسطنطيني وسينوب ، وإمارة أبناء عثمان في سكود ويكيشهر وبيله جك وأسكيشهر وبورصة وأزنيق وأزميت⁵⁸ .

⁵⁸ لتفصيلات أكثر حول الإمارات التركمانية التي نشأت في وسط وغربي الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، أنظر : *Uzunçarşılı, Kitabeler ve Sahib*, الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، أنظر : *Saruhan, Aydın, Menteşe, İnanc, Hamidoğulları hakkında Malumat,I - II. İstanbul 1929; aynı mlf., Anadolu Beylikleri, Ankara 1984; Yücel Yaşar, XIII-XV Yüzyıllar küzeybatı Anadolu Tarihi , Çoban oğulları, Candar oğulları Beylikleri, Ankara 1980; Feridun M. Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu'da Beylikler Dünyası, İstanbul 2001; Varlık Mustafa Çetin, Germiyanogulları Tarihi (1300-1429), Ankara 1974; Öden Zerrin Günal, Karası Beyliği, Ankara 1999.*

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر :

- ابن يبي ، يحيى بن محمد ، تواريخ آل سلجوق ، ترجمة يازيجي أوغلي علي ، نشر ليدن ١٩٠٢
- _____ ، الأوامر العلائية في الأمور العلائية ، نشر عدنان صادق أوزك ، أنقره ١٩٥٩
- أحمد بن محمود ، سلجوق نامه ، ترجمه للتركية أردوغان مارجيل ، استانبول ١٩٩٧
- الاسترابادي ، عزيز بن أردشير ، بزم ووزم ، نشر بكليس لي رفعت ، استانبول ١٩٢٨ ، ترجمه للتركية مرسل أوزتورك أنقره ١٩٩٠
- الأصفهاني ، عماد الدين ، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ١٩٧٨
- أقسراي ، كريم الدين محمود ، مسامرة الأخبار ومسامرة الأخيار ، نشر عثمان توران ، أنقرة ١٩٤٤
- أمير خواند البلخي ، روضة الصفا ، ج ٤ ، تهران ١٢٧٠
- البيهقي ، أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب ، تاريخ مسعودي (تاريخ البيهقي) ، نشر سعيد نفيسي ، تهران ١٣١٩ هـ ش (ترجمه للعربية يحيى الخشاب وصادق نشأت).
- الحسيني ، صدر الدين علي بن مصطفى ، أخبار الدولة السلجوقية (ذبذة تواريخ الأخبار العمرية والملوك السلجوقية) تحقيق محمد نور الدين ، بيروت ١٩٨٥
- خواند مير ، عياث الدين بن همام الدين ، حبيب السير في أخبار أفراد البشر ، بمباي ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٨ م
- رشيد الدين فض الله ، جامع التواريخ ، نشر أحمد آتش ، أنقرة ١٩٦٠ (ترجمه للعربية محمد صادق نشأت ، أحمد موسى هنداي ، وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة (١٩٦٠)

- الروندي ، محمد بن علي بن سليمان ، راحة الصدور وآيات السرور ، نشر محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١ (ترجمه للعربية إبراهيم الشواربي ، عبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد) .

- العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ليزج ١٩٥٩
- الغفاري ، أحمد بن محمد قاص ، تاريخ جهار ارا ، نشر حسن توراكبي ،
تهران ١٣٤٣

- القزويني ، حمد الله بن أبوبكر أحمد المستوفي ، تاريخ كزيده ، تهران ١٣٣٩
- الكاشغري ، محمود ، كتاب ديوان لغات اترك ، استانبول ١٩١٧ ، أنقره ١٩٩٠
- كرديزي ، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك ، زين الأخبار ، نشر عبد الحي حبيبي ،
تهران ١٣٤٧

- مجهول ، تاريخ عالي سلجوق در أناضولي ، نشر نادره جلاي ، تهران ١٩٩٩
- يازدي ، شرف الدين علي ، ظفر نامه (انظر الترجمة العربية) ، كلكتا ١٨٨٧

ثانياً - المراجع :

١- التركية

- Akbulur Dursun Ali, Arap Fütühâtına kadar Meveraunnehir ve Horasan'da Türkler (الأتراك في بلاد ما وراء النهر وخراسان حتي الفتح العربي) basılmamış Doktora Tezi, Erzurum 1984.

- Aycan İrfan, " Emevîler Dönemi Sonuna kardar Müslüman Arapların Türklerle İlk Münasebetleri " (العلاقات الأولى بين العرب المسلمين) , Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, IV/317-328.

- Ayönü Yusuf, Selçuklu- Bizans İlişkileri (العلاقات السلجوقية البيزنطية) , Türkler, VI/598-617.

- Azımlı Mehmet, Abbasîler Döneminde Türklerden Oluşturulan Ordu, Hassa Ordusu (الجيش المُشكَّل من الترك في العصر العباسي ، الجيش الخاص) , Türkler, IV/364-374.

- Bainbrige M., Dünya'da Türkler (الأتراك في العالم), çev. Mehmet Harmancı, İstanbul 1995.
- Baştov Şerif, Hazar Kağanlığı Tarihi, Tarihte Türk Devletleri (تاريخ قاغان الخزر ، الدول التركية في التاريخ), I. Ankara 1967.
- Dönmez Y., Türk Dünya'sının Beşerî ve İktisadî Coğrafyası (الجغرافيا البشرية والاقتصادية للعالم التركي), İstanbul 1968.
- Erdem İlhan, Doğu Anadolu Türk Devletleri (الدول التركية في شرقي) (الأناضول, Türkler, VI/ 383-424.
- Genç Reşat, Karahanlılar Tarihi (تاريخ القره خانیین), Türkler, IV/445-459.
- Genç Süleyman, Fatimi- Abbasi- Selçuklu Münasebetleri ve Besasırî İsyanı (العلاقات الفاطمية العباسية السلجوقية وحركة عصيان البساسيري), basılmamış Doktora Tezi, İzmir 1995.
- İzgi Ö., Uygurların Siyasî ve Kültürel Tarihi Hukuk Vesikalarına göre (التاريخ والسياسي والثقافي للأويغور من واقع الوثائق القانونية), Ankara 1987.
- İnan Abdulkardır, Eski Türk Dini Tarihi (التاريخ الديني للترك القدامي), İstanbul 1976.
- Işın Demirkent, Haçlı Seferleri ve Türkler (الحروب الصليبية والترك), Türkler, VI/651-668.
- Kabulov Karim, " Orhun Türkmenlerinin Aslı " (أصل ترَكمَان), (أورخون), Türkler, II/118-126.
- Kafesoğlu İbrahim, Sultan Melikşah Devrinde Büyük Selçuklu İmparatorluğu (امپراطورية السلجوقية الكبار في عصر السلطان ملكشاه), İstanbul 1953.
- _____ , Harezmşahlar Devleti Tarihi (1092-1229) (تاريخ دولة), خوارزمشاه, Ankara 1956.

- _____ , Doğu Anadolu'ya İlk Selçuklu Akını (الزحف السلجوقي) , Köprülü Armağan, İstanbul 1951. (الأول علي شرقي الأناضول)
- _____ , Eski Türk Tarihi (التاريخ التركي القديم) , Ankara 1980.
- _____ , " Tarihte " Türk " adı " (اسم "ترك" في التاريخ) , Türkler, I/308-315.
- Karapınar Mahmut, Abbasîler Dönemi Türklerin Siyasî Faâliyetleri (الفعاليات السياسية للترك خلال العصر العباسي) , Türkler, IV/352-363.
- Kerimova Risalet, " Hun İmparatorluğu ile Çin Doğu Türkistan Mücadelesi " (إمبراطورية الهون وصراع الصين علي تركستان الشرقية) , çev. Nurşen Özsoy, Türkler, I/743-748.
- Kesik Mühârrem, Türkiye Selçuklu Devleti tarihi, Sultan İ. Mesûd Dönemi (1116-1165) (تاريخ دولة السلاجقة التركية ، عصر السلطان ، Mesûd Dönemi) (مسعود الأول) , Ankara 2002.
- _____ , Türkiye Selçukluları ile Danişmendîliler Arasındaki İlişkiler (العلاقات بين سلاجقة تركيا والدانشمندان) , Türkler, VI/537-546.
- Kitapçı Zekeriya, Orta Asya'da İslamiyetin Yayılışı ve Türkler (الترك وانتشار الإسلام في وسط آسيا) , Konya 1994.
- _____ , Arapların Türkistana Girişi (دخول العرب بلاد التركستان) , İstanbul 2000.
- _____ , Türkistan'da Müslüman olan İlk Türk Hükümdarları (الحكام الترك الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام في خراسان) , İstanbul 1988.
- _____ , Türkistan'da İslâmiyet ve Türkler (الأتراك والإسلام في بلاد التركستان) , Konya 1988.
- _____ , Türk Boyları Arasında İslam Hidâyet Fırtınası (رياح الهداية إلي الإسلام بين العناصر التركية) , Konya 2001.

Koca Selim , Anadolu Türk Beylikleri (إمارات أترك الأناضول),
Türkler, VI/703-755.

- _____ , " Hun İmparatorluğu'nun Doğuşu " (ظهور إمبراطورية الهون),
, Gazi Eğitim Fakültesi Dergisi, sayı VI, (Ankara 1990).

- Köymen Mehmet Altay, Selçuklular Devri Türk Tarihi (التاريخ
(التركي في العصر السلجوقي), Ankara 1982.

- _____ , Büyük Selçuklu İmparatorluğu Tarihi Kuruluş
Devri (تاريخ إمبراطورية السلاجقة الكبار ، عصر التأسيس), I, Ankara 1979.

- _____ , Alp Arslan ve Zamanı, Ankara 1972

- _____ , Büyük Selçuklu Devleti (دولة السلاجقة الكبار), II.,
Ankara 1954

- Kurat A.N. , IV-XVII. Yüzyıllarda Karadeniz Kuzeyindeki
Türk Kavimleri ve Devletleri (الأقوام والدول التركية القاطنة شمالي البحر الأسود في)
(الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع عشر الميلادي), Ankara 1972.

- Merçil Erdoğan, Müslüman Türk Devletleri Tarihi (تاريخ الدول
(التركية الإسلامية), Ankara 1993.

- _____ . Ğazneliler (الغزنويون), Türkler, IV/479-508.

- _____ , Selçuklu Devletleri Tarihi (تاريخ الدول السلجوقية),
Ankara 1995.

- _____ , Anadolu Beylikleri (الإمارات الأناضولية), Türk
Dünyası El Kitabı, Ankara 1976.

- Nicola Di Cosmo, " Hun İmparatorluğu'nun Kuruluşu ve
Yükselişi " (تأسيس إمبراطورية الهون وإزدهارها), Türkler, I/709-719.

- Ogel Bahaeddin, Büyük Hun İmparatorluğu Tarihi (تاريخ إمبراطورية
(الهون الكبرى), Ankara 1981.

- Özey Ramazan, " Tarihte Türk Devletleri ve Hakimiyet Alanları"(الدول التركية في التاريخ وميادين نفوذهم), Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, cilt.I/ 266-276.
- Richord Rafe De Crespingy, " Hun Konfederasyonu'nun Bölünmesi ve Yıkılması "(انقسام إتحاد الهون وإنهياره),Türkler, I/749-757
- Sevim Ali , Malazgirt Meydan Savaşı(معركة ملاذكرد), TTK., Ankara 1971.
- Şeker Mehmet , Anadolu'nun Türk Vatanı Haline Gelmesi (تحول)
(الأناضول إلى وطن تركي), Türkler, VI/269-282.
- Talar Tekin, Orhon Yazıtları (كتابات أورخون), Ankara 1988.
- Tasağıl Ahmet, Göktürkler (الكوكتورك), Ankara 1995.
- _____ , " İslam öncesi Devrede Orta Asya'da Yaşayan Türk Boyları "(الأعراف التركية التي تعيش في وسط آسيا في عصر قبل الإسلام), Türkler, II/323-367.
- Turan Osman, Doğu Anadolu'da Türk Devletleri Tarihi (تاريخ)
(الدول التركية في شرقي الأناضول), İstanbul 1993.
- Uzunçarşılı İsmail Hakkı, Anadolu Beylikleri, Akkoyunlu ve Karakoyunlu Devletleri (امارات الأناضول ، دولتي آق قويونلي وقره قويونلي) ,
Ankara 1937.
- _____, Anadolu Beylikleri, Ankara 1969.
- Yınanç Mükremin Halil, Anadolu'nun Fethi (فتح الأناضول),
İstanbul 1944.

ب- غير التركية

- بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطي ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة

١٩٥٨

- بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، تعريب صلاح هاشم ، القاهرة

١٩٨١

- حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ١٩٦٥

- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٨٦

- عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠

- محمد سالم بن شديد العوفي ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية

في العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٦٧/١٠٥٥-١١٧١)، الرياض ١٤٠٢ / ١٩٨٢

تاريخ وحدث

٦٤٢	- معركة نهاوند ، وإلحاق المسلمون الهزيمة بالشاه الساساني يزدجرد .
٦٤٢-٦٥١	- إغتيال الإمبراطورية الساسانية نتيجة ضغط الهجمات الإسلامية .
٦٥٢	- فتح الجيوش الإسلامية لبلاد خراسان لأول مرة .
٦٦٧	- هزيمة المسلمين لآخر الملوك الساسان فيروز .
٦٧٣-٧٠٤	- عبور المسلمين لنهر آمو ، ومحاولتهم الأولى للسيطرة على بخاري .
٦٨٩	- فتح المسلمين لترمذ .
٧٠٥	- بدء قيام الجيوش الإسلامية تحت قيادة قتبية بن مسلم بالإنطلاق من مرو والجهاد في بلاد ما وراء النهر .
٧٠٩	- فتح بخاري وسمرقند .
٧١١	- فتح خيوه .
٧١٢-٧١١	- قيام الجيوش الأموية بفتح بلاد ما وراء النهر وبلاد السند .
٧١٢	- هجمات قتبية بن مسلم على بلاد ما وراء النهر ، وهزيمته لقوات الكوكتورك .
---	- إخضاع العرب بلاد خوارزم .
٧١٣	- غزو الجيوش العربية لبلاد كاشغر .
٧٣١-٧٣٤	- قيام الكوكتورك بتسجيل كتابات أورخون .
٧٤٩-١٢٥٨	- انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، ودار الخلافة إلى بغداد .

- تأسيس الدولة السامانية .	- ٨١٩/٨١٥
-----	١١٠٥/٩٩٩
- قيام كول بيلكه خان بتأسيس دولة القرخانيين . انقسام الدولة عام ١٠٤٠م إلى قسمين : شرقية (١٠٤٠-١٢١٠) وغربية (١٠٤٢-١٢١٢م) .	١٠٤٠-٨٤٠
- تأسيس الدولة الطولونية في مصر .	---
- استيلاء الأسرة السامانية الفارسية السنية علي الإدارة في بلاد ما وراء النهر .	٩٠٥ - ٨٦٨
- تأسيس الأسرة القره خانية التركية التي كان مركزها الأول في كشغر .	٨٧٥/٨٧٤
- تأسيس الدولة الإخشيدية في القاهرة .	---
- اعتناق القره خانيين والأغور الدين الإسلامي في عصر عبد الكريم بغرا خان (وفاته ٩٥٥ م) .	٩٣٢
- تأسيس الأسرة الغزنوية التركية في أفغانستان .	---
- هجرة الأتراك السلاجقة الذين هم واحدة من أكبر وأقوي قبائل الأوغوز إلى نواحي بخاري .	٩٦٩-٩٣٥
- استيلاء الأتراك القارلوق الذين دخلوا سمرقند علي أتر	أواسط القرن العاشر
ضعف السامانيين ، إستيلائهم علي سمرقند . وبداية حكم أسرة جديدة تحت اسم القره خانيين .	---
- اعتلاء محمود الغزنوي العرش في غزنه ، وقراءة الخطبة باسم الخليفة .	٩٦٢
- هزيمة الغزنويين للسامانيين في حراسان ، وقيام القره خانيين بالإستيلاء علي العاصمة السامانية في بخاري .	٩٨٠
- وإخيار الدولة السامانية .	---
- سيطرة الدولة البويهية الفارسية الشيعية علي معظم	---
	٩٩٣

	٩٩٧-١٠٣٠

	٩٩٩

	أواخر القرن العاشر

الأراضي العراقية والإيرانية ، وقضائها علي نفوذ الخلافة العباسية .	---
- توسيع الغزنويين لسلطتهم من العراق حتي بلاد السند .	---
أوائل القرن الحادي عشر	
- وفاة محمود الغزنوي وتولية ابنه مسعود السلطنة من بعده.	١٠٣٠
- هزيمة السلطان مسعود الغزنوي في معركة داندانقان بالقرب من مرو .	١٠٤٠
---	---
- تأسيس طغرل بك لدولة السلاجقة الكبار .	١١٥٧-١٠٤٠
- تأسيس قره أرسلان لدولة سلاجقة كرمان .	١١٨٧-١٠٤١
- دخول السلطان السلجوقي طغرل بك بغداد ، وقضائه علي النفوذ البويهري في بغداد ، وإعلان حمايته للخليفة العباسي في بغداد .	١٠٥٥
---	---
- حملة آلب أرسلان علي قفقاسيا وشرقي الأناضول ، وفتح قارص (١٦ أغسطس).	١٠٦٤
---	---
- تأسيس الوزير السلجوقي نظام الملك المدارس في بغداد ونيسابور .	١٠٦٧-١٠٦٥
---	---
- الزحف السلجوقي علي وسط الأناضول ، وفتح مدن قيصري ونيكسار وقونية.	١٠٦٧
---	---
- حملة آلب أرسلان علي سوريا التابعة للدولة الفاطمية الشيعية ، وضم ملازكرد وحلب للإدارة السلجوقية .	١٠٧١
---	---
- هزيمة آلب أرسلان للجيش البيزنطي (٢٦ أغسطس) في موقعة ملازكرد الكبرى، ووقوع الإمبراطور رومانوس ديوجينيس في الأسر ، وأعتراف بيزنطة بالنفوذ السلجوقي علي الأناضول .	---

- تأسيس إمارة أبناء منكوج في الأناضول حتى قضاء سلاجقة الأناضول عليها .	١٢٥٢-١٠٧١
---	---
- تأسيس دولة سلاجقة الأناضول عقب معركة ملازكرد ، أسسها سليمان شاه ابن قتلمش ، وقضي الإلخانيين عليها في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي .	١٣٠٨
---	---
- انطلاق سليمان شاه بن قتلمش من بيره حك مع أخيه منصور وفتح لقونية ثم إزنيق ، و اتخذ إزنيق عاصمة له وتأسيسه دولة سلاجقة الأناضول .	١٠٧٥
---	---
- تأسيس دولة سلاجقة سوريا من قبل تتش .	١١١٧-١٠٧٨
- تأسيس إمارة أبناء صالتوق .	١٢٠١-١٠٨٠
- فتح سليمان بن قتلمش لمدينة أنطاكية	١٠٨٥
- محاصرة سليمان بن قتلمش لمدينة حلب ، وخروج تتش إليه ، وموته عقب المواجهة التي وقعت بينهما علي أبواب حلب .	١٠٨٦
---	---
- هجمات نائب سليمان أبي القاسم علي المضايق ومحاولته بناء أسطول في مرمره .	١٠٨٧
---	---
- انقسام دولة السلاجقة الكبار إلي ثلاثة أقسام عقب وفاة السلطان ملكشاه .	١٠٩٢
---	---
- عصر سلطان سلاجقة الأناضول ، قليج أرسلان الأول .	١١٠٧-١٠٩٢
- تأسيس إمارة أبناء دنشمند في الأناضول .	١١٧٥-١٠٩٥
- الإعداد للحملات الصليبية بتحريض من الإمبراطور البيزنطي لمواجهة الفتوحات السلجوقية ، وخروج الحملة الصليبية الأولى .	١٠٩٦
---	---
- انهيار دولة السلاجقة الكبار وتأسيس دولة الخوارزمشاه ،	١٢٣١-١١٥٧

وإنهيارها علي يد المغول .	---
- تأسيس الدولة الأيوبية علي يد مؤسسها صلاح الدين الأيوبي ، وإنهيارها علي يد المماليك .	١٢٥٠-١١٧٤
---	---
- تأسيس إمارة أبناء جوبان في الأناضول ، وإنهيارها علي يد أبناء جنदार .	١٣٢٠-١٢٠٤
---	---
- عصر الإستقرار والإزدهار في دولة سلاجقة الأناضول .	١٢٢٠-١٢٠٥
- إعدام خوارزمشاه محمد لسفراء المغول ، وخروج الحملات المغولية الأولى نحو الغرب .	١٢١٨
---	---
- تأسيس باتو خان لدولة ألتون أوردو ، وإنهيارها علي يد الروس .	١٥٠٢-١٢٣٦
---	---
- هزيمة المغول لدولة سلاجقة الأناضول في معركة كوسه داغ .	١٢٤٣
---	---
- سنوات الصراع علي السلطنة بين افراد أسرة سلاجقة الأناضول .	١٢٦٥-١٢٤٦
---	---
- تأسيس دولة المماليك الأتراك علي يد القبحاق في مصر .	١٢٥٠-١٢٤٩
- تأسيس إمارة أبناء قره مان ، وسقوطها علي يد العثمانيين .	١٤٨٧-١٢٥٠
---	---
- تأسيس الدولة المملوكية علي يد أيك وسقوطها علي يد العثمانيين .	١٥١٧-١٢٥٠
---	---
- الإستيلاء المغولي الثاني علي أراضي سلاجقة الأناضول .	١٢٥٧-١٢٥٦
- قضاء المغول علي الخلافة العباسية في بغداد .	١٢٥٨
- هزيمة المماليك للمغول في معركة عين جالوت .	١٢٦٠
- تأسيس إمارة أبناء كيرميان علي يد علي شير في الأناضول ، وإنهيارها علي يد العثمانيين .	١٤٢٩-١٢٦٠
---	---

- دخول السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الأناضول وحملته علي قيصري .	١٢٧٧ ---
- عصر النفوذ الإلخاني - المغولي في الأناضول .	١٢٧٧-١٢٩٢
- تأسيس إلياس بك لإمارة أبناء حميد في الأناضول ، وإلخيارها علي يد العثمانيين .	١٢٨٠-١٣٩١ ---
- تأسيس منتشه بك لإمارة أبناء منتشه في الأناضول، وإلخيارها علي يد العثمانيين.	١٢٨٠-١٤٢٥ ---
- عصر عثمان غازي الأول مؤسس الدولة العثمانية .	١٢٨١-١٣٢٤
- تأسيس جندار بك لإمارة أبناء جندار في الأناضول، وإلخيارها علي يد العثمانيين	١٢٩١-١٤٦١ ---
- عصر تفكك وإلخيار أسرة ودولة سلاجقة الأناضول .	١٢٩٢-١٣١٨
- إعتناق الإلخانيين للإسلام تحت قيادة قازان خان .	١٢٩٤-١٢٩٥
- عصر السلطان السلجوقي علاء الدين قيقباد الثالث .	١٢٩٨-١٣٠٢
- تأسيس عثمان غازي للإمارة العثمانية غربي الأناضول .	١٢٩٩-١٣٠٠
- عصر الأمبراطورية العثمانية .	١٢٩٩-١٩٢٣

الفصل الأول

مرحلة التأسيس

المحاولة الأولى لتشكيل الدولة العثمانية
من إعلان قيام الدولة حتي استيلاء تيمورلنك
(١٢٩٩م/٦٩٩هـ - ١٤٠٢م/٨٠٥هـ)

ظهور إمارة آل عثمان

لقد استغرقت مسألة ظهور أسرة آل عثمان علي ساحة التاريخ خلال القرن ١٣م/٧هـ ، والعوامل التي ساعدت علي تشكيل إمارة عثمانية في الجزء الغربي من الأناضول كواحدة من امارات الأناضول الحدودية ، الكثير من جهود الباحثين المعاصرين قبل أن يصلوا إلى نتائج تطمئن إليها النفس .

والحقيقة أن تأخر تسجيل وقائع آل عثمان حتي ظهور دولتهم كقوة اقليمية ذات بأس في الأناضول والبلقان خلال القرن ١٥م/٩هـ ، أي بعد قرن من تأسيس دولتهم ، جعل المعلومات والأخبار التي وردت في مدونات الوقائع العثمانية والتي ظهرت خلال هذه الفترة وبخاصة ما يتعلق منها بظهور الأسرة العثمانية وتأسيس الإمارة العثمانية ، وانتقالها إلى مرحلة الدولة المستقلة ، جعلها موضع هام لمناقشات الباحثين حتي اليوم . وقد ظهرت مدرستين في دراسة هذه الوقائع خلال القرن العشرين . المدرسة الأولى منها سعت لوضع مسلّمات تفسر هذه الوقائع استناداً علي العناصر العرقية والدينية في الأناضول ، حيث مثلها كل من هريبرت آ. جيبون وفؤاد كوبريللي وناول ويتيك ، و تحليل اينالچق^{٥٩} . أما المدرسة الثانية ، فقد ظهرت في الثمانينات من

⁵⁹ فيما يتعلق بتفسير وقائع تأسيس إمارة آل عثمان وفقاً لهذه المدرسة ، أنظر : Gibbons, Osmanli Imparatorlugu'nun Kurulusu, trc. Hulusi, Istanbul 1928, Fuad Koprullu, , Osmanli Imparatorlugu'nun Kurulusu, Ankara 1972, Paul Wittek, The Rise of The Ottoman Empire, London 1938, Halil Inalcik, "The Question of The Emergence of The Ottoman State", IJTS. II/2 (1982), 71-79, "Osmanli Tarihine Toplu Bir Bakis", Osmanli, I, (Ankara 1999), 37-60

القرن العشرين ، وراحت تعيد الروح من جديد لنظريات المدرسة الأولى بالإستناد علي نظريات العلوم الإجتماعية والجغرافية الحديثة⁶⁰ .

وبعد مناقشات مستفيضة في هذا الموضوع ، فإن كل ما يمكن لأي باحث فعله لصياغة وقائع هذه الفترة ، هو قيامه بغرلة الكتابات العثمانية المعاصرة من الأساطير ومقارنة ما يتمخض عن هذه الغرلة من معلومات بما جاء في المصادر البيزنطية والسلجوقية التي ترجع للقرن ١٣م/٧هـ ، ومحاولة الوصول لمعلومات يمكن الإطمئنان إليها بالإستعانة بالوثائق الرسمية التي تشير إلي معلومات تعود لهذه الفترة ، علاوة علي الآثار المادية والطبوغرافية المكتشفة حديثاً⁶¹ .

ومهما يكن من أمر ، فقد توصلت هذه الدراسات الحديثة إلي نتائج هامة حول المنطلق الأول لأسرة عثمان ، الشخصيات التاريخية الأولى لهذه الأسرة ، ونسبة هذه الأسرة لقبيلة قايي ، والظروف التي أحاطت بتشكيل هذه الأسرة لامارة تحمل اسم أبناء عثمان في الطرف الشمالي الغربي من الأناضول ، يأتي علي رأسها :

١ . تختلف المصادر في المنطقة التي انطلقت منها عشائر الأوغوز التي خرجت منها أسرة آل عثمان . ولما كانت منطقة " أحلاط " التي كانت تابعة

⁶⁰ بخصوص هذه الدراسات أنظر : Söğüt'ten İstanbul'a Osmanlı Devletinin Kuruluşu Üzerine Tartışmalar, (haz. M. Öz-O. Özel), İstanbul 2000.

⁶¹ فيما يتعلق بمحاولة تطبيق حي لهذا المنهج حتي بداية مرحلة الفتور ، انظر : Feridun Emecen, "Osmanlı Devleti'nin Kurulusundan Fetret Donemine", Turkler, IX/15-32, keza bk. Halil Inalcik, " Osmanli Devletinin Kurulusu Problemi", Dogu Bati, (Yil 2/7, Temmuz 1999), s.9-22, Ilber Ortayli, " Menkibe", Osmanli Devletinin Kurulusu Efsaneler ve Gercekler, Ankara 2000; S. Tekindag, " Osmanli Devletinin Kurulusu Hakkinda Yeni Gorusler", Ataturk Konuşmaları, Ankara 1980, C. Heywood, " Osmanli Devletinin Kurulus Problemi, Yeni Hepotez Hakkinda Bazi Dusunceler", Osmanli, Ankara 1999, I/137-145

لخوارزمشاه خلال الربع النصف الأول من القرن ١٣/٧هـ ، تعتبر مركز تجمع للعشائر التركمانية المتوجهة إلى الأناضول خلال هذه الفترة هرباً من الزحف المغولي ، فمن المرجح أن يكون أجداد العثمانيين قد تحركوا منها إلى نواحي أرضروم وأرزنجان أولاً ، ثم استقروا في وادي باسين . وهناك انفصل قسم من هذه العشيرة تحت قيادة أرطغرل بك ، وجاؤوا إلى سكود ودومانيج . والحقيقة أن هذه الرواية تتفق إلى حد بعيد مع ما رواه ابن ببي حول التجاء جماعات خوارزمية إلى السلاجقة، حيث قام السلاجقة باسكانهم في تلك المناطق المشار إليها^{٦٢} .

٢. تردّد المصادر الأولى للتاريخ العثماني العديد من الأسماء التاريخية كشخصيات نسجت وقائع هذه الحقبة التاريخية للعثمانيين مثل سليمان شاه ، شاه منك ، قاييق آلب ، كوندوز آلب ، كوك آلب ، أرطغرل ، سونكور تكين ، كون طوغدي ، صاروياتي ، عثمان بك . إلا أن النتيجة التي يمكن استخلاصها استناداً علي بعض الآثار المادية الحديثة تؤكد حقيقة وجود شخصيات كوندوز آلب وأرطغرل وعثمان بك . أما ما يقال عن الشخصيات الأخرى وما ذكرته الحوليات من شجرات مختلفة لأنساب العثمانيين فهو محض خيال ومن نسج الأساطير الشعبية^{٦٣} .

٣. وإذا كانت معلومات المناقب العثمانية تتفق على شخصية عثمان وأبيه أرطغرل ، وتؤكد لها تلك العملات التي تم اكتشافها أخيراً لعثمان بك وتحمل

⁶² لتفصيلات أكثر حول هذه المشكلة أنظر : Feridun Emecen, İlk Osmanlılar ve Bati Anadolu Beylikler Dunyasi, Istanbul 2001, ayn. Mlf. A.g.m., Turkler, IX/17-18.

⁶³ بخصوص حقيقة شخصية عثمان غازي وأبيه أرطغرل أنظر : “ Ilber Ortayli, Menkibe”, Osmanli Devletinin Kurulusu Efsaneler ve Gercekler, Ankara 2000; I. Hami Danismend, “Osman Gazi'nin Neseb ve Huviyeti”, Turkluk Mecmuasi, c.I.(1939), s. 207-223

اسم أبيه أرطغرل وحده كوندوز آلب أيضاً^{٦٤} ، إلا أن علاقة عثمان بوالده ، وباخوته ، واكتسابه صفة قائد الغزاة ، وعلاقته بالشيخ أدب عالي التي وردت بهذه المصادر في شكل سير الأبطال ، تظلها جميعاً الرويات الأسطورية ، وتهدف للبرهنة علي تشكيل دولة آل عثمان^{٦٥} .

٤. تتفق المصادر التاريخية العثمانية علي نسبة عثمان بك كشخصية تاريخية إلي احدي قبائل " الغُرّ " (الأغوز) التركمانية ، هي قبيلة " قايي " . وإذا كانت بعض الدراسات تشير إلي أن ارتباط عثمان غازي بعشيرة قايي تم توقيفه فيما بعد بدعم من العثمانيين لتأكيد حقهم المشروع في الحكم والقيادة في الأناضول ، إلا أن الدراسات الحديثة التي اعتمدت علي التنقيبات الأثرية تؤكد وجود آثار واضحة لعشائر القايي في المناطق التي قطنها العثمانيون الأوائل ، حتي أنه تصادف قري تحمل اسم قايي في دفاتر تحرير الأراضي في تلك المناطق^{٦٦} .

⁶⁴ فيما يتعلق بالنقود التي تم اكتشافها حديثاً لعثمان غازي في انحاء مختلفة من العالم انظر : I.Artuk, "Osmanlı Beyliğinin Kurucusu Osman Bey'e Ait Bir Kikke", Türkiye'nin Sosyal ve Ekonomik Tarihi (1071-1920), Ankara 1980, s. 27-33; P. Lindnet, "Selcuklular, Mogollar ve Osmanlılar Arasında", Osmanlı I./148

⁶⁵ تذكر بعض المصادر العثمانية كتواريخ عاشق باشا زاده وحوليات تواريخ آل عثمان بمجهولة المؤلف وتاريخ أرزيج بك ، شخصية سليمان شاه باعتباره الجد الأكبر للعثمانيين ، فإن أحمد الذي يعد أول مصدر عثماني يشير إلي علاء الدين وكوندوز آلب كشخصيات قيادية في أسرة آل عثمان ، ويذكر أنوري (دستورنامه ، نشر خليل ينانج ، استانبول ١٩٢٨) شاه ملك كأحد أجداد هذه الأسرة ، ويتحدث قره ماني محمد باشا (تواريخ سلاطين عثمانية ، مكتبة آياصوفيا رقم ٣٢٠٤) عن

شخص يدعي قايتق آلب كأحد قيادات العثمانيين . في هذا الخصوص انظر: Feridun Emecen, İlk Osmanlılar, s.1-16, " Menkibe", Osmanlı Devletinin Kuruluşu Efsaneler ve Gerçekler, Ankara 2000, s. 34-42

⁶⁶ تشير هذه الدراسات إلي أنه كان هناك عشائر تركمانية أعلي شأناً من عشيرة قايي في تلك المناطق ، وكان من الممكن أن ينسب العثمانيون أنفسهم لإحدى هذه العشائر إن كان غرضهم تحقيق

٥. تؤكد الدراسات الحديثة أن التشكيلات الأولى لهذه العشائر التي سكنت الحدود الغربية للأناضول كانت عبارة عن جماعات من الغزاة عرف كل منها باسم " بلوك " ، وأطلق عليها اسم قائدها ، حتي أن دفاتر التحرير تشير إلي العشائر التركمانية التي تسكن الأناضول باسماء رؤسائها بهدف تيسير جمع الضرائب منها . والحقيقة أن التشكيلات الأولى لعثمان بك يمكن أن تكون نموذجاً لمثل هذه التشكيلات التركمانية ، حيث راحت مكانة عثمان غازي تتميز داخل عشيرته بالتدرج نتيجة للنجاحات التي حققها في اشتباكات مع البيزنطيين ، ونجح في وضع ملامح واضحة المعالم لتشكيلات غزاة الحدود .

٦. تجمع هذه الدراسات علي أن التطورات السياسية التي حدثت في غربي الأناضول خلال النصف الثاني من القرن ١٣م / ٧هـ عند ظهور إمارة آل عثمان علي مسرح التاريخ كواحدة من الإمارات الحدودية كان لها الدور الأهم في التطور المطرد لهذه الإمارة . ولذلك فانه ينبغي بحث ظروف ظهور الإمارة العثمانية في اطار تاريخ سلاجقة الأناضول كواحدة من الإمارات الحدودية التي استقلت عنها وقامت علي انقاضها ثم توسعت بفضل ما استولت عليه من أراضي بيزنطة التي كانت الكوارث الداخلية والخارجية

التمييز بين الإمارات التركمانية الأخرى غربي الأناضول ، وأن أغلب الظن أن يكون نسبة العثمانيين إلي عشيرة قايي يرجع إلي حقيقة تاريخية : Fuad Köprülü, " Osmanlı İmparatorluğu'nun Etnik Menşei Meseleleri", Belleten VII/27(1943), 284-300, Erol Kutukcuoglu, "Kayıların Anadolu'ya Gelisi", Osmanlı, Ankara 1999, I/176-180; Fehmettin Basar, "Osmanlıların Menşei ve Kayıların Anadolu'ya Gelisi Hakkında", Tarih Dergisi, Sayı 36, Istanbul 2000

تسرع بها إلى الإنهيار . وهذا ، يجعل الدارس مضطر للرجوع إلى المصادر السلجوقية والبيزنطية خلال القرن ١٣م/٧هـ^{٦٧} .

٧. تشير الدراسات الحديثة إلى أن التأثير الروحي والمعنوي الذي انتشر بين تلك العشائر التركمانية على الحدود البيزنطية كعقيدة الغزو والجهاد ، والآداب الصوفية ، والعادات العرفية ، قد لعب دوراً هاماً في تشكيل الإمارات التركمانية على طول الحدود الغربية للأناضول . فقد أجبر الزحف المغولي على شرق ووسط الأناضول خلال النصف الثاني من القرن ١٣م/٧هـ العشائر التركمانية على الهجرة غرباً ، حيث رافقت هذه العشائر فرق الغزاة (آلبير) وجماعات الأخوة (الآخيان) ، وراحت تخترق الحدود البيزنطية في أقصى غربي الأناضول ، وذلك في الوقت الذي كان فيه دراويش الطرق الصوفية أيضاً يقيمون في تلك المناطق المتقدمة زواياهم وتكايهم التي كانت تتجمع حولها العشائر المهاجرة وتؤسس مجتمعات قبلية صغيرة . وقد ساعدت وفرة الأراضي الخصبة المحيطة بتلك الزوايا ، ومنح تلك الأراضي للمجاورين بعقود ملكية ، واعفائها من دفع الضرائب ، ساعدت على تزايد الكثافة السكانية في تلك المناطق الحدودية بسرعة .

وبينما كانت عمليتا الهجرة والإستيطان تجري جنباً إلى جنب على قدم وساق منذ ذلك الحين ، كان الأمراء الغزاة في تلك المناطق الحدودية يحققون انتصارات كبيرة ويفتحون حصون ومدن هامة على طول الحدود البيزنطية ، الأمر الذي مكنهم من ترسيخ نفوذهم بين تلك العشائر التركمانية وساعدهم على توحيدها وتشكيل إمارات حدودية مستقلة على

⁶⁷ Osman Turan, Türkiye Selçukluları Tarihi, İstanbul 1984, s. 620 vd., keza bk. Uclar Bulduk, "Osmanlı Beyliğinin Oluşumunda Oğuz/Türkmen Geleneğinin Yeri", Osmanlı, Ankara 1999, I/161-166.

تغور الدولة الإسلامية . والحقيقة أن المجتمعات التركمانية في هذه الإمارات الحدودية قد امتزج لديها مفهوم الغزو والجهاد والرباط عند التغور الإسلامية بمفهوم " الفتوة " في التقاليد الغزوية والتركمانية ، وذلك في الوقت الذي وقعت فيه هذه تحت تأثير الطرق الصوفية المختلفة (المولوية ، والرفاعية والخلوتية والبكتاشية ... وغيرها) التي كانت منتشرة في الأناضول وبين العشائر التركمانية آنذاك⁶⁸ .

الملامح الأولى لإمارة عثمان :

وهكذا ، اشتركت إمارة آل عثمان مع الإمارات التركمانية الأخرى في ظروف نشأتها الأولى ، حيث أخذت هذه الإمارة الفتية تتميز بالتدرج وتبرز بين بقية الإمارات الحدودية غربي الأناضول في الفترة ما بين ١٢٨٠-١٣١٠ م . ومن ثم يكون المجتمع القبلي العثماني قد مرّ في سبيل تطوره وتشكّله ككيان سياسي مؤثر في المنطقة بمرحلتين متداخلتين :

المرحلة الأولى ، تتمثل في دعوة الغزاة المعروفون باسم " آلب " للغزو والجهاد في الأراضي البيزنطية ، حيث وجدت هذه الدعوة استجابة لدى القبائل التي استقرت في تلك المناطق الحدودية . ومن ثم لعب الأمير والقائد الغازي دوراً بارزاً في تشكيل فئة خاصة مع رفاقه الغزاة اكتسبت بالتدرج وضعاً خاصاً داخل العشيرة ، حيث انفصلت هذه الفئة عن بقية أفراد القبيلة الذين راحوا يقومون علي شئون الزراعة وتربية الحيوانات في ذلك المجتمع القبلي .

⁶⁸ فيما يتعلق بعمليات هجرة وإسكان التركمان في المناطق الغربية من الأناضول ، ودورها في توطيد مقام الإمارات الحدودية في طول الشريط الحدودي مع بيزنطة ، انظر : P. Lindner, Ortacag Anadolu'sunda Gocebeler ve Osmanlilar, terc. M. Gunay, Istanbul 2000; Umit Hasan, Osmanli Orgut-Inanic Davaristan Hukuk Ideolojiye, Istanbul 2001, O.L. Barkan, "Osmanli Imparatorlugunda Bir Iskan ve Kolonizasyon Metodu olarak Surgunler", Iktisad Fak. Mec., XIII/1-4, 1952, s. 56-78,

والمرحلة الثانية ، ارتبطت بتوحيد فرق الغزاة تحت قيادة واحدة فرضت نفسها من خلال ما حققته من انتصارات وفتوحات ، حيث وصلت المجتمعات التركمانية خلال هذه المرحلة لمستوي الإمارات التي ترعي المقاصد السياسية بين قواد الغزاة⁶⁹ .

ومهما يكن من أمر ، فقد أكدت الدراسات الحديثة أن العشيرة التي انفصلت عن " قايي " قد سكنت أولاً نواحي " قره جه داغ " ثم انتقلت بعد ذلك تحت قيادة أرطغرل غازي إلى سكود ودومانيج بالقرب من أسكيشهر ، وأن هذه العشيرة قد انتخبت الأبن الأصغر لأرطغرل عثمان غازي ليخلف أبيه في رئاسة العشيرة وقيادة الغزاة، وأن قبيلة عثمان غازي في ذلك الوقت كانت تسيطر على المناطق الممتدة بين أسكيشهر وحتى حدود بروصه ، وأن عثمان غازي كان في البداية أحد الغزاة التسابعين لإمارة أبناء چوبان (چوبان اوغوللري)⁷⁰ الحدودية الذين كانوا يقودون عمليات الغزو والجهاد في منطقة "قسطموني" وحتى نهر " سقاريا " ؛ ولما ظهر التراخي بين أمراء أبناء

⁶⁹ انظر في هذا الخصوص ، سيد محمد السيد ، دراسات في التاريخ العثماني ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص.

٤٣-٤٥ ، كذا انظر : Halil Inalcik, "Osmanlı Tarihine Toplu Bir Bakis", Osmanli, Ankara 1999, I/32-60; ayn. Mlf., "Osmanli Devletinin Kuruluşu", Türkler, Ankara 2002, IX/73-80; ayn.mlf., "The Gustian Of The Emergence Of The Ottoman State", IJTS., II/2 (1982),p. 54-66; Ahmet Şemşirgil, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşunda Hizmeti Geçen Alpler ve Gaziler", Türkler, IX/99-105; Zafer Erginli, " Osmanlı Devleti'nin Kuruluşunda Türk Dervişlerinin İzleri", 107-112

Yasar Yucel, XIII-XV. Yuzyillar Kuzeybatı Anadolu Tarihi, ⁷⁰

Coban Ogullari, Candar ogullari Beylikleri, Ankara 1980; Feridun Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu'da Beylikler

Dunyasi, Istanbul 2001

جوبان ، أخذ عثمان غازي يجذب الغزاة في تلك المناطق تحت لوائه ، حيث استطاع تأسيس إمارة حدودية في منطقة سقاريا الوسطى^{٧١} .

وإذا كانت المصادر السلجوقية المعاصرة والمصادر العثمانية المتأخرة لم تورد لنا معلومات قطعية حول عثمان غازي مؤسس الإمارة التي حملت اسمه ، فإن روايات أحد شهود عيان هذه الفترة المبكرة المؤرخ البيزنطي باتشيميرز Pachimeres حول عثمان راحت تميظ اللثام بعض الشيء عن المراحل الأولى لتأسيس إمارة آل عثمان وحتى عام ١٣٠٧م/٧٠٧هـ .

وإذا كان عاشق باشا زاده راح ينقل عن مناقب ياخشي فقيه قوله بأن عثمان غازي قام بفتح يكي شهر وابنه كول وبيله جك غربي أسكيشهر عام ١٢٩٩م/

⁷¹ يؤكد المؤرخ البيزنطي المعاصر لوقائع هذه الفترة Pachimeres باتشيميرز المعلومات الواردة في المصادر العثمانية المتأخرة ، حيث يذكر أن جبال بافلاجونيا - قسطنطين كانت تغص بالعشائر التركمانية خلال النصف الثاني من القرن ١٣م ، وأن فشل مساعي إمبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن خلال الستينيات من هذا القرن لتشكيل قوة حدودية أدت إلى ضعف الخط الدفاعي البيزنطي على طول الحدود الشرقية ، وأن اضطرابه لفرض ضرائب جديدة على أهالي المنطقة دفع هؤلاء الأهالي للميل إلى الأتراك الذين راحوا يقدمون المساعدات لهم ، وأنه إذا كان اندرونيكوس ابن ميخائيل قد عبر إلى الطرف الأناضولي بنفسه لتحصين مناطق بورصة وإزنيق وأولوباد عام ١٢٩٠م ضد هجمات العشائر التركمانية ، إلا أن هذه التدابير لم تكن كافية . وأشار المؤرخ البيزنطي إلى أن قائد الغزاة الذي يدعي عثمان راح يتولى قيادة الغزو في المنطقة عقب مقتل مظفر الدين ياولاق أرسلان ابن جوبان (١٢٩١-١٢٩٢) وتنازل ابنه محمود عن قيادة الغزو في تلك المنطقة لإخيه علي الذي لجأ إلى البيزنطيين ، وأن عثمان بك قام إثر ذلك بقيادة الغزو على الحدود الغربية تابعاً لأمير قسطنطين ، حيث تجمع حوله التركمان الذين جاؤوا من بافلاجونيا . وراح هذا المصدر يؤكد بأن عثمان بك أمكن له إلحاق الهزيمة بجيش بيزنطي تحت قيادة موزولون في موضع يطلق عليه اسم " بافوس عام ١٣٠١-١٣٠٢م ، لمطالعة تفصيلات أكثر حول ماجاء بهذا المصدر البيزنطي ، أنظر : Halil Inalcik, " Osmanli Tarihine Toplu Bir Bakis", Osmanli, I/40; ayn.mlf., Osman Gazi'nin Iznik Kusatmasi ve Bafeus Savasi", Sogut'ten Istanbul'a, s/ 307, Y. Yucel, Cobanogullari-Candarogullari Beylikleri, s.49

٦٩٩هـ، وأنه أمر بقراءة الخطبة بأسمه في مدينة قره جه حصار ونقل مركز إمارته إلى مدينة "بيله جك" في نفس العام ، فكان ذلك إيذاناً بإعلان إستقلال إمارة آل عثمان استقلالاً فعلياً ، وأنه ألحق الهزيمة بتكفور بورصه وواصل هجماته شرقي نهر سقاريا حتي وصل إلي نواحي إزميت^{٧٢} ، فقد ذكر باتشميرز عثمان بك كشخصية تاريخية وقائد عسكري لأول مرة عند سرده لوقائع معركة بافوس / Pafeus التي تعرضت فيها القوات البيزنطية تحت قيادة موزولون Mouzolon للهزيمة علي يد من أطلق عليه اسم "أتمان / Atman" في حوالي عام ١٣٠١م/٧٠١هـ — أو ١٣٠٢م/٧٠٢هـ . وراح المؤرخ البيزنطي يؤكد بأن الغزاة الذين كان يقودهم عثمان غازي راحوا يشنون الهجمات علي طول المناطق الممتدة من إزنيق وحتى بورصه ، حيث قاموا بقطع الطرق بين المدن المحاطة بالأسوار في تلك المناطق ، الأمر الذي أجبر أهالي هذه المناطق علي اخلائها . ويذكر باتشميرز أن الأمراء البيزنطيين المستقلين في الأناضول خلال هذه الفترة راحوا يشكلون فرق مرتزقة عرفت باسم "قاتالانلي" للتصدي لهجمات غزاة التركمان علي طول الحدود البيزنطية ، غير أن التحول المفاجئ في علاقة عثمان بك مع هؤلاء الأمراء الذين اختلفوا مع بيزنطة بعد عام ١٣٠٤م/٧٠٤هـ ، أدى لتفكك هذه الفرق العسكرية ، حيث تمكن الغزاة العثمانيين من فتح عدد كبير من القلاع الحدودية المستعصية التي امتدت من أسكيشهر إلي بورصه وإزنيق ، حتي أنهم أجبروا حاكم بورصه علي دفع خراج سنوي لهم .

وبذلك ، اضطر إمبراطور بيزنطة لتوطيد علاقته مع الحاكم الإلخاني أوجايتو، وسعي لمصاهرته مقابل مساعدته في التصدي لهجمات غزاة عثمان بك (١٣٠٥م/٧٠٥هـ) . وإذا كان الحاكم الإلخاني راح يعد إمبراطور بيزنطة بالتدخل وارسال عدد كاف من الجنود للمنطقة ، إلا أن عثمان بك الذي علم بالأمر أسرع

⁷² فيما يتعلق بما جاء عن عاشق باشا زاده ، انظر : Tevarih-i Al-i Osman, nşr. N. İstanbul 1947, s.105-111 Atsız, Halil Inalcik, وذلك نقلاً عن "Osmanli Develetinin Kuruluşu", Turkler, Ankara 2002, IX/70-71,

بتشديد الحصار علي مدينة قره حصار حتي فتحها (١٣٠٧م / ٧٠٧هـ) وراح يقطع الطريق بين ازنيق وإزميت ، ولم ينقذ وصول القوات الإلخانية للمنطقة العديد من القلاع التي تساقطت في يد عثمان غازي الواحدة تلو الأخرى^{٧٣} .

والحقيقة ، لم يصل لأيدينا أي مصدر معاصر يلقي لنا الضوء علي الفترة التي تمتد بين عامي ١٣٠٧-١٣٢٦م / ٧٠٧-٧٢٦هـ ، حيث انشغلت بيزنطة عما يجري علي طول حدودها الشرقية بالحروب الداخلية التي اشتعلت عام ١٣٢١م / ٧٢١هـ — فاسحة الطريق لغزاة عثمان لتوطيد أقدامهم في المنطقة ، والإعلان عن مولد إمارة جديدة في الطرف الغربي من الأناضول^{٧٤} .

وعلي هذا النحو ، كانت شهرة غزوات عثمان غازي ورفاقه تفعل فعلها الخرافي بين الأهالي البيزنطيين ، كما كان لها أيضاً تأثير عظيم في تثبيت أقدام عثمان غازي كقائد فذ لحركة الجهاد في تلك المنطقة الحدودية بين أهالي الإمارات التركمانية المجاورة ، وذلك فضلاً عن تأثيرها العميق علي جماعات الآحيان والطرق الصوفية المنتشرة في مناطق الحدود الغربية للأناضول . وبذلك اكتسبت كلمة "عثمانلي" مغزاها الذي استمر لأكثر من سبعة قرون متتالية .

⁷³ بخصوص ما ورد علي لسان باتشميرز من معلومات انظر : C. Heywood, " Osmanlı Devletinin Kuruluş Problemi, Yeni Hipotez Hakkında Bazı Düşünceler", Osmanlı, I/137vd.; Feridun Emecen, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşundan Fetret Dönemine", Türkler, IX/19-20 Feridun Emecen, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşundan Fetret ⁷⁴ Dönemine", Türkler, IX/19-20

أورخان غازي

المؤسس الحقيقي للإمارة العثمانية

(١٣٢٤ - ١٣٦٠ م / ٧٢٤ - ٧٦١ هـ)

كان أورخان غازي يقود حركة الفتح في غربي الأناضول منذ عام ١٣٢٠ م / ٧٢٠ هـ . وفي الوقت الذي تمكن فيه من فتح مودانيا وتشديد الحصار علي بورصة (١٣٢١ م / ٧٢١ هـ) ، كان بعض رفاقه مثل كونور آلب وأقچه قوجه يشددون الحصار على أزميت ويسيطرو علي نواحي بحيرة سبانجه . ولما خلف أورخان غازي والده في قيادة حركة الغزو ومباشرة شئون الإمارة (١٣٢٤ م / ٧٢٤ هـ) : زاد من إحكام الحصار علي بروصة حتي تمكن من فتحها في ٢٤ ربيع الآخرة ٧٢٦ هـ / ٦ إبريل ١٣٢٦ م واتخاذها عاصمة للإمارة العثمانية ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد^{٧٥} .

وعقب فتح بورصة ، وسقوط أولوباد ، قام العثمانيون في العام التالي (١٣٢٧ م / ٧٢٧ هـ) بحصار إزنيق ، الأمر الذي أجبر الإمبراطور البيزنطي اندرنيكوس الثالث علي جمع جيش قاده إلى إزميت لحماية المنطقة وانقاذ إزنيق . وهكذا ، وقعت أول مواجهة بين إمبراطور بيزنطي وأحدي الإمارات التركمانية في الأناضول في ٤ شعبان ٧٢٩ / ١٠ يونية ١٣٢٩ عند موضع يقال له "بلاكه نون" ، حيث تمكن أورخان غازي من هزيمة الإمبراطور وإلحاق خسائر كبيرة بجيشه^{٧٦} . والحقيقة أن هذا الانتصار مكّن أورخان غازي من تحقيق عدة مكاسب أهمها :

⁷⁵ فيما يتعلق بفتح بورصة انظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yüzyılları (1291-

1389), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s.152 vd.

⁷⁶ لتفصيلات أكثر حول مواجهات بيزنطة مع غزاة التركمان علي الحدود الشرقية للدولة ، انظر :

D. Nicol, Bizans'in Son Yüzyılları (1291-1389, s180-181

- اكتساب أورشان غازي شهرة كبيرة سواء بين أتباعه أو بين الأمراء التركمان الآخرين في المنطقة .
- فتح الطريق أمام العثمانيين للسيطرة على شبه جزيرة قوجه إيلي .
- فتح إزنيق نفسها في ١٤ جمادى الأولى ٧٣١ / ٢ مارس ١٣٣١ .
- أجبار الإمبرطور البيزنطي علي توقيع معاهدة مع أورشان لأول مرة ارتضي فيها دفع الخراج عن عدد من المدن الموجودة في منطقة " بيتينا " .
- فتح العثمانيين لإزميت عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م بعد حصار طويل لها ، واقتراهم من سواحل البحر الأسود ومضايق إستانبول^{٧٧} .

ضم أملاك إمارة قراسي :

لقد أثبت القرائن أن منطقة غربي الأناضول كانت تحت النفوذ الإخاني خلال أواسط القرن ٨هـ / ١٤م ، حيث كان العثمانيون يشعرون شعور بقية الإمارات التركمانية الأخرى في المنطقة بالسطوة الإخانية عليهم ، ومن ثم كانوا جميعاً يتبعون سياسة حذرة في الأناضول .

أما عن علاقة إمارة آل عثمان بالإمارات التركمانية المجاورة لها ، فقد انحصرت خلال الفترة من إعلان عثمان غازي استقلاله وحتى فتح بورصة في إمارات أبناء حوبان وإمارات أموري وكيرميان وقراسي الموجودة في منطقة بولي . فبينما كانت إمارة آل عثمان تقوم بالغزو في مناطق الحدود البرية البيزنطية تحقق الفتوحات ويعظم شأنها باطراد، كانت الإمارات الساحلية صاروخان وآيدين ومنتشه وقراسي تباشر فعاليات

⁷⁷ بخصوص نتائج المواجهة الأولى بين العثمانيين وبيزنطة انظر : Osman Turan, Selcuklulr Zamaninda Turkiye, s.645-650; D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1389), s.185vd.

الغزو في بحر إيجه والجزر القريبة من الأناضول دون تحقيق إنجازات كبيرة ، أما الإمارات التركمانية الأخرى الموجودة في المناطق الداخلية فكانت غرقى في مشكلاتها المحلية^{٧٨} .

ولذلك كان للنجاحات التي حققها أورخان غازي غربي الأناضول تأثير كبير في وضع ملامح علاقة العثمانيين بتلك الإمارات جميعاً . فلم يشغل العثمانيون بمشكلات الإمارات المجاورة حتى أواسط القرن ١٤م / ٨هـ ، إلا أن فتحهم للقلاع البيزنطية " اولوباد " و " ميخاليج " و " كيرماسي " التي كانت تفصل بين الأملاك العثمانية ومدينة باليكسير مركز إمارة قراسي ، والتقاء طورسون بك شقيق دмирخان أمير قراسي إلي أورخان طالباً مساعدته في صراعه علي تولية الإمارة مقابل تنازله عن باليكسير وبعض القلاع الأخرى ، مكّن العثمانيين من التدخل في مشكلات الإمارات الأناضولية لأول مرة .

وبالفعل خرج أورخان برفقة طورسون بك في حملة ضد أخيه دмирخان . وإذا كان حصار باليكسير لم يدم طويلاً ، حيث أجبر دмир خان علي الاستسلام والتنازل عن باليكسير وأدينجيك وقايداغ و نواحيها ، إلا أن طورسون بك سقط صريعاً أثناء عملية الحصار . وعلي الرغم من بقاء عدد من المناطق في يد أمير قراسي دмирخان ، أسرع كبار أمراء قراسي مثل حاجي ايلبكي وأورنوس بك وأجه خليل وغازي فاضل بالانضمام لإمارة آل عثمان ، حيث لعبوا دوراً هاماً في فتوحات الروميلي خلال عصري أورخان ومراد الأول^{٧٩} .

⁷⁸ حول علاقة إمارة آل عثمان خلال هذه الفترة المبكرة بمختلف إمارات وسط وغربي الأناضول، انظر : Feridun Emecen, İlk Osmanlılar, s. 75-89; ayn.mlf., Osmanlı Devletinin Kuruluşundan Fetret Donemine, Türkler, IX/21-22

⁷⁹ لقد كان لضم أغلب أراضي إمارة قراسي التي كانت تمتد حدودها إلي برجامه وحتى سواحل بحر إيجه بالأراضي العثمانية عقب فتح إزميت بمثابة فتح جديد حيث مكّنها من السيطرة علي كل سواحل مرمرة ، ومهد الطريق لعبور العثمانيين إلي الطرف الأوروبي والتدخل في مشكلات العرش البيزنطي ، انظر في هذا الخصوص : E Zachariadou, "Karesi ve Osmanlı Beylikleri

ومن ناحية أخرى ، كان وفاة علاء الدين أرتنا أمير إمارة أرتنا في وسط الأناضول واختلاف أبنائه من بعده ، سبباً لتدخل أورخان غازي في شئون هذه الإمارة أيضاً ، حيث سعي لتأمين حدوده الشرقية ، وأرسل قوة تحت قيادة ابنه سليمان باشا ، استطاع بها الاستيلاء علي " أنقره " في ١٣٥٤م/٧٥٥هـ^{٨٠} .

انتقال العثمانيين إلى الروميلي : كان العثمانيون قد نجحوا في العبور

من بحر مرمرة إلى سواحل تراقيا الشرقية لأول مرة عام ١٣٢١م/٧٢١هـ — ، حيث تعرفوا علي تلك المناطق المجهولة . أما العبور الثاني للعثمانيين إلى الساحل الغربي للبوسفور فكان بغرض تأييد أحد المتنافسين علي العرش البيزنطي عام ١٣٢٧م/٧٢٨هـ . وعلي أثر وفاة إمبراطور بيزنطة أندرونيكوس الثالث (١٣٤١م/٧٤٠هـ) ، وتولية ابنه الصغير يوانيس باليولج (تسع سنوات) العرش ، وخروج الرصي علي الإمبراطور الصغير كانتاكوزين عن الطاعة واعلان نفسه إمبراطوراً في ديمتوقه ، استعان كانتاكوزين في البداية بأمور بك ابن أيدين ، ثم راح بعد عام ١٣٤٤م/٧٤٣هـ يطلب المساعدة من أورخان غازي الذي أسرع بتوطيد صلته بكانتاكوزين ، فتزوج ابنته تيودور عام ١٣٤٦م/٧٤٥هـ ، وأمدّه بنحو عشرين ألفاً من الفرسان . وبذلك انتقلت القوات العثمانية إلى الروميلي لمساعدة كانتاكوزين ضد إمبراطور بيزنطة من ناحية ولمواجهة محاولات البلغار والصرب استثمار هذه التطورات لصالحهم من ناحية أخرى ، وذلك مقابل تنازله عن قلعة " جيمي " في شبه جزيرة غاليبولي^{٨١} .

Iki Rakip Devleti", Osmanli Beyliginin Kurulusu, Istanbul 1996, 243-255; Feridun Emecen, İlk Osmanlilar, s.86-89

⁸⁰ في هذا الخصوص أنظر : M. Akdag, " Ankara Sultan Alaeddin Cami : Kapisinda bulunan Hicret 763 Tarihli Bir Kitabenin Tarihi Onemi", Tar'h Vesikalari, III/18, (Mart 1961), s. 366-373.

⁸¹ لتفصيلات أكثر حول هذا الموضوع انظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 135vd.

إن نجاح العثمانيين في بسط نفوذهم علي منطقة قوجه إيلي وسواحل بحر مرمره، وفي إلحاق أراضي إمارة قراسي غربي الأناضول ، وفي تأمين حدودهم الشرقية بضم أنقرة ، أتاح لهم الاستفادة المثلي من المشكلات الداخلية التي عاشتها بيزنطة عقب موت أندرينكوس الثالث ، ومهد الطريق للعبور إلي الطرف الأوروبي . والحقيقة أن أحداً في هذا العصر لم يكن يتخيل أن اتخاذ العثمانيين لهذا الموضع الصغير في جيمي موضع قدم لهم يمكن أن يمثل تطوراً هاماً لعدة قرون قادمة بين الشرق والغرب . فلم تكن سيطرة العثمانيين علي جيمي نقطة تحول في التاريخ العثماني فحسب ، بل في تاريخ أوروبا أيضاً .

وهكذا ، عبرت القوات العثمانية تحت قيادة سليمان باشا بن أورخان إلي شبه جزيرة غاليبولي بهدف مساعدة كانتاكوزين عام ١٣٤٩م/٧٤٨هـ ، حيث عادت الحملة بعد تمكين نفوذه في بيزنطة . إلا أن سليمان باشا اضطر للعودة مرة أخرى إلي المنطقة عام ١٣٥٢م/٧٥١هـ ، حيث ألحق الهزيمة بأعداء كانتاكوزين من القوات الصربية والبلغارية^{٨٢} . وبعد أن أدى سليمان باشا ما كلف به من مهام ترك عند عودته قسم من قواته في قلعة "جيمي" التي اتخذت قاعدة عسكرية للعثمانيين في المنطقة . وإذا كان كانتاكوزين قد قدم ضمانات عديدة للعثمانيين للحلاء عن القلعة ، إلا أنهم أبوا أن يتخلوا عن هذا الموقع الإستراتيجي . وفي هذه الأثناء وقع زلزال هائل في أوائل مارس ١٣٥٤م/٧٥٣هـ انهارت علي أثره أسوار غاليبولي وفر منها أهلها ، فدخلت قوات سليمان المدينة الإستراتيجية غاليبولي ، وراحوا يسيطرون علي جميع أنحاء شبه الجزيرة .

⁸² لما تولى كانتاكوزين السلطة في بيزنطة ترك ليوانيس باليولوج بعض الأراضي في تراقيا ، إلا أن الأخير اختلف مع ماتئوس ابن كانتاكوزين ، فقام يوانيس بمساعدة من صربيا وبلغاريا بالاستيلاء علي أراضي ماتئوس وحاصر أدرنه ، فطلب كانتاكوزين المساعدة مرة أخرى من أورخان غازي الذي أسرع بإرسال ابنه سليمان باشا مرة أخرى علي رأس قوة قوامها ما بين ١٠-١٢ ألف فارس انتقلت إلي الطرف الأوروبي بمساعدة السفن الجنوية تمكنت من إلحاق الهزيمة بقوات يوانيس ومؤيديه علي طول نهر مريچ في خريف عام ١٣٥٢م : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 225 vd.

ولما أدرك كانتاكوزين خطورة استقرار العثمانيين في شبه جزيرة غاليبولي ، عرض علي أورشان شراء جيمي وترك غاليبولي ، إلا أن أورشان رفض هذا العرض ، فحوّل كانتاكوزين وجهته إلى الصرب والبلغار طالباً المساعدة منهم لطرد القوات العثمانية من تراقيا⁸³ .

وهكذا ، حالت الخلافات في البلقان دون حدوث تقارب مع إمبراطور بيزنطة الذي ترك وحيداً أمام الزحف العثماني في تراقيا . فاتخذ سليمان باشا من غاليبولي مقراً له ، وراح ينطلق منها بقواته حتى سيطر علي سواحل مرمرية حتى بولايير وتكيرداغ ؛ ثم توجه شمالاً باحثاً عن موضع قدم في تراقيا الشرقية ، ففتح مالقره وكشان وجوري . وبذلك ، كان استقرار العثمانيين في غاليبولي الخطوة الأولى التي تبتعتها خطوات متتالية نحو قطع الطريق بين استانبول وأوروبا من ناحية البحر ، وفتح شبه جزيرة البلقان حتى وصلوا إلى سلاسل جبال البلقان شمالاً ونهر قراصو غرباً .

استقرار العثمانيين في تراقيا الشرقية : وإذا كان العثمانيون قد

حرصوا علي نقل الأسري من جند الروم إلى الأناضول للحيولة دون قيامهم بحركات عصيان في المناطق المفتوحة ، فقد سلكوا سياسة حكيمة في جذب السكان المحليين من غير المسلمين واستمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية ، ومن ثم توطيد الاستقرار في تلك المناطق . وقد عرفت هذه السياسة التي خضعت لأحكام الشريعة الإسلامية في التواريخ العثمانية باسم " سياسة الإستمالة " ، وكانت أهم ملامحها :

⁸³ حول استيلاء العثمانيين علي قلعة جيمي والفتوحات الأولى لغاليبولي وما حوّلها أنظر : Munir Aktepe, "Osmanlilarin Rumeli'de İlk Fethettikleri Cimp Kalasi" Tarih Dergisi, sy.2(1950), s.283-306; Oikonomides, "From Soldires Of Fortune To Fazi Warriors The Tzympe Affair", Studies In Ottoman History Of Honour of Professor VI. Menage, Istanbul 1994, s. 239-247; Feridun Emecen, "Felibolu", DIA., XIV, 1

أ- حماية الإدارة العثمانية لأرواح وأموال غير المسلمين في إطار أحكام الشريعة الإسلامية.

ب- حماية دور العبادة ، وتمكين أهلها من ممارسة شعائرهم الدينية بحرية .

ج- إلغاء الضرائب الزائدة التي كانت مفروضة على أهالي المناطق المفتوحة .

د- الابقاء علي الأوقاف الدينية في المناطق المفتوحة .

هـ- إلغاء الإمتيازات الخاصة بالطبقة العسكرية المحلية الإقطاعية ، وضم هذه الطبقة إلي النظم العسكرية العثمانية .

وهكذا ، كان لهذه السياسة أثر ايجابي علي جميع طوائف الروم ورجال الكنيسة والطبقات العسكرية والقرويين . ففي الوقت الذي كانت فيه بعض الأسرات المحلية تقوم بالتصدي لتقدم الغزو العثماني السريع في البلقان بعقد الإتصالات مع الممالك الغربية في أوروبا ودعوتها لإعلان حملات صليبية ضد الدولة العثمانية ، كانت بعض الأسرات المحلية الأخرى تسعى لتفادي غزو أراضيها بالاعتراف بالنفوذ العثماني في المنطقة وقبول دفع الخراج السنوي للأمير العثماني بعد عقد الإتصالات الودية معه . وبذلك استطاع العثمانيون خلال فترة وحيزة الاستفادة من الخلافات المذهبية بين الأرثوذكس والكاثوليك في البلقان ، والمنافسات الشديدة بين البندقية وجنوة ، ومن ثقل الأزمات المالية والإقتصادية وزيادة أعباء الضرائب التي كانت تفرض علي أهالي المنطقة ، استطاعوا الاستفادة من كل هذا في فرض نفوذهم السياسي علي البلقان بسرعة مذهلة .

والحقيقة ، أن العثمانيين لم يستقروا في البلقان بقوة السلاح ، بل كانت للسياسة الحكيمة التي اتبعوها ، وللحروب الداخلية التي لم تتوقف بين الأسرات المحلية الحاكمة في البلقان ، وللوباء الذي اجتاح أوروبا في الفترة ما بين ١٣٤١-١٣٥٤م/ وأدي إلي خراب مناطق شاسعة من البلقان ، ولحركة هجرة العشائر التركمانية من الأناضول إلي المناطق المفتوحة حديثاً في الروميلي ، دور هام في اعتراف الكثير من

الحكام المحليين بالحكم العثماني في تراقيا الشرقية والغربية وإعادة العمران للمناطق الخربة والتمكين للإدارة العثمانية .

وكانت عمليات هجرة العشائر التركمانية إلى الأراضي المفتوحة من أوروبا قد بدأت منذ فتح سليمان باشا لمنطقة غاليبولي ، حيث تمكنوا من تأسيس قري ومقاطعات كاملة هناك بتشجيع من أمراء الحدود أمثال حاجي إيلبكي وأبناء أورانوس وأبناء ميخال، وبدعم من الدراويش وجماعات الأخيان الذين أخذوا يؤسسون أيضاً زواياهم في الخطوط المتقدمة . وقد قامت الإدارة العثمانية بتنظيم عمليات الهجرة بين التركمان تارة عن طيب خاطر وتارة أخرى بشكل قسري . ومنذ ذلك الحين وخلال النصف الثاني من القرن ١٤م/٧هـ ، فتح المهاجرون الجدد الطريق لتغيرات اجتماعية واقتصادية هامة في مناطق مختلفة من البلقان ، حيث كانت تراقيا ومقدونيا وشمال شرق الروميلي من أكثر المناطق جذبا للعشائر التركمانية المهاجرة من الأناضول . وقد استمرت عمليات الهجرة والإسكان في تلك المناطق بشكل متقطع حتى القرن ١٦م/١٠هـ^{٨٤} .

ومهما يكن من أمر ، فقد ارتبطت فتوحات تراقيا بنشاط الأمير سليمان باشا ورفاقه خلال أواخر عهد أورخان غازي ؛ فكما كانت وفاته فجأة في ١٣٥٩م/٧٦٠هـ سبباً لتوقف فتوحات العثمانيين في الروميلي مؤقتاً ، فقد قُتت أيضاً في عضد أورخان غازي الطاعن في السن ، حيث توفي علي أثرها في العام التالي (١٣٦٠م/٧٦١هـ) .

⁸⁴ بخصوص عمليات هجرة التركمان واسكانهم في المناطق المفتوحة من البلقان ، والسياسة التي اتبعتها

Omer L. Barkan, “ Osmanli Imprartorlugunda : انظر : Bir Iskan ve Kolonizasyon Metodu Olarak Surgunler”, Iktisat Fakultesi Mecmuasi, XIII/1-4,(1952), 56-78; ayn.mlf., “ Osmanli Imperatorlugunda Bir Iskan ve Kolonizasyon Metodu Olarak Vakiflar ve Temlikler”, Vakiflar Dergisi, II, (1942),s. 279-553; Halil Inalcik, “Osmanli Fetih Yonetimleri”, Sogut'ten Istanbul'a, s. 443-474,

الملاحم الأولى لتشكيلات الدولة العثمانية :

نقد كان فتح بورصة ثم إزنيق ، واتخاذ العثمانيين لموضع قدم في الطرف الأوروبي بفتح غاليبولي ثم انسياحهم في تراقيا ، نقطة تحول في كيان الإمارة العثمانية الصغيرة ، حيث انتقلت علي أثرها من مرحلة العشيرة وما ارتبط بها من عادات وأعراف إلي مرحلة الكيان السياسي المتكامل . فقد كان ضرب عملة " الأقچه " الفضية باسم أورخان غازي عام ١٣٢٧م / ٧٢٧هـ ، تأكيداً لإعلان الكيان السياسي العثماني في المنطقة ، حيث شعر هذا الكيان منذ ذلك الحين وعلي أثر الفتوحات المتتالية التي حققها في البلقان بحاجته الملحة لموضع تشكيلات إدارية وقضائية وعسكرية لحماية مقاصده العليا ورعاية شئون رعاياه .

ولما كانت إمارة آل عثمان ، واحدة من إمارات الأناضول التابعة لدولة سلاجقة الأناضول والخاضعة إدارياً لنفوذ الإلخانيين ، فقد وقعت تشكيلاتها الأولى تحت التأثير المباشر لهاتين الدولتين . فقد كان الديوان الذي اتخذ مركز الإمارة مقراً له هو العنصر الأساسي للدولاب الحكومة ، حيث كان يرأس هذا الديوان الحاكم الذي هو رئيس الدولة ، ويرأسه عند الضرورة الوزير الذي هو نائباً للحاكم ورئيساً للحكومة . ويعتبر علاء الدين باشا هو أول من عُين في منصب الوزارة في الإمارة العثمانية ، وكان من طائفة العلماء . وكانت الشئون العسكرية للدولة توجه لشخص يعرف باسم " صوباشي " أو لأمير الأمراء " بكربكي " فيما بعد . وكان الديوان هو المرجع الأول لكافة شئون الإمارة ، حيث كانت تصدر عنه كافة الأحكام التنفيذية . واستمرت الشئون العسكرية للدولة تنظر بمعرفة الصوباشي وأمير الأمراء حتي تولية جاندارلي قره خليل للوزارة .

ومنذ عهد عثمان غازي ، كانت الأراضي توجه للأمراء الغزاة الذين قاموا بفتحها ، وذلك وفقاً للأعراف السلجوقية القديمة ، حيث تم توجيهها فيما بعد لقواد

الجنود في ساحات القتال كمناطق سنجقية ، أي تلك المناطق التي يرفرف فوقها سنحق (علم) هذا القائد . وكان صاحب السنحق ينظر في كافة الشؤون العسكرية والأمنية في منطقته ، إلا أن الشؤون القضائية والشرعية فيها كانت تنظر بمعرفة "القاضي" . وكان قاضي بورصه هو أعلي مرجع للشؤون القضائية والعلمية للإمارة العثمانية في ذلك الوقت ، حيث كان تعيين وعزل قضاة السناحق واحدة من أهم مسؤولياته ، وذلك حتي استحداث منصب " قاضيعسكر " في عهد مراد الأول .

من المعروف أن قوات العشائر التي قامت بالفتوحات الأولى كانت من الفرسان . ولما شعرت الإمارة العثمانية بحاجتها لقوات جاهزة للحرب في كل وقت ، اقترح قاضي بورصه جاندارلي قره خليل تشكيل قوات عاملة من الشبان التركمان ، بحيث يتخذ منهم المشاة (يايا) والفرسان (مُسلم) . وهكذا ، تم اختيار ألفين من الفتية التركمان الأشداء القادرين علي الحرب والترحال ، حيث كان يوزع علي كل منهم يومية قدرها أفچه واحدة وقت الحرب ، أما في وقت السلم فكان يترك لهم عشور الأراضي المعينة لهم ، كما كانوا يعفون من دفع أية ضرائب عليها . ولما كثر عدد هذه القوات ، تم تقسيمهم بالتبادل في وقت السلم والحرب . أما جند المسلم فقد انقسموا إلي بلوكات كل منها يتراوح بين عشرة أفراد إلي مائة فرد ، حيث كان رئيس العشرة يعرف بإسم "اونباشي" (اوكباشي) ، ورئيس المائة "يوزباشي" ، وقائد الفرقة التي تبلغ ألفاً فيعرف باسم "بنباشي" (بكباشي) . وقسمت فرقة الفرسان (مسلم) إلي اوجاقات يبلغ كل منها ثلاثين فرداً ، حيث كان يخرج للحرب منهم في كل مرة خمسة أفراد بالتبادل أيضاً . وقد استمرت هذه القوات تقوم بمسؤولياتها بنجاح حتي تشكيل فرق الدرگاه العالي (قاپو قولي /خدم لباب) ، حيث راحت تستخدم في مؤخرة الجيش بعد ذلك .

وهكذا ، يعتبر أورخان غازي هو المؤسس الفعلي للإمارة ثم الدولة العثمانية ، ففي عهده ضربت العملة وعقد أول ديوان وأسس أول جيش ، وأثبت وجود إمارة آل

عثمان السياسي في الأناضول والروميلي ، وفتح الباب لابنه مراد غازي لترسيخ نفوذ الدولة شرقاً وغرباً وتوطيد دعائمها في الداخل وفي الخارج⁸⁵ .

⁸⁵ فيما يتعلق بالتشكيلات الأولى لإمارة آل عثمان ، أنظر : İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilâtı, Ankara 1948, s.1vd.; ayn. Mlf., Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâtı, Ankara 1945, s.9 vd.; ayn. Mlf., Osmanlı Devleti Teşkilâtından Kapı Kulu Ocakları, Ankara 1943, s. 5vd.; ayn. Mlf., Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilâtı, Ankara 1965, s. 1vd.; Yusuf Halacoğlu, XIV-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkilâtı ve Sosyal Yapı, Ankara 1996, s. 7, 43vd.

الأناضول والبلقان

في عهد مراد " خداوندگار "

(١٣٦٠-١٣٨٩م / ٧٦١-٧٩١هـ)

إذا كان أورخان غازي قد وضع الأساس الأول لتشكيل الدولة العثمانية السياسي والإداري والعسكري والقضائي ، فقد خطي مراد الأول بالدولة خطوات واسعة إلى الأمام موطئاً نفوذها السياسي في الأناضول وفي أوروبا في نفس الوقت ؛ فوحد الإمارات التركمانية غربي ووسط الأناضول تحت قيادته ، وقاد الغزاة باقتدار ، وساس شئون الدولة بحكمة مستفيداً من التطورات السياسية التي كانت تمر بها بيزنطة وممالك البلقان .

فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية ومملكة البلغار في طور الإهيار . أما إمبراطورية صربيا التي تمكن استيفان دوشان من تأسيسها فقد تمزقت عقب موته (١٣٥٥م/٧٥٦هـ) ، حيث أخذ كل أمير يعمل لمصلحته الخاصة . وبينما كان الأمراء اللاتين في اليونان والمورة قد ضعفوا نتيجة لتراعاتهم الداخلية ، لم يستطع اليونان والبنادقة والجنويون وأمراء رودس نبذ خلافاتهم وتوحيد قواهم لمواجهة الزحف العثماني . وفي ظل محاولات ملك المجر الكاثوليكي ليوش نشر مذهبه بالقوة بين سكان البلقان الأرثوذكس ، تمكن العثمانيون باحترامهم لحرية اعتناق الدين وبتطبيق مبادئ الإسلام السمحة بين الأهالي تمكنوا من فتح مدن وقلاع البلقان دون أية مقاومة تذكر من الأهالي المحليين^{٨٦} .

فتح أدرنة : كان مراد غازي قد تولي قيادة الغزو والجهاد في البلقان عقب وفاة أخيه سليمان باشا . فلما قبض علي مقاليد الحكم بعد وفاة أبيه أورخان وأستتب له

⁸⁶ أنظر في هذا الخصوص : A. Luttrell, " 1389 Oncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, s. 133-136; Melek Delilbaşı, "Osmanlı-Bizans İlişkileri", Türkler, IX/122-131

الأمر في الأناضول ، قام بتعيين لالا شاهين باشا في رتبة "بكلربكي" أي أميراً للأمرء ،
 وكلفه بقيادة القوات العثمانية والتوجه بها إلى الروميلي لاستعادة بورغاز وچورلي
 ومالقره التي كان الروم قد احتلوها عقب وفاة أورخان. والحقيقة أن "أدرنه" كانت هي
 الهدف الأول لمراد غازي عند عبوره لتراقيا . وإذا كان الباحثون قد اختلفوا في تاريخ
 فتح أدرنه التي كانت عاصمة ترافيا ، إلا أننا نطمئن إلى الرواية التي تشير إلى أنها فتحت
 عام ١٣٦١م / ٧٦٢هـ بالتنسيق بين لالا شاهين ومراد غازي بعد أن ألحقت هزيمة
 قاسية بالروم وبالقوات البلغارية التي جاءت لمساعدتهم ^{٨٧} .

لقد كان اتخاذ مراد الأول لأدرنه مقراً لحكمه في الروميلي وقاعدة عسكرية
 لجنده إعلاناً لرغبته في مدّ فتوحاته في البلقان من ناحية والإحاطة ببيزنطة من ناحية
 أخرى . فلمّا كانت قلعة أدرنه تسيطر على الطريق الممتد من العاصمة البيزنطية وحتى
 جبال البلقان ، حرص مراد الأول على اتخاذ مدينتها مركزاً عسكرياً لقواته في الروميلي.
 وانطلاقاً من أدرنه راحت القوات العثمانية تتقدم في ترافيا خطوة خطوة ، حتى دخلت
 ديمتوقه . ومن هناك أصدر مراد غازي الأمر للالا شاهين بالتوجه إلى "فليه" و"زغره"
 ففتحهما ، ولأورانوس بك بالتوجه إلى ترافيا الغربية ، فسيطر على كوملجينه
 (١٣٦٣م / ٧٦٤هـ) . وبذلك ، قطعت العلاقة بين البيزنطيين والصرب ، حيث أحير
 إمبراطور بيزنطة يوانيس الخامس على الاعتراف بالفتوحات العثمانية في البلقان وتعهد

⁸⁷ الحقيقة أنه تعددت الروايات حول التاريخ القطعي لفتح أدرنه ، حيث تشير بعض الدراسات إلى
 أن الفتح قد تم بعد حركة عسكرية منظمة قام بها مراد بك ولالا شاهين خلال عام ١٣٦١ وفي حياة
 أورخان غازي (Halil Inalcik, "Edirne'nin Fethi 1361", Edirne, Ankara 1965, s.137-160) ، في حين أن بعض الدراسات الأخرى تذكر أن الفتح قد تم
 بعد عام ١٣٦٦م أو خلال عام ١٣٦٩م استناداً إلى احدي المراثيات الشعرية ، انظر في هذا الخصوص
 : F.M.Emecen, "Tarih Koridorlarında Bir Sınır Şehri, Edirne",
 Edirne Serhattaki Bayitaht, Istanbul 1998, s.53vd.

بعدم تخريض أمراء البلقان ضد الدولة العثمانية ، وتقديم المساعدات للعثمانيين في مواجهاتهم مع الإمارات التركمانية في الأناضول^{٨٨} .

حركات المقاومة في تراقيا

لقد كان فتح أدرنه نقطة حول في منطقة تراقيا وحتى في البلقان كله ، فراحت الأصوات في أوروبا تعلوا مطالبة بطرد العثمانيين من البلقان ، ودعي بابا روما لحملة صليبية كبرى شارك فيها أمراء قبرص والجر ، وأخذ امبراطور بيزنطة يبحث عن حلفاء له لمواجهة العثمانيين المتربصين به حتى وجد دعماً من سافوي أمادو أحد أبناء عمومته عام ١٣٦٦م/ ٧٦٧هـ . فقام أمادو بشن هجوم مفاجئ علي شبه جزيرة غاليبولي ، وتمكن من احتلالها في ٢٣ أغسطس ١٣٦٦/ ٨ ذي القعدة ٧٦٧ . وفي العام التالي قام أمادو بتسليم غاليبولي لإمبراطور بيزنطة . وإذا كانت أوروبا قد شعرت بسعادة غامرة بهذا الإنجاز ، وراحت البابوية وبقية الدول الإيطالية تنسق مع القوات المحلية المشتركة لشن هجمات ضد العثمانيين للحد من نشاطهم في مختلف أنحاء البلقان ، إلا أنهم لم يستطيعوا اخراج العثمانيين من البلقان.

ومن ناحية أخرى ، راح مراد غازي يتابع سير الفتوحات في البلقان ، حيث تمكن من تصفية بؤر المقاومة في تراقيا الشرقية . فكما استطاع تيمورطاش باشا ولالا شاهين باشا فتح العديد من المناطق التابعة للبيلغار (١٣٦٧/ ٧٦٨هـ) ، تمكن مراد غازي من السيطرة علي مناطق استراتيجية أخرى تابعة لبيزنطة ، وذلك حتي أتم فتح تراقيا الشرقية بسيطرته علي بينارحصار وفيزه وقرقلاللي عام ١٣٦٩م/ ٧٦٨هـ^{٨٩} .

D. Nicol, "Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453)", s. 306-309; ⁸⁸
A. Luttrell, " 1389 Öncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, s. 136-139; Melek Delilbaşı,
"Osmanlı-Bizans İlişkileri", Türkler, IX/131-136

⁸⁹ فيما يتعلق بالتوسعات العثمانية في تراقيا الشرقية انظر : 1389 Öncesi ; A. Luttrell, " Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, s139

معركة جديرمن (١٣٧١م/٧٧٠هـ) : لقد أجبرت الفتوحات العثمانية في

الأراضي البلغارية أمير البلغار ايفان شيشمان علي عقد اتفاق مع العثمانيين يقضي بفرض الحماية العثمانية علي المناطق المفتوحة ، ودفع الخراج السنوي علي أراضيها ، وتزويج أخته ماريا لمراد غازي ، وذلك مقابل مساعدته ضد أخيه ستراتيسمير الذي استعان بالمجر وأتي بهم لبودين (١٣٧٠م/٧٦٩هـ) .

وإذا كان أمير البلغار ايفان شيشمان قد خرج علي هذا الإتفاق وتحالف مع أخيه أمير الصرب ووقاشين في العام التالي للنيل من القوات العثمانية الموجودة في مقدونيا ، فتحركا معاً صوب أدرنه في سبتمبر ١٣٧١م/ صفر ٧٧٣ ، إلا أن مراد غازي تمكن من ايقاع هزيمة شديدة بهذا الحلف علي سواحل نهر مريچ في معركة "جديرمن" ، حيث قتل الأمير الصربي وأخوته في أرض المعركة ، وفتحت أبواب مقدونيا وبلاد الصرب واليونان أمام الجيوش العثمانية ، وأعلن الكثير من أمراء الصرب التبعية للعثمانيين بشرط دفع الخراج للخزينة العثمانية^{٩٠} .

وهكذا ، راحت القوات العثمانية تزحف علي طول نهر واردار لم يوقفها شيء ، وبدأ غزاة الحدود وقوات المهاجمين (آقينجيلر) في شن الهجمات علي غربي شبه

vd., D. Nicol, "Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453)", s. 309-312

⁹⁰ لتفصيلات أكثر حول معركة جديرمن وزحف العثمانيين علي البلقان ، انظر : Şerif Baştav, Bizans İmparatorluğu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanlı Türk- Bizans Münasebetleri, Ankara 1989, s. 22-26 ; İ. Demirkent, " 14. Yüzyıla Kadar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti ", İ. Kosova Zaferinin 600. Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1992, s. 54 vd., Mucteba Ilgurel, " XVI Yuzyılda Omsnali Devletinin Siyasi Durumu", I. Kosova Zaferinin 600 Yildonumu Sempozumu, s. 18 vd., İbrahim Sezgin, "Osmanlıların Rumeli'ye Gecisi ve İlk Fetihler", Osmanlı, c.I, Ankara 1999, s. 215 vd.

جزيرة البلقان . وكما ارتضي إمبراطور بيزنطة ثم حاكم البلغار وغيره التبعية للعثمانيين ،
أجبر لازار حاكم الصرب العليا وأمراء الصرب الآخرين علي التفاهم مع العثمانيين أيضاً
(١٣٧٣م/٧٦١هـ) . والحقيقة أن الضغوط الشديدة التي مارسها مراد غازي علي
إمبراطور بيزنطة ووريثه علي العرش مكنت العثمانيين من استعادة غالبيولي مرة أخرى
عام ١٣٧٦م/٧٧٨هـ .

وكانت القوي الفاعلة في البلقان خلال هذه الفترة تتشكل من العناصر
الإقطاعية التي كان يمثلها الأمراء المحليين هناك ، ولم يكن هؤلاء حيلة في مواجهة
الضغوط الشديدة التي مارسها الامراء الغزاة الذين فرضوا نفوذهم علي مناطق البلقان إلا
بالإعتراف بتبعيةهم للعثمانيين . وكانت شروط هذه التبعية تنحصر في :

١ . الإعتراف بالنفوذ العثماني المطلق .

٢ . أداء الخراج الذي كان مقررأ علي الأراضي سنوياً .

٣ . إرسال فرق عسكرية لمساعدة الجيش العثماني عند اللزوم .

ولم يعجز العثمانيون عن اضافة بنود جديدة كلما أتحت لهم الفرصة ، بحيث
استطاعوا إحكام تبعية هذه المناطق لهم تدريجياً^{٩١} .

توسيع النفوذ العثماني في الأناضول : في الوقت الذي انشغلت فيه

الأسرات الحاكمة في البلقان بتزاعاتها الداخلية (١٣٧٦-١٣٨١م/٧٧٨-٧٨٣هـ) ،

^{٩١} فيما يتعلق بسياسة التبعية العثمانية تجاه إمارات الأناضول والبلقان خلال عهد مراد الأول ، أنظر :

A. Luttrell, "1389 Oncesi Osmanlı Genislemesine Latin Tepkileri", Osmanlı Beyliği, 1300-1389, İstanbul 1997, s. 32 vd., Stefhon W. Rainert, " Niş'ten Kosova'ya İ. Murad'ın Son Yıllarına İlişkin Düşünceler, Osmanlı Beyliği, İstanbul 1997, s. 46 vd.; İ. Demirkent, " 14. Yüzyıla Kadar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti ", İ. Kosova Zaferinin 600. Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1992, s. 83 vd.

كانت الدولة العثمانية الوليدة ترتب البيت من الداخل وتطور نظمها وتشكيلاتها الإدارية والعسكرية والعدلية المركزية وفقاً لتطورها السياسي ، وتضع القواعد التي تكفل للبلدان المفتوحة حديثاً في البلقان الأمن والاستقرار .

والحقيقة أن زحف العثمانيين علي الروميلي يُعد نقطة تحول هامة في علاقات إمارة آل عثمان بالإمارات التركمانية في غربي ووسط الأناضول . لقد اكتسب أمراء الحدود التابعين للعثمانيين شهرة عظيمة بين الإمارات التركمانية في الأناضول بسبب عمليات الغزو الناجحة في الحدود الغربية للروميلي . فكانت الرغبة الشديدة للوصول إلي تلك المكانة الرفيعة دافعاً لميل أغلب أمراء وسط وغربي الأناضول للحانب العثماني . وكان العثمانيون يتبعون سياسة حذرة للغاية تجاه الإمارات التركمانية في الأناضول عموماً وتلك التي تجاورهم علي وجه الخصوص . ولذلك فقد كشفت الدراسات الحديثة عن أن السياسة التي اتبعها العثمانيون خلال هذه المرحلة قد مرّت بمرحلتين متتاليتين :

الأولي - مرحلة التبعية ، أي انخراط تركمان غربي الأناضول في فيدرالية محدودة تحت الراية العثمانية خلال عهد مراد الأول .

الثانية - مرحلة ضم الإمارات التركمانية في الأناضول في نظام مركزي تقوده الدولة العثمانية خلال عهد ييلدرم بايزيد (١٣٨٩-١٤٠٢ م)^{٩٢} .

والحقيقة أن إمارة أبناء قرمان كانت تتبع في وسط الأناضول سياسة مشاهة لسياسة العثمانيين تجاه إمارات غربي الأناضول ، ومن ثم كانوا يمثلون منافسة حادة للعثمانيين . وفي الوقت الذي كان مراد الأول فيه يطبق سياسة التبعية هذه بشكل حذر في المنطقة ، كانت الإمارات التركمانية الصغيرة التي تقع علي الحدود بين هاتين

⁹² انظر في هذا الخصوص : Feridun Emecen, "Osmanlı Devleti'nin

Kuruluşundan Fertret Dönemine", Türkler, c.IX/26-27

الإمارتين الكبيرتين تحاول ضبط أوضاعها وفقاً لتحركات القرمانيين والعثمانيين . ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ العثمانيون يؤكدون قيادتهم في المنطقة عقب حادثتين هامتين :

الحادثة الأولى : تتمثل في فشل حملة جوريجوس أواخر فبراير

١٣٦٧م/٧٦٨هـ . والحقيقة أن هذه الحملة تعتبر حلقة من حلقات المنافسة العثمانية - القرمانية علي النفوذ في الأناضول ، حيث أراد القرمانيون أن يثبتوا من خلال تجريدهم لهذه الحملة أنهم يتفوقون علي العثمانيين في الغزو والفتح . وكان القرمانيون بصفتهم ورثة عاصمة سلاجقة الأناضول قد دعوا مختلف الإمارات التركمانية للمشاركة بقوات في هذه الحملة ، وذلك في الوقت الذي راح فيه قائد قلعة جوريجوس يطلب المساعدة من ملك قبرص . وإذا كانت القوات المشتركة لإمارات الأناضول قد حاولت اعتراض هذه لمساعدات ، إلا أن الحاق الهزيمة بهذه القوات وانسحابها إلي الجبال ، هز مكانة أبناء قرمان بقوة أمام الإمارات التركمانية الأخرى ، ووطد وضع مراد الأول في الأناضول نظراً لغزواته الناجحة في الروميلي^{٩٣} .

لقد كان خروج إلياس ابن حميد علي علاء الدين بن قرمان وأمره بجعل الخطبة والسكة باسمه ، من أولي نتائج هذا الإخفاق القرماني ، حيث اضطر الأمير إلياس لطلب المساعدة من مراد بن عثمان ، وسليمان بن كيرميان . ولما تولي حسين بك محل أبيه إلياس أثر الدخول في حماية العثمانيين لمواجهة القرمانيين ، فتنازل لمراد الأول عن عدد من القلاع والمدن الموجودة علي الحدود القرمانية أهمها آقشهر وبالواج وبكيشهر وسيدي شهر وقره آغاچ واسيرطه ، وذلك مقابل ثمانين ألف ذهبية^{٩٤} .

^{٩٣} بخصوص غزوة القرمانيين علي جوريجوس انظر : Ş. Tekindağ, "Karamanlılar'ın

Gorigos Seferi (1367)", Tarih Dergisi, sy.6(1954), s.161-174

S. Kofoglu, "Hamidoğulları", DIA., XV./473-474; Feridun M. ^{٩٤}

Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu'da Beylikler Dünyası, İstanbul 2001,s.45 vd.

ومن ناحية أخرى ، أراد مراد الأول اتمام تأمين حدوده مع إمارة أبناء كيرمیان ، حيث وجد السبيل إلى تحقيق رغبته هذه بتقديم ابنه الأكبر بايزيد للزواج من ابنة سليمان أمير كيرمیان " دولت خاتون " ، فقام الأخير بالتنازل عن مدن كوتاهية وطاوشانلي وأكری یوز وسیماو للعثمانيين كمهر لابنته (١٣٧٨م/٧٨٠هـ) . وبهذا الزواج السياسي يكون العثمانيون قد استطاعوا ضم جميع المدن التي كانت تقع غربي إمارة أبناء قرمان ، حيث صارت أراضيهم تجاور ممتلكات هذه الإمارة التركمانية من ناحية الشمال والغرب . وبذلك ، كان تعرض امارتي كيرمیان وحيد لضغوط المنافسة العثمانية - القرمية ، سبباً لمليلهما إلى الجانب العثماني خلال هذه الفترة .

الحادثة الثانية : وتمثل في دخول الإمارات الصغيرة التي تشكلت في المناطق الممتدة من توقات إلى آماسيا تحت الحماية العثمانية . وكان ممر طريق حرير إيران الذي فتح عقب ضم أنقرة (١٣٥٤م / ٧٥٥هـ) قد نشط كثيراً خلال عهد مراد الأول . فلمّا ظهرت تعديات القاضي برهان الدين وريث إمارة أرتنا في سيواس علي تلك الإمارات الصغيرة في المنطقة ، طلبت هذه الإمارات الحماية من العثمانيين ، الأمر الذي مكّن العثمانيين لمدّ نفوذهم إلى مناطق وسط الأناضول^{٩٥} .

بدء نشوب النزاع بين العثمانيين وأبناء قرمان : كان أبناء قرمان قد قاموا بتأسيس إمارتهم في نواحي أرمنك وموط ، حيث استطاعوا بسط نفوذهم علي قرمان وقرنيه عقب انهيار دولة سلاجقة الأناضول . والحقيقة أن قيام الأمير القرماني علاء الدين علي بك بالزواج من ابنة مراد الأول ملك خاتون (نفيسة سلطان) لم يحل دون نشوب الصراع علي النفوذ بين الطرفين في الأناضول .

لقد كان توسع العثمانيين في وسط الأناضول علي حساب إمارتي أبناء كيرمیان وأبناء حميد علي هذا النحو سبباً في ظهور الشقاق بين العثمانيين والقرمانيين . فقد سعي

^{٩٥} لتفصيلات أكثر انظر : Feridun Emecen, İlk Osmanlılar ve Batı

Anadolu'da Beylikler Dünyası, s. 78 vd.

علاء الدين علي بك ابن قره مان لتشكيل جبهة أناضولية ضد العثمانيين ، فاتفق مع حميد أوغلو كمال الدين حسين بك لاستعادة الأراضي التي تنازل عنها لمراد غازي مستفيداً من انشغال العثمانيين في الروميلي ، حيث قام بالإستيلاء علي بكشهر وبعض المناطق المحيطة بها (١٣٨٦م / ٧٨٨هـ) .

وعلي أثر هذه التطورات ، أسرع مراد غازي بالإستعداد للتوجه للأناضول مصطحباً معه قوات من الروم والصرب والتتار وفقاً لبنود اتفاقيات التبعية التي أشرنا إليها ، حيث ترك الوزير جاندارلي خليل خير الدين باشا علي رأس جيش الروميلي ، وعاد علي رأس جيشه متعدد الأجناس إلي بورصة . ولما تأكد أمير قرمان بأنه لا طاقة له بهذا الجيش ، أرسل إلي مراد غازي يعرض عليه السلام . إلا أن مراد ردّ طلبه متجاوزاً بجيشه حدود قرمان ، حيث وقع صدام شديد بين الطرفين أمام قونية انتهى بهزيمة علي بك عند موضع يقال له " فرنك ياريسي " وفراره ملتجئاً إلي قلعة قونية . وإذا كانت القوات العثمانية قد قامت بحصار علي بك لفترة طويلة ، إلا أنها رفعت الحصار عنه بعد أن شفعت له زوجته " نفيسة سلطان " ابنة مراد ، حيث وقع بين الطرفين معاهدة صلح عام ١٣٨٧م / ٧٨٩هـ . والحقيقة أن اضطراب الأوضاع في الروميلي ، ورغبة مراد في الانتقال بجيشه إلي الطرف الأوروبي ، كان هو الدافع الحقيقي لقبول العثمانيين لهذا الصلح^{٩٦} .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هذه الحرب أول مواجهة عسكرية بين العثمانيين وبين واحدة من أهم الإمارات الأناضولية التي تعتمد علي نفس العناصر التركمانية . وقد اعتبر المؤرخون هذه المواجهة بمثابة اعلان قوي عن الوجود العثماني في الأناضول . ولذلك كان لهذا الانتصار نتائج هامة بالنسبة للعثمانيين سواء في الأناضول أو في الروميلي ، يأتي علي رأسها :

⁹⁶ حول العلاقات العثمانية القرمانية انظر : Tekindağ, " Son Osmanlı Karaman Münasebetleri Hakkında Araştırmalar " Tarih Dergisi, İstanbul 1963, XIII/17-18.

أ- زيادة النفوذ العثماني في الأناضول : فقد كانت إمارة قره مان هي أقوى منافس لإمارة آل عثمان حتي ذلك الوقت . ولذلك كانت هزيمتها أمام العثمانيين في معركة فرنك ياريسي بمثابة إعلان علي عن تفوق العثمانيين المطلق وأحققتهم بزعامة إمارات الأناضول وبسط النفوذ علي أنحائها . وهكذا، أمكن للعثمانيين خلال الفترة ما بين ١٣٦٧-١٣٨٧ م / ٧٦٨-٧٨٩ هـ كسر النفوذ القرماني ، حيث اعترف القرمانيون بالنفوذ العثماني في الأناضول ، وراح العثمانيون يؤكدون في كل مناسبة علي التشكيل الفدرالي لإمارات الأناضول تحت زعامتهم المطلقة .

ب- بدء المشاركة الواسعة لقوات إمارات الأناضول التركمانية الأخرى مع الجيش العثماني في حملات البلقان : لما شاهدت إمارات الأناضول كيف قويت شوكة العثمانيين بمشاركة فرق من جيوش الممالك البلقانية في الحملة ضد علي بك ابن فرمان ، قامت بتلبية طلب مراد غازي بمشاركتها بفرق من جيوشها في الجيش الذي راح يعده العثمانيون لمواجهة الجيوش الأوروبية.

ج- تأمين حدود الشرقية للدولة العثمانية ، وتفرغ العثمانيين لمواجهة التكتلات الأوروبية التي كانت تسعى لاستعادة الأراضي التي فتحها العثمانيون والخروج علي بنود معاهدات التبعية التي وقعت معهم .

استئناف الفتوحات العثمانية في البلقان : لقد كان الدافع وراء تجديد

التحركات العثمانية في البلقان ، الاستفادة من حالة الضعف والاضطراب التي كانت تمر بها ممالك البلقان آنذاك ، واتخاذ خطوة إلي الأمام لبسط النفوذ العثماني المباشر علي بلاد البلغار والصرب والأرناؤوط . وهكذا أتاحت حركة العصيان التي قام بها ابن اميراطور بيزنطة يوانيس الخامس ضد أبيه وسيطرته علي مقاليد الحكم في الفترة ما بين ١٣٧٦-١٣٨١ م / ٧٧٨-٧٨٣ هـ ، والحرب التي نشبت بين بيزنطة وأهل جنوة في غلطة آنذ ، أتاحت لمراد الأول الفرصة لتوطيد أقدام العثمانيين في الروميلي.

ولذلك كان علي العثمانيين المبادرة بفتح صوفيا حتي يمكنهم السيطرة علي بلاد البلغار ، وفتح نيش لإقتحام بلاد الصرب ، وفتح مناستير للإنتلاق إلي بلاد الأرناؤوط . وبالفعل ، تمكن تيمورطاش باشا من فتح مناستير ثم برلبه في عام ١٣٨٠م/٧٨٢هـ ، ثم استطاع جاندارلي خليل باشا واورانوس بك من إعادة فتح سره ز عام ١٣٨٣م/٧٨٥هـ . وكما استسلمت صوفيا للقوات العثمانية بعد حصار طويل لها عام ١٣٨٥م/٧٨٧هـ ، تكللت هجمات ياخشى بك ابن تيمورطاش باشا علي الأطراف الشمالية لبلاد الصرب بالنجاح بفتح نيش عام ١٣٨٦م/٧٨٨هـ ، واستطاعت القوات العثمانية الوصول إلي سلانيك التي تحصن فيها مانويل ابن امبراطور بيزنطة ، حيث تمكنت من فتحها بعد تشديد حصار عليها في ٩ إبريل ١٣٨٧/ ١٢ ربيع الأول ٧٨٩هـ^{٩٧} .

التحالف بين البلقانيين ضد النفوذ العثماني : لقد كان الشعور المشترك لملك

البوسنة وملك الصرب وأمراء الخروات والأرناؤوط بضرورة التصدي للنفوذ المجري من الشمال والنفوذ العثماني من الجنوب ، دافعاً للبحث عن وسيلة يمكن من خلالها تشتيت القوي العثمانية . ولذلك ، سعي المتحالفون للإتفاق مع علاء الدين علي بك ابن قره مان علي فتح جبهة ضد العثمانيين في الأناضول وفي البلقان في وقت واحد . وبالفعل ، في الوقت الذي كان فيه مراد غازي يجبر ابن قره مان علي طلب الصلح عقب معركة فرنك ياريسي ، أمكن لملك الصرب وملك البوسنة إلحاق الهزيمة بالقوات العثمانية الحدودية عند بولشنيك (١٣٨٧م/٧٨٩هـ) . والحقيقة أن هذه الهزيمة جعلت كافة ملوك البلقان والخروات والأفلاق والمجر وامرائها يتحالفون مع ملوك وأمراء البنغار والصرب والأرناؤوط لخوض مواجهة حاسمة مع العثمانيين .

⁹⁷ D. Nicol, Bizans ve Venedik, trc. G.Ç.Gücen, İstanbul 2000, s. 250; İ. Demirkent, "14 Yzyıla Kardar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti", İ. Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989, s. 8 vd.

ولما علم مراد غازي بهذا التحالف ، خطط لإخراج البلغار من هذا الحلف أولاً، حيث أمر الوزير الأعظم جاندارلي زاده علي باشا بالخروج علي رأس قوة قوامها ثلاثين ألف فرد صوب بلاد البلغار (١٣٨٨م / ٧٩٠هـ) ؛ وفي نفس الوقت وجه الدعوة لأمرء الأناضول للمشاركة في مواجهة هذا التحالف البلقاني . وهكذا ، تمكن علي باشا من الإستيلاء علي مركز مملكة البلغار طبرننوا ، ثم علي سلسرته ونكبولي علي نهر طونه ، حيث أجبر ملك البلغار علي طلب الصلح مع العثمانيين ، ومن ثم خصصر الحلف البلقاني عنصراً هاماً من عناصره^{٩٨} .

معركة قوصوه (١٣٨٩هـ / ٧٩١هـ) : استعد مراد غازي لمواجهة أخيرة في

البلقان ، فعبر إلي الروميلي مصطحباً معه أبنيه بايزيد ويعقوب وأورانوس غازي وباشا يكييت غازي ، علاوة علي عدد من فرق أمرء الأناضول . وهكذا صدر القرار بالتوجه إلي " برشتينه " مقر حاكم الصرب ، فأسرع الجيش العثماني باحتلال مواقعه في وادي قوصوه . أما جيش الحلفاء الذي كان يتشكل من قوات الصرب والبوسنة والمجر والأفلاق والأرناؤوط والتشيك فقد كان تحت قيادة لازار حاكم الصرب وتوارتقو ملك البوسنة . وفي صباح يوم ٢٨ يونية ١٣٨٩م / ٢٥ جمادي الآخرة ٧٩١هـ اصطف الجيشان ؛ فقام ييلدرم بايزيد بن مراد بشق صف جيش الحلفاء بفرقته ، حيث اشتعلت بين الفريقين معركة حامية الوطيس . وأخيراً ، تمخضت المواجهة عن هزيمة قاسية لجيش الحلفاء وقتل ملك الصرب لازار نفسه وابنه وعدد كبير من أتباعه وأمرائه . وإذا كان العثمانيون قد حققوا انتصاراً حاسماً في هذه المعركة ، إلا أن مراد غازي قتل أيضاً في أرض المعركة^{٩٩} .

⁹⁸ فيما يتعلق بالفعاليات الأوروبية التي سبقت معركة قوصوه ، أنظر : Stephan

W.Reinert, "Niş'ten Kosova'ya I. Murad'ın Son Yıllarına ilişkin Düşünceler", Osmanlı Beyliği, s.183-230

⁹⁹ تروي المصادر العثمانية أنه عقب انتهاء المعركة ، وبينما كان مراد غازي يتفقد ساحة القتال ، قام

أحد جرحي جنود الصرب بضربه غيلة بمخنجره ضربة قاتلة توفي علي أثره . فيما يتعلق بمعركة قوصوه

والحقيقة أن معركة قوصوه راحت تحدّد مستقبل ممالك البلقان ، حيث انساحت الجيوش العثمانية في مختلف انحاء البلقان فوطدوا أقدامهم فيها ، وفتح الباب علي مذارعيه أمام حركة الهجرة التركمانية من الأناضول إلى الروميلي . فكانت لهذه الموقعة نتائج بعيدة المدى سواء علي دول البلقان أو علي الفتوحات العثمانية فيها ، كان أهمها :

١. يسّرت قوصوه للعثمانيين نجاحاً عسكرياً وسياسياً سريعاً في المنطقة ، حيث لم يعد أمامهم قوة يمكنها مواجهتهم في المناطق الباقية جنوبي نهر طونه سوى المجر فقط . ففتحت المناطق الشمالية من بلاد الصرب للعثمانيين ، ودخل أمراء الصرب تحت التبعية العثمانية ، وتقدم العثمانيون بجيوشهم صوب مقدونيا وبلاد الصرب والأرناؤوط والبوسنة .

٢. فتحت الطريق لتغيرات هامة في البناء الإثني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي في مختلف مناطق البلقان ، حيث انتشر علي أثر ذلك الدين الإسلامي بشكل تدريجي هناك .

٣. أصبحت المناطق المفتوحة من البلقان ميداناً لإسكان الجماعات التركمانية الأناضولية ، حيث اعتبرت هذه الجماعات الدعامة الأساسية لفتوح مقدونيا

أنظر : F.M. Emecen, " I. Kosova Savaşının Balkan Tarihi Bakımından Önemi ", Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989, s.35-44; S. Reinert, " A Byzantine Source On The Battles Of Bileca And Kosova Polje, Keydonos Letter 396 and 398 Reconsidered Studies In Ottoman History In Honour Of Prof. V. İ. Menage, İstanbul 1994, 249-272; T. Emmert, " The Battle Of Kosova Early Reports Of Victory And Defeat " , Kosova, Legacy Of Medieval Battle, ed. W. Vucinich – T. Emmert, Minneapolis 1991, s.19-40

وشمال شرق بلغاريا ، ثم للمحافظة علي الكيان العثماني خلال الأزمة السي
تعرضت لها الدولة العثمانية في مطلع القرن ١٥م/٩هـ-١٠٠.

¹⁰⁰ لقد خضع موضوع انتشار الإسلام في البلقان خلال هذه الفترة لمناقشات كثيرة بين الباحثين المعاصرين ، حيث أشاروا إلي أن أغلب الذين اعتنقوا الإسلام كانوا تحت الضغوط الكاثوليكية ، وأن هناك أسباباً اقتصادية واجتماعية لعبت دوراً هاماً في ذلك ، وأن رغبة العناصر المحلية في البلقان في الحصول علي النفوذ في الإدارة العثمانية في المنطقة كان علي رأس عوامل انتشار الإسلام هناك ، كما كان للحاليات التركية والعشائر التركمانية ولتكايا دراويش الطرق الصوفية دوراً هاماً في ذلك . وعلي الرغم من ذلك ، فقد حافظت أغلب الأجناس البلقانية علي سماتها الأساسية باعتناقها الإسلام ، ولم تتعرض لأي شكل من عمليات التريك ، حيث كان للثقافة الإسلامية أثرها العميق في اندماج هذه الأجناس مع العناصر التركية . وذلك في الوقت الذي لم تتعرض فيه الكنائس المختلفة في المنطقة لأية تغييرات ، بل راحت تباشر فعاليتها بشكل طبيعي في الحياة الاجتماعية معترفة بالمرجعية للعثمانية

والعهد بين الطرفين : H. Kaleşi, " Türklerin Balkanlara Girişi ve İslamlaştırılma ", terc. Kemal Beydilli, Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.10-11 (1981), 177-194; Werner, Büyük Bir Devlet'in Doğuşu Osmanlılar (1300-1481), trc. O. Esen-Y. Önen, İstanbul 1986, I/190

مولد فكرة الدولة المركزية

في عهد ييلدرم بايزيد

(١٣٨٩-١٤٠٢ م / ٧٩١-٨٠٥ هـ)

لقد خَلَفَ مراد الأول ورائه تشكيل سياسي خطى بخطاً ثابتة نحو الانتقال من كيان الإمارة إلى كيان الدولة متكاملة الأركان ، وذلك بعد أن وطّد مقامه في البلقان واستوعب منافسيه في الأناضول فاحضعهم جميعاً لسلطته العليا . إلا أن خروج الأمراء التابعين سواء في الأناضول أو الروميلى عن سلطة الدولة العليا كلّما سحت لهم الفرصة متجاوزين رباط التبعية ، دفع ييلدرم بايزيد للتفكير في تطبيق نظام مركزي قوي للدولة في عهده .

وهكذا ، كانت محاولات بيزنطة وممالك البلقان وإمارات الأناضول التابعة للعثمانيين الاستفادة من حالة الاضطراب في الدولة إثر وفاة مراد المفاجئة والخروج على سلطتها ، دافعاً لبازيد لبدء تطبيق سياسته المركزية هذه . فلم يكد يتولي بايزيد مقاليد الحكم في ميدان قوصوه حتى وردت الأنباء من الأناضول بخروج بعض أمرائها على القيادة العثمانية الجديدة ، وذلك في الوقت الذي راحت فيه بيزنطة تنتهز الفرصة وتستعيد سلانيك وبعض المناطق الأخرى التي كان العثمانيون قد فتحوها من قبل . ولما كان الوضع في الأناضول أكثر حساسية ، اضطر ييلدرم بايزيد لإعداد العدة للعودة للأناضول في أسرع وقت ممكن ، فقام باتخاذ عدد من التدابير من شأنها تأمين الحكم العثماني في البلقان قبل مغادرتها إلى الأناضول كان أهمها :

١. عقد اتفاق سلام مع والده استيفن لازاروفيتش الوصية على ابنها وريث عرش الصرب صغير السن ، حيث قضى هذا الاتفاق بدفع حاكم الصرب للخارج عن بلاده ، وبالتعهد بتقديم فرقة عسكرية قوامها عشرين ألف فرد للمشاركة في معارك الدولة العثمانية عند الحاجة ، والسماح للسلطان العثماني بزيارة صربيا مرة كل عام .

٢. تزوج ييلدرم بايزيد من ابنة لازار حاكم الصرب المقتول وتدعى "اوليفرا" .
وكان هذا الزواج بمثابة الضمان لبنود المعاهدة المعقودة مع حاكم الصرب
الصغير . والحقيقة أن اوليفرا ابنة لازار قامت بدور مؤثر في وضع نواة بعض
العادات السيئة في السراي العثماني منذ ذلك الحين .

٣. تكليف باشا يكييت بتأمين مدينة " اسكوب " علي الحدود الصربية ، وفيروز
بك بتأمين مدينة " نكبولي " ، واورانوس بك بالإقامة في " سرز " ، والإنطلاق
منها لفتح " ويدين " و " جيتروز " . وتوطيد مقام العشائر التركمانية في
المناطق الواقعة بين " اسكوب " و " نيش " ١٠١ .

خبر العثمانيين لإمارات بحر ايجه (أيديين ، منتشه ، صاروخان) :

لقد أحييت وفاة مراد غازي وانشغال بايزيد في بسط سيطرته علي البلقان الأمل لسدي
علاء الدين ابن قرمان لبسط نفوذه علي الولايات غربي الأناضول ، فشرع في احتلال
الأراضي التي ابتاعها العثمانيون من أبناء حميد ، وبدأ بـ " بكشهر " مستفيداً من مقتل
أميرها يعقوب بن مراد ، وراح يمد نفوذه حتى أسكيشهر ، ثم قام بتحريض أمراء
صاروخان وآيديين ومنتشه وگيرميان للخروج علي العثمانيين . ومن ناحية أخرى ، قام
يعقوب الثاني حاكم إمارة گيرميان باستعادة مدينة كوتاهية وغيرها من المدن التي كانت
قد تركت للعثمانيين ، واستعاد حاكم سيواس أحمد بن القاضي برهان الدين قيرشهر .
وهكذا ، اضطر ييلدرم بايزيد لتأمين أوضاعه في الروميلي والانتقال كالبرق إلي
الأناضول .

بدأ بايزيد حملته الأناضولية بالتوجه إلي ابن گيرميان يعقوب بك ، حيث قبض
عليه وحبسه مع وزيره في قلعة " ييصاله " بالروميلي (١٣٩٠م / ٧٩٢هـ) . وبعد أن
استولي بايزيد علي دكرلي التابعة للگيرميانيين ، ولي وجهه صوب إمارة آيديين . ولما
كانت إمارات آيديين ومنتشه و صاروخان التي تقع علي سواحل بحر ايجه إمارات بحرية ،

101 D. Nicol, Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453), s.313-314

وليس لديها جيوش برية قوية يمكن بها مواجهة الجيوش العثمانية ، لم يفكر عيسى بك ابن آيدين في المقاومة ، حيث تم الإستيلاء علي مركز إمارته في آياصولوغ ، وتعيينه علي إدارة أوقاف أسرته في مركز " تيره " . وعلي نفس النحو ضم مركز إمارة منتشه في " بلاط " ، حيث منح أميرها محمود بك مقاطعة " براما " ليقضي بها بقية حياته . أما إمارة صاروخان فقد فر صاحبها تاركاً إياها للقوات العثمانية (١٣٨٩-١٣٩٠م/ ٧٩١-٧٩٢هـ) . وبذلك تمكن ييلدرم بايزيد من إلحاق أملاك إمارات آيدين ومنتشه وصاروخان بالأراضي العثمانية ، وتحديد الإمتيازات التي كانت تمنحها هذه الإمارات للبنادقة ، والإستيلاء علي سفن ومراكب هذه الإمارات، حيث اعتبرت النواة الأولى للأسطول العثماني في بحر ايجه . وهكذا ، انتهت المرحلة الأولى من حملة بايزيد الأناضولية . وكانت وجهة حملته في العام التالي إمارة أبناء قرمان المحرض الأصلي للإمارات التركمانية^{١٠٢} .

وخلال خريف عام ١٣٩٠م/ ٧٩٢هـ ، اصطحب بايزيد مانويل ابن إمبراطور بيزنطة^{١٠٣} وجاندارلي سليمان بك وتوجه لفتح مدينة آلاشهر آخر معاقل بيزنطة في غربي الأناضول . وبعد أن تيسرت لبازيد هذه المهمة ، ولى وجهه صوب المناطق التابعة لأبناء حميد ، فاستعاد بكشهر وما حولها وعين عليها ابنه عيسى بك ، ثم بسط نفوذه علي تكه (انطاليا) وعين عليها فيروز بك (١٣٩٠م/ ٧٩٢هـ) .

ولما توجه ييلدرم صوب الحدود القره مانية ، انسحب علاء الدين بك إلي "طاش ايلي" ، الأمر الذي مكن القوات العثمانية من محاصرة عاصمة إمارته في "قونية" .

¹⁰² فيما يتعلق بسيطرة بايزيد علي إمارات بحر ايجه انظر : Göknur Göyebakan, "Doğu Anadolu'nun Osmanlı Hakimiyetine Girişi", Türkler, IX/459-569

¹⁰³ بخصوص علاقة ييلدرم بايزيد بأسرة باليولج البيزنطية انظر : S. Reinert, "The Palaiologoi, Yıldırım Bayezid and Constantinople, June 1389-March 1391", Studies in Honor of Speros Vryonis, Jr., vol. I. Hellenic Antiquity and Byzantium, New York

لم يستطع علاء الدين ابن قرمان الحصول علي مساعدة القاضي برهان الدين حاكم سيواس^{١٠٤} وسليمان بك حاكم إمارة جاندار ، ومن ثم اضطر لطلب الصلح من السلطان العثماني (١٣٩١م / ٧٩٣هـ) . والحقيقة أن الوضع الحساس للقوات العثمانية في الروميلي وعلي الحدود الغربية كان يحتم علي ييلدرم بايزيد العودة للجبهة الأوروبية في أسرع وقت ممكن ، وبخاصة أنه وفق في استعادة بكشهر وآقشهر وغيرها من القرمانيين . وبذلك ، انتهت الحلقة الثانية من حملة بايزيد الأناضولية بعقد معاهدة صلح مع علاء الدين قضت بأن يصبح نهر جارشنبه حدوداً مشتركة بين الطرفين^{١٠٥} .

خروج بايزيد إلى الأفلاق : لم ترع الممالك الأوروبية العهود التي قطعتها

علي نفسها ، وانهزت فرصة انشغال بايزيد في القضاء علي فتنة القرمانيين في الأناضول ، فقام امبراطور بيزنطة بانشاء تحصينات محكمة علي طول السواحل الجنوبية لإستانبول ، كما أقدم أمير الأفلاق علي الهجوم علي بعض المناطق التابعة للعثمانيين ، حيث استولي علي سلستره ، وراح البنادقة يحشدون أساطيلهم في المورة ، وزادت فعاليات البحر في الأفلاق والبلغار . وبذلك ، اضطر بايزيد للعبور إلى الروميلي ، حيث جمع قواته في أدرنه وعبر بهم نهر طونه متوجهاً إلى بلاد الأفلاق . وإذا كان ميرجه حاكم الأفلاق قد خف للقاء الجيوش العثمانية ، إلا أنه هزم في وادي " أرقوش " ، ووقع أسيراً في يد القوات العثمانية ، وارسل إلى بورصة ، حيث أجبر علي اطلاق سراح الأسري المسلمين لديه ، وتوقيع معاهدة تبعية مع الدولة تقضي بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثة آلاف ذهبية ،

¹⁰⁴ بخصوص القاضي برهان الدين ودولته في وسط الأناضول ، أنظر : Y. Yücel, Kadı

Burhaneddin Ahmed ve Devleti 1344-1398, Ankara 1970
Tekindağ, " Son Osmanlı Karaman Münasebetleri Hakkında ¹⁰⁵

Araştırmalar " Tarih Dergisi, İstanbul 1963, XIII/17-22.

وتقدم فرق عسكرية لمساعدة العثمانيين في حملاتهم عند الضرورة (١١٦١م/ ٧٩٣هـ) ١٠٦ .

ضم بلاد البلغار : كانت انجر هي الدولة البلقانية الوحيدة التي يمكنها مواجهة العثمانيين في ذلك الوقت . إلا أن تعصب ملوكها المذهبي ، جعل شعوب البلقان ترمي في احضان الإدارة العثمانية التي لم تكن تتدخل في عقائد أهالي المناطق المفتوحة . وعلى الرغم من ذلك ، راح سيحسmond يرفع دعوي حمايته للممالك البلقانية ، فادعي بحقه في حماية بلاد البلغار التي كانت تحت الحماية العثمانية بالفعل ، وراح يحرض ملك البلغار شيشمان علي عصيان الدولة . وبينما كان ملك انجر يستميل أمير الأفلاق إلى جانبه ويزحف علي بلاد البلغار ، كان بايزيد قد أصدر أوامره بالهجوم علي ترانسلفانيا (١٣٩٢م / ٧٩٤هـ) . وبذلك ، تمكن سليمان جلبي ابن بايزيد في العام التالي من التصدي للهجوم انجري واعادة فتح عاصمة بلاد البلغار في طيرن أووا بعد حصار لها دام ثلاثة أشهر ، حيث ضم القسم الشرقي من بلاد البلغار للإدارة العثمانية ضمّاً مباشراً ، وتركت ويدين الموجودة بالقرب من الحدود انجرية في يد ستراسيمير شقيق شيشمان (١٧ يولية ١٣٩٣م / أواخر شعبان ٧٩٥) ١٠٧ .

حصار العثمانيين للقسطنطينية (١٣٩٤م / ٧٩٦هـ) : لما علم مانويل الثاني

الذي شارك في حملة أبناء قرمان بوفاة أبيه امبراطور بيزنطة ، توجه إلى استانبول بدون إذن من بايزيد . فأراد بايزيد اختبار ولائه له فأرسل إليه يدعوه للمشاركة في حملة يعد لها صوب انجر ، غير أن الامبراطور الجديد لم يستجب . وفي هذه الأثناء ، قبض علي شخص يحمل رسالة من امبراطور بيزنطة إلى سيحسmond ملك انجر يحذره فيها من

¹⁰⁶ لتفصيلات أكثر حول الفتوحات العثمانية في الأفلاق ، أنظر : Viorel Ponaite,

“Osmanlı Hakimiyetinin Tna Nehrinin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan”, Türkler, IX/206 vdc

İ. Demirkent, “14 Yzyıla Kardar Balkan Yarımadasında ¹⁰⁷ Bizans Hakimiyeti”, İ. Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989, s.21-25

هجوم عثماني مرتقب علي بلاده . وهكذا ، أحدث ييلدرم تعديلاً في خطته ، فقرر محاصرة استانبول بدلاً من التوجه في حملة صوب المجر . ومن ثم أصدر السلطان أوامره للأسطول العثماني الموجود في غاليبولي بالتوجه لحصار استانبول بحراً ، بينما أمر الوزير الأعظم بمحاصرة المدينة من ناحية البر ، وأرسل طوران بك لغزو المدن البيزنطية المطلة علي البحر الأسود . وعلي أثر قطع المواصلات والمؤن عن المدينة ونقل العديد من العشائر التركية للإستقرار حولها ، طلب الامبراطور النجدة من بابا روما وملك فرنسا وملك المجر^{١٠٨}.

فتح سلانيك : وبينما كانت القوات العثمانية تقوم بمحاصرة مدينة القسطنطينية لأول مرة ، وصلت الأخبار بأن السفن الفرنسية رست في ميناء سلانيك ، وراحت تضرب سواحل الروميلي سعيًا منها لتخفيف وطأة الحصار عن بيزنطة ، فأسرع ييلدرم بالتوجه صوب سلانيك وقام بحصارها من البر . وعلي الرغم من المساعدات الفرنسية للمدينة عن طريق البحر ، استطاع بايزيد أخيراً فتحها عام ١٣٩٤م/٧٩٦هـ، حيث انطلقت القوات العثمانية منها تغزو شمالي اليونان وتفتح لاريسا (يكيشهر) حتي وصلت بفتوحاتها حتي تساليا وبتراس ووسط اليونان. أما أرجوس فقد تنازل عنها تيودوروس شقيق امبراطور بيزنطة للبنادقة في ٢٧ مايو ١٣٩٤/١٨ رجب ٧٩٦ بغرض حمايتها من السقوط في يد العثمانيين . وفي العام التالي تمكنت القوات العثمانية من فتح ترحالو التي كانت مركزاً هاماً في تلك المنطقة^{١٠٩}.

¹⁰⁸ لتفصيلات أكثر حول حصار بايزيد الأول للقسطنطينية ، أنظر : Serif Bastav, “

Bizans Imparatorlugu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanli Turk-Bizans Munasebetleri, Ankara 1989, s. 221vd.

¹⁰⁹ فيما يتعلق بفتح سلانيك ، أنظر : M. Delibaşı, “Selanik ve Yanya’da : أنظر :

Osmanlı Egemenliğinin Kurulması”, Belleten, LI./199, (1987),s. 75-89; Melek Delilbaşı, “Osmanlı-Bizans İlişkileri”, Türkler, IX/136-140; D. Nicol, Bizans’ın Son Yüzyılları (1291-1453), s. 213-220

ضم إمارة حندار وتشتيت الحلف الأناضولي : كانت الاضطرابات علي

الجبهة الأوروبية قد جعلت بايزيد يتردد في القيام بأجراء حاسم ضد أمير قسطنطين سليمان بك الذي راح يحرض أمراء غربي الأناضول ضد العثمانيين . ولما حسم سليمان جلبي الموقف في بلاد البلغار ، رأي بايزيد ضرورة تأمين ظهره علي جبهة الأناضول . فلما علم سليمان بك ابن حندار بتوجه ييلدرم بايزيد صوب قسطنطين ، طلب المساعدة من علاء الدين ابن قره مان والقاضي برهان الدين سلطان سيواس . وفي الوقت الذي كانت فيه القوات المساعدة تم بالتوجه صوب قسطنطين ، كان بايزيد يدخل المدينة ، حيث قتل سليمان باشا في المعركة التي دارت علي أبوابها . وبذلك دخلت إمارة حندار أيضاً تحت الحكم العثماني (١٣٩٣م / ٧٩٥هـ) .^{١١٠}

وعلي أثر ضم قسطنطين اعترف أمراء أماسيا وعثمانق ومادن الذين كانوا تحت نفوذ القاضي برهان الدين في نواحي يشيل إيرماق بالسلطة العثمانية علي بلادهم ، الأمر الذي أشعل الخلاف بين الدولة العثمانية التي سيطرت بذلك علي وسط الأناضول وبين القاضي برهان الدين . وإذا كان القاضي برهان الدين قد ألحق الهزيمة بالقوة العثمانية التي قادها أرطغرل بك بن بايزيد أمام قلعة " قرق ديلم " في صحراء جورورم ، إلا أنه تراجع إلي سيواس عندما سمع بتوجه الجيش العثماني نحوه . وهكذا ، أرسل بايزيد ابنه محمد جلبي علي رأس قوة قوامها ثلاثين ألف فرد إلي أماسيا ، حيث بسط نفوذه عليها وعلي عثمانق ومرزيفون بعد عدة مصادمات مع قوات برهان الدين ، الأمر الذي أقر الهدؤ في وسط الأناضول لفترة طويلة . ومهما يكن من أمر ، فقد وقف أمام بسط العثمانيين لنفوذهم المطلق علي الأناضول قوتين أساسيتين : الأولى قوة القرمانيين ، والثانية قوة القاضي برهان الدين . والحقيقة أن العثمانيين لم يتمكنوا من تصفية هاتين

¹¹⁰ بخصوص إمارة حندار انظر : Y. Yücel, XIII-XIV. Yüzyıllar Kuzeybatı Anadolu Tarihi, Çobanoğulları-Candaroğulları Beylikleri, Ankara 1980, s. 32 vd.

القوتين في اطار سياستهم المركزية إلا بعد أن تيسر لهم حل مشكلاتهم في أوروبا في الفترة ما بين ١٣٩٧-١٣٩٨م / ٧٩٩-٨٠٠هـ^{١١١} .

التحالف الصليبي ومعركة نكبولى (١٣٩٦هـ / ٧٩٨هـ) :

لم تتوقف حملات الغزو والجهاد في البلقان منذ أن وضع العثمانيون أقدامهم على الطرف الأوروبي . وكان غزو فرق المهاجمين (آقينجيلر) العثمانية لمناطق البوسنة والأرناؤوط قد جعل اللاتين والبنادقة الذين كان لهم نفوذ في تلك النواحي ، يفكرون في الزحف صوب ميناء "دراج" . وكان النشاط المستمر لسفن البحارة المنتسبين لآارات سواحل أيجيه (صاروخان ، أيدين ، منتشه) التي انتقلت للعثمانيين وضرهم لجزر "أكري بوز" و"ساقيز" ومناطق شرقي اليونان قد هزّ سكان جنوة والبندقية . والحقيقة أن العثمانيين لم يكن لديهم خلال هذه الفترة اسطولا بحرياً قوياً أو بحارة مهرة يمكنهم منافسة البنادقة . وعلى الرغم من ذلك ، حرص البنادقة على التردد للعثمانيين الذين ملكوا سواحل بحر ايجيه حماية لحركة تجارتهم في المنطقة . اما جنوه فقد كانت أكثر حرصاً من منافسيهم البنادقة على التقرب للعثمانيين ، ولذلك عملوا على ارضاء الحكام العثمانيين بكل وسيلة . وهكذا ، لم تلق الدعوة لحملة صليبية ضد العثمانيين رد فعل علني لدي هاتين الجمهوريتين البحريتين .

وكان استمرار الحصار العثماني للقسطنطينية ، والقضاء على مقاومة ملك البلغار شيشمان في نكبولى ، والهجوم الكبير الذي قامت به القوات العثمانية على طول الحدود مع المجر في أواسط عام ٧٩٧/١٣٩٥هـ ، وفشل أمير الأفلاق ميرجه في التصدي لهذا الهجوم ، قد أشعر ملك المجر سيجموند بالخطر العثماني الذي يزحف ناحية الغرب ، وبضرورة الاستعانة ببعض الدول الأوروبية لمواجهة . فقام ملك المجر بتشكيل حلف تحت قيادته وبتأييد بابا روما يضم قوات من المجر وفرنسا والمانيا وبلجيكا والفلمنك وسويسرا وانجلترا والأفلاق ورودس ، حيث قدر تعدادة بنحو مائة ألف

Y. Yücel, Kadı Burhaneddin Ahmed ve Devleti 1344-1398,¹¹¹
Ankara 1970, s. 132-136

فرد^{١١٢} . وبالفعل ، خرجت الحملة الصليبية تحت قيادة سيجسموند في مايو ١٣٩٦م/ ٧٩٨هـ ، حيث كان هدفها الأعلى لا يتوقف عند رفع الحصار عن بيزنطة ، إنما يتطلع لطرده العثمانيين من منطقة البلقان تماماً بل والتقدم حتي الوصول لبית المقدس . وهكذا ، أطلقت أيدي الجنود في سلب ونهب المناطق التي مروا بها حتي وصلوا إلي بودين التي أسرع بفتح أبواب المدينة لهم . وهكذا ، التقت قوات سيجسموند مع القوات الصليبية التي سلكت طريق الأفلاق عند "نكبولي" ، حيث شرعوا في محاصرة المدينة من البر ومن البحر .

ولما علم ييلدرم بايزيد بخبر الحملة الصليبية ، رفع الحصار عن القسطنطينية وجمع قواته التي قدرت بنحو ٧٠-٨٠ ألف فرد في أدرنه ، ثم أمر قائد المهاجمين اورانوس بك بالتقدم لمناوشة قوات الحلفاء . وإذا كان قواد الحلف الصليبي قد اختلفوا في طريقة مواجهة الجيوش العثمانية ، فقد نظم العثمانيون قواتهم بحسب عادتهم ، حيث احتلت قوات اليكيچري (الإنكشارية) مكان القلب من الجيش وأمامهم قوات العزب ، وأخذ جند السواري (الفرسان) مواقعهم في أطراف الجيش ، أما جود سباهية التيمار فقد وضعوا في اجنحة الجيش يمينا ويساراً ، وبقيت القوات الاحتياطية في الخلف .

التقى الجيشان بالقرب من قلعة "نكبولي" في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م/ ١٤ ذي الحجة ٧٩٨هـ ، فاستطاعت قوات العزب القضاء علي الهجوم الأول الذي قاده الأمراء الفرنسيين علي قلب الجيش العثماني . ولما أدرك أمير الأفلاق أن الهزيمة واقعة بالحلف الصليبي لا محالة ، انسحب بقواته وعاد إلي بلاده . وهكذا ، حمل الجيش العثماني علي

¹¹² استجاب لهذه الحملة الصليبية أمراء فرنسا وتحمسوا لها ، حيث شارك جون دي نورس ابن دوق دورقونيا بنحو عشرة آلاف فرد ، وشاركت الألمان بستة آلاف ، وتعهد البنادقة بتوفير عدد من السفن نظراً لمصالحها مع الدولة العثمانية ، وتولت جنوة وروندس حراسة الطرق البحرية في ميديلي وساقير ، وجاء أمير الأفلاق بنحو عشرة آلاف ، أما سيجسموند فقد جمع قوة قوامها ستين ألف فرد ، وذلك علاوة علي الفرق الصغيرة التي جاءت من لهستان وبوهيميا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا : A.

Atiya, The Crusade of Nicopolis, Londra 1934 (türkçe trc. Esat Uras, Niğbolu Haçlılar Seferi, Ankara 1956).

القوات الصليبية حملة واحدة ، وألحقوا بها هزيمة قاسية ، حيث تمكن سيحسموند علي أثرها من النجاة بنفسه بصعوبة . وبهذا الانتصار استرد العثمانيون القلاع التي كان قد استولي عليها الحلفاء من قبل ، كما ضُمَّت هذه المرة جميع بلاد البلغار ضمّاً مباشراً للإدارة العثمانية^{١١٣} .

ومهما يكن من أمر ، فقد وطّد انتصار نكبولي أقدام العثمانيين في البلقان بشكل قطعي ، حيث فتح الطريق أمامهم للإنطلاق صوب بلاد اليونان والمورة ، وكشف عن عجز أوروبا في ذلك الوقت عن مواجهتهم فضلاً عن طردهم من البلقان ، وتراجع مكانة بيزنطة في الخطوط الدفاعية الأولى عن أوروبا ، وزيادة اهتمام أوروبا بالبحر باعتبارها حصن الأمان وحائط الصدّ المنيع لكل أوروبا ، ومن ثم انفراد العثمانيين ببيزنطة بعد إبعاد البلغار والصرب والأفلاق والإحاطة بها من كل جانب . وقد جاء التوسع العثماني في بلاد اليونان والمورة وإحكام الحصار علي القسطنطينية ليكسب فكرة التصدي للزحف العثماني علي أوروبا أهمية استراتيجية في ميادين السياسة الأوروبية خلال هذه الفترة .

التوسع العثماني في بلاد اليونان والمورة : كانت القوات العثمانية قد

تمكنت من فتح سلانيك عام ١٣٩٤/٧٩٦هـ ، حيث نجح أورانوس بك في الإلتفاف حول المورة وقيادة هجوم ناجح شمالي بلاد اليونان . وعقب انتصار نكبولي ، قام بايزيد بحملة علي بلاد اليونان ، حيث أجبر حاكمها تيودوروس علي الاعتراف بالنفوذ العثماني في المنطقة متنازلاً عن بعض المدن للعثمانيين (١٣٩٧م/٧٩٩هـ) . وإذا كان ييلدرم بايزيد قد تمكن من غزو تساليا وفارصاليا وصالونا وأثينا ، إلا أنه انسحب منها بعد ذلك ، وأمر طوراخان بك ابن يكيث باشا بالهجوم علي شبه جزيرة المورة . وقد أدي

Esat Uras, Niğbolu Haçlılar Seferi, Ankara 1956, s. 35 vd.;¹¹³
Halil İnalcık, "Osmanlı Döneminde Balkanlar Tarihi Üzerine
Yeni Araştırmalar, Tarihte Güney-doğu Avrupa : Balkanolojinin
Dünü, Bugünü ve Sorunları, Ankara 1999, s. 47-54

سقوط مدينة " أرجوس " شرقي المورة في يد العثمانيين خلال هذا العام لقبول تيودوروس الأول دفع الخراج للعثمانيين^{١١٤}.

إحكام الحصار على القسطنطينية : لما كان الهدف الأساسي لتشكيل

الحلف الصليبي ضد العثمانيين هو رفع الحصار عن بيزنطة ، فقد أسرع ييلدرم بايزيد عقب هزيمة الحلفاء في نكبولي بمطالبة الامبراطور بتسليم المدينة . إلا أن الامبراطور البيزنطي لم يصدر أي تعليق ، الأمر الذي جعل بايزيد يأمر القوات العثمانية في صيف ١٣٩٩م / ٨٠٢هـ باقتحام القسطنطينية . ونظراً لعدم توفر المدافع القوية لدى العثمانيين لضرب أسوار المدينة ، فشلت هذه المحاولة ، حيث حاول السلطان العثماني إخضاع المدينة باحكام الحصار عليها وتجويع أهلها ، فأمر ببناء قلعة "اناضولي حصار" (غوزل حصار) عند مصب نهر " گوک صو " . ولكن نجاح الجنويين والفرنسيين في إيصال بعض المساعدات لأهالي بيزنطة عام ١٤٠١م / ٨٠٤هـ ، وظهور الخطر التيموري في الأناضول ، أجبر ييلدرم بايزيد على رفع الحصار عن المدينة بعد قبول الامبراطور لزيادة الخراج السنوي ، واقامة حي عثماني في القسطنطينية ، وبناء جامع للمسلمين الموجودين بها ، وتعيين قاض مسلم للفصل في القضايا التي تنشأ بين المسلمين والروم ، والتنازل عن المناطق المحيطة بالقسطنطينية حتي سيليوري^{١١٥} .

¹¹⁴ فيما يتعلق بالفتوحات العثمانية في بلاد اليونان أنظر : Event Kayabinar,

"Yunanistan'da Osmanlı Hakimiyetinin Kurulması (1361-1461),
Türkler, IX/137-145

¹¹⁵ لما طلب امبراطور بيزنطة مانويل الثاني المساعدة من أوروبا ، استجاب ملك فرنسا تشارلز الرابع لها ، حيث كلف أحد الأمراء الفرنسيين الذين شاركوا من قبل في معركة نكبولي بتقديم المساعدة لاستانبول . وفي أوائل عام ١٣٩٩م تمكن المارشال بوسيكو Boucicout من اختراق الحصار والوصول لاستانبول بقوة صغيرة . وإذا كان مانويل آثاني توجه لأوروبا في ١٠ ديسمبر ١٣٩٩ للبحث عن توفير مساعدات لاستانبول ، وراح يجول في إيطاليا وفرنسا لهذا الغرض ، إلا أن حولته هذه لم تأتي بالنتائج المرجوة منها . وبينما كان العثمانيون يشددون الحصار على المدينة ، راح الزحف التيموري على شرق الأناضول يقلب موازين بايزيد رأساً على عقب ، ويجبره على الحصار

إنفراد العثمانيين بالنفوذ المطلق في الأناضول : كان علاء الدين ابن

قرمان قد استغل حركة الخلف الصليبي ضد العثمانيين وشن هجوماً علي أنقره ، حيث قام بأسر أمير أمراء الأناضول صاري تيمورتاش باشا . وهكذا ، لم يكد بايزيد يستفرض يده من حملة المورة حتي سار إلي ابن قره مان (١٣٩٧م / ٧٩٩هـ) . وإذا كانت المواجهة التي وقعت بين الطرفين في " آق جاي " قد انتهت بهزيمة ابن قرمان ، إلا أنه استطاع الفرار إلي قلعة قونية ، فقام بايزيد بحصارها أحدي عشر يوماً حتي استسلم أهالي المدينة بشرط عدم إلحاق الضرر بأموالهم وأرواحهم ، وأسّر علاء الدين ، ولم تقبل فيه الشفاعة هذه المرة ، حيث أمر بقتله . توجه بايزيد بعد ذلك إلي قرمان (لارنده) ، وتمكن من الإستيلاء عليها قهراً في نفس العام .

وهكذا ، انتقلت ولايات قونية ولارنده ونكیده وقره حصار التي كانت تابعة لابن قره مان للعثمانيين ، ولم يبق في يد أمراء عائلة أبناء قره مان سوى موط ، أرناق ، طاش إيلي وأيچ إيل . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا تصفية القوة المنافسة الأولى لهم علي هذا النحو ، إلا أنه بقي علي إنفرادهم بالنفوذ المطلق في مختلف أنحاء الأناضول وإطلاق أيديهم لتنفيذ سياستهم لتوحيد الأناضول تحت قيادتهم خطوة أخيرة تتمثل في جبهة القاضي برهان الدين في سيواس .

خمس سمسون وسيواس وهلاطية : وعقب القضاء علي علاء الدين القرماني

واضعاف نفوذ القرمانيين في الأناضول ، وفي ربيع عام ١٣٩٨م / ٨٠٠هـ خرج ييلدرم بايزيد في حملة استولي بها علي سمسون ، حيث اعترف محمود وألب أرسلان ابن تاج الدين بنفوذ العثمانيين في چارشبه وترمه ونيكصار ، واعترف حاجي أمير زاده سليمان بك بنفوذهم في اردو وگيره سون ، واعترف أبناء طاشان بنفوذهم في بافره ، وذلك حتي جاورت الحدود العثمانية حدود إمبراطورية الروم في طرابزون .

تماماً عن القسطنطينية : D. Nicol, Bizans ve Venedik, trc. G. Ç. Gven, İstanbul 2000, s. 324 vd.

وفي العام التالي (١٣٩٩م / ٨٠١هـ) أمر بايزيد ابنه سليمان چلي بالتوجه إلى سيواس بقوة تقدر بعشرين ألف فارس وأربعة آلاف من المشاة استجابة لأهاليها الذين استنجدوا بالعثمانيين عقب قيام رئيس عشيرة آق قويونلي قره يولوك عثمان بمحاصرتهم . وهكذا ، تم انقاذ المدينة وضمها للأملاك العثمانية ، حيث توجه بايزيد بجيش جرار إلى الأناضول تمكن به من إخضاع كافة أملاك القاضي برهان الدين الأخرى في توقات وقيصرية .

ومن ناحية أخرى ، وبينما كان بايزيد يضم أملاك القاضي برهان الدين في الأناضول ، كان قد تولى عرش سلطنة المماليك بمصر والشام بعد وفاة السلطان برقوق ابنه الصغير السلطان ناصر الدين فرج . فلما علم بايزيد أن خلافاً وقع بين الأمراء المماليك حول مقام السلطنة ، طلب من الإدارة المملوكية التنازل عن ملاطية نظراً لأنها كانت ضمن أملاك القاضي برهان الدين . وعلى أثر رفض طلبه ، توجه بايزيد على رأس جيشه إلى ملاطية وحاصرها حتى أعلن أهلها التسليم ، فدخلها بايزيد في أيلول ١٣٩٩/محرم ٨٠٢هـ . وهكذا ، إذا كان العثمانيون قد تمكنوا من السيطرة على ملاطية ثم علي ألبستان أيضاً وتأمين الحدود الشرقية لدولتهم التي امتدت حتى ضفاف نهر الفرات ، إلا أنهم قضوا بذلك على احتمال تقارب عثماني-مملوكي لمواجهة تهديدات تيمورلنك الذي كان قد وصل إلى مشارف الأناضول .

ملامح مشروع الدولة المركزية :

لقد استطاع ييلدرم بايزيد خلال فترة حكمه (١٣٨٩-١٤٠٢م/٧٩١-٨٠٥هـ) وضع النواة الأولى لتأسيس امبراطورية مركزية في الأناضول والروميلي وسعى سعيًا حثيثاً لأن تكون القسطنطينية عاصمة لها ، وأمكن له تحقيق نجاحات ملموسة في أوروبا دفعت الخلافة العباسية في مصر للاعتراف به كسلطان للروم (١٣٩٢م/٧٩٤هـ) . وهكذا راحت الدولة العثمانية في عهده تلعب دوراً هاماً كقوة فاعلة في السياسة الدولية لأول مرة في منطقة امتدت من غربي أوروبا وحتى وسط آسيا ومن مصر حتى مملكة القسلة الذهبية (آلتون أورد) شمالي البحر الأسود .

وكانت سياسة بايزيد المركزية تقوم علي ركنين أساسيين : الأول - تصفية الأسر الحاكمة في الأناضول والبلقان ، وتحويلها بالتدريج إلى إمارات تابعة له ، ثم إلى ولايات عثمانية . أما الركن الثاني ، فكان يتمثل في تأسيس دولة مركزية في تلك المناطق متخذاً النظام المركزي للدولة الإسلامية في الشرق وتشكيلات مؤسساتها نموذجاً يحتذى . ومن ثم سعي بايزيد لوضع البنية التحتية لإدارته المركزية ، فوجه الأراضي المفتوحة لأفراد الأسرة الحاكمة ، وأمر بتحرير تلك الأراضي ، ووضع نظاماً لتحصيل الضرائب مطبقاً النظم المالية الإلخانية في أنحاء البلاد . وفي الوقت الذي راح فيه بايزيد يحكم السيطرة علي أمراء التركمان وأمراء الحدود والأسرات المحلية ، حرص علي وضع نظام حديد لخدم الباب (قابو قولي) والغلمان المرتبطين بشخص السلطان ، حيث اقتصر توجيه وظائف الدولة الهامة لهذه الفئة فقط . وهكذا ، بينما كانت المفاهيم العرفية والتشكيلات المرتبطة بها تتراجع بالتدريج ، راحت مفاهيم الشريعة والحضارة الإسلامية والتشكيلات المرتبطة بها تحتل موقعها المميز في إدارة بايزيد المركزية .

ومهما يكن من أمر ، لم يحل انتقال بايزيد الأول المعروف بالصاعقة (بيلدرم) من نجاح إلى نجاح وتحقيقه الأهداف الاستراتيجية لدولته المركزية إلى حد ما ، لم يحل دون تعرض هذه الدولة الوليدة لكبوة أرجأت إعلان مشروع الإمبراطورية العثمانية لأكثر من نصف قرن من الزمان .

الزحف التيموري علي شرق الأناضول :

كان تيمورلنك قد تمكن من السيطرة علي إمارة بلخ عام ١٣٦٨م / ٧٦٩هـ ، حيث راح يستفيد من حالة التناحر بين أسرة جانغيرخان والأسرات المغولية الأخرى ، فاستطاع أولاً بسط نفوذه علي دولة ألتون اوردو (١٣٧٦م / ٧٧٨هـ) ، ثم علي إيران والعراق (١٣٩٣م / ٧٩٥هـ) وشرقي الأناضول (١٣٩٤م / ٧٩٦هـ) . وعند عودته من حملته علي بلاد الهند (١٣٩٩م / ٨٠١هـ) أعاد احتلال بغداد ، حيث فر سلطانها أحمد حلاير مع أمير عشائر القره قويونلي قره يوسف إلى الأراضي العثمانية مستنجدين ببيلدرم بايزيد . فقام السلطان العثماني بتعيين أحمد الجلايري علي كوتاهية

وتعين قره يوسف علي قيصري وأقسراي . ومن ذلك الحين ، بدأت المراسلات بين تيمورلنك وبايزيد .

وكان تيمورلنك يدعي وراثته لأملاك المغول في أنحاء الأناضول . فلما التجأ إليه الأمراء التركمان الذين انتزع بايزيد منهم أملاكهم ، راحوا يحرضون تيمور علي بايزيد الذي كان قد اكتسب شهرة كبيرة في العالم الإسلامي بعد فتوحاته في أوروبا ، ويدّعون بأنه لا يعدوا أن يكون أحد التابعين السابقين لدولة المغول في الأناضول ، وأنه تجاوز حدوده وانتزع منهم أراضيهم ، وأنه غير وبدل قوانين الأناضول ونظمها المغولية ، وأن عودتهم إلي أراضيهم ترتبط بعودة المغول للمنطقة . ولذلك ، أراد تيمور تفكيك الإدارة المركزية - الفيدرالية لدولة آل عثمان ، والقضاء علي النفوذ العثماني في الأناضول واخضاعهم ، وتقسيم الأناضول إلي إمارات صغيرة تكون تابعة له .

وبينما كانت المراسلات بين الطرفين مستمرة ، راح تيمور يحرض التركمان والتتار الرحل في نواحي سيواس وقيصرية وملاطية علي عصيان العثمانيين ، ويجذب حكام أرزنجان وآق قويونلي لطاعته . فلما أراد بايزيد مدّ نفوذه إلي أرزنجان عام ١٣٩٩م / ٨٠١هـ ، والتجأ الأمير مطهر الدين إلي تيمور أيضاً ، قام الأخير بدخول أرزنجان ، وحاصر سيواس واحتلالها وقتل أهلها ، ثم استولي بعدها علي ملاطية (١٤٠٠م / ٨٠٢هـ) . وفي تطور مفاجئ انسحب تيمور من الأناضول متوجّهاً للأراضي المملوكية ، حيث أراد أن يحول دون تشكيل تحالف عثماني - مملوكي محتمل باخراج المماليك من مواجهة محتملة بينه وبين العثمانيين أو ترهيب العثمانيين واخضاعهم دون قتال .

والحقيقة أن بايزيد كان قد أدرك أن تيمور سيعود للأناضول بعد حملته علي سوريا ، ولذلك راح يتخذ من التدابير ما يحمي به حدود دولته ، فقام بالاستيلاء علي أرزنجان ، واجبار حاكمها مطهرتن علي الاعتراف بالنفوذ العثماني في أرزنجان . وإذا كان بايزيد اضطر للانسحاب من أرزنجان قبل مجي جيوش تيمور ، فقد حرص علي ضم كماخ ضمّاً مباشراً للأراضي العثمانية (تموز ١٤٠١ / ذي الحجة ٨٠٣هـ) .

وكان الخلاف الذي وقع بين المماليك والعثمانيين بسبب استيلاء العثمانيين علي ملاطيه من قبل ، قد حال دون تفاهم مملوكي - عثماني لمواجهة تيمور في المنطقة ، وانفراد تيمور ببايزيد في الأناضول . وإذا كانت الإضطرابات التي وقعت في بلاد الصين عقب وفاة امبراطورها قد جعلت تيمورلنك يميل إلي الصلح مع العثمانيين ، إلا أن اصرار بايزيد علي عدم تسليم قره يوسف أو اعدامه وتحريض أمراء الأناضول الذين التحقوا إلي تيمور ، جعل تيمورلنك يستدعي جيشه من وسط آسيا ، ويخترق بهم شرق الأناضول ، ويوجه انذار أخير لبايزيد (مارس ١٤٠٢ / رجب ٨٠٤) حدد فيه شروط السلام والتعاون بين الطرفين لمد حركة الفتح والجهاد في أوروبا علي النحو التالي :

- إعادة كماخ لمطهرتن وتحرير عائلته التي قام بايزيد بأخذها رهينة .
- إرسال أحد أبناء السلطان العثماني كرهينة لدي تيمور .
- استقبال العمامة والحزام التيموري كعلامة علي تبعية السلطان العثماني له .
- إعادة المناطق التي كان قد ضمها بايزيد إلي الدولة العثمانية من أمراء الأناضول لأصحابها .
- تسليم قره يوسف لتيمورلنك أو قتله .

وهكذا ، كان عدم قبول بايزيد لهذه الشروط وسحبه لجيشه الذي كان يحاصر القسطنطينية وتوجيهه صوب أنقرة ، واصرار تيمورلنك علي ادعائه بأنه الوارث الحقيقي لدولة السلاجقة في إيران والعراق ودولة الإلخانيين في الأناضول ، وأن الدولة العثمانية ما هي إلا واحدة من الإمارات التي ينبغي أن تكون تابعة له ، وقيام قواته تحت قيادة ميرزا محمد بالإستيلاء علي كماخ واعادتها لمطهرتن وتوجهه بنفسه إلي سيواس ، إعلاناً للحرب بين الطرفين^{١١٦} .

^{١١٦} بخصوص مقدمات المواجهة العثمانية التيمورية في الأناضول ، أنظر : Omer Halis

Bıyıktaç, Yedi Yıl Harbi İçinde Timur'un Anadolu Seferi ve Ankara Savaşı, İstanbul 1934, s. 7-22; Y. Yücel, Timur

معركة أنقرة (٢٠ تموز ١٤٠٢ / ١٩ ذي الحجة ٨٠٤) : بدأت الحرب في

وادي چوبوق بانقرة سجالاً بين الطرفين ، حتى انحازت قوات سباهية التيمار إلى أمرائها بصفوف تيمور ، فتفرق الجيش العثماني حول بايزيد الذي بقي وحيداً في أرض المعركة مع بعض خواصه ، حيث سقط أسيراً في يد تيمورلنك هو وابنيه موسى جلي ومصطفى جلي وبعض الأمراء العثمانيين . وكما استطاع ابنه الأكبر سليمان جلي الفرار مع الوزير الأعظم علي باشا إلى بورصة ، والإستيلاء على خزينة الدولة وأرشيفها في بورصة ، والتوجه بأخته فاطمة سلطان وأخيه الصغير قاسم إلى قلعة اناضولي حصار ، وتمكن عيسى جلي من الهرب متوجهاً إلى نواحي باليكسير ، وانسحب محمد جلي إلى أماسيا .

وهكذا ، في الوقت الذي كان بايزيد يضع فيه اللمسات الأخيرة على انجازاته في البلقان بضم بلاد اليونان والإعداد لفتح القسطنطينية وفي الأناضول بتصفية القوي التركمانية المناوئة له والمتمثلة في إمارة القره مانين وسلطنة القاضي برهان الدين ، لم يتصرف بحكمة تجاه الخطر المغولي الآتي من الشرق ، حيث قام بالإستيلاء على ملاطية التابعة للدولة المملوكية في مصر والشام ، ومن ثم أخفق في تشكيل جبهة مشتركة مع المماليك ضد الزحف التيموري على الشرق . وإذا كان فرار أمراء الأناضول الذين ضم بايزيد أملاكهم والتجائهم إلى تيمورلنك الذي وضعهم في مقدمة جيشه ، وقيام بايزيد بوضع قوات هؤلاء الأمراء الذين انضموا في وقت سابق للعثمانيين في الجناح الأيسر للجيش العثماني ، وانحياز هذه القوات إلى جانب أمرائهم السابقين ، من أهم عوامل اخفاق بايزيد في معركة أنقرة ، فقد كان لفقدان حماسة الغزو والجهاد لدى الجيش العثماني نظراً لمواجهته عناصراً من نفس دينهم ومن أبناء جلدتهم دور الحسم في هذه المواجهة التي حددت مصير دولة آل عثمان خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري .

قامت قوات تيمورلنك بتعقب الأمراء العثمانيين في بورصة وقونية وآقشهر وقره حصار وفي أثناء الأناضول المختلفة ، وتوجه تيمور إلى كوتاهية ، حيث أقام فيها نحو شهر ، فحرر محمد بك وعلي بك أبناء علاء الدين ابن قره مان من الأسر وأعاد إليهم ممتلكاتهم السابقة علاوة علي نواحي قيصري وبكيازاري وآقشهر وسيوربحصار . كما قام بإعادة أراضي إمارات غيرميان وآيدين وصاروخان ومنتشه وحميد إلى أمراءها السابقين الذين أعترفوا بخضوعهم لحكم تيمور ؛ أما اسفنديار بك ابن جندار فكان قد التجأ إلى مطهرتن التابع لتيمور قبل المواجهة ، حيث أعاد تيمور له سينوب وقسطموني وطوسيا وچانقري . ومن ناحية أخرى أراد تيمور أن يظهر بأنه غازياً مثل العثمانيين ، فقام بحصار مدينة أزمير الساحلية التي كانت في يد أمراء رودس حتى تمكن من إعادة فتحها في ٢ ديسمبر ١٤٠٢/٦ جمادي الأول ٨٠٥ ، ثم أعطاها لحكامها السابقين من أبناء أيدين .

وبينما كان تيمورلنك يفكر في اصطحاب بايزيد الأول في رحلته إلى سمرقند ، توفي السلطان الأسير في ٩ مارس ١٤٠٣/١٤ شعبان ٨٠٥ ، فأرسل موسى بيك - ابن أبيه لدفنه في بورصة ، وأخذ ابنه مصطفى جلبي رهينة مغادراً الأناضول . وبذلك تمكن تيمورلنك خلال ثمانية أشهر قضاها في الأناضول من فرض نفوذه المطلق علي الأناضول ، ولم يغادر المنطقة إلا بعد أن تفكيك أملاك الدولة العثمانية ، فأطاح بمشروع بايزيد لتشكيل دولة مركزية ، وأعاد تشكيل الإمارات التركمانية من جديد ، ومن ثم عادت حدود الدولة العثمانية إلى ما كانت عليه في أوائل عهد مراد الأول^{١١٧} .

¹¹⁷ بخصوص معركة أنقرة ونتائجها علي الدولة العثمانية ، انظر : Ömer Halis Bıyıktaç, Yedi Yıl Harbi İçinde Timur'un Anadolu Seferi ve Ankara Savaşı, İstanbul 1934, s. 32-67; Y. Yücel, Timur'un Dış Politikasında Türkiye ve Yakın doğu, 1393-1402, Ankara 1980, s. 21- 64; İ. Aka, " Timur'un Ankara Savaşı 1402 Fetihnâmesi ", Belgeler, XI./15, 1-22.

لقد كانت معركة أنقرة نقطة تحول في تاريخ الدولة العثمانية ، حيث عاد أمراء الأناضول السابقين لإماراتهم من جديد ، وتحررت بيزنطة من الحصار وممالك البلقان من بنود التبعية ، وانقطعت الروابط بين أراضي الدولة في الأناضول وأراضيها في الروميلي ، وبدأ أبناء بايزيد صراع طويل علي الانفراد بالحكم فيما بقي من ممالك هنا وهناك ، حتي أن امبراطور بيزنطة والعديد من أمراء الأناضول والبلقان حرصوا على زيادة تأجيج المشاحنات بين المتصارعين علي السلطة المطلقة . وفي ظل هذه المتغيرات ، بدأت الدولة العثمانية تمر بمرحلة جديدة عرفت في التاريخ العثماني باسم " فترت دوري " .

الدولة العثمانية في " مرحلة الفتور "

(١٤٠٢-١٤١٣م / ٨٠٥-٨١٦هـ)

لم تمر الدولة العثمانية بمرحلة أخطر من هذه المرحلة التي أطلق عليها المؤرخون العثمانيون اسم " فترت دوري " أي عصر الفتور والضعف . فقد تفكك التشكيل السياسي العثماني في الأناضول ، وأعيدت التشكيلات السياسية لإمارات الأناضول التركمانية من جديد تحت السلطة العليا لتيemor ، وأنفرد كل ابن من أبناء بايزيد الأربعة بعاصمة من عواصم الأناضول ، حيث استقل سليمان جلبي بأدرنه وأراضي الروميلي ، وعيسي جلبي بباليكسير ، ومحمد جلبي بأماسيا ، وموسي جلبي ببورصة . وهكذا ، فتح استيلاء تيمورلنك علي الأراضي العثمانية في الأناضول وتفكيك مشروع دولة العثمانيين المركزية ، فتح مرحلة طويلة من الصراع الدموي بين أبناء بايزيد للفوز بالنفوذ المطلق علي الأراضي العثمانية استمرت لأكثر من إحدى عشر عاماً .

والحقيقة أن مسألة الصراع علي عرش السلطنة العثمانية بين أبناء بايزيد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمفهوم وراثه العرش لدي العثمانيين . فنظراً لأعراف التركمان في وسط آسيا أن كل فرد من أبناء الحاكم له الحق في الجلوس علي عرش السلطنة ، وأن التمكين لواحد منهم أمر مقاليد بيد الله تعالى ، وليس لأحد أي دخل فيه . فإذا تمكن أحدهم من الاستيلاء الفعلي علي العرش ، يكون بذلك قد اكتسب الصفة الشرعية للاعتراف به كسلطان شرعي للبلاد ، بحيث يعتبر كل من يخرج عليه من منافسيه خارج علي السلطة الشرعية ، ومن ثم يكون من حق السلطان الشرعي القضاء علي فتنه بأي وسيلة^{١١٨} .

¹¹⁸ بخصوص مشكلة وراثه العرش العثماني ، أنظر : Halil İnalcik, "Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyet Telekkisi ile İlgili", AUDTCFD., CXIV, (1959), s. 78 vd.

سليمان چليبي حاكماً على الروميلي : عقب توجهه إلى الروميلي بصحبة جاندراي زاده علي باشا وأخيه الصغير قاسم وأخته فاطمه سلطان ، واستقراره في أدرنه ، أعلن سليمان چليبي نفسه سلطاناً على الدولة العثمانية . وحتى يوطد مقامه في الروميلي عقد مع إمبراطور بيزنطة منويل اتفاقية عرفت بإسم "معاهدة غاليبولي" (١٤٠٣م / ٨٠٦ هـ) ؛ كما عقد تفاهم مع البنادقة والجنوئين يقضي بنقل القوات العثمانية إلى الروميلي والخيولة دون عبور تيمور إليها ، وذلك مقابل منحهم بعض الإمتيازات التجارية في الأراضي التي يسيطر عليها العثمانيون .

أما معاهدة غاليبولي فقد تنازل الأمير سليمان چليبي بموجبها عن قارتال وبندك وگيزه علي سواحل مرمرة الأناضولية ، وبعض الجزر وسواحل البحر الأسود حتى ميسوري ، وسليوري في منطقة مرمرة ، وسلانيك وتساليا وبعض المناطق الأخرى في البلقان ، كما وافق علي ترك أخيه الأصغر قاسم وأخته فاطمه سلطان كرهائن لدى إمبراطور بيزنطة . على أن يقوم إمبراطور بيزنطة بدعم سليمان والخيولة دون وصول أي من أشقائه إلى منطقة الروميلي ، وتسليم أي فرد منهم يلجأ إلى بيزنطة لسليمان . وعلى الرغم من اعتراض اورانوس بك وغيره من حاشية سليمان چليبي على هذه التنازلات ، تم تنفيذ هذه الإتفاقية^{١١٩} .

وفي الوقت الذي كان فيه سليمان يمارس سلطاته في الروميلي متخذاً أدرنة عاصمة له ، كان أخوته عيسي وموسي ومحمد يتناحرون في الأناضول سعياً لتحقيق الغلبة المطلقة هناك . والحقيقة أن أمراء الأناضول السابقين وبالخاصة أمراء گيرميسان وجندار وآيدين وقره مان ، وإمبراطور بيزنطة وأمراء الأفلاق الصرب والبلغار قد لعبوا

¹¹⁹ فيما يتعلق بفترة حكم سليمان بن بايزيد في الروميلي والاتفاقية التي وقعها سليمان چليبي مع إمبراطور الروم ، أنظر : E. Zachariadou, "Suleyman Çelebi in Rumli and The Ottoman Chronicles", Der İslam, LX. (1963), s. 268-296 ; G. T. Dennis, "1403 Tarihli Bizans-Türk Antlaşması", çev. M. Delibaşı, AUDTCFD., XXIX/1-4 (1971), s. 153-166

دوراً هاماً في تأجيج هذا الصراع بين الأخوة بغرض الحيلولة دون جمع كلمتهم أو توحيد أراضيهم أو الغلبة المطلقة لواحد منهم .

وقد بدأ صراع أبناء بايزيد على السلطة المطلقة في الأناضول والروميلي عقب مغادرة تمور الأناضول وارسال موسى چلي بجثة أبيه لدفنها في بورصة وفقاً لوصيته . فلما وصل موسى إلى بورصة غادرها أخوه عيسي ، إلا أنه استطاع استعادتها بعد فترة ، وأحير موسى للحوء إلى خاله يعقوب بك ابن گيرميان في كوتاهية . وبقي موسى محجوراً لدى أبناء كيرميان حتى تمكن أخيه محمد چلي من فك أسره . وفي الوقت الذي استقر فيه عيسي في باليكسير وبورصة ، كان محمد چلي قد وطد مقامه في أماسيا وتوقات ونيكحصار وسيواس ، حيث عرض علي أخيه عيسي تقسيم الأناضول فيما بينهما حقناً للدماء . ولما رفض عيسي العرض لم يكن هناك مفر من الاصطدام بين الطرفين عند " اولوباد " . وعلي أثر هزيمة عيسي ، فر ملتجئاً إلى إمبراطور بيزنطة الذي قام بتسليمه لإخيه الأكبر سليمان في أدرنه ، وذلك وفقاً للاتفاقية المعقودة بينهما . وفي الوقت الذي كان فيه سليمان يفكر في الدفع بأخيه عيسي إلى الأناضول لاستعادة العاصمة الأناضولية بورصة من يد محمد ، راح محمد چلي الذي أعلن نفسه سلطاناً في المناطق التي بقيت في يد العثمانيين من الأناضول بعد أن تمكن من بسط نفوذه على أزنق ، يسعى لفك أسر أخيه الموجود لدى يعقوب ابن گيرميان ليكون دعماً له ضد الجبهة التي شكلها ضده سليمان وعيسي في الروميلي^{١٢٠} .

انفراد محمد چلي بمكة الأناضول : وهكذا ، شكلت جبهتان من الأشقاء الأربعة ، حيث أعدّ سليمان جيشاً وأرسل به أخيه عيسي إلى الأناضول

Kenan Ziyataş-Sadettin Baştürk," Fetret Dönemi ve 120
Sonuçları", Türkler, IX/252-258; F. Başar, "Fetret Devrinde
Osmanlı Bizans Münasebetleri (1402-1413), Prof. Dr. Fırat
İşıltan'a 80 doğum Yılı Armağanı, İstanbul 1995, 247-260; P.
Witteck, "Ankara Bozgunundan İstanbul'un Fethine (1402-
1455)", cev. H. İnalcık, Belleten, VII/27, (1943), s. 557-589.

لإستعادة بورصه ، فهزم مرة أخرى أمام محمد چلي عند أبواب المدينة ، وفر إلى اسفنديار بك ابن جندار . استطاع عيسي الحصول علي دعم اسفنديار بك وأعاد الكرة، إلا أنه هُزم أيضاً . وفي هذه المرة التجأ عيسي إلى جنيد ابن آيدين ، حيث عقد تحالف آخر مع أمراء صاروخان وآيدين ومنتشه ، إلا أن الأخفاق كان من نصيبه أيضاً . وأخيراً ولي عيسي چلي وجهه شطر ابن قره مان ، وعند عودته للأراضي العثمانية تبض عليه بالقرب من أسكيشهر وقتل (حوالي عام ١٤٠٥م/٨٠٨هـ) .

وهكذا ، اضطر الأمير سليمان چلي للتوجه علي رأس جيش كبير إلى الأناضول لضمها بنفسه ، حيث تمكن من الإستيلاء علي بورصه ، ثم علي أنقره بعد ذلك متعقباً أخيه محمد چلي ، إلا أن وفاة وزير سليمان چلي القدير جاندارلي زاده علي باشا ، واتفاق أحد أهم أمراء الحدود في الروميلي وهو أورانوس بك مع محمد چلي ، وتخليص محمد چلي لأخيه موسي من قبضة أمير گيرميان ، واتفاقه مع الأمير اسفنديار وأمير الأفلاق لتقدم المساعدات اللازمة لموسي لإيصاله إلى الروميلي بحراً ، كل هذا أجبر سليمان علي العودة إلى الروميلي ، وترك الأناضول تماماً لمحمد چلي^{١٢١} .

موسي چلي يسيطر علي الروميلي : لقد زادت أهمية منطقة الروميلي

عقب إعادة تيمورلنك الإمارات التركمانية إلى أصحابها القدامى ، حيث استطاع أمراء الحدود المحافظة علي كيان الدولة في البلقان إلى حد بعيد ، حتي صارت منطقة الروميلي هي مركز ثقل الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة . والحقيقة أن سليمان چلي السني أسرع للجلوس علي عرش أدرنه لم يستطع بتنازلاته السياسية أمام بيزنطه وبعض تصرفاته غير المسئولة المحافظة علي أركانه خلال ما يقرب من ثمان سنوات قضاها في حكم الروميلي ، وذلك علي الرغم من الدور الحضاري الذي قام به في استقبال أغلب

E. Zachariadou, "Süleyman Çelebi in Rumli and The Ottoman Chronicles", Der İslam, LX (1963), s. 268 vd. ; keza bk. Necdet Öztürk, Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IX/221 vd. ¹²¹

رجال الدولة وعلمائها ، والمحافظة علي كيان الدولة في أوروبا خلال هذه الفترة (١٤٠٢-١٤١٠م / ٨٠٥-٨١٣هـ) .

لم يكد موسى چلي يظاً بقدمه الروميلي حتي تجمع حوله أنصار كثيرُونَ ، فوجد مساعدة من أمير الأفلاق وأمير الصرب وأمير البلغار ، الأمر الذي جعل سليمان چلي مضطراً لطلب المساعدات من إمبراطور بيزنطة وفقاً للمعاهدة المبرمة بينهما . وإذا كان موسى چلي قد تلقى الهزيمة في مواجهته الأولى مع الأمير سليمان بسبب خيانة القوات الصربية المشاركة معه ، إلا أنه عقب استماتته لأمرء الحدود في الروميلي وعلي رأسهم محمد بك ابن ميخال ، قويت شوكته واستطاع إلحاق الهزيمة بقوات سليمان عند صوفيا ، ثم توجه إلي أدرنه . وهكذا ، وبينما كان سليمان يفر مع نفر من أتباعه إلي القسطنطينية قبض عليه في الطريق ، حيث أعدم في ١٨ مايو ١٤١٠ / ٥ محرم ٨١٣^{١٢٢} .

توحيد شطري الدولة العثمانية في الأناضول والروميلي علي يد

محمد چلي : لم يرع موسى چلي الاتفاق بينه وبين أخيه محمد ، حيث أسرع بالتوجه إلي أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً فيها ، وأمر بضرب العملة باسمه ، وعين لنفسه وزيراً وأميراً للأمرء وقاضياً . وهكذا ، بقي في حلبة الصراع علي العرش كل محمد چلي الذي كان يسيطر علي الأناضول ، وموسى چلي الذي راح يوطد نفوذه بالتدريج في الروميلي . فقام موسى بتأديب أمرء الصرب وأجبر أمرء البلغار علي الطاعة وأخذ يستعيد الأراضي التي كان سليمان چلي قد تركها لإمبراطور بيزنطة عما فيها تساليا (١٤١١م / ٨١٤هـ) . حاول إمبراطور بيزنطة مانويل التصدي لإجراءات موسى چلي هذه ، حيث أطلق سراح أورخان بن سليمان الذي كان رهينة عنده وعينه علي سلاتيك وتساليا . فخرج إليه موسى چلي ، حيث التقى بقوات أورخان الذي هزم وتحصن بقلعة سلاتيك .

122
E. Zachariadou, "Süleyman Çelebi in Rumli and The Ottoman Chronicles", Der İslam, LX (1963), s. 268 vd.; F. Başar, " Fetret Devrinde Osmanlı Bizans Münasebetleri (1402-1413), s. 253 vd.

ولما عجز أورخان عن النيل من عمه ، أرسل مانويل إلى محمد چلي يدعوه إلى الروميلي ، حيث اتفق الطرفان علي نقل قوات محمد چلي إلى الروميلي مقابل التنازل عن بعض المناطق التابعة للعثمانيين . وإذا كان محمد چلي قد أخفق في إلحاق الهزيمة بأخيه موسي سواء في المواجهة الأولى (١٤١١م / ٨١٤هـ) أو في المواجهة الثانية (١٤١٢م / ٨١٥هـ) ، فقد تمكن من الاستفادة من سوء العلاقة بين موسي چلي وأمراء الروميلي الذين كانوا يتحينون الفرصة للإيقاع به ، حيث استمال هؤلاء الأمراء واستطاع بهم هزيمة قوات موسي چلي الذي انسحب إلى شمالي بلغاريا . وأخيراً التقى الطرفان علي ضفاف نهر طونه في موضع يقال له "جومورلي آباد" ، حيث ألحقت الهزيمة بموسي چلي بعد قتال شديد ، وألقي القبض عليه وأعدم في ١٠ يولييه ١٤١٣م / ٣ رجب ٨١٦هـ . وبذلك خلصت الروميلي كما خلصت الأناضول من قبل لأصغر أبناء ييلدرم بايزيد محمد چلي^{١٢٣} .

وهكذا ، فشلت محاولات تيمورلنك لتفكيك الدولة العثمانية إلى إمارات صغيرة تكون تابعة له تبعية مطلقة ، ومساعي الأسرات الحاكمة سواء في الأناضول أو في الروميلي للاستفادة من مرحلة التفكك والصراع علي السلطة بين أبناء بايزيد ، وفعاليات إمبراطور بيزنطة مانويل للنيل من أبناء بايزيد بضرب بعضهم ببعض ولإستعادة نفوذه في البلقان . ويمكن حصر أسباب الفشل في القضاء التام علي كيان الدولة العثمانية في العوامل التالية :

¹²³ تؤكد الدراسات الحديثة أن موسي چلي هو الوحيد الذي لم يستعن بامبراطور بيزنطة خلال فترة صراعه مع أشقائه علي عرش السلطنة العثمانية ، بل أنه استعاد بعض المناطق التي كان قد تنازل عنها سليمان چلي ، ولم يتردد في محاصرة استانبول نفسها أيضاً ، لتفصيلات أكثر حول فترة حكمه في الروميلي ، أنظر : Kenan Ziyataş-Sadettin Baştürk, "Fetret Dönemi ve Sonuçları", Türkler, IX/254 vd.; P. Wittek, "Ankara Bozgunundan İstanbul'un Fethine (1402-1455)", cev. H. İnalcık, Belleten, VII/27, (1943), s. 557-589; Necdet Öztürk, Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IX/228 vd.

- نجاح العثمانيين في نقل الكثير من العشائر التركمانية إلى تراقيا ، ومن ثم في المحافظة علي تشكيلاتهم العسكرية علي الحدود الغربية ، بحيث صار أمراء الحدود في الروميلي مركزاً لثقل الدولة وحصن أمان لها خلال مرحلة الفتور .
- عدم قدرة أي من الأسرات الحاكمة سواء في الأناضول أو في الروميلي علي ملء الفراغ الذي تركته الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة ، والسير في فلك الصراع الذي نشب بين أبناء بايزيد .
- وقوع كافة الدول الأوروبية في خلافات مذهبية وسياسية متباينة أعجزتهم جميعاً عن توحيد قوتهم في مواجهة دولة آل عثمان وهي في أضعف حالاتها .

إعادة تشكيل الدولة العثمانية

(١٤١٣-١٤٥١م / ٨١٦-٨٥٥هـ)

لقد كان اخفاق أنقرة عام ١٤٠٢م والنتائج التي تمخضت عنه سبباً لتأخر انطلاق الدولة العثمانية لما يقرب من نصف قرن من الزمان ، حيث عادت حدودها إلى ما كانت عليه في أواخر عهد أورخان غازي ، فاستعادت إمارات الأناضول وممالك البلقان جزء كبير من استقلالها ، وانغمس أبناء بايزيد في صراعات مريرة عصفت بكل انجازات الغزاة الأوائل ، وأعطت الفرصة لأعداء الدولة للاستفادة من تلك الصراعات لتحقيق مكاسب سياسية ، واستمرت هذه النتائج تلقي بظلالها علي مجريات الأحداث حتي فتح القسطنطينية .

وأخيراً ، تمكن محمد چلي وهو أصغر أبناء بايزيد من توحيد جناحي الدولة تحت قيادته ، وأتباع سياسة حكيمة في التعامل مع الوضع الحساس الذي كانت تمر به الدولة ، والسعي لاستعادة ما فقدته من أراضي ونفوذ في الأناضول وفي البلقان ، ومواجهة للخارجين علي الدولة بحزم ، والحيلولة دون تشكيل أعداء الدولة لأي تحالف ضدها خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخها ، ثم نجح مراد الثاني بعد ذلك في إتمام سياسة سلفه ، ودحر التحالفات الأوروبية المتتالية التي كانت تريد أن العصف بما تبقي من دولة آل عثمان في البلقان ، الأمر الذي يسر علي الدولة العثمانية عبور هذه المحنة ، واعادة نفوذها إلي سابق عهده ، ومهد الطريق لبدء مرحلة جديدة من مراحل تطور الدولة العثمانية .

وحتى يمكننا تقدير حجم الإنجاز السياسي والعسكري الذي قام به كل من محمد چلي (١٤١٣-١٤٢١م / ٨١٦-٨٢٤هـ) ومراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م / ٨٢٤-٨٥٥هـ) ، علينا أن نشير هنا إلي أن الدولة العثمانية لم تكن تسيطر فعلياً في أول عهد محمد چلي سوي علي مناطق سيواس وأماسيا وتوقات وجوروم وأنقره وأسكيشهر وبورصة وباليكسیر وقوجه ايلي في الأناضول ، وأدرنه وتراقيا الشرقية وما

حولها في الروميلي . فقد استطاع محمد جلبي ومراد الثاني تجديد دم الدولة ، ورأب الصدع الذي كان قد أصابها عقب نكسة أنقرة ، وتنقية مؤسساتها مما كان قد لحقها من تجاوزات ، ومن ثم استعادة كافة المناطق التي كانت قد خرجت عن النفوذ العثماني خلال مرحلة الفتور .

محمد جلبي

ومحاولاته لاستعادة نفوذ الدولة

في الروميلي والأناضول

(١٤١٣ - ١٤٢١ م / ٨١٦ - ٨٢٤ هـ)

لقد كان تمكن محمد جلبي من توحيد الأراضي العثمانية تحت سلطته بدايةً لمرحلة جديدة من التاريخ العثماني . فعقب انفراده بالعرش العثماني ، راح محمد جلبي يسلك سياسة مهادنة مع الممالك المحيطة به واضعاً في حسبانته عدم مقدرة الدولة خلال هذه المرحلة علي مواجهة تحالف يمكن أن يطيح بكيانها كله . ولذلك آثر أن يوطد حالة من الاستقرار في الروميلي ، فاستقبل سفراء راجوزة والبندقية وجنوة وجدد المعاهدات التجارية معهم ، كما استقبل سفراء الصرب والأفلاق الذين أتوا لتهنئته بالجلوس ، وأعاد لإمبراطور بيزنطة المناطق التي كان الأمير سليمان جلبي قد تركها له . إلا أن سياسة المهادنة هذه لم تتضمن التغاضي عن التجاوزات التي كانت تصدر عن الممالك المحيطة بالدولة سواء في الأناضول أو في الروميلي ، حيث كان السلطان ينتهر فرصة هذه الإعتداءات ويجرد الحملات ضد تلك المناطق ، ويسرع إما بضمها ضمّاً مباشراً لأُملاك الدولة أو بفرض نفوذ الدولة عليها وإعلان تبعيتها لها من جديد .

وهكذا ، عندما تجاوز جنيد ابن أيدين حدود الدولة معتدياً علي الوالي العثماني بأيدين إيلي ، جرد محمد جلبي حملة قادها بنفسه ، وانتهت بحصار إزمير وفتحها (١٤١٤ م / ٨١٧ هـ) . وبذلك أتم محمد جلبي خلال هذه الحملة سيطرته علي سواحل

بحر ايجه ، وقبل أمراء جزر فوچه وميدللي وساقيز التابعين لجنوه النفوذ العثماني ودفع الخراج السنوي^{١٢٤} .

إخضاع محمد ابن قره مان : وبعد أن تم لـ محمد چلي بسط نفوذه علي منطقة ايجه علي هذا النحو ، أسرع بالتوجه إلي قونية لتأديب محمد بك ابن قره مان الذي كان قد انتهز فرصة الصراع بين أبناء بايزيد وقام بمهاجمة الأراضي العثمانية وأراضي حلفائهم من أبناء گيرميان حتي وصل إلي بورصة وحاصرها ونهبها . فقام الجيش العثماني الذي شارك فيه الأمير يعقوب ابن گيرميان والأمير اسفنديار ابن جاندار باحكام الحصار علي قونية حتي طلب ابن قره مان الصلح (١٤١٤م / ٨١٧هـ) . وفي العام التالي ، وعلي أثر نقض ابن قرمان لهذا الصلح ، خرج محمد چلي ثانية إلي قونية ، حيث ألحق بـ ابن قره مان هزيمة قاسية ، وأجبره علي توقيع معاهدة تبعية من جديد تنازل بمقتضاها محمد ابن قره مان عن يكي بازار وسيوري حصار وآقشهر وبكشهر وسيدشهر للعثمانيين ، واراضي دفع الخراج عن الأراضي الموجودة تحت يده ، والمشاركة بفرق عسكرية في الجيش العثماني عند الضرورة^{١٢٥} .

¹²⁴ انظر في هذا الخصوص : Feridun Emecen, "Cüneyd Bey", DIA., VIII./122 وكانت قد وقعت بين العثمانيين والبنادقة أول مواجهة عثمانية بندقية في عهد محمد چلي . وكان سبب هذه المواجهة أن حاكم جزيرة أندروس التابع للبنادقة راح يهاجم بعض السفن العثمانية ، حيث أعد العثمانيون اسطولا في ميناء غليبولي يتكون من ٣٠ قادرة تحت قيادة جالي بك ، وخرج بهم إلي جزر أندروس وباروس وميلوس ، وأسر منها عدد كبير من الأفراد . وعلي أثر ذلك قام البنادقة باعداد حملة في الربيع بقيادة بيترو ، حيث وقعت بين الطرفين مواجهة حاسمة بالقرب من غاليبولي في مايو ١٤١٦م ، أستشهد علي أثرها جالي بك وحطم الأسطول العثماني ، وجرح قائد الأسطول البندقي بيترو : İ.H.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, cilt. I., Ankara 1948, s.350-355

¹²⁵ تذكر المصادر أن ظروف الطقس القاسية هي التي أجبرت محمد چلي علي توقيع الصلح في المرة الأولى ، ولما نقض ابن قرمان الصلح ، ألحق العثمانيون هزيمة منكرة ، حيث أجبر ابن قرمان علي توقيع معاهدة قاسية مع العثمانيين تنازل بموجبها عن بكيبازاري وسيوري حصار وآقشهر ويالاواج

إحياء النفوذ العثماني في الأفلاق : وإذا كانت الدولة العثمانية قد

أجبرت علي الاحتكاك باساطيل البندقية في بحر ايجه ، حيث ألحقت بها بعض الهزائم عند مضيق جناق قلعه (١٤١٦-١٤١٧م / ٨١٩-٨٢٠هـ) ، فقد استفاد محمد جلبي من النزاع الذي شب بين إمبر الأفلاق ميرجه الذي كان يتلقي العون من البحر ومنافسه دان الذي طلب مساعدة العثمانيين له . فكان ذلك سبباً لتدخل العثمانيين ، حيث لب السلطان العثماني طلب دان ، وأمدّه بقوة استطاع بها هزيمة ميرجه الذي أجبر علي عقد اتفاق مع العثمانيين وافق بموجبه علي دفع الخراج المتأخر للعثمانيين وزيادة قيمته (١٤١٦م / ٨١٩هـ). والحقيقة أن مشكلة الأفلاق هذه أصبحت سبباً لمواجهات عديدة وهجمات حدودية متبادلة علي الحدود بين الدولة العثمانية والبحر ، حيث تجاوزت بلاد الأفلاق نفسها إلى بلاد الصرب واليوغوسلافيا وأيستريا^{١٢٦} .

فرض النفوذ العثماني علي جندار : ومن ناحية أخرى ، لما نشب

الصراع بين اسفنديار بك ابن جانداز وإبنه قاسم بك بسبب تقسيم أملاك الإمارة ، التحأ قاسم بك إلى العثمانيين طالباً التوسط بينه وبين أبيه حتي يوافق علي حصوله علي مناطق طوسية وجانقري وقلعه جيک وقسطموني . وإذا كان اسفنديار بك راح يرفض وساطة العثمانيين ، إلا أن محمد جلبي لم يتردد في دعم قاسم بك ، فجرد حملة توجهت إلى مقر حكم اسفنديار بك في سينوب . وبعد حصار قصير للمدينة ، استسلم اسفنديار بك معلناً اعترافه بالحكم العثماني لبلاداه ، وقراءة الخطبة وضرب السكة باسم السلطان العثماني فيها (١٤١٨م / ٨٢١هـ) . وهكذا، تركت مناطق باقير كوره سي وقسطموني فقط لاسفنديار بك ، وسيطر محمد جلبي علي بقية بلاداه الأخرى ، حيث عين قاسم

وبكشهر وسیدی شهر التي كان تيمور قد أعادها لهم بعد استيلائه علي الأناضول (١٤١٥) . وإذا كان محمد ابن قرمان راح ينقض هذه المعاهدة أيضاً ، إلا أنه علي أثر القبض عليه هو وابنه هذه المرة ، قد اعتذاره للسلطان محمد جلبي الذي أنعم عليه بالعفو هذه المرة أيضاً: **Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/352 vd., keza bk. Necdet Öztürk, "Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IXŞ/227**

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/371 vd¹²⁶

بك ابن اسفنديار علي طوسيه وچانقري وقلعه جيک . وفي العام التالي بسطت القوات العثمانية نفوذها علي سمسون أيضاً (١٤١٩م / ٨٢٢هـ) ١٢٧ .

وعلي الرغم من هذه المواجهات التي فرضت نفسها خلال عصر محمد چلي، فقد حرص السلطان العثماني علي المحافظة علي نوع من الاستقرار في الأناضول والروميلي خلال هذه المرحلة . إلا أن هذا العصر شهد حادثين خطيرتين هزتا الكيان العثماني بعنف . وكانت أولي هاتين الحادثتين ، ظهور الحركة الباطنية في الأناضول والروميلي علي يد الشيخ بدر الدين محمود وأتباعه بوكولوجه مصطفى وطورلق كمال . أما الحادثة الثانية ، فقد تمثلت في ظهور مصطفى ابن بايزيد في الروميلي ومحاولة إمبراطور بيزنطة استخدامه الضغط علي محمد چلي ، ومنعه من القيام بأي تحرك معادي ضد بيزنطة .

حركة بدر الدين الباطنية في الأناضول العثمانية : لقد كشفت

نكسة أنقرة ١٤٠٢م / ٨٠٥هـ عن عداة مذهبي للدولة العثمانية سنية المذهب في أراضيها ، حيث حاولت الحركات المناوئة لأهل السنة في أنحاء الدولة وبخاصة في المناطق التي يقطنها العلويون في الأناضول ، الإستفادة من الظروف السياسية التي كانت تمر بها الدولة . ففي الوقت الذي كان فيه أبناء بايزيد يتناحرون للإنفرد بمقام السلطنة ، أخذ أحد المتصوفة ويدعي بدر الدين محمود ابن قاضي سمانه يدعو للمذهب الباطني بين أهالي الأناضول ، حيث انتقل إلي الروميلي ، فقام موسي ابن بايزيد بتعيينه قاضيعسكر خلال فترة حكمه ، وذلك دون أن يعلم بتوجهات الباطنية . وهكذا ،

127 Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/360 vd., keza bk. Necdet Öztürk, "Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Te'sisi", Türkler, IXŞ/228; Y. Yücel, XIII-XIV. Yüzyıllar Kuzeybatı Anadolu Tarihi, Çobanoğulları-Candaroğulları Beylikleri, Ankara 1980, s. 78 vd.

استطاع بدر الدين كسب مؤيدين وأنصار كثيرين مستغلاً منصبه الديني هذا ، إلا أنه عُزل لما تولى محمد چلي الحكم ، وخصصت له مقاطعة بإزنيق يقيم فيها^{١٢٨} .

وخلال هذه الفترة كان تابع بدر الدين وخليفته في إزمير بوكولوجه مصطفى ، وتابعه اليهودي المرتد طورلوق كمال في مغنسيا ، يعدون العدة للقيام بحركة عصيان في الأناضول . ومن ثم فر بدر الدين من إزنيق متوجهاً إلى الروميلي ، حيث اتخذ منطقة دلي اورمان التي يكثر بها العلويون مركزاً له (١٤١٦م/٨١٩هـ).

والحقيقة أن بدر الدين أراد بحركة عصيانه هذه في الأناضول والروميلي الاستفادة من حالة الغفلة والإضطراب التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية خلال هذه الفترة ، ومن ثم تحويل حركته من دعوة مذهبية إلى إنقلاب سياسي ديني علي غلط ما سوف نراه في الحركة الشيعية الصفوية في إيران بعد نحو قرن من الزمان . وهكذا التف حول بوكولوجه مصطفى نحو خمسة آلاف شخص ، حيث استطاع أن يلحق الهزائم بعدة حملات جردها محمد الأول . وأخيراً استطاعت الحملة التي قادها الوزير الأعظم بايزيد باشا القبض عليه وإعدامه . توجهت الحملة بعد ذلك إلى طورلاق كمال الذي كان قد أعلن عصيانه في مغنسيا ، فنجحت أيضاً في هزيمته والقضاء عليه .

¹²⁸ بعد أن أتم تعليمه في قونية ، توجه إلى الشام ، ثم القدس ، ثم مكة والمدينة ، حيث مر علي القاهرة عند عودته ، حيث عين معلم لابن السلطان برقوق المملوكي . وفي عام ١٤٠٣م توجه إلى تبريز ، حيث فاز برعاية تيمور هناك . وإذا كان قد عاد من تبريز إلى القاهرة ثانية ، فقد اضطر للعود إلى قونية بعد أن وقع الخلاف بينه وبين علماء مصر . وهناك لقي بدر الدين اهتماماً كبيراً من أهالي قونية ، حيث تعرف هناك علي بوكولوجه مصطفى الذي كان معروفاً بين الناس باسم " دده سلطان " . وبعد ذلك توجه بدر الدين إلى كوتاهية عبر إزمير حيث تعرف هناك على تورلاق كمال :

Baliver Michel, Şeyh Bedreddin Tasavvuf ve İsyan, çev. Ela Gültekin, Tarih Vakfı Yurt Yayınları, İstanbul 2000, s.34 vd.; M. Şerafettin Yaltkaya, Simavna Kadıoğlu Şeyh Bedreddin, İstanbul 1994, s. 53-55; Şerfaettin Severcan, "Şeyh Bedreddin Olayı", Türkler, IX/259-275

انتقل الوزير الأعظم بايزيد باشا إلى الروميلي متوجهاً إلى دلي اورمان ، وبعد مواجهة بسيطة مع أنصار بدر الدين تمكن من هزيمتهم ، حيث سلم الشيخ العاصي نفسه بسهولة . وبعد أن أقيمت الحجة الشرعية علي الشيخ بدر الدين محمود في مجلس العلماء ، صدرت الفتوي بخروجه عن الإسلام وقتله في ١٨ ديسمبر ١٤١٦ / ١٩ شوال ٨١٩^{١٢٩} .

خروج مصطفى جلبي بن بايزيد (١٤١٩ - ٨٢٢هـ) : كان مصطفى

جلبي قد صحب تيمور عند رحيله إلى سمرقند ، فلما توفي تيمور ، أطلق سراح جميع الأسري ومنهم مصطفى بن بايزيد الذي توجه إلى ابن قرمان في نيكده ، حيث مكث عنده لفترة ، حيث توجه بعدها إلى إمبراطور بيزنطة وطلب مساعدته ضد أخيه محمد جلبي . وبذلك ، حاول مانويل مرة أخرى الاستفادة من هذه الفرصة والضغط علي السلطان العثماني ، فطلب منه منح مصطفى نصيبه في ملك أبيه . فلما رفض محمد جلبي ، أرسل مصطفى إلى أمير الأفلاق الذي أمده بقوة من الأفلاق توجه بها إلى تساليا وسلانيك . عندئذ توجه محمد جلبي إلى سلانيك ، وأوقع الهزيمة بقوات مصطفى جلبي ، ولكنه لم يستطع القبض عليه ، حيث لجأ إلى قلعة سلانيك . وإذا كان السلطان العثماني طلب من والي سلانيك تسليم مصطفى جلبي ، إلا أن والي سلانيك ربط الأمر بمرافقة إمبراطور بيزنطة . وهكذا ، أيقن مانويل من عجز مصطفى جلبي عن النيل من أخيه محمد ، فطلب الصلح ، ورفع الحصار عن سلانيك . وبالفعل ، وافق السلطان العثماني علي طلب الإمبراطور ، حيث تضمنت الاتفاقية بين الطرفين البنود التالية :

- حجز مصطفى جلبي رهينة لدي إمبراطور بيزنطة طالما محمد جلبي علي قيد الحياة ، وعدم قيام الإمبراطور بمساعدته للخروج علي الدولة العثمانية .

¹²⁹ لتفصيلات أكثر أنظر : Baliver Michel, Şeyh Bedreddin Tasavvuf ve İsyân, çev. Ela Gültekin, s.36 vd.; M. Şerafettin Yaltkaya, Simavna Kadioğlu Şeyh Bedreddin, s. 61vd.; Şerfaettin Severcan, “Şeyh Bedreddin Olayı”, Türkler, IX/263vd.

• دفع العثمانيين ٣٠٠ ألف أقة كل عام كمصاريف مصطفى جلي وحنيد بك أمير آيدين الموجودين محجوزين لدي الإمبراطور .

• التعامل مع خلفاء محمد جلي وفقاً للسياسة التي يتبعونها تجاه بيزنطة .

وبذلك تمكن محمد جلي من إنهاء هذه الفتنة بتقديم بعض التنازلات المرحلية لتأمين حالة من الإستقرار خلال هذه المرحلة الحرجة من التاريخ العثماني^{١٣٠} .

وفي ربيع ١٤٢١م/ ٨٢٤هـ عاد محمد جلي إلى أدرنه ، حيث استقبل سفير إمبراطور بيزنطة بينما كان مريضاً . ولما أحس أنه مرض الوفاة ، جمع وزراءه بايزيد باشا وجاندارلي زاده إبراهيم باشا وحاجي عوض باشا ، وأوصاهم بالمحافظة على سرية خبر موته حتى يجيئ ابنه مراد من أماسيا للجلوس على العرش ، وذلك لإحتمال إطلاق الإمبراطور البيزنطي سراح أخيه مصطفى بمجرد علمه بخبر وفاته . والحقيقة أن محمد جلي توفي بالفعل قبل وصول ابنه مراد من أماسيا في مايو ١٤٢١م/ جمادي الأولى ٨٢٤هـ . إلا أن أركان الدولة استطاعوا المحافظة على سرية خبر موت السلطان حتى وصول السلطان الجديد الذي كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وإجراء مراسيم تعيينه ودفن أبيه^{١٣١} .

¹³⁰ لتفصيلات أكثر أنظر : (çev. Mirmiroğlu, Dukas, Bizans Tarihi, (

İstanbul 1963), s.71-72; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/159

¹³¹ كان لمحمد جلي عند وفاته سبعة بنات وأربعة أبناء هم : مراد ومصطفى ويوسف ومحمود ، حيث توفي أحمد في حياة أبيه . وكان السلطان محمد قد عين مصطفى الذي كان يبلغ ١٢ عاماً على سنحقة حميد . أما يوسف (٨ سنوات) ومحمود (٧ سنوات) فقد قام مراد بحبسهما عندما تولى الحكم . وكان محمد جلي يحرص على عدم تعريض الدولة بعد وفاته لصراع دموي على الحكم بين أبنائه . ولذلك راح يخطط لتولية ابنه الأكبر مراد السلطنة في أدرنه ، على أن تبقى الأناضول في يد أخيه مصطفى . أما يوسف ومحمود فكان يفكر في إرسالهما لإمبراطور بيزنطة . وكان الذي دفعه لهذا التفكير هو تربص أعداء الدولة في الأناضول والرومي ، وحرصهم على تخليص حساباتهم مع العثمانيين : Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin

Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/231

وهكذا ، استطاع محمد جلي خلال فترة حكمة القصيرة (١٤١٣-١٤٢١م/ ٨١٦-٨٢٤هـ) إعادة تأسيس تشكيلات الدولة من جديد ، وإستعادة جزء كبير من نفوذها الذي كانت قد فقدته في الأناضول والروميلى ، وعهد إلى ابنه مراد الثانى مهمة إتمام بسط الدولة لنفوذها على أملاكها ، وإحباط كافة محاولات النيل منها .

مراد الثاني

وإسهاماته في إعادة تشكيل الدولة

(١٤٢١-١٤٥١ / ٨٢٤-٨٥٥هـ)

استمرت نتائج هزيمة أنقره تفعل فعلها خلال عهد مراد الثاني ، وتلقي بظلالها القائمة علي محاولات السلطان الجديد لإعادة بسط نفوذ الدولة علي الأناضول والروميلي. فقد سعى إمبراطور بيزنطة لتهديد السلطان الجديد بعمه مصطفى ، كما حرصت إمارات الأناضول علي استثمار ظروف وفاة محمد جلبي والنيل من وحدة كيان الدولة من جديد ، وسطعت في الأفق علامات تفكك جناحي الدولة من جديد . ولذلك ، راح مراد الثاني يقضي فترة حكمه الأولى في محاولة انقاذ وحدة الدولة ، والتمكين لسلطتها في الداخل والخارج . فكان أخيه الموجود في إمارة حميد تحت حماية يعقوب بك ابن كيرميان ، وراح ابن قرمان يستولي علي أراضي إمارة حميد ، وكان علي مراد الثاني الذي كان مضطراً لالتزام سياسة المهادنة أن يقبل هذا الوضع. وأعلن ابن منتشة العصيان ، واستعاد أبناء ايدين وصاروخان بعض أراضيهم، الأمر الذي أجبر مراد علي تقديم بعض التنازلات في الأناضول لتهدة الأوضاع ، وتجسدت من جديد أجواء واقعة أنقرة في الأناضول . ومن ناحية أخرى ، راحت اتصالات ابن قره مان بملوك أوروبا سعيًا للنيل من الدولة العثمانية والتكتلات الصليبية المتتالية التي أرادت استغلال حالة الإضطراب تلك ، راحت تفت في عضد مراد الثاني حتي اضطرته للتنازل عن العرش لابنه محمد قبل وفاته في ١٤٥١م / ٨٥٥هـ . وعلي الرغم من كل هذه التحديات ، تمكن السلطان العثماني من المحافظة خلال فترة حكمه علي وحدة الدولة ، وتمكين نفوذها في الأناضول والروميلي ، واعادة تشكيلها من جديد لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطورها .

انفراد مراد الثاني بالعرش العثماني : بمجرد أن اعتلي مراد العرش ،

أرسل إليه إمبراطور بيزنطة يخبره بين إرسال أخويه إلي القسطنطينية كرهينة وفقاً لاتفاق

محمد جلبي معه ، وبين اطلاق سراح عمه مصطفى ومساعدته علي انتزاع حقه في السلطنة العثمانية . وكان رفض مراد الثاني لهذا التهديد إيذاناً ببدء مرحلة جديدة من الصراع علي عرش السلطنة بين مراد الثاني وعمه مصطفى الذي كان محجوزاً في القسطنطينية^{١٣٢} .

وهكذا أطلق سراح مصطفى جلبي ، حيث قام الإمبراطور بتقديم المساعدات اللازمة له وتعيينه سلطاناً علي الروميلي ، وذلك مقابل تسليم ابنه للإمبراطور والتنازل عن المناطق الممتدة من غاليبولي وعلي طول حدود البحر الأسود حتي بلاد الأفلاق علاوة علي تساليا لبيزنطة . وبالفعل ، استطاع مصطفى جلبي وجنيد بك ابن آيدين مع بعض فرق من الروم محاصرة غاليبولي . وعقب المواجهة التي وقعت بين قوات الوزير الأعظم بايزيد باشا وقوات مصطفى جلبي بالقرب من غاليبولي ، تمكن مصطفى جلبي من دخول أدرنة وإعلان نفسه حاكماً علي الروميلي (٣٠ أغسطس ١٤٢١ / ١ رمضان ٨٢٤) . وإذا كان مصطفى جلبي قد تمكن من السيطرة علي مدينة غاليبولي وتحصينها بعد تسليمها ، واستمالة جميع أمراء الحدود في الروميلي والتوجه بهم لبسط نفوذه علي الأناضول ، إلا أن عدم تسليمه مدينة غاليبولي للإمبراطور وفقاً للإتفاق المبرم بينهما ، جعل بيزنطة تسعى لإستئناف اتصالاتها مع مراد الثاني^{١٣٣} .

¹³² كانت بيزنطة أولي الدول التي أرسلت إلي مراد وقدماً لتعزيتة في وفاة أبيه ولتهنئته علي تولية العرش بعده وتمني استمرار روح الصداقة مع السلطان الجديد ، وتطلب تسليم أخوي السلطان الصغار يوسف وخمود إلي بيزنطة ، وتهدد باطلاق سراح مصطفى جلبي الذي يمكنه الإستيلاء علي غاليبولي ومقدونيا في وقت قصير . وهكذا ، كلف السلطان الشاب أمير أمراء الروميلي بايزيد باشا بالرد علي الوفد ، بأنه حريص علي توطيد العلاقات مع بيزنطة غير أن مبادئ الشريعة الإسلامية لا تسمح بتلقي الأمراء المسلمين تربية وتعليم من غير المسلمين : (çev. : Dukas, Bizsans Tarihi, Mirmiroğlu, İstanbul 1963), s.78; Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/231

¹³³ Dukas, Bizsans Tarihi, s.77, 80, keza bk. Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/232

وعلي أثر هذه التطورات ، قام مراد بإطلاق سراح محمد ابن ميخال الذي كان محبوساً منذ عهد محمد چلي ، حيث استفاد من نفوذه علي أمراء حدود الروميلي الموجودين في صفوف مصطفى چلي ، كما نجح في إيقاع الخلاف بين عمه وبين جنيد بك الذي انسحب إلي إمارة أيدين . وبذلك انهزم مصطفى چلي في المواجهة التي وقعت بينه وبين مراد الثاني عند أولوباد بالقرب من بورصه (٢٠ يناير ١٤٢٢ / ١٨ محرم ٨٢٥) ، فاسرع بالعودة إلي الروميلي التي كان أمرائها في أعلنوا الطاعة لمراد الثاني . وعقب الهزيمة التي تلقاها مصطفى چلي بالقرب من غاليبولي سلمت المدينة لمراد الثاني الذي توجه من توه إلي أدرنه وجلس علي العرش ، وفر مصطفى متجهاً صوب بلاد الأفلاق ، حيث أرسل مراد قوة استطاعت تعقبه والقبض عليه وإعدامه في أدرنه في نفس الشهر^{١٣٤} .

ولما أيقن إمبراطور بيزنطة من تمكن مراد الثاني من القضاء علي فتنة مصطفى چلي ، أرسل إلي السلطان الجديد يهته علي الإنفراد بالعرش العثماني . إلا أن مراد كان قد اتخذ قراره بالفعل لحصار القسطنطينية ، حيث توجه إليها في ٢٠ يونيو ١٤٢٢ / ٢١ جمادى الثاني ٨٢٥^{١٣٥} . ولذلك ، سعي إمبراطور بيزنطة مرة أخرى للاستفادة من

^{١٣٤} لتفصيلات أكثر حول محاولات بيزنطة للنيل من الدولة العثمانية خلال هذه الفترة ، أنظر

Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin : Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/232

^{١٣٥} يعتبر هذا هو الحصار السادس الذي تقوم به الدولة العثمانية للقسطنطينية ، حيث كان بيلدرم بايزيد قد قام بحصار المدينة لأربع مرات ، ثم قام موسي چلي بحصارها في المرة الخامسة . وقد بدأ هذا الحصار في ربيع من عام ١٤٢٢ م . وفي يونية من نفس العام أمر السلطان مراد الثاني محمد بك ابن ميخال بقيادة قوة قوامها عشرة آلاف مقاتل ، وتحرك هو بقوة تقدر بعشرين ألف لحصار المدينة . وإذا كان قد شن هجوم عام علي أسوار القسطنطينية في ٢٢ أغسطس ، إلا أنه تعذر فتحها . وكان هذا الحصار قد استمر نحو شهرين من الزمان : Dukas, Bizsans Tarihi, s.109, Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/389 vd., Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/234

شقيق السلطان مراد مصطفى چلي الذي كان قد لجأ لابن كيرميان عند تولية مراد الثاني السلطنة وتمكن الإمبراطور من أسره ، وذلك للضغط علي السلطان العثماني . وهكذا ، اضطر مراد لرفع الحصار الذي دام نحو شهرين عن القسطنطينية متوجهاً إلى بورصة وإزنيق للتصدي لأخيه مصطفى چلي الذي أمده ابن قره مان وابن كيرميان بقوات من التركمان علاوة علي فرق الروم التي أرسلتها إليه القسطنطينية . وبعد أيقاع الهزيمة بقوات مصطفى چلي ، قبض عليه واعدم في إزنيق في ١٤٢٣م / ٨٢٦هـ^{١٣٦}.

توطيد مراد الثاني الإستقرار في الروميلي والأناضول :

لم تتردد أي من القوي المناوئة للعثمانيين سواء كانت محلية في الأناضول أو أقليمية في الروميلي في محاولة الإستفادة من حالة الاضطراب التي نتجت عن هذه المرحلة من الصراع علي العرش العثماني . إلا أن تمكن مراد الثاني من القضاء علي منافسيه ، جعل إمبراطور بيزنطة يسعى لعقد صلح مع العثمانيين ، حيث استعاد العثمانيون الخراج السنوي الذي كان يدفعه الإمبراطور للخزينة العثمانية ويقدر بنحو ٣٠٠ ألف آقچه ، كما أعادوا سيطرتهم علي المناطق التي كانت قد تركت لبيزنطة في نواحي البحر الأسود وسلانيك وتساليا (٢٨ فبراير ١٤٢٤ / ١٩ ربيع الأولي ٨٢٧هـ)^{١٣٧}.

إخضاع اسفنديار بن جاندار : وفي الأناضول حاول بعض أمراء الإمارات التركمانية استثمار نشوب حلقة جديدة من حلقات الصراع علي السلطنة في الدولة ، فقام اسفنديار بك ابن جاندار بالاستيلاء علي الأراضي التي كان قد منحها السلطان العثماني لابنه قاسم بك ، الأمر الذي جعل قاسم يفر إلى مراد الثاني . قام السلطان العثماني بتجريد حملة ضد اسفنديار ، وألحق به الهزيمة بالقرب من بولي ، واستولي علي

¹³⁶ لتفصيلات أكثر حول حركة عصيان مصطفى چلي ابن محمد چلي انظر : Dukas,

Bizans Tarihi, s. 113, :Schabeddin Tekindag, "Mustafa Celebi", IA, VIII/689, keza bk. Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/234

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/395 vd. ¹³⁷

قسطموني وباكير كوره سي . وهكذا ، أبحر اسفنديار بك علي إعادة أراضي ابنه قاسم بك إليه ، وتعهد بدفع خراج كبير للخزينة العثمانية ، والمشاركة في الجيش العثماني بقوات عسكرية عند الضرورة (١٤٢٣م/٨٢٧هـ)^{١٣٨}.

استعادة النهوض العثماني في الأفلاق : وفي الوقت الذي كان فيه مراد منشغلاً بمشكلة اسفنديار ، أراد حاكم الأفلاق دارقولا الاستفادة من انشغال السلطان العثماني في الأناضول ، وقام بالتجاوز علي الأراضي العثمانية . فأصدر مراد أوامره لأمير الحدود فيروز بك وكلفة بالهجوم علي الأفلاق ، وتشديد الضغط علي طول الحدود . فلما رأي دارقولا نجاح حملة مراد في الأناضول ، اصطحب ابنه وتوجه بهما إلي أدرنه معلناً الطاعة للسلطان العثماني . وهكذا ، وافق دارقولا علي دفع الخراج المتأخر ، وفي هذه المرة لم يرض العثمانيون بأقل من تسليم ابنه كرهائن لضمان تنفيذ بنود الإتفاقية مع الأفلاق . ومن ناحية أخرى جدد السلطان العثماني معاهدة الهدنة التي كانت الدولة قد عقدتها مع ملك المجر من قبل . وبذلك أمكن لمراد توطيد الاستقرار مؤقتاً في الأناضول والروميلي^{١٣٩}.

خضه إماراتي آيدين ومنتشه : ولما قرّر جنيد بك ابن آيدين من جيش مصطفى جلبي متوجهاً إلي إمارة آيدين منتهزاً فرصة فرار أبناء إلياس ابن منتشه أيضاً واعلاهم الإستقلال بإمارتهم ، سار السلطان مراد إليه بعد توطيد الاستقرار في الروميلي ، حيث أوقع الهزيمة أولاً بأبناء إلياس وقبض عليهم ، وألحق إمارة منتشه تماماً بالدولة العثمانية (١٤٢٥م/٨٢٩هـ) ، ثم توجه بعد ذلك إلي جنيد بك ابن آيدين ، وهزمه

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/397 vd, keza bk. Necdet ¹³⁸
Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden
Tesisı”, Türkler, IX/234
Dukas, Bizsans Tarihi, s. 113-114 ¹³⁹

وضم بلاد أيدين نهائياً للأراضي العثمانية . وأرسل خلفه حمزة بك أمير أمراء الأناضول الذي تمكن من القبض عليه وقتله في ١٤٢٦م/٨٢٩هـ^{١٤٠} .

ترسيم النفوذ العثماني لحيي أبناء قره مان : لما توفي محمد ابن قره مان

أثناء محاصرته لأنطاليا (٩ فبراير ١٤٢٣/٢٧ صفر ٨٢٦هـ) ، نشب الصراع بين أبناء علي الحكم ، فقام مراد الثاني بتأييد إبراهيم ابن قره مان لتمكينه من ملك أبيه ، وذلك مقابل تارله عن الأراضي العثمانية التي مسحها تيمورلنك هم (حميد إيلي ، ككشهر ، و اولتق حصاري) ، كما قام بتزويج أخواته الثلاثة من أبناء محمد بك ابن قره مان المتوفي إبراهيم وعلي وعيسي^{١٤١} .

ضم أملاك أبناء كيرميان وتأمين الحدود الشرقية للدولة : ولما لم

يكس نيعقوب ابن كيرميان أبناء يخلفونه من بعده في ملكه ، أوصي بأملاكه من بعده للعثمانيين . فلما توفي يعقوب بك ، عين السلطان مراد الثاني عثمان بك ابن اومور بك علي مركز إمارة كيرميان في كوتاهية ، وبذلك ضم العثمانيون أملاك هذه الإمارة أيضاً إلي أراضيهم . (١٤٢٨م/٨٣٢هـ) .

وهكذا ، أمكن مراد الثاني إخضاع الإمارات التركمانية في وسط وغربي الأناضول ، إلا أن شرقي الأناضول كانت تموج بصراعات مستمرة بين تركمان آق قويونلي وقره قويونلي ، كما كانت العشائر التركمانية الأحرى علي حدود الدولة الشرقية وبخاصة في نواحي أماسيا وتوقات وجانيق ، تنشر الإضطراب وعدم الاستقرار في المنطقة ، وتعرض تركمان ذو القدر وآق قويونلي علي فلب الأراضي العثمانية وتخريبها . ولذلك اكتسبت عملية ضبط حدود الدولة الشرقية وتأمين ولاياتها في تلك المناطق أهمية كبرى خلال هذه الفترة ، حيث قام مراد الثاني بتعيين بورگاج باشا علي

¹⁴⁰ Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/400 vd, keza bk . Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/236

¹⁴¹ Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/236

ولاية آماسيا للقيام بهذه المهمة (١٤٢٦م / ٨٢٩هـ) ، فنجح في ضم سمسون للأملاك العثمانية (١٤٢٧م / ٨٣٠هـ) وتوطيد الحكم العثماني في المنطقة^{١٤٢} .

استباحة سلاتنيك ويانيا : كان ييلدرم بايزيد قد فتح سلاتنيك في عام ١٣٩٤م / ٧٩٦هـ ، ثم تنازل عنها بعد ذلك الأمير سليمان لبيزنطة مقابل تأييده في صراعه مع أخوته علي العرش العثماني . ولما تمكن مراد من القضاء علي فتنة مصطفى جلبي ، أمر طورخان بك بمحاصرتها حتي اضطر أهلها لبيع المدينة للبنادقة مقابل توفير المؤن لهم وتعمير المدينة (١٤٢٣م / ٨٢٦هـ) . وهكذا ، توجه مراد إلي أمراء جزر ميدللي وساقيز ورودس ، حيث جدد معاهدات الصداقة معهم ، وطلب من البنادقة الخروج من سلاتنيك حتي يمكن تجديد المعاهدة التجارية معهم أيضاً (١٤٢٦م / ٨٢٩هـ) . ولكن رفض البنادقة تسليم المدينة دفع مراد للتوجه إليها ومحاصرتها حتي فتحت بمجوم شامل شنه علي المدينة في ٢٩ مارس ١٤٣٠م / ٢٥ جمادي الثاني ٨٢٣ . وعقب الفتح أراد مراد ترسيخ أقدام العثمانيين في المدينة فأمر بإسكان العديد من العشائر التركمانية في مدنها ، حيث اضطر البنادقة لتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين في ١٤٣١م / ٨٣٤هـ .

والحقيقة أن الدويّ العظيم الذي نتج عن فتح سلاتنيك في أوروبا عموماً وفي البندقية علي وجه الخصوص ، أجبر سكان يانيا علي فتح أبواب مدينتهم للعثمانيين بعد أن ضاقوا ذرعاً بصراعات أبناء حاكمها الذي توفي . فأسرع السلطان مراد بتعيين قره جه باشا عليها ، وأمره بإسكان العشائر التركمانية في أنحائها (٩ أكتوبر ١٤٣١ / ١٣ صفر ٨٣٥)^{١٤٣} .

^{١٤٢} Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/427 vd. Necdet Öztürk, “ Fetret Dvri ve Osmanlı Hakimiyyetinin Yeniden Tesisi” ,Türkler, IX/236

^{١٤٣} تعد سلاتنيك المدينة الإستراتيجية الثانية بعد بيزنطة ، فلما سلمت للبنادقة ، كانت سبباً لمواجهات بين الطرفين استمرت لما يقرب من سبعة أعوام متتالية (١٤٢٣ - ١٤٣٠) ، فيما يتعلق بهذا الصراع

التحالف القره مانى - المجرى ضد العثمانيين : على أثر وفاة حاكم

الصرب استيفان لازاروفتش حليف الدولة (١٤٢٧م / ٨٣٠هـ —) تولى جورج برانقوفيتش الحكم بدلاً منه ، فقام حاكم الصرب الجديد بالتنازل عن بعض المناطق التابعة له لملك المجر والإمبراطور ألمانيا للحيلولة دون قيام العثمانيين بهجمات عليها . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا إجبار أمير الصرب الجديد على الرضوخ لدفع الخراج السنوي للخزينة العثمانية والمشاركة بفرق عسكرية عند الضرورة ، إلا أن النفوذ الذي كانت تمارسه المجر على صربيا ، أجبر الأخيرة على المشاركة في التحالف الذي جمع إبراهيم ابن قره مان وملك المجر .

وكان إبراهيم بك ابن قره مان يسعى لاستعادة الأراضي التي تنازل عنها للعثمانيين ، حيث قام بالتنسيق مع ملك المجر في الهجوم على الأراضي العثمانية في الأناضول والروميلي في نفس الوقت . ففي الوقت الذي قام فيه ابن قرمان بالهجوم على بكشهر وحيد إيلي وأسر أميرها إلياس بك ، راح ملك المجر يضرب قلاع قولومباج وگرويرجينك . فأمر السلطان أمير أمراء الروميلي سنان باشا بالتوجه إلى المجر ، حيث نجح في إلحاق الهزيمة بهم (١٤٣٣م / ٨٣٧هـ) ، ثم توجه السلطان بنفسه إلى ابن قره مان ، فاستولى على آقشهر وقونية وبكشهر ووصل حتى بوزقير ، وأعلن عيسى بك أميراً على إمارة قره مان ، الأمر الذي جعل إبراهيم يسعى للصلح الذي وافق عليه السلطان نظراً لهجوم البحار على الآحه حصار (١٤٣٤م / ٨٣٨هـ) . وإذا كان السلطان العثماني قد توجه في عام ١٤٣٧م / ٨٤١هـ إلى بلاد المجر ، إلا أن انسحاب الجيش المجري جعل الحملة تغير وجهتها إلى بلاد الصرب ، حيث ضم سمندره ضمّاً مباشراً (١٤٣٨م / ٨٤٢هـ)^{١٤٤} .

M. Delibas, "Selanik ve Yanya'da : أنظر : العثماني السندقي علي مدينة سلانيك ،
Osmanli Egemenliginin Kurlusu", Belleten, LI/199,(1987), s.75-
102
Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin
Yeniden Tesisi", Türkler, IX/238-239¹⁴⁴

تشكيل تحالف صليبي ضد العثمانيين : لقد شجعت الهزائم التي ألحقها

جون هونياد المجري بالقوات العثمانية في الروميلي ودخوله بلاد الأفلاق ، شجعت بابا روما علي الدعوة لتشكيل حلف صليبي ضد العثمانيين ، حيث دخل هذا الحلف كل من المجر وبولندا والأفلاق والصرب والألمان والبلغار والأرناؤوط ، وذلك تحت قيادة جون هونياد . تحرك الجيش الصليبي في ٢٢ يولية ١٤٤٣ / ١٦ ربيع الأولي ٨٤٧ متوجهاً إلي بلاد الصرب ، حيث استولى عليها وعلي ألاجيه حصار وشهر كوي ونيش ، ثم التقى بالجيش العثماني عند ايزلادي دربندي وألحق به هزيمة سقطت علي أثرها فليبه أيضاً (٢٤ ديسمبر / ٢٣ شعبان)^{١٤٥} .

وفي هذا الظروف الدقيقة ، قام إبراهيم ابن قره مان بتجاوز الحدود العثمانية واحتل المناطق الممتدة من آقشهر وحتى بكشهر ، فأمر السلطان ابنه الأكبر علاء الدين بك بالتوجه إليه ، حيث أجبره مرة أخرى علي الصلح وإعادة الأراضي التي احتلها . والحقيقة أن مراد اضطر قبول هذا العرض لمواجهة الحلف الصليبي في الروميلي . إلا أن ابن قره مان راح ينقض الصلح مرة أخرى ، وتجاوز الحدود وأخذ يتعدي علي الأملاك العثمانية (١٤٤٤م / ٨٤٨هـ) ، فطلب السلطان الصلح من المجر التي وافقت عليه ، وأرسلت وفداً إلي أدرنه للإتفاق علي بنوده مع السلطان العثماني .

معاهدة أدرنه - مجدين (١٤٤٤م / ٨٤٨هـ) : توجهت هيئة بحرية إلي

أدرنه للتصديق علي المعاهدة التي وافق عليها السلطان العثماني في ١٢ يونية ١٤٤٤ / ٢٥ صفر ٨٤٨ ، حيث تضمنت هذه المعاهدة البنود التالية :

١ . التعهد بإعادة المناطق التي كان قد استولي عليها الجيش الصليبي من الصرب .

٢ . تشكيل حكومة صربية مستقلة .

¹⁴⁵ بخصوص تفصيلات حول معارك ايزلادي ووارنا ، أنظر : H.Inalcik- M.Oguz, Gazavat-i Sultan Murad b. Muhammed Han (Izladi ve Varna Savaslari , 1443-1444 uzerinde Anon'm Gazavatname), Ankara 1978, keza bk.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/422

٣. إعادة ابني حاكم الصرب المحجوزين لدى العثمانيين .

٤. تعهد الصرب بدفع الخراج المقرر عليهم للخرزينة العثمانية كل عام .

٥. الاعتراف بالنفوذ المجري علي بلاد الأفلاق مع الإستمرار في دفع الخراج للعثمانيين^{١٤٦} .

وهكذا ، تفرغ مراد الثاني لمواجهة إبراهيم بك ابن قره مان ، حيث عبر إلي الأناضول بعد مرور شهر من توقيع المعاهدة ، ففر ابن قره مان إلي طاش إيلي وأرسل زوجته أخت السلطان وسيطاً للصلح . وبالفعل ، تم الصلح بين الطرفين وعقدت معاهدة مع ابن قره مان في أغسطس ١٤٤٤ / ربيع الآخر ٨٤٨ ، تعهد فيها بعدم التجاوز مرة ثانية ، وإعلام السلطان بمراسلات أوروبا معه ، وبتقديم ابنه رهينة لدى السلطان ، والمشاركة بفرقة عسكرية في جيش الدولة عند اللزوم ، وذلك مقابل إعادة السلطان الأراضي التي كان قد استولي عليها إلي ابن قره مان ثانية^{١٤٧} .

تنتهي مراد الثاني من الحكم ونموحة الحيوية للحلفاء السليبيي : إذا

كانت حالة الإخفاق التي تعرضت لها الجيوش العثمانية في الروميلي قد جعلت مراد الثاني يستدعي ابنه محمد من مغنسيا إلي أدرنه في ٢٢ مايو ١٤٤٤ / ٢٥ محرم ٨٤٨ للتحول له عن العرش ، فقد حاول السلطان العثماني توفير حالة من الإستقرار علي الجبهة الأوروبية بعقد معاهدة أدرنه-سجدين وعلي الجبهة الأناضولية بعقد معاهدة صلح مع ابن قره مان ، وذلك قبل اتخاذ قرار الإنزواء في بورصة ، وترك شئون السلطنة لابنه محمد الثاني^{١٤٨} .

^{١٤٦} “ Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/426, keza bk. Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/239-240

^{١٤٧} Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/427vd

^{١٤٨} تذكر المصادر الأسباب التي دعت مراد للتخلي عن العرش لابنه محمد ، وتخصرها في حالة الإخفاق التي تعرض لها السلطان في مواجهاته البلقانية ، ومرور مراد خلال هذه الفترة بحالة من الإنكسار لكبريائه ، شعوره بحزن عميق نتيجة لوفاة ابنه الأكبر علاء الدين ، الخلافات التي وقعت بينه

والحقيقة أن تنحي مراد الثاني عن السلطة لإبنه الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشر من عمره في هذا الوقت الدقيق ، وعلي هذا النحو ، كان له آثار داخلية وخارجية عظيمة علي الدولة . فقد بدأ الأهالي يهاجرون إلي الأناضول ، وشرع الجيش في بناء السدود والخنادق حول أدرنه ، وسعي البابا لدفع الحجر لنقض المعاهدة مع العثمانيين ، وأسرع إبن قره مان بالمخاطبة مع الحلف الصليبي ثانية ، وأطلق إمبراطور بيزنطة سراح أحد مدعي السلطنة ويدعي أورخان لإنتزاع السلطة من السلطان الشاب محمد ، وأغلق الأسطول البابوي طريق العبور إلي الروميلي بسفنه . وكان قائد الأسطول البابوي جون هونياد يري بأن قطع الطريق بين الأناضول والروميلي ، ومن ثم منع انتقال الجيوش العثمانية من الأناضول إلي أوروبا عن طريق البحر سوف ييسر عملية طرد العثمانيين من البلقان ، حيث اعتقد بأنه في حالة انتصار الحلفاء في هذه المواجهة ، يمكنه الظفر بمملكة بلغاريا لنفسه . وبذلك تكاملت عوامل مواجهة جديدة بين الدولة العثمانية والحلف الصليبي .

وهكذا ، نُقضت معاهدة أدرنه - سجدين ، ودخل الحلف هذه المرة البحر وبوهيميا والأفلاق والخروات وبولندا وألمانيا ، علاوة علي البندقية والباباوية وبيزنطه وراجوزه . وتحركت جيوش الحلفاء متوجهة إلي وديين ، حيث تمكنت من السيطرة علي المناطق الممتدة حتي وارنا بسهولة ، وقطع الطريق البحري بين الأناضول والروميلي . ولما وصلت هذه الأخبار إلي أدرنه ، أستدعي رجال الدولة مراد الثاني من بورصة لقيادة الجيش ومواجهة هذا الحلف الصليبي الجديد . وبذلك تحرك مراد من الأناضول بنحو ٤٠ ألف فرد ، وعبر المضيق من موضع قلعة أناضولي حصار وبمساعدة جمهورية جنوة التي

وبين أمراء الحدود ، والرغبة في إبراز ابنه محمد كسلطان قادم لمواجهة أية محاولات تقوم بها بيزنطة لتأييد أي من مدعي السلطنة الذين كانت تحتجزهم لديها . وإذا كانت المصادر اختلفت في تاريخ تنحية مراد خلال عام ١٤٤٤م ، فقد تباينت أيضاً فيما إذا كان مراد تنحي عن السلطنة مرة واحدة

أم مرتين . انظر في هذا الخصوص : Necdet Öztürk, " Fetret Devri ve Osmanlı

Hakimiyetinin Yeniden Tesisi", Türkler, IX/240

حصلت علي دوقه ذهبية عن نقل كل فرد من الجيش العثماني . وبهذا الشكل ، تمكن مراد من تجاوز الحصار الذي ضربه الحلفاء علي البسفور ، والوصول بجيشه إلى أدرنه^{١٤٩}.

معركة وارنا (١٠ نوفمبر ١٤٤٤ / ٢٠ رجب ٨٤٨) : ولما سمع جيش الحلفاء

الذي كان قد أقام معسكراته أمام وارنا بأن مراد الثاني قد تمكن من العبور إلى الروميلي ويتوجه علي رأس الجيش العثماني صوب وارنا ، أصابه حالة من الذهول ، وبدأ يستعد لمعركة فاصلة . وفي صباح ١٠ نوفمبر ١٤٤٤ / ٢٠ رجب ٨٤٨ وقعت المواجهة بين الطرفين أمام وارنا . وإذا كانت القوات الصليبية قد نجحت في النيل من جناحي الجيش العثماني في البداية ، إلا أن دحر المحجوم الذي قاده ملك المجر علي قلب الجيش العثماني ، أوقع هزيمة قاسية بالتحالف الصليبي ، ففر هونياد من أرض المعركة بقواته ، وراحت القوات العثمانية تتعقب الجيش الصليبي المتقهقر علي طول نهر طونه ، حيث استطاع العثمانيون بذلك توطيد أقدامهم في الروميلي مرة ثانية^{١٥٠}.

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/434vd¹⁴⁹

¹⁵⁰ كان أمير أمراء الأناضول قره جه بك يتخذ مكانه في الجناح الأيمن من الجيش العثماني ، أما الجناح الأيسر فكان يقوده أمير أمراء الروميلي شهاب الدين باشا ، وكان مراد الثاني يتخذ موقعه في قلب الجيش ، حيث وضع علي رأس رمح في مقدمة الجيش نصر معاهدة الصلح التي نقضت . أما الجيش الصليبي فكان الملك لاديسلاس في مركزه ، وكان جون هونياد يتجول بين صفوف الجيش باعتباره القائد العام للجيش الصليبي . وقد حقق المحجوم الأول للجيش الصليبي الذي قاده ملك المجر بفرقة الفرسان نجاحاً محدوداً ، حيث اضطرت صفوف الجيش العثماني وتعرضت خيمة السلطان للخطر . ولكن قره جه بك تمكن في اليوم التالي من جمع صفوف الجنود العثمانيين تحت راية السلطان ثانية ، حيث بدأت معركة في صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر واستمرت حتى وقت العصر ، فقامت فرق اليكيجري بحصار ملك المجر ولهستان الشاب لاديسلاس حتى سقط قتيلاً ، وحقق العثمانيون نصراً مؤزراً في هجومهم المضاد ، وفرت يانقو بصعوبة من أرض المعركة ، وسقط قره جه باشا وعثمان بك ابن امور بك شهيدين . والحقيقة أن انتصار وارنه قد أنهى الأزمة التي مرت بها الدولة ودعت مراد الثاني للتخلي علي السلطة لابنه الصغير . وقد وضع الباحثون هذا الانتصار في موضعه بين انتصارات قوصوه (١٣٨٩) ونكبولي (١٣٩٦) قوصوه الثانية (١٤٤٨) التي مثلت محاور أساسية خلال

وإذا كان السلطان العثماني قد بقي في أدرنه عقب معركة وارنا بضغط من الوزير الأعظم جاندارلي خليل باشا ، إلا أن القرائن تؤكد أن مراد الثاني لم يباشر شئون السلطنة ، وبقيت كافة مقاليد الحكم في يد ابنه محمد الثاني ، حيث يلاحظ رسائل بشري انتصار وارنه إلى سلاطين العالم الإسلامي والردود عليها راحت تحمل اسم محمد الثاني . وهكذا ، أثر مراد العودة لإنزوائه ثانية في بورصة بعد استقرار الأوضاع في الروميلي . ولكن ، ترك مراد السلطنة لمحمد الثاني صغير السن لم تكن تروق لعدد من رجال الدولة وعلي رأسهم الوزير الأعظم جاندارلي قره خليل باشا ، حيث اتفقوا علي تنحية محمد الثاني وإعادةه إلى مغنسيا ، واستدعاء أبيه مراد الثاني ليجلس علي العرش . وبالفعل ، تم لهم ما أرادوا في ٥ مايو ١٤٤٦م / آخر محرم ٨٥٠هـ^{١٥١} .

المورة تحت النفوذ العثماني : انتهز أمير المورة قسطنطين فرصة اغلاق

مضيق چناق قلعه ووصول الحلف الصليبي إلى ورانا ، وقام بتجاوز برزخ كورنت واحتل بعض المدن العثمانية في المنطقة . وعقب انتصار العثمانيين في وارنا طالب مراد الثاني قسطنطين بإعادة المناطق التي استولي عليها ، إلا أن عدم رد أمير المورة وتحصينه

مرحلة تأسيس الدولة ، انظر في هذا الخصوص : Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/241; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I/435-439

¹⁵¹ انقسم رجال الدولة خلال هذه الفترة فريقين بين مؤيد لمراد ومؤيد لمحمد الثاني ، حيث كان الوزير الأعظم جاندارلي خليل باشا وفرق اليكيجري يؤيدون عودة مراد للحكم ، وكان زاغنوس باشا وصاروجه باشا يدعمون ابنه محمد . وقد قام المؤيدون لمراد وعلي رأسهم خليل باشا بتحريض فرق اليكيجري بعد أن تأخرت روايتهم علي العصيان والمطالبة بتنحية محمد وإعادة مراد لسدة الحكم مرة أخرى وراحوا يهددون بالانضمام لدعي السلطنة أورخان جلبي الموجود في بيزنطة. حتي تم لهم ما أرادوا فيما عرف في التاريخ العثماني بحادثة "بوجوك تبه" ، وقد اتهم جاندارلي خليل باشا بالتورط في تدبير هذه الحادثة . وهكذا ، عاد مراد لسدة الحكم بعد تركه له لمدة عامين ، حيث قضى في سلطنته الثانية هذه نحو خمس سنوات أخرى (١٤٤٦ - ١٤٥١م) : Necdet Öztürk, “ Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin Yeniden Tesisi”, Türkler, IX/242 .

لبرزخ كورنت جعل السلطان العثماني يتوجه للمنطقة بنفسه في ٢٧ نوفمبر ١٤٤٦ / ٨ رمضان ٨٥٠ ، وسيطر على البرزخ ، حيث فتحت أمامه أبواب المورة ، وبسط نفوذه على باتراس وكوردس . وهكذا ، أجبر قسطنطين علي طلب الصلح ، فوافق السلطان علي دفع أمير المورة الخراج للخرزينة العثمانية والإعتراف بالنفوذ العثماني عليها^{١٥٢} .

بدء حركة عصيان بلاد الأرناؤوط : كان فتح العثمانيين لبلاد الأرناؤوط سبباً في بدء سلسلة من حركات العصيان ضد الإدارة العثمانية . إلا أن الدولة تمكنت من فرض نفوذها علي أمير الأرناؤوط ياني قاستيريوتا (١٤٢٤م / ٨٢٧هـ) واحتجاز أبنائه كرهائن لدي الدولة ، ومن ثم اسكان العديد من العشائر التركمانية في تلك المناطق ، الأمر الذي ساعد علي انتشار الإسلام بين السكان الأرناؤوط . ولما مات قاستيريوتا (١٤٤٣م / ٨٤٧هـ) ، فر ابنه اسكندر الذي نشأ في السراي العثماني من الأراضي العثمانية رغبة منه في الإستيلاء علي أملاك أبيه ، حيث تمكن من تحقيق هدفه ، وبدأ صراعه الطويل مع الإدارة العثمانية . وإذا كان مراد الثاني قد توجه لحصار قلعة قرويا التي تحصن بها اسكندر بك ، إلا أن استعدادات هونياد لحرب العثمانيين وتجاوزه الأراضي الصربية ، جعل السلطان العثماني يرفع الحصار عن المدينة مؤقتاً ويتخذ الإستعدادات لمواجهة حلف صليبي جديد لاحت مؤشراتته في الأفق (١٤٤٧م / ٨٥١هـ)^{١٥٣} .

معركة قوصوه الثانية : والحقيقة أن الدافع وراء دعوة هونياد لحملة صليبية جديدة ضد العثمانيين ، كان هو محاولة نحو عار هزيمة وارنا . فقد سعي هونياد هذه

^{١٥٢} فيما يتعلق بحملة مراد الثاني علي المورة ، أنظر : A. Kurat, " Bizans'ın Son ve Osmanlıların İlk Tarihçileri, Türklerin 1446'da Mora'yı Hataca Bağlamalarına Ait Bizans ve Osmanlı Türk Kaynaklarında Verilen Malumatın Mukayesesi", TM., III.(1935), 185-206

^{١٥٣} لتفصيلات أكثر حول حركة عصيان الأرناؤوط بقيادة إسكندر بك ، ومساهمة هؤلاء العصاة في

التحالف الصليبي ضد الدولة العثمانية ، أنظر : Bilgehan Pamuk, "Güney Arnavutluk'ta Osmanlı Hakimiyeti", Türkler, IX/196 vd.

المرّة لتشكيل جيش من الأفلاق والبولنديين ومتطوعي أردل والمانيا ، كما شارك أمير الأرناؤوط إسكندر بك في هذا الجيش بقوة كبيرة . وهكذا ، سار هونياد بجيشه صوب بلاد الصرب التي تمكن من احتلالها بسهولة ، والتقى بالجيش العثماني الذي كان يقوده مراد الثاني بنفسه في ميدان قوص اووا في أواسط أكتوبر ١٤٤٨ / شعبان ٨٥٢ . وإذا كانت الحرب التي بدأت بهجوم قاده هونياد قد استمرت ثلاثة أيام سجلاً بين الطرفين ، إلا أن انحياز أمير الأفلاق للجانب العثماني وعدم قدر الصرب على التفاهم مع المجر ، أدّى لهزيمة الجيش الصليبي وفرار هونياد من أرض المعركة بصعوبة في ٢٠ أكتوبر / ١٣ شعبان ١٥٤ .

وأخيراً ، وفي ٣ فبراير ١٤٥١ / غرة محرم ٨٥٥ توفي السلطان مراد الثاني مشلولاً ، حيث استدعى ابنه الشهيد محمد من ولايته بمغنيسا ، فوصل بعد ستة عشر يوماً ، وجلس على عرش الدولة للمرة الثانية . وهكذا ، تمكن مراد الثاني خلال فترة حكمه (١٤٢١-١٤٥١م / ٨٢٤-٨٥٥هـ) من إتمام ما بدأه أبيه ، واستعاد نفوذ الدولة العثمانية على الأناضول والروميلي ، وأتم وضع أساس جديد أكثر عمقاً وأصالة للدولة آل عثمان .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجح مراد الثاني في مواجهاته ضد البنادقة بسبب سلاطنته وضد المجر وعلى طول نهر طونة بسبب تطورات الأوضاع في بلاد الأفلاق الصرب بعد أن نجح منافسيه على العرش . وبذلك تيسر لمراد خلال العشر سنوات الأولى من حكمه أن يحقق نجاحات هامة في الأناضول والروميلي سعياً لاستعادة أملاك الدولة ونفوذها الذي كان موجوداً في أواخر عهد ييلدرم بايزيد . وعلى الرغم من تعرض الدولة العثمانية خلال السنوات ما بين ١٤٤١-١٤٤٤م / هـ لعدة أزمات نتج عنها تراجع حدودها على كل الجبهات وتشكيل تحالف صليبي ضم كل من البندقية والمجر استهدف إخراج العثمانيين من كل أوروبا ، فقد قضى انتصار وارنا ١٤٤٤م / هـ على كل هذه الطموحات ، ومكنت العثمانيين من ترسيخ أقدامهم في البلقان ،

بحيث أصبح عهد مراد الثاني مرحلة هامة من مراحل فتوح البلقان وإسكان التركمان فيها . والحقيقة أن العثمانيين راحوا يلغون بثقلهم في منطقة الروميلي ويرسخون أقدامهم فيها منذ استيلاء تيمورلنك علي الأناضول ، وتركت مهمة حل مشكلات صربيا والأرناؤوط والمورة واستانبول لمحمد الثاني الذي راح يضع الأساس لمرحلة الإمبراطورية .

أما علي الجبهة الشرقية فقد حرصت الدولة العثمانية خلال عهد مراد الثاني علي اتباع سياسة حذرة تجاه بسط نفوذها علي الأناضول التي كانت تحت نفوذ شاهروخ بن تيمور حتي ذلك الوقت . أما أكبر نجاح تمكن مراد من تحقيقه علي الجبهة الأناضولية ، فقد تمثل في إعادة بسط النفوذ العثماني علي جميع الإمارات القديمة غربي الأناضول .

ومن ناحية أخرى ، فقد كشف الصدر الأعظم خليل باشا وفرق اليكيجري في مركز الدولة وأمراء الحدود في الولايات عن المعدن الحقيقي لشخصية مراد الثاني . فقد كانت حركة عصيان اليكيجري خلال فترة حكم مراد الثانية أهم ما تعرضت له مركز الدولة حتي ذلك الوقت ، كشفت هذه الحادثة عن نفوذ هذه الفرق العسكرية لأول مرة ودورهم في تولية أحد أفراد أسرة آل عثمان للسلطنة . وقد شهد عهد مراد الثاني أول مواجهة بينه وبين الطبقة الأرستقراطية من أسرات الغزاة الأوائل الذين شاركوا في فتوحات الدولة الأولى . فقد كشفت الضائقة الاقتصادية عن وجهها القبيح بتفجير حالة من التنافس علي النفوذ بين أمراء الدولة الكبار . إلا أن مراد تمكن من حل هذه المشكلة بتعيين خدم السلطان الخواص في مناصب الدولة العليا ، فكانت هذه السياسة ضربة قوية للأرستقراطية العثمانية التي حازت علي نفوذ كبير في الدولة منذ ظهورها . وقد أخذ محمد الثاني يعمق هذه السياسة خلال عهده ، حيث تعرض السلاطين العثمانيين الذين مارسوا هذه السياسة منذ ذلك الحين لانتقادات شديدة فيما بعد .

وعلي حدود الدولة أصبح أمراء الحدود من أصحاب النفوذ الراسخ في عهد مراد الثاني . وكان علي رأس هؤلاء الأمير محمد بن ميخال وطوراخان بن باشا يكيث الذين كانا علي رأس قوات الحدود . فكان محمد بن ميخال وطوراخان يقودان

هجمات قوات الحدود علي بلاد اليونان والمورة . أما أبناء أورانوس فكانوا يباشرون فعاليتهم في سلانيك ثم في سره ز وبلاد الأرناؤوط بعد ذلك . أما الجبهة الثالثة في بلاد الصرب والبوسنة فقد تولاهما عدد من أبناء الأمراء الأوائل . وكانت الجبهة الرابعة تتخذ من وديين مركزاً لها تحت قيادة سنان بك ، حيث امتدت إلي بلاد انجر والأفلاق . وقد لعب أمراء الحدود هؤلاء دور هام في تأييد مدعي السلطنة خلال عهد مراد ، كما لم يترددوا في أحيان كثيرة في الخروج علي أمراء الأمراء الذين كانوا يمثلون السلطة المركزية في الدولة . ولذلك لم يأمن مراد الثاني جانبهم في أي وقت ، حيث بدأ دورهم الإستراتيجي في الدولة في الزوال التدريجي خلال الربع الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي .

ومهما يكن من أمر ، فقد تمكن كل من محمد الأول ومراد الثاني خلال فترة حكمهم من إعادة تأسيس الدولة العثمانية من الأناضول والروميلي ، ومهدا الطريق لمحمد الفاتح لتحقيق حلم حده ييلدرم بايزيد لتشكيل إمبراطورية مركزية تكون عاصمتها القسطنطينية .

المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

- ابن كمال (كمال باشا زاده) أحمد عاشقي ، تواريخ آل عثمان ، نشر ن. آتسز ، استانبول ١٩٤٩ (انظر الدفتر الأول ، نشر شرف الدين طوران ، أنقرة ١٩٧٠ ، الدفتر الثاني ، نشر شرف الدين طوران ، أنقرة ١٩٩١)
- أحمددي ، دستان تواريخ ملوك آل عثمان ، نشر جيفجي اوغلي آتسز ، استانبول ١٩٤٧ (كذا أنظر نشر إسماعيل أنور ، أنقره ١٩٨٣)
- إسماعيل غالب ، تقويم مسكوكات عثماني ، استانبول ١٣٠٧
- أروج بك ، تواريخ آل عثمان ، نشر بابنجر ، استانبول ١٩٢٥ (كذا أنظر نشر نبال آتسز ، استانبول ١٩٧١)
- أنوري ، دستور نامه ، نشر مكرميين خليل ينانج ، تورك تاريخ انجمنائي كليائي ، استانبول ١٩٢٨
- حديدي ، تواريخ آل عثمان ، نشر نجات أوزتورك ، استانبول ١٩٩١
- خواجه سعد الدين ، تاج التواريخ ، استانبول ١٢٧٩ (كذا أنظر نشر عصمت بارماقسز أوغلي ، أنقره ١٩٩٢)
- شكر الله ، هجت التواريخ ، (نقله للتركية آتسز) ، استانبول ١٩٣٩
- صولاق زاده ، عثمانلي تاريخي ، استانبول ١٢٩٨ (كذا أنظر نشر واحد جابوق ، الجزء الأول ١٩٨٩)
- عالي مصطفى ، كتاب تاريخ كنه الأخبار ، نشر أحمد أوغور وأ. كول وم. جوهادار ، قيصريه ١٩٩٧

- عاشق باشا زاده ، تواريخ آل عثمان ، (نشر علي بك) ، استانبول ١٩٣٢
(كذا انظر نشر نهال أتمسز ، استانبول ١٩٤٩)
- فريدون بك أحمد ، منشآت السلاطين ، جزعان ، استانبول ١٢٧٤
- قره مانلي محمد باشا ، تواريخ سلاطين عثمانية ، نشره ونقله للتركية قونية لي
إبراهيم حقي ، استانبول ١٩٤٩
- لطفى باشا ، تواريخ آل عثمان ، نشر علي بك ، استانبول ١٣٤١
- مجدي ، ترجمة الشقايق النعمانية (حدايق الشقايق) ، استانبول ١٢١٩
- منجم باشي أحمد دده بن لطف الله ، ترجمة جامع الدول (صحائف الأخبار) ،
استانبول ١٢٨٥ (كذا انظر نشر أحمد اغيراقچه لوقائع ١٢٩٩-١٤٨١ ،
استانبول ١٩٩٥)
- نشري محمد ، جهانما - تواريخ آل عثمان ، نشري تاريخي ، نشر محمد
كوبمان ، أنقره ١٩٨٣

ثانياً - المراجع :

١- التركية :

- (فتحنامه " Timur'un Ankara Savaşı Fetihnamesi " , Aka İsmail , Belgeler, XI/15 (1986), 1-22. (تيمور حول حرب أنقره)
- _____ , Ankara 1991. (تيمور ودولته) Timur ve Devleti ,
- Aktepe M. Münir, " Osmanlıların Rumeli'de İlk Fethettikleri Çimbi Kalası " (قلعة جمبي أولي فتوحات العثمانيين في الروميلي) , İÜ.Ed.Fak., Tarih Dergisi, 1-2, İstanbul 1949-1950
- Artuk İ., " Osmanlı Beyliğinin Kuruluşu : Osman bey'e Aid Bir Sikke " (" Türkiye'nin Sosyal ve Ekonomik Tarihi (1071- 1920) ") , تأسيس الإمارة العثمانية : عملة تنسب لعثمان بك " التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لتركيا) , Ankara 1982, 27-33.

-Barkan Ö.L., " Osmanlı İmparatorluğu'nda Bir İskan ve Kolonizasyon Metodu Olarak Sürgünler " (الترحيل في الإمبراطورية العثمانية (الترحيل في الإمبراطورية العثمانية) باعتباره نظام اسكان) İktisat Fak. Mec. XIII/ 1-4 (1952), 56-78.

-Başar Fahmettin, " Fetret Devrinde Osmanlı- Bizans Münasebetleri (1402-1413) (العلاقات العثمانية-البيزنطية خلال مرحلة الفتور, Prof. Dr. Fikret İşiltan'a 80 doğum yılı Armağanı, İstanbul 1995, 247-260.

- _____, " Osmanlıların Menşe-i ve Kayıların Anadolu'ya Gelişi Hakkında " (حول نشأة العثمانيين ووصول عشائر قايي إلى الأناضول), Tarih Dergisi, sy.36, İstanbul 2000, s.64

- Baştav Şerif , " Osmanlı İmparatorluğunun Kuruluşunda Bizans ve Avrupa " (بيزنطة وأوروبا أثناء تأسيس الإمبراطورية العثمانية), Osmanlı , İstanbul 1999,

- _____, " Osmanlı İmparatorluğunun Yeniden Kuruluşunda Rumeli'nin Katkısı " (دور منطقة الروميلي في إعادة تأسيس (دور منطقة الروميلي في إعادة تأسيس) الإمبراطورية العثمانية), XI. Türk Tarih Kongresi, 5-9 Eylül 1990, III. Ankara 1994.

- _____, Bizans İmparatorluğu Tarihi Son Devir (1261-1461) (تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، المرحلة الأخيرة ١٢٦١-١٤١٦), Osmanlı Türk-Bizans Münasebetleri, Ankara 1989.

- _____, Bilgehan Pamuk, " Güney Arnavutluk'ta Osmanlı Hakimiyeti " (النفوذ العثماني في جنوب الألبان), Türkler, Ankara 2002, IX/196

- Bıyıktaş Ömer Halıs, Yedi Yıl Harbi İçinde Timur'un Anadolu Seferi ve Ankara Savaşı (حملة تيمور في الأناضول وحرب أنقرة خلال حرب السنوات (حملة تيمور في الأناضول وحرب أنقرة خلال حرب السنوات) İstanbul 1934.

- Bozbara Nuray, Osmanlı Yönetiminde Arnavutluk ve Arnavut Ulusculuğunun Gelişimi (الارناؤوط وتطور القومية الألبانوية في الإدارة العثمانية), İstanbul 1997.

- Castellan George, Balkanların Tarihi (تاريخ البلقان), İstanbul 1993.

- Çetin Arslan H., " Erken Osmanlı'nın Fetih ve Yerleşim Sisteminde Akıncı Beylerinin Stratejik Önemi " (الأهمية الاستراتيجية (الأهمية الاستراتيجية) Erken Osmanlı'nın Fetih ve Yerleşim Sisteminde Akıncı Beylerinin Stratejik Önemi

Türkler, Ankara 2002, IX/ 116-121

- Danişmend, İ. Hami, " Osman Gazi'nin Nesep ve Hüviyeti "(نسب عثمان غازي وهويته), Türklük Mecmuası, c. I. (1939) s. 207-223

- Delibaşı Melek, " Osmanlı – Bizans İlişkileri – (العلاقات العثمانية – Türkler, Ankara IX/154-164.

- _____ , "Selanik ve Yanya'da Osmanlı Egemenliğinin Kurulması" (تأسيس النفوذ العثماني في سلانيك ويانيا), Belleten LI/ 189 (1987), 75- 107.

- Demirkent İ., " 14. Yüzyıla Kadar Balkan Yarımadasında Bizans Hakimiyeti" (الحكم البيزنطي في شبه جزيرة البلقان حتى القرن ١٤), İ. Kosova Zaferinin 600. Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989Doğru Halime, Osmanlı Devletinin Rumeli'de Fetih ve İskan Siyaseti ", Türkler, Ankara 2002, IX/ 165

- Dennis G. T., " 1403 Tarihli Bizans- Türk Antlaşması " (المعاهدة), التركية البيزنطية المورخة بتاريخ ١٤٠٣, çev. M. Delibaşı, AÜDTCFD., XXIX/1-4 (1971), 153-166.

- Dirimtekin Feridun, " Muasır Bizans Kaynaklarına göre Osmanlıların Rumeli'ye Geçiş ve Yerleşimleri " (انتقال العثمانيين إلى), الروميلي واستقرارهم بها وفقاً للمصادر البيزنطية المعاصرة), VII. TTK Kongresi, 25-29 Eylül 1970, II, Ankara 1973.

- Divitçioğlu S., Osmanlı Beyliğinin Kuruluşu (تأسيس الإمارة العثمانية), İstanbul 1996.

- Emecen M. Feridun , " Tarih Koridorlarında Bir Sınır Şehri Edirne "(أدرنه كمدينة حدودية في مجري التاريخ), Edirne Serhattaki Payıtatı, İstanbul 1998

- _____ , " I. Kosova Savaşının Balkan Tarihi Bakımından Önemi " (أهمية معركة قوص أووا الأولى بالنسبة لتاريخ البلقان), Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu, Ankara 1989

- _____ , İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu Beylikler Dünyası (العثمانيون الأوائل ودنيا إمارات غربي الأناضول), İstanbul 2001.

- _____ , " XVI. Asırda Balkanların Kuzeydoğu Kısımında İskan Tipleri ve Özellikleri Hakkında Notlar " (أشكال الإسكان في القسم V. Uluslararası الشمالي الشرقي للبلقان خلال القرن ١٦م، وملاحظات حول خصائصه) Türkiye Sosyal ve İktisat Tarihi Kongresi, Ankara 1990, 543-550.
- Ernst Werner , Büyük Bir Devletin Doğuşu Osmanlılar (1300-1481) (العثمانيون)، (قيام دولة عظمى ، العثمانيون) , çev. Yılmaz Öner, I.-II., İstanbul 1988.
- Gibbons Herbert Adams, Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluşu (تأسيس الإمبراطورية العثمانية), çev. R. Hulûsi, İstanbul 1928
- Hassan Umit , Osmanlı Örgüt-İnanç Davranıştan Hukuk-İdeolojiye (العثمانيون من المنظمة والعقيدة إلى الفقه والإيديولوجية), İstanbul 2001.
- Heywood C.J., " Osmanlı Devletinin Kuruluş Problemi Yeni Hipotez Hakkında Bazı Düşünceler " (بعض الأفكار الجديدة حول مسألة قيام " Osmanlı, I. Ankara 1999, s. 137-145.
- İlber Ortaylı, Menkibe , Osmanlı Devletinin Kuruluşu Efsâneler ve Gerçekler (المناقب، الحقائق والأساطير في مسألة تأسيس الدولة العثمانية), Ankara 2000.
- İlgürel Mücteba, " XIV. Yüzyılda Osmanlı Devletinin Siyasi Durumu " (الوضع السياسي للدولة العثمانية خلال القرن ١٤م), I. Kosova Zaferinin 600 Yıldönümü Sempozyumu (26 Nisan 1989), Ankara 1992, s. 18
- İnalçık Halil, " Osmanlı Tarihi En Çok Saptırılmış Tek Yanlı Yorumlanmış Tarihtir " (التاريخ العثماني باعتباره أكثر التواريخ التي حُرفت وفسرت من " Osmanlı, I. (Ankara 1999), 37-60 .
- _____ , " Osmanlı Tarihi Toplu Bir Bakış " (نظرة عامة علي " Osmanlı Tarihi (1300-1600) (التاريخ الاقتصادي الاجتماعي للدولة العثمانية، ١٣٠٠-١٦٠٠) , İstanbul 2000.
- _____ , " Osmanlı Tarihi Toplu Bir Bakış " (نظرة عامة علي " Osmanlı Tarihi Toplu Bir Bakış " (Osmanlı, I. (Ankara 1999), 37-60 .
- _____ , " Osmanlı Devletinin Kuruluş Problemi " (مشكلة " Osmanlı Devletinin Kuruluş Problemi " (تأسيس الدولة العثمانية), Doğu-batı (Yıl2/7, Temmuz 1999), s. 9-22.

- _____, " Edirne'nin Fethi 1361 "(فتح أدرنه ١٣٦١), Serhattaki Payitaht Edirne, Ankara 1965.
- , " Osmanlı Döneminde Balkanlar Tarihi Üzerine Yeni Araştırmalar, Tarihte Güneydoğu Avrupa : Balkanolojinin Dünü, Bugünü ve Sorunları (دراسات حديثة حول تاريخ البلقان في العصر العثماني ، جنوب) Ankara 1999.
- _____, " Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyeti Telakkisi ile İlgisi " (حول أصول وراثة السلطنة لدي العثمانيين " AUDTCFD., CXIV, (1959), 78-112
- _____, " Osman Ğazi'nin İznık Kuşatması ve Bafeus Savaşı " (حصار عثمان غازي لإزنيق ومعركة بافوس), Söğütten İstanbul'a ' (ميادين الفتح العثماني), Söğütten İstanbul'a, s. 443-474.
- İnbaşı Mehmet, " Balkanlarda Osmanlı Hakimiyeti ve İskan Siyaseti " (الحكم العثماني في البلقان وسياسة الإسكان), Türkler, Ankara 2002, IX/154.
- İnciçyon P.İ., H. D. Andreasyon, "Osmanlı Rumelisi Tarih ve Coğrafyası" (الروميلي العثمانية ، التاريخ والجغرافيا), Güneydoğu Avrupa Araştırma Dergisi, c. 2/3, İstanbul 1973-1979.
- Kaleşi Hasan, " Türklerin Balkanlara Girişi ve İslamlaştırma " (دخول الترك للبلقان وأسلمتها), çev. Kemal Beydilli, TED. Sy.10-11, İstanbul 1979-1980, s. 181.
- Kayabinar Event, " Yununistan'da Osmanlı Hakimiyetinin Kuruluşu " (تأسيس الحكم العثماني في اليونان, ١٣٦١-١٤٦١) (1361-1461), Türkler, Ankara 2002, IX/ 187.
- Köprüllü M. Fuat, Osmanlı Devletinin Kuruluşu (تأسيس الدولة العثمانية), Ankara 1984.
- _____, Osmanlı İmparatorluğunun Etnik Menşei Meseleleri (مشكلات المنشأ الإثني للإمبراطورية العثمانية), Belleten, VII/28 (1943).

- Köprülü Orhan F., " Osmanlı Devletinin Kuruluş ve Gelişmesindeki İtici Güçler "(القوي الدافعة في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها), Osmanlı, I. Ankara 1999, s. 153
- Kurat A.N., " Bizans'ın Son ve Osmanlıların İlk Tarihçileri, Türklerin 1446'da Mora'yı Haraca Bağlamalarına âid Bizans ve Osmanlı-Türk Kaynaklarında Verilen Malûmâtın Mükayesesi " (مقارنة المعلومات الواردة في المصادر البيزنطية والتركية العثمانية لدي المؤرخين البيزنطيين الآخرين " Türkiyat Mecmuası, (1955), sy.3, 185-206.
- Lindner P., Ortaçağ Anadolusunda Göçebeler ve Osmanlılar(العثمانيون والهجرات في أناضول العصور الوسطى), terc. M. Günay, İstanbul 2000.
- Luttel A., " 1389 Öncesi Osmanlı Genişlemesine Latin Tepkileri "(ردود الأفعال علي التوسع العثماني قبل عام ١٣٨٩م), Osmnlı Beğliği 1300-1389, İstanbul 1997.
- Michel Baliver, Şeyh Bedreddin Tasavvuf ve İsyân (الشيخ بدر الدين), çev. Ela Gültekin, Tarih Vakfı Yurt Yayınları, İstanbul 2000.
- Nicol D. , Bizans'ın Son Yüzyılları (1291-1453) (السنوات الأخيرة) terc. B. Umur., İstanbul 1999.
- Ocak A. Yaşar, Osmanlı Toplumunda Mülhidler ve Zındıklar (15-17 Yüzyıllar) (الملحدون والزنادقة في المجتمع العثماني), İstanbul 1998.
- Oğuz Tekin, " İlk Osmanlı Parası Ne Zaman Basıldı " (مني ضربت " İlk Osmanlı Parası Ne Zaman Basıldı " (Haziran 1999), Toplumsal Tarih, sy. 66,
- Orhonlu Cegiz, Osmanlı İmparatorluğunun Aşiretlerin İskani, İstanbul 1987
- Öden Z.G., Karası Beyliği(إمارة قره سي), Ankara 1999.
- Öden Z.G., Umuroğulları Hakkında Bazı Görüşler " (بعض الرؤى " Umuroğulları Hakkında Bazı Görüşler " (XII. Türk Tarihi Kongresi, Bildiriler, Ankara 1999, II. 589-594.

- Öztürk Necdet, " Osmanlıların Rumeli'ye Geçışı ve Gelibolu'nun Fethi " (عبور العثمانيين إلى الروميلي وفتح غاليبولي), Türk Dünyası Tarih Dergisi, sy. 52, İstanbul 1991.
- Öztürk Necdet, " Fetret Devri ve Osmanlı Hakimiyetinin yeniden Te'sisi " (عصر الفتور وتأسيس الحكم العثماني من جديد), Türkler, Ankara 2002, IX/221-251.
- Rainert Stefhon W., " Niş'ten Kosova'ya İ. Murad'ın Son Yıllarına İlişkin Düşünceler, Osmanlı Beyliği (أفكار حول الأعوام الأخيرة) İstanbul 1997.
- Runcimau S., Haçlı Seferleri Tarihi (تاريخ الحملات الصليبية), terc. F. İştan, I-III, Ankara 1987
- Severcan Şefaettin , " Şeyh Bedreddin Olayı " (واقعة الشيخ بدر الدين), Türkler, Ankara 2002, IX/ 259-275.
- Sezgin İbrahim, " Osmanlıların Rümeli'ye Geçışı ve İlk Fetihler " (عبور العثمانيين للروميلي وفتحهاقم الأولي), Osmanlı, c.I. Ankara 1999, s.215.
- Silberschmidr Max, Venedik Menbalara Nazaran Türk İmparatorluğunun Zuhuru Zamanında Şark Meselesi (المسألة الشرقية في زمن ظهور الإمبراطورية التركية وفقاً للمصادر البندقية) çev. Köprülüzade Ahmed Gemal, İstanbul 1930.
- Sumer Faruk, " Osmanlı Devrinde Anadolu'da Kayılar " (عشائر عثمانر في الأناضول في العصر العثماني), Belleten, XII./47(Temmuz 1948) s. 598-632.
- _____ , " Osmanlı Devleti Kurucusu Osman Ėazi ve Devri ile ilgili Bazi Meseleler Hakkında Düşünceler (أفكار حول بعض المشكلات المتعلقة بمؤسس الدولة العثمانية عثمان غازي وعصره), Türk Dünyası Araştırmaları, sy. 80 (1992), s.6-26.
- Şimşirgil Ahmed, " Osmanlı Devletinin Kuruluşunda Hizmeti Geçen Alplar ve Ėâziler " (جماعات الآلب والغزاة الذين قاموا بدور في تأسيس الدولة العثمانية), Türkler, Ankara 2002, IX/99-108.
- Şükrü M., Osmanlı Devletinin Kuruluşu Bitisli İdris'in Heşt-i Behişt adlı eserine göre (تأسيس الدولة العثمانية وفقاً لأثر هشت بهشت لإدریس البتليسي), Ankara 1934.

- Viorel Panaite, " Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehrinin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan "(زحف النفوذ العثماني في شمالي نهر طونه ، الفلاق والبغدان خلال القرون ١٤-١٧م), Türkler, Ankara 2002, UX/206-218.
- Werner, Büyük Bir Devletin Doğuşu(ميلاد دولة عظمي), Osmanlılar (1300-1481), terc. O. Esen- Y. Önen, İstanbul 1986.
- Wittek P., " Ankara Bozgunundan İstanbul'un Fethine (1402-1455), (العثمانيون منذ هزيمة أنقرة وحتى فتح استانبول), çev. H. İnalçık, Belleten, VII/27, (1943), 557-589.
- Yalıtıkaya M. Şerefettin, Simavna Kadısıoğlu Şeyh Bedreddin(الشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونه) (Haz. H. Er), İstanbul 1994.
- Yücel Y., Çobanoğulları- Candaroğulları Beylikleri (إماراتي أبناء حوبان وأبناء حندار), Ankara 1980.
- _____, Timür'ün Dış Politikasında Türkiye ve Yakın doğu(تركيا والشرق الأدنى في السياسة الخارجية لتييمور), 1393-1402, Ankara 1980
- Zachariadou Elizabeth A., " Karesi ve Osmanlı Beyliği (1300-1389), (إمارة قراسي والإمارة العثمانية), İstanbul 1997.
- Ziyataş Kenan - Sadettin Baştürk, " Fetret Dönemi ve Sonuçları "(مرحلة الفتور ونتائجها), Türkler, Ankara 2002, IX/252-258.

غير التركية :

- Atiya A., The Crusade Of Nicopolis, Londra 1934., Türkçe terc. Esat Uras, Niğbolu Haçlılar Seferi, Ankara 1956.
- Atıl Esin, The Age Of Sultan Suleyman Rhe Magnificent, Washington D.C., New York 1987.
- Emmert T. , Serbian Golgotha Kosova 1389, New York 1990.
- _____, " The Battle Of Kosova Early Reports Of Victory And Defeat " , Kosova, Legacy Of Medieval Battle, ed. W. Vucinich – T. Emmert, Minneapolis 1991.
- İmber Colin, The Ottoman Empire 1300-1481, İstanbul 1990.
- İnalçık Halil, " The Gustion Of The Emergence Of The Ottoman State ", İJTS., II/2 (1982).
- _____, The Ottoman Empire The Calssical Age (1300-1600), London 1973.

- _____, The Middle East And Balkans Under The Ottoman Empire, Bloomington 1993.
- _____, Essas İn Ottoman History, İstanbul 1998.
- _____, The Ottoman Empire Conquest Organization and Economy, London 1978
- Kafador C., Between Tow Woarlds, The Construction Of The Ottoman State, California 1995.
- Karpas Kemal, The Ottoman State and Its Place İn The World History, London 1974.
- Kiel M., " Observation On The History Of Northern Grece During The Turkish Rule ", Balkan Studies, c.12 (1971), 415
- Neciboğlu N., Byzantium Between The Ottomans and The Latins : A study Of Political Attitdes İn The Late Palaiologan Period 1370-1460, Harvard Un. Dokora Tezi, 1990.
- Reinert S., " A Byzatine Source On The Battles Of Bileca And Kosova Polje, Keydones Letter 396 and 398 Reconsidered Studies İn Ottoman History İn Honour Of Prof. V. İ. Menage, İstanbul 1994.
- Reinert S., " The Paloiologoi, Yıldırım Bayezid and Constantinople, June 1389-March 1391", Studies İn Honor Of Speras Veyonis, jr. Vol I. Hellenic Ahtiguity and Byzantium, New York
- Zachariadou E., " Süleyman Çelebi İn Rumeli and The Ottoman Chronicles ", Der İslam, LX. (1963), 268-296.

تاريخ وحدث

١٢٦١-١٣١٠	- تأسيس إمارات منتشه ، آيدين ، صاروخان ، قراسي وآل عثمان في غربي الأناضول .	---
١٣٠١	- انتصار عثمان غازي في معركة قويون حصار .	---
١٣٠٨	- وفاة آخر سلطان سلجوقي وهو مسعود الثاني .	---
١٣٢٦	- الفتح العثماني لمدينة بورصة (٦ إبريل) .	---
---	- وفاة عثمان غازي وتولية أورخان غازي .	---
١٣٢٧	- ضرب أول عملة عثمانية في بورصة .	---
١٣٣١	- فتح العثمانيين لإزنيق .	---
١٣٣٧	- فتح العثمانيين لإزميت .	---
١٣٤٤	- احتلال الصليبيين لقلعة إزمير .	---
١٣٤٥	- إلحاق العثمانيين لإمارة قراسي .	---
١٣٤٦	- زواج أورخان بك من ابنة جون كانتاكوزين السادس ، وتدعي تيودورا .	---
١٣٥٢	- منح أورخان بك إمتيازات في الأراضي العثمانية لجنوة .	---
---	- دخول سليمان باشا بن أورخان بك إلي أدرنه ، وفتح لقلعة جيبي ، وبدء الفتوحات العثمانية لتراقيا .	---
١٣٥٤	- فتح العثمانيين لأنقرة ، ولغاليبولي .	---
---	- اعتلاء باليولج عرش بيزنطة ونزول كانتاكوزين عن العرش .	---
١٣٥٧	- وفاة الشهزاده سليمان ، وبدء السلام العثماني البيزنطي .	---
١٣٥٩	- استئناف الشهزاده مراد غزو تراقيا ، وفتح جورلو ودمتوقه .	---
١٣٦١	- فتح مراد الأول لمدينة أدرنة .	---
١٣٦٢	- وفاة أورخان بك ، وتولية مراد الأول .	---
---	- بدء حركات العصيان ضد العثمانيين في الأناضول .	---

١٣٦٣-١٣٦٥	- فتوحات العثمانيين في جنوبي بلاد البلغار وفي تراقيا .
---	- فتح فيليبه .
١٣٧١	- انتصار الدولة العثمانية علي أمراء الصرب في جيرمن (٢٦ سبتمبر) .
---	- عصيان كل من أدرونيكوس وساجي بك ضد والديهما ، وهزيمتهما .
١٣٧٥-١٣٨٠	- إلحاق قسم من أراضي ابناء كيرميان وأبناء حميد للأراضي العثمانية .
١٣٧٩	- إعتلاء باليولج عرش بيزنطة ثانية بمساعدة العثمانيين .
١٣٨٣	- دخول العثمانيين سره ز (١٩ سبتمبر) .
١٣٨٥	- فتح العثمانيين لصوفيا .
١٣٨٦	- دخول العثمانيين نيش .
---	- تدخل العثمانيين في منطقة أماسيا شمالي الأناضول .
١٣٨٧	- فتح العثمانيين لسلانيك .
---	- انتصار العثمانيين علي القره مانين .
١٣٨٨	- تحالف الصرب والبلغار والبوشناق ، وهزيمة العثمانيين عند بلوشنيك (٢٧ أغسطس)
---	- فتح العثمانيين شمالي بلاد البلغار .
١٣٨٩	- موقعة قوص أووا (١٥ يونية) .
١٣٨٩-١٣٩٠	- مقتل مراد الأول ، وتولية بايزيد الأول الحكم .
١٣٩٠	- فتح بايزيد الأول لمناطق غربي الأناضول ومنتشة وآيدين و صاروخان وإمارات كيرميان وحميد إيلي .
١٣٩١	- دخول العثمانيين لإنطاليا وآلانيا
---	- فتح اسكوب ، وغزو شمالي الأرناؤوط .

١٣٩٢	- دخول العثمانيين قسطنطين وأماسيا .
١٣٩٣	- عودة بايزيد للبلقان وإلحاق ضفاف طونه من بلاد البلغار .
---	- دعوة بايزيد لأمراء البلقان التابعين له بما فيهم الإمبراطور
---	باليولوج للإجتماع في ويريا .
١٣٩٤ - ١٤٠١	- محاصرة استانبول .
١٣٩٤	- فتح العثمانيين لتساليا ، وغزو بلاد المورة .
١٣٩٥	- حملة بايزيد على بلاد المجر والأفلاق ، وحرب أرجيش (١٧
---	مايو) .
---	- تحول الأفلاق إلى ولاية تابعة للعثمانيين .
---	- إعدام ملك المجر شيشمان .
---	- تحالف البندقية والمجر وبيزنطة ضد العثمانيين .
١٣٩٧	- عودة ييلدرم بايزيد إلى الأناضول، وضمه لأراضي القرامانيين.
١٣٩٨	- الاستيلاء على إمارة بلغار ويدر و إمارة القاضي برهان الدين.
١٣٩٩	- الاستيلاء على ملاطية وألبسان التابعتان للمماليك في وادي
---	الفرات
١٤٠٠	- سلب ونهب تيمورلنك لمدينة سيواس (١٠ أغسطس) .
١٤٠١	- دخول ييلدرم بايزيد لمدينة أرزنجان .
١٤٠٢	- معركة أنقرة (٢٨ يولية) .
١٤٠٣	- وفاة ييلدرم بايزيد .
---	- احياء تيمور لإمارات الأناضول من جديد .
---	- صراع أبناء بايزيد سليمان جلبي في أدرنه ، وعيسى جلبي في
---	بورصة ، ومحمد جلبي في أماسيا على الإنفراد بالعرش .
---	- اتفاقيات سليمان جلبي مع الدول الغربية ، وتسليم سلانيك
---	للبيزنطيين .

- المواجهة بين محمد الأول وسليمان جلبي .	١٤٠٦
- هزيمة سليمان جلبي لموسي جلبي في الروميلي (١٥ يونية و ١١ يوليه) .	١٤١٠
---	---
- هزيمة موسي جلبي لسليمان جلبي .	١٤١١
- محاصرة استانبول .	---
- عقد الإتفاق بين محمد الأول ومانويل ضد موسي جلبي .	١٤١٢
- هزيمة محمد الأول لموسي جلبي بالقرب من صوفيا (٥ سبتمبر) .	١٤١٣
---	---
- إنفراد محمد جلبي بالحكم في الدولة العثمانية .	---
- حصار محمد جلبي لقونية ، وإستيلائه من جديد علي حميد إيلي .	١٤١٤
---	---
- حملة محمد الأولي علي غربي الأناضول ، وإعادة ضمه لإزمير وبقية مدن بحر إيجه .	١٤١٥
---	---
- دخول مصطفى بن بايزيد الأول إلي الروميلي .	١٤١٦
- عصيان ثم إعدام الشيخ بدر الدين .	---
- ضم محمد الأول لأراضي أبناء جندار .	---
- ضم محمد الأول لمدينة قره مان ، ثم لقيرشهر ونيكده .	١٤١٧
- وفاة محمد الأول ، ووصول مراد الثاني لبورصة وإعتلائه العرش .	١٤٢١
---	---
- سيطرة مصطفى علي الروميلي .	---
- إعدام مصطفى في أدرنه .	١٤٢٢
---	---
- محاصرة مراد الثاني لإستانبول (٢ يونية - ٦ سبتمبر) .	---
- عصيان مصطفى شقيق مراد الثاني في الأناضول .	---
- هزيمة مراد الثاني لمصطفى .	١٤٢٣

- إخضاع أبناء جندار وأبناء قره مان للحكم العثماني .	---
- خضوع سلانيك لنفوذ البنادقة ، والحرب العثمانية البندقية .	١٤٢٣-١٤٣٠
- ضم إزمير للأراضي العثمانية .	١٤٢٥
- ظهور حركة العصيان في جنوبي بلاد الأرناؤوط .	١٤٣٢-١٤٣٣
- استيلاء مراد الثاني علي حميد إيلي من جديد .	١٤٣٧
- حملة مراد الثاني علي البغدان .	---
- هزيمة جون هونياد للعثمانيين في البغدان .	١٤٤١-١٤٤٢
- استيلاء جون هونياد علي شبه جزيرة البلقان .	١٤٤٣
- عصيان إسكندر بك في شمالي بلاد الأرناؤوط .	---
- عقد الصلح بين الدولة العثمانية وبلاد المجر في أدرنه (١٢ يونية)	١٤٤٤
- عقد الصلح بين العثمانيين والقره مانين في يكيشهر (أغسطس)	---
- تنازل مراد الثاني عن العرش لابنه الصغير محمد الثاني .	---
- معركة وارنه (١٠ نوفمبر) .	---
- إعتلاء مراد الثاني العرش ثانية .	١٤٤٦
- الحملة الثانية لمراد الثاني علي إسكندر بك .	١٤٤٨
- معركة قوص أووا (١٧-١٩ أكتوبر) .	---
- حملة الأفلاق .	١٤٤٩
- وفاة مراد الثاني (٣ فبراير) وإعتلاء محمد الثاني (الفاتح) .	١٤٥١

الفصل الثاني

الدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية (مرحلة الإزدهار)

محمد الفاتح ، بايزيد الثاني ، سليم الأول ، سليمان القانوني

سليم الثاني ، مراد الثالث

(١٤٥١ - ١٥٧٤م / ٨٥٥ - ٩٨٢هـ)

محمد الثاني

فاتح عصر الإمبراطورية

(١٤٥١-١٤٨١م / ٨٥٥-١٥١٢ هـ)

كان انتقال الشهبادة محمد من مغنسيا إلى أدرنة لتولي مقاليد السلطة في الدولة عقب وفاة أبيه مراد الثاني (٣ فبراير ١٤٥١ / أول محرم ٨٥٥) بداية لعصر جديد في الدولة العثمانية . فقد تمكن السلطان محمد الثاني خلال ثلاثة عقود من الزمان ، هي فترة حكمه ، من الانتقال بالعثمانيين من مرحلة الدولة إلى مرحلة الإمبراطورية . فبدأ فتوحاته بتحقيق نبوة محمد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) وفتح القسطنطينية . وبفتح حاضرة الدولة البيزنطية يكون السلطان الشاب قد الأساس لإمبراطورية إسلامية دارت في فلكها السياسة الدولية لأكثر من خمسة قرون متتالية ، فاعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية التي عرفت منذ ذلك الحين باسم "الدولة العلية" .

توطيد حالة الإستقرار في الأناضول والروميلي : عقب اعتلائه عرش

السلطنة (١٨ فبراير / ١٦ محرم) أراد السلطان محمد الثاني الذي كان يبلغ من العمر نحو عشرين عاماً القبض علي مقاليد الحكم في الأناضول والروميلي . فخرج لتأديب إبراهيم ابن قره مان الذي انتهز فرصة انتقال السلطة ، وقام بتحريض بعض أمراء الأناضول علي العصيان ، وبالتعدي علي الحدود العثمانية . ولما عجز ابن قرمان عن مواجهة السلطان محمد ، طلب الصلح علي أن يتنازل عن آقشهر وبكشهر وسيدي شهر للدولة والمشاركة في الجيش العثماني عند الضرورة^{١٥٥} .

والحقيقة أن وصول الأنباء بتفكير إمبراطور بيزنطة في اطلاق سراح الشهبادة أورخان المحتجز لديه قد جعل محمد الثاني يسرع بالعودة إلى الروميلي واتخاذ بعض التدابير يأتي علي رأسها :

İsmail H.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, I., 4. bas., Ankara 155
1982, s.453-455

١. استمالة الإمبراطور بالتنازل عن نواحي جورلي التي كان يطالب بها .
 ٢. عقد هدنة مع الوصي علي عرش الجرجون هونيات مدتها ثلاث سنوات حتي يأمن جانب الجرج في أي مواجهة قد تنشأ .
 ٣. تجديد معاهدة الصداقة بين الدولة العثمانية وبين أمير الصرب ، والتنازل له عن منطقة آلاجه حصار .
 ٤. تجديد معاهدات الدولة مع الأفلاق وميدلي وساقيز ورودس وانبادة .
- وبهذه الإجراءات حاول السلطان الشاب توطيد حكمه في الروميلي كما آمنه في الأناضول .

التفكير في فتح القسطنطينية : منذ انتزاع الشام ومصر وشمال أفريقيا من قبضة الرومان ، حرص المسلمون علي تحقيق نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح القسطنطينية . فلما أوقع ألب أرسلان الهزيمة بإمبراطور الروم في ملازگرد عام ١٠٧١م/ ٤٦٤هـ ، انساحت العشائر التركمانية في الأناضول حتي تمكن قليج أرسلان السلجوقي من الوصول لبحر مرمرة ، وبناء اسطول في مضيق چناق قلعه لمخاصرة القسطنطينية لأول مرة (١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ) . فكما كانت حماية مركز الكنيسة الشرقية في القسطنطينية من مخططات قليج أرسلان سبباً في انطلاق الشرارة الأولى للحروب الصليبية علي الشرق ، كانت الدافع الأول وراء التكتلات الصليبية ضد الدولة العثمانية منذ عصر مراد الأول وحتى نهاية عصر مراد الثاني (١٣٦٢ - ١٤٥١م/ ٧٦٣ - ٨٥٥هـ)^{١٥٦} .

والحقيقة أن محمد الثاني لم يكن يرغب خلال هذه المرحلة من حكمة في إجراء أي عمل عسكري ضد أي من خصومه . فقد كان شغله الشاغل هو إعادة هيكلة كسلطان للبلاد بعد أن أجبره الوزير الأعظم جندربي خليل باشا علي النزول عن العرش من قبل ، حيث كان يضع علي رأس أولوياته ، مسألة القبض علي مقاليد الحكم

¹⁵⁶ فيما يتعلق بالحاولات السابقة لفتح استانبول ، أنظر : Feridun Ditimtekin, "Fatih

Önce İstanbul", 511 Yıldönümü Konferansları, İstanbul 1964

وإضعاف نفوذ الأسرات التركمانية الأرستقراطية التي شاركت العثمانيين الحكم منذ غزواتهم الأولى حتي أصبح لها نفوذ تمكنت به من إنزال سلطان ورفع آخر. إلا أن طلب إمبراطور بيزنطة قسطنطين من السلطان محمد الثاني زيادة المبلغ المقرر كمصاريف للشهزادة أورخان المحجوز لديه ، وتهديده بإطلاق سراح الأمير الأسير في حالة عدم موافقته علي هذا الطلب ، كان سبباً في تحول سياسة السلطان الشاب ، والتفكير بجدية في فتح القسطنطينية^{١٥٧} .

وعلي الرغم من أن هذا المشروع كان يحمل مخاطر عديدة للسلطان الشاب، إلا أن مؤيدي السلطان كانوا يرون أن تنفيذه سوف يحقق مكاسب استراتيجية للدولة أهمها:

١. التمكين لنفوذ السلطان الجديد في الداخل بتحقيق نبوة رسول الله ، وفي الخارج بوراثنة أملاك الإمبراطورية البيزنطية .
٢. القضاء علي مركز إحاكة الفتن الذي كانت تمثله بيزنطة بتحريضها الدائم علي الدولة العثمانية .
٣. إحكام السيطرة علي البلقان ، والتمكن من الربط بين الأراضي العثمانية في الأناضول والروميلي .

¹⁵⁷ الحقيقة أنه لم يكن تهديد إمبراطور بيزنطة للسلطان الشاب محمد الثاني سوي القشة التي قصمت ظهر البعير ، حيث كان عدد غير قليل من رجال الدولة وبخاصة أولئك المحيطين بالسلطان الشاب قد أدركوا بأن منذ واقعة أنقرة أن بيزنطة راحت تمثل مصدر تهديد وتربص دائم بدولة آل عثمان بدعمها لمدعي السلطنة من أبناء بايزيد وأحفاده وبتحريضها سواء إمارات الأناضول أو البلقان وأوروبا كلها علي من الدولة العثمانية وطردها ليس من البلقان وحسب وإنما من كل أنحاء الأناضول أيضاً . ومن ناحية أخرى ، كانت المحاولات غير الناجحة لفتح القسطنطينية وترهيب السلطان الشاب من اخفاق جديد وحشد عدااء أوروبا كلها ضد الدولة ، وضرورة توطيد مكانة السلطان الجديد في الداخل أولاً من الحجاج التي عرضها المعارضين للإقدام علي عملية حصار جديدة لاستانبول . فيما يتعلق بهذه الخلاف بين رجال الدولة انظر : "Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324

وهكذا ، قام الفاتح باتخاذ عدد من التدابير الأولية لإحكام الحصار على القسطنطينية، حيث أمر ببناء قلعة على الطرف الأوروبي لساحل الروميلي من البوسفور عرفت باسم " روميلي حصار" أو " بوغازكسن حصار " (يولييه ١٤٥٢ / رجب ٨٥٦) في الجهة المقابلة للقلعة " أناضولي حصار " (كوزلجه حصار) التي كان يبلدزم بايزيد قد أقامها عند استعدادده لحصار استانبول من قبل ، وذلك للسيطرة على مضيق البوسفور ، وقطع المساعدات التي يمكن أن ترد لبيزنطة عن طريق البحر الأسود ، ولتأمين عمليات نقل القوات العثمانية من الأناضول إلى الروميلي والعكس . وأثناء عملية إنشاء القلعة أمر السلطان بصب المدافع الكبار التي سوف تشارك في الحصار تحت إشراف المهندس المجري أوربان الذي كان قد لجأ للعثمانيين^{١٥٨} .

وإذا كانت مساعي السلطان الشاب لمحاصرة القسطنطينية واجراءاته التمهيدية لفتح هذه المدينة العريقة قد آتت ثمارها بسرعة ، حيث أرسل إمبراطور بيزنطة يعرض استجابته لإية مطالب يقررها السلطان العثماني ، إلا أنها في نفس الوقت كشفت رأيين متعارضين في الديوان الهمايوني . الرأي الأول ، عبر عنه الوزير الأعظم حندارلي خليل باشا الذي كان يميل إلى اتخاذ سياسة مهادنة مع بيزنطة حتي لا يستثير أوروبا في حرب صليبية جديدة ضد الدولة ، حيث أكد أن الإقدام على هذا العمل مغامرة غير مأمونة الجانب ، وأن الإمبراطور يمكنه حشد تحالف صليبي قد ينال من الدولة ، وأن المساعدات التي قد ترد من كل أنحاء أوروبا يمكنها جعل المدينة تصمد أمام الحصار كما صمدت من قبل . أما الرأي الثاني ، فقد تبناه زاغنوس باشا معلم السلطان الذي رأي أن الدول المسيحية غارقة في خلافاتها وأنها لن تستطيع نبذ خلافاتها لإرسال الجيوش وانقاذ المدينة ، وأن الجيوش العثمانية المتفوقة عدداً وعدة يمكنها فتح المدينة والسيطرة عليها قبل وصول تلك المساعدات المزعومة . وهكذا ، مال السلطان إلى رأي معلمه زاغنوس ورفاقه ،

Önder Bayır, "Çağ Açıan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", ¹⁵⁸
Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324;
Nicolo Barbaro, Kostantiniyye Muhasarası Ruznamesi 1453,
çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953, s. 20 vd.,

ورفض عرض سفير الإمبراطور ، حيث أبلغه بأنه لن يرضى سوى بتسليم مدينة القسطنطينية وخروجه منها .

استعدادات إمبراطورية تنهار وحدولة في طور الإزدهار : لقد

أكدت سياسة إمبراطور بيزنطة لمواجهة هذا الحصار الأخير بأن دولته في طور الإنهيار، وأنه مستعد لإرضاء أطماع الدول المتربصة به في أوروبا والتنازل عن أجزاء هامة من أملاك الامبراطورية في سبيل البقاء وحماية بيزنطة ، بل قبول الرضوخ للمذهب الكاثوليكي حتي لا تسقط مركز الكنيسة الأرثوذكسية في يد العثمانيين المسلمين . وهكذا ، وافق الإمبراطور علي التنازل عن سيلوري وميسوري لهونيات ملك الجحر ، والتنازل عن جزيرة ليمني لجيش المرتزقة المعروف باسم " قاتالان " ، وذلك مقابل مساعدته في المواجهة المقتربة بينه وبين العثمانيين ، كما وافق علي توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية في فلورانس ، وإنهاء النزاع بين الكنيستين في القسطنطينية ، وذكر اسم البابا في كنيسة آيا صوفيا لقاء الوقوف يداً واحدة أمام الغزو العثماني الإسلامي . وفي الوقت الذي كان فيه الإمبراطور مشغولاً في اصلاح وتحصين أسوار القسطنطينية ، وصلت المساعدات من جنوة تحت قيادة جستنيان الذي عين قائداً لقوات الدفاع عن المدينة ، ومن البابوية وأسبانيا وغيرها¹⁵⁹ .

ومن ناحية أخرى ، أصدر محمد الثاني أوامره باحاطة القسطنطينية بسياج من الجنود لمنع الدخول إليها أو الخروج منها ، وبنصب المدافع الكبار حول المدينة ، كما كلف قره جه باشا بفتح القلاع المحيطة بالمدينة ، وكلف طورخان باشا وأبناءه بالهجوم علي المورة حتي لا يتيح لأشقاء الإمبراطور الموجودين بها أي فرصة لتقدم المساعدات

¹⁵⁹ فيما يتعلق بالاستعدادات بيزنطة لمواجهة حصار محمد الثاني للقسطنطينية ، ووضع الجبهة الداخلية

في بيزنطة ، أنظر : D. Nicol, Bizans'ın Son Yuzyılları (1291-1453), tec. في بيزنطة ، أنظر : B. Umur, İstanbul 1999, s. 455vd; Serif Bastav, " Bizans İmparatorluğu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanlı Türk-Bizans Münasebetleri, Ankara 1989, s. 321vd.; Dukas, Bizans Tarihi, (çev. Mirmiroğlu, İstanbul 1963), s.143vd.

للقسطنطينية ، كما أرسل لأمراء الولايات والسناجق بالخروج لمحاصرة حاضرة الدولة البيزنطية (مارس ١٤٥٣ / ربيع الأول ٨٥٧) .

حصار القسطنطينية الأخير : عقب الإنتهاء من الإستعدادات تحرك السلطان

الشاب من أدرنه متجهاً صوب استانبول في ٢٣ مارس ١٤٥٣ / ١٢ ربيع الأول ٨٥٧ ، حيث وصلت الجيوش العثمانية أمام المدينة في ٥ إبريل / ٢٥ ربيع الأول ، وشرعت في الحصار في اليوم التالي . وكان الجيش العثماني المحاصر يتراوح ما بين ١٥٠ - ٢٠٠ ألف مقاتل تقريباً ، ويتشكل من فرق القابو قولي (خدم الباب السلطاني) وسباهية مقاطعات تيمار الأناضول ، علاوة علي جنود العزب والگوكلكلو . أما الأسطول العثماني الذي شارك لأول مرة في حصار القسطنطينية بشكل جاد فقد كان يتراوح ما بين ١٠٠ و ١٥٠ قطعة بحرية كبيرة وصغيرة . والحقيقة أن حصار المدينة لم يكن مكتملاً لتعذر الوصول لأسوار المدينة الموجودة ناحية الخليج ، وذلك بسبب سد الخليج أمام السفن العثمانية بسلسلة عظيمة .

أما القوات المدافعة عن المدينة فلم تكن معلومة بالتحديد . إلا أن أقرب الآراء للواقع تقول بمشاركة نحو خمسة آلاف من الجيش البيزنطي ، وخمسة آلاف أخرى من رجال المدينة المتطوعين ، علاوة علي القوات المساعدة التي وصلت بالفعل من البندقية وجنوة وجزر كريت وساقيز وأسبانيا وتقدر بنحو ثلاثة آلاف ، وقوات الشهبازده أورخان التي بلغت نحو ستمائة فرد ، كما كان هناك نحو ٣٩ قطعة بحرية تدافع من ناحية البحر^{١٦٠} .

وقبل أن يبدأ السلطان العثماني في الهجوم علي أسوار المدينة ، ووفقاً لقواعد الشرع الإسلامي ، أرسل وزيره محمود باشا إلي الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة حقناً

¹⁶⁰ للمقارنة بين أعداد الجيوش العثمانية المحاصرة من البر والبحر والقوات المتطوعة المدافعة عن استانبول التي ذكرها المؤرخون الترك وتلك التي أشار إليها المستشرقون ، أنظر : Önder Bayır, "Çağ Açıan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar", Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/326-329

للدماء ، إلا أن الإمبراطور رفض هذا الطلب ، موضحاً أنه مستعد لدفع الجزية التي يقررها السلطان بموجب معاهدة ترم بين الطرفين ، وأنه عاقد العزم علي الدفاع عن المدينة . وهكذا بدأ أول هجوم علي المدينة في ١٢ إبريل / ٢ ربيع الآخر ، فراح المدافع الكبار تدوي في سماء استانبول وتفعل فعلها في معنويات المدافعين ، إلا أن هذا الهجوم الذي استمر حتي ١٨ إبريل/ ٨ ربيع الآخر لم يسفر عن نتيجة إيجابية ، وذلك في الوقت الذي وصلت فيه امدادات البابا إلي القسطنطينية بصحبة عدد من السفن الجنوية ، حيث وقعت معركة مع الأسطول العثماني الذي أثر التراجع أمامها .

لم يؤثر فشل الهجوم الأول علي معنويات السلطان العثماني وجنده ، غير أنه أعطي الفرصة للوزير الأعظم خليل باشا لعرض مخاوفه من تدخل الدول الأوروبية والمكاسب التي يمكن للدولة أن تجنيها إذا رفع الحصار عن المدينة هذه المرة. ولكن تأخر وصول المساعدات البرية والبحرية الأوروبية للقسطنطينية حتي هذا الوقت ، جعل زاغنوس باشا يقنع الديوان بأن فتح القسطنطينية واقع لا محالة ، وأنه ينبغي اتخاذ تدابير غير تقليدية لفتحها في أسرع وقت ممكن . وبذلك عيّن حمزه بك قائداً جديداً للأسطول العثماني ، ونقل نحو ٧٠ قطعة بحرية برأ فوق جذوع الشجر في ليلة واحدة (٢١-٢٢ إبريل/ ١١-١٢ ربيع الآخر) ، بحيث امتلأ خليج القسطنطينية بالسفن العثمانية التي جعل منها جسراً ممتداً . وبذلك شرعت مدفعية الأسطول ومدافع القلاع تضرب أسوار المدينة من كل جانب ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الجنود يزرعون الألغام تحت الأسوار المتهالكة ، ويصوبون السهام والرصاص والنيران من فوق القلاع المتحركة تجاه المدافعين خلال هجومين متتاليين (٦ مايو و١٢ مايو / ٢٤ ربيع الآخر و٢٥ ربيع الآخر) .

المصير الأخير وفتح القسطنطينية : بعد ان أيقن السلطان العثماني بأن

أسوار القسطنطينية علي وشك الإنهيار بين الحين والآخر ، وقبل إعلانه الهجوم الكبير علي أسوار المدينة ، أثار إرسال طلب التسليم الأخير للإمبراطور مع بعض أسري الروم ، حيث طلب فيه تسليم المدينة مقابل السماح له ولأتباعه بالتوجه إلي المكان الذي

يريدون، وتعيينه علي المورة كتابع للدولة ، وترك الحرية لأهالي المدينة في البقاء فيها أو مغادرتها (٢٤ مايو) . وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يرفض هذه الشروط ، كان الديوان الهمايوني أيضاً يرفض التهديد الذي تقدم به ملك المجر بنقض المعاهدة المنعقدة بين الطرفين ومجشد قوي الدول الأوروبية للوقوف بجوار المدينة المحاصرة إذا لم يرفع العثمانيون الحصار عن المدينة . وهكذا أعطي السلطان محمد الفاتح اشارة البدء في الهجوم الأخير علي القسطنطينية^{١٦١} .

وكان قد تجمع أمام أسوار القسطنطينية عشرات الآلاف من المجاهدين من كل أنحاء العالم الإسلامي لنيل شرف المشاركة في فتح القسطنطينية علاوة علي الجيش العثماني ، حيث راح العلماء والمشايع يستثيرون حمية المجاهدين لنيل إحدى الحسينين النصر والفتح أو الشهادة ، ووقف السلطان الشاب محمد الفاتح يشجع جنده علي نيل شرف فتح القسطنطينية التي سقطت تحت أسوارها الأجداد ، ويبين بأن تلك الأسرار قد وهنت والقوي المدافعة قد ضعفت ، وأنه لا صلح مع بيزنطة التي ناصبت الإسلام العداء لعصور طويلة ، وأنه لا عودة إلا بعد فتح اسلام بول .

وبدأ الهجوم الأخير في ٢٧ مايو باطلاق المدافع من كل اتجاه لمدة ثلاثة أيام صباح مساء حتي سقطت الجدران من عدة مواضع ، فاستطاع بعض الجنود تسلق الأسوار الخارجية إلي داخل المدينة . وفي صباح يوم ٢٩ مايو ١٤٥٣ / ٢٠ جمادي الأولي ٨٥٧ ، شرع الجيش العثماني في شن هجوم كبير من خلال الفجوات التي فتحت في المناطق ما بين طوب قايي وأدرنه قايي . ولما جرح قائد الحامية البيزنطية جستنيان ،

¹⁶¹ لتتبع يوميات الحصار الأخير لإستانبول ، أنظر : Nicolo Barbaro, Kostantiniyye Muhasarası Ruznamesi 1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953, s. 57 vd.; M Çavdaroglu, Fatih Sultan Mehmed Hân-i Sâni ve İstanbul'un Fethi, İstanbul 1953, s. 78vd.; Halil İnalcik, Fatih Devri Üzerinde Tetkikler ve Vesikalar, Ankara 1954, s. 21-25; Selahattin Tansel, Fatih'in Askerî ve Siyasî Faaliyetleri, Ankara 1953, s. 33vd.

آثر الانسحاب هو وجنوده من فوق الأسوار الخارجية للمدينة ، فتمكنت بعض الفرق من جند اليكيچري (الإنكشارية) من الصعود فوق القلاع ، والبعض الآخر اجتاز الأسوار من الفجوات التي أحدثتها المدافع ، الأمر الذي أجبر القوات المدافعة التي كان يقودها الإمبراطور بنفسه من الانسحاب إلى الأسوار الداخلية للمدينة . وأثناء عملية الانسحاب قُتل الشهزاده أورخان ، وجرح الإمبراطور قسطنطين ، حيث سقط قتيلاً أيضاً أثناء فراره . وبذلك ، أصبحت الأسوار الداخلية للمدينة بدون مدافعين ، فانقض الجنود علي الأسوار من كل اتجاه ، وتمكنوا من دخول المدينة التي صمدت طويلاً من كل اتجاه ، وصعد قره جه باشا فوق قلعة طوب قابي ونصب عليه العلم العثماني الذي راح يرفرف معلناً تحول القسطنطينية إلى إسلامبول^{١٦٢} .

وهكذا سقطت القسطنطينية التي استمرت نحو ١١٢٥ عاماً عاصمة لإمبراطورية الروم الشرقية ، وقتل آخر أباطرتها في أرض المعركة ، وأسر نحو خمسين ألفاً عقب الفتح ، ودخل السلطان الشاب الذي كان يبلغ من عمره ٢٢ عاماً فقط المدينة المفتوحة مع وزراءه ورجال دولته وعلماء المسلمين ومشايخهم ، حيث خلع عليه المسلمون لقب " الفاتح " ، وملوك أوروبا اسم " إمبراطور الروم " .

¹⁶² حول تفصيلات وقائع الفتح من خلال المصادر المعاصرة ، انظر : D. Nicol, Bizans'in Son Yuzyillari (1291-1453), tec. B. Umur, Isatnbul 1999, s. 467vd; ; Nicolo Barbaro, Kostantiniyye Muhasarasi Ruznamesi 1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953, s. 27 vd.; Feridun Emecen, "İstanbul'un Fethi", Türkler, IX/312-320; keza bk. Tacizade Cafer Çelebi, Mahruse-i İstanbul Fetihnamesi, TOEM., ilaveler, s.8vd

عصر جديد وامبراطورية وليدة

لقد كان فتح القسطنطينية نتيجة لمرحلة طويلة من الصراع بين الدولة الإسلامية عموماً والدولة العثمانية علي وجه الخصوص وبين دولة الروم . فكان انهيار الدولة البيزنطية علي هذا النحو ، بداية لعصر جديد ليس بالنسبة للدولة العثمانية فحسب وإنما بالنسبة للعالم الذي راح يتربح الخطوة القامة من فاتح القسطنطينية .

لقد كان سعي العثمانيين لتوطيد سلطاتهم في البلقان وبحر ايجه والمورة كوريث لأملاك بيزنطة سبباً مباشراً للإصطدام بأوروبا عموماً وجمهورية البندقية والبحر خصوصاً، كما كان حرصهم علي توحيد الأناضول تحت قيادة واحدة داعياً لمواجهة إمارتي أبناء قره مان وابناء جندار وإمبراطورية الروم في طربزون ودولة آق قويونلي في شرق الأناضول . ومهما يكن من أمر ، فقد راحت الدولة العثمانية تلعب دوراً دولياً محورياً بين الشرق والغرب بعد السيطرة علي اسلامبول (استانبول) التي كانت تمثل بوابة الشرق علي الغرب وبوابة الغرب علي الشرق .

والحقيقة أنه إعتباراً من عصر محمد الفاتح وحتى نهاية عصر سليمان القانوني، فتحت الأبواب أمام تغييرات سياسية كبيرة سواء في الشرق أو في الغرب ، حيث زالت إمارات ودول ومناطق نفوذ ، وتشكلت تكتلات سياسية وعسكرية أخرى لعبت دوراً بارزاً في السياسة الدولية . وإذا أردنا عرض الخريطة السياسية للمناطق التي كان لها علاقات سياسية مع الدولة العثمانية يمكننا أن نؤكد بأنه لم تكن الأناضول قد خلصت تماماً للعثمانيين حتي عصر محمد الفاتح ، حيث كان لازال بها دول وإمارات تسيطر علي بعض الأجزاء الشمالية والجنوبية والشرقية منها . فإمارة أبناء جندار في سينوب وقسطنطيني كانت تعتبر نفسها صاحبة النفوذ المطلق علي البحر الأسود ، وإمبراطورية الروم في طرابزون كانت تسيطر علي منطقة شاسعة شمال شرقي الأناضول ، ودولة قره قويونلي ، كانت تحكم إيران والعراق وخراسان وآذربيجان وقسم من الأناضول ، ودولة آق قويونلي ، كانت تسيطر علي ديار بكر ونواحيها . أما في وسط الأناضول

فكانت دولة القروانيين تسيطر علي قونيه وقره مان وأقسراي وأرمناك ونواحيها ، وإمارة علائية كانت تبسط نفوذها علي قسم بسيط من ساحل البحر المتوسط ، وكانت إمارة ذوالقدر التابعة للمماليك تحكم نواحي ألبستان ومرعش ، وإمارة أبنساء رمضان التابعة للمماليك أيضاً كانت تسيطر علي أطراف آدنه وطرسوس ، أما سوريا ومصر والحجاز واليمن فكانت تحت حكم دولة مماليك الجراكسة .

وفي شمال أفريقيا ، كانت تونس ونواحيها تحت حكم بني حفص ، والمناطق الغربية من الجزائر كان يسيطر عليها بني زيان ، والمناطق الشرقية منها يحكمها بني مرين ، وكانت هذه الأسرات الحاكمة تقف عاجزة في مواجهة التعديات الصليبية علي السواحل الشمالية للبحر المتوسط .

وفي أوروبا كان هناك مملكة البوسنة وإمارات الصرب والأفلاق والبغدان ، واسكندربك في بلاد الأرناؤوط ككيانات سياسية خاضعة للنفوذ العثماني بموجب معاهدات تبعية . كما كانت خانية القرم التي انشقت عن دولة الجيش الذهبي (آلتون أوردو) ، وموسكو التي كانت إمارة تدفع الخراج لدولة الجيش الذهبي تأخذ موقعها في شمال شرق أوروبا . وفي وسط أوروبا ، كان هناك لهستان ، بوهيميا ، المجر ، وإمبراطورية الألمان المقدسة . وهناك في شمالي أوروبا ممالكتي الدانمرك والسويد ، وفي غربها إنجلترا وفرنسا اللتان لم تكد تنتهيان من حرب المائة عام بينهما ، وفي شبه جزيرة أيبيريا كانت هناك ممالك البرتغال وأرجون وكاستيل نوار وإمارة بني الأحمر آخر الإمارات الإسلامية في الأندلس التي كانت تقع تحت ضغوط الممالك المجاورة لها .

وفي شبه الجزيرة الإيطالية بجنوب أوروبا كانت هناك الباباوية وممالك ميلان وفلورانس ونابولي وسيجيليا وجمهورية البندقية التي كانت تسيطر علي الكثير من الجزر والموانئ في البحر المتوسط . أما علي سواحل البحر المتوسط فكانت جمهورية جنوة تملك العديد من الجزر القريبة من الأراضي العثمانية مثل ليمني وميديللي وسمادير و طاشوز وساقيز وميناء أنز ، كما كان لها مستعمرات في البحر الأسود أيضاً .

وهكذا كانت إمارة قره مان الخاضعة للعثمانيين تنتهز كل فرصة للنيل من نفوذ الدولة في الأناضول ، ولم تتوقف المنازعات بين دولتي القره قيوونلي وآق قيوونلي ، فأضعفتها معاً . أما علاقات الدولة العثمانية مع المماليك في مصر فكانت حتي أواخر عصر الفاتح جيدة . وفي الوقت الذي كانت المنافسة فيه محتدمة بين جمهورية البندقية ومملكة نابولي التي كانت ترغب في فرض نفوذها علي البحر المتوسط والبلقان ، حيث سعت كل منهما لإستمالة الأرناؤوط وإسكندر بك ، كانت الدولة العثمانية تعمل علي توطيد علاقاتها مع البنادقة والجنوئين ، وتفعيل معاهداتها التجارية في المنطقة . أما مملكة المجر فكانت واقعة تحت ضغوط تحريض شديد من قبل بابا روما لشن الحملات تلو الأخرى لطرد العثمانيين من أوروبا .

توطيد الحكم العثماني في وسط وجنوبي البلقان :

الدعوة لحملة صليبية جديدة : لقد أجاج فتح القسطنطينية الصراع بين الشرق والغرب من جديد . ففي الوقت الذي راح فيه السلطان محمد الفاتح يسعى لتوطيد النفوذ العثماني في البلقان ، والقضاء علي الأسرات الحاكمة التي يمكنها الإدعاء بحقها في عرش بيزنطة ، لم يدخر بابا روما جهداً لتحريض العالم المسيحي لإعلان حرب صليبية ضد العثمانيين سعياً لاستعادة استانبول وطرد العثمانيين من أوروبا .

والحقيقة أن الدعوة لحرب صليبية تهدف لطرد العثمانيين من أوروبا لم تتوقف منذ فتح القسطنطينية ، حيث انتهز بابا روما نقولا الخامس الفرصة وراح يدعو لحرب صليبية جديدة ضد العثمانيين وأيده في ذلك إمبراطور ألمانيا فردريك الثالث ، إلا أن التنافس السياسي الشديد بين جمهورية البندقية ومملكة نابولي ، وإقرار العثمانيين لامتيازات الكنيسة الأرثوذكسية في اسلامبول ، وتوقيعهم معاهدة تجارية مع البنادقة (١٤٥٤م / ٨٥٨هـ) ، كانت من أهم الأسباب التي أدت لإحباط محاولات البابا

لتشكيل حلف صليبي من بين الدول الأوروبية ، وذلك حتى عام ١٤٦٣م / ٨٦٧ هـ .^{١٦٣}

خروج بلاد الصرب للأراضي العثمانية : عندما وصلت الأخبار بأن أمير الصرب برانقوفيتش التابع للعثمانيين يجري إتصالات سرية مع المجر للتنسيق بينهما في الحرب الصليبية التي يدعو لها بابا روما ، طلبت الحكومة العثمانية منه تسليم بعض مفاتيح القلاع الصربية لتأمين حدود الدولة . إلا أن رفض برانقوفيتش لهذا الطلب كان سبباً لخرج السلطان الفاتح في عدة حملات نحو بلاد الصرب (١٤٥٤ - ١٤٥٥م / ٨٥٨ - ٨٥٩ هـ) ، الأمر الذي أجبر أميرها برانقوفيتش علي الفرار إلى المجر في كل مرة . وهكذا ، كان السلطان يكتفي بتأكيد نفوذ الدولة علي أنحاء صربيا ، وفتح بعض قلاعها قبل عودته . فلما توفي برانقوفيتش (١٤٥٧م / ٨٦١ هـ) ، ثم توفي من بعده ابنه الصغير لازار دون أن يترك ولد يخلفه (١٤٥٨م / ٨٦٢ هـ) ، أصبحت بلاد الصرب سيداناً للصراع بين المجر والدولة العثمانية . ومن ثم كلف السلطان محمد الفاتح وزيره محمود باشا بفتح مدينة "سمندره" عاصمة بلاد الصرب ، حيث تم فتحها بعد حصار قصير للمدينة في ٨ نوفمبر ١٤٥٩ / ٤ محرم ٨٦٤ . وبذلك ضمت جميع بلاد الصرب ضمّاً مباشراً إلى الأراضي العثمانية ، وأصبحت سمندره مركزاً لسنجقية عثمانية، والقاعدة العسكرية الأولى للهجوم علي بلاد المجر ، وذلك حتى فتح بلجراد^{١٦٤} .

¹⁶³ حول ردود أفعال فتح استانبول انظر : Kenan İnan, "Fatih Sultan Mehmed

İstanbul'un Fethi ve Etkileri", Türkler, IX/286 vd.

¹⁶⁴ تذكر المصادر أنه إذا كان السلطان محمد الفاتح قد كلف وزيره محمود باشا بفتح بلاد الصرب ،

حيث قام الوزير بمحاصرة المدينة ، إلا أنه لم يستطع فتحها ، حيث اضطر السلطان بنفسه بالتوجه إليها في ربيع ١٤٥٩ وحصارها حتى فتحت ، ومن ثم ضمت بلاد الصرب للأراضي العثمانية ضمّاً

مباشراً ، انظر في هذا الخصوص : S. Tansel, Osmanlı Kaynaklarına göre

Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, Ankara 1999, s.67vd.; Halil İnalçık, " Mehmed II.", IA., s.521;

İ.H.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II. Cilt, Ankara 1983, s.20 vd.

النشاط البحري العثماني في الحوض الشرقي للبحر المتوسط : إذا

كان يلدرم بايزيد قد اهتم بتطوير البحرية العثمانية كضرورة من ضروريات مشروعه الكبير لتشكيل دولة مركزية تكون عاصمتها القسطنطينية ، فقد شعر محمد الفاتح بهذه الحاجة قبيل وأثناء وبعد فتح القسطنطينية ، حتي أنه حرص علي زيادة عدد سفن الأسطول العثماني في سواحل غاليلي وإزميت وگمليك واستانبول وغيرها حرصه علي تنشأة وتدريب فرق البحارة العثمانية . ومنذ ذلك الحين ، اتخذت غاليلي مركزاً للإسطول العثماني ، حيث عين كل من حمزة بك ويونس بك كأمرأ سناحق لغاليلي وقباطنة للإسطول العثمانية في نفس الوقت ، فكانا يخرجان للبحر المتوسط ويمارسان مهامهما الدفاعية خلال موسم الربيع .

لقد واكبت حركة فتح الجزر القريبة من السواحل العثمانية التطور التدريجي للأسطول العثماني ، حيث كانت هذه الجزر تدخل أولاً تحت النفوذ العثماني بقبولها دفع الخراج السنوي للخزينة العثمانية ، وحماية السواحل العثمانية من الاعتداءات الخارجية ، وفي مرحلة تالية كانت الدولة تتنهر الفرصة لضمها ضمّاً مباشراً . غير أن الحاق هذه الجزر بالأراضي العثمانية لم يكن أمراً سهلاً ، حيث كانت البابوية والبنادقة ومملكة نابولي تقاوم النفوذ العثماني بكل ضراوة حتي أنهم نجحوا في استعادة العديد من الجزر أكثر من مرة قبل ضمها للعثمانيين ضمّاً مباشراً ونهائياً . وهكذا ، استطاع العثمانيون في أوائل عصر الفاتح فتح العديد من جزر بحر إيجه والبحر المتوسط، حيث فتحت لأول مرة جزر أنز وأمروز وطاشوز وأغريبوز وميدللي وليمي في عام ١٤٥٦م / ٨٦٠هـ، إلا أن الحملة البحرية التي دعي إليها بابا روما لإنقاذ هذه الجزر من دفع الخراج للخزينة العثمانية (ربيع ١٤٥٧م / ٨٦١هـ) قد نجحت في استرداد العديد من هذه الجزر قبل استقرار الحكم العثماني فيها في نهاية هذا القرن^{١٦٥} .

¹⁶⁵ فيما يتعلق بمراحل سيطرة العثمانيين علي جزر بحر إيجه خلال عهد الفاتح ، أنظر : Yesemin Demircan, "Ege Adalarında Osmanlı Hakimiyeti", Türkler, IX/365-366; keza bk. Tansel, Osmanlı Kaynaklarına

ضد بلاد المورة : ومن ناحية أخرى ، كان أخوي إمبراطور بيزنطة المقتول

ديمترىوس وتوماس باليولوج قد لجئا إلى السلطان العثماني طلباً لمساعدتهم للسيطرة على ملكهم في بلاد المورة ضد منافسيهم من أسرة كانتا كوزين ، حيث ارتضوا دفع ١٢ ألف دوقه ذهبية للعثمانيين كل عام مقابل هذه المساعدة . وبالفعل صدر الأمر لعمر بك ابن طورخان أمير الحدود بتقديم المساعدات اللازمة إليهما . فلما تمكنا من السيطرة على المورة ، اختلفا في تقسيم البلاد فيما بينهما حتى تعدي توماس بمساعدة الأرناؤوط المحليين علي أراضي أخيه ديمترىوس ، فأرسل الأخير إلى السلطان العثماني طالباً النجدة . والحقيقة أن السيطرة علي المورة والقضاء علي الاسرات البيزنطية التي يمكنها الادعاء بحقوقها في القسطنطينية ، كان أمراً استراتيجياً بالنسبة للدولة العثمانية خلال هذه المرحلة . فلما نقض توماس عهده مع الدولة بتقديم الخراج السنوي ، وراح يسعى في نفس الوقت للإتفاق مع الحلف الصليبي المزمع تشكيله ، لم يتردد الفاتح في تجريد حملته الأولى ضد بلاد المورة .

وبينما كان محمود باشا متوجهاً صوب بلاد الصرب كان الفاتح يقود جيوشه إلى بلاد المورة (مايو ١٤٥٨م / جمادى الثاني ٨٦٢) . وبعد أن دخلت القوات العثمانية تساليا وفتحت قلعة فيلكه ، قامت بمحاصرة مدينة كورنت وقلعتها ، إلا أن السلطان الفاتح لم ينتظر حتي فتحها ، بل انساح في بلاد المورة وقام بفتح قلاع ومدن كثيرة قبل أن يعود ثانية إلى كورنت التي كانت بمثابة مفتاح بلاد المورة . وأخيراً استسلم ديمترىوس ، ووقع مع السلطان العثماني معاهدة أخرى في يولييه ١٤٥٨م / شعبان ٨٦٢ ، كان أبرز بنودها :

١ . الحفاظ علي أرواح وأموال أهالي كورنت عندما تدخلها القوات العثمانية .

٢ . بقاء المدن والقلاع التي استولي عليها العثمانيون في المورة ، وهي ما يعادل ثلث مساحة المورة تحت الإدارة العثمانية المباشرة .

gore Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.85vd.; İ.H.Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II. Cilt, s.22-26 vd.

٣. يقوم كل من ديمتريوس وتوماس بتقسيم الأراضي الباقية من المورة بينهما، علي أن يقومان بأداء خراج سنوي للدولة يقدر بثلاثة آلاف ذهبية .

٤. الإستعانة بأميري المورة وبقواتهما في حالة وقوع أي اعتداء من الخارج علي الدولة .

لم يستمر هذا الإتفاق طويلاً ، فعلي الرغم من تكرار تدخل الدولة لتوفير الإستقرار في المورة ، وإرسال السلطان لزاغنوس باشا إلي المورة لهذا الغرض ، راح توماس ينفذ الشروط المتفق عليها عدة ، الأمر الذي دفع الفاتح لتجريد حملة جديدة علي المورة قادها بنفسه عام ١٤٦٠م / ٨٦٥هـ . توجهت الحملة إلي برزخ كورنت ، وفي الوقت الذي أسرع فيه ديمتريوس بقبول طلب تسليم المدينة بعد سقوط قنلاع كستريجه وأوارين وارقاديا وغيرها ، كان أخيه توماس يبحث عن طريق الفرار إلي روما .

وإذا كانت شبه جزيرة المورة قد خلصت علي هذا النحو ولأول مرة للحكم العثماني ، إلا أنها كانت سبباً لصراع طويل بين الدولة العثمانية من ناحية والبابوية وجمهوريات وممالك إيطاليا من ناحية أخرى للسيطرة علي بحر إيجه وجزره والبحر الأدرياتيكي وسواحل البحر المتوسط الشمالية^{١٦٦} .

توطيد الحكم العثماني في جنوبي البحر الأسود :

لقد كانت منطقة جنوبي البحر الأسود تضم مستعمرة أماصرا التابعة لجنوة والبلاد التابعة لأبناء جندار ومينائي سينوب وسمسون التابعتين للدولة العثمانية ، علاوة علي أراضي إمبراطورية الروم في طرابزون . وعقب فتح القسطنطينية ، زادت الأهمية السياسية والإقتصادية لهذه المنطقة . والحقيقة أن تطورات الأحداث في تلك المنطقة

¹⁶⁶ بخصوص فتوحات المورة Tansel, Osmanlı Kaynaklarına göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.67vd.; İ.H.Uzunçarşili, Osmanlı Tarihi, II. Cilt, s.22-26 vd.

خلال هذه الفترة أتاح محمد الفاتح الفرصة لإلحاق هذه المناطق نهائياً بالأراضي العثمانية .

ضم مستعمرة أماصرا : تعتبر أماصرا واحدة من المستعمرات التجارية الهامة التابعة لجنوة علي سواحل البحر الأسود . وكانت هذه المستعمرة تدفع للعثمانيين بموجب معاهدة تجارية بين الطرفين قدراً من الخراج حتي عصر الفاتح ، إلا أن العلاقة بين الطرفين اضطربت عقب فتح استانبول . وعلي أثر طلب جنوة من السلطان العثماني منحها منطقة غلطة باستانبول كملكية خاصة لها ، ورفض الدولة لهذا الطلب ، وجد الفاتح الفرصة سانحة للحد من نفوذ جنوة في المنطقة وتصفية مستعمرتها في "أماصرا" . وهكذا ، أصدر السلطان أوامره بتحريك الأسطول العثماني صوب أماصرا بحراً تحت قيادة الوزير محمود باشا ، حيث توجه هو بنفسه إليها بطريق البر . فلما علم أمير أماصرا بعزم السلطان ، قام بتسليم المدينة وقلعتها له ، فضمت إلي سنجق " بولي " ، ثم نُفي أميرها وكبار رجاله إلي استانبول (١٤٦٠م / ٨٦٥هـ)^{١٦٧} .

إلحاق إمارة أبناء جندار : ولما عاد السلطان العثماني إلي بورصة ، أرسل إلي إسماعيل بك ابن جندار يبلغه بعزمه علي التوجه في حملة إلي طرابزون ويطلب منه توفير الإحتياجات اللازمة للأسطول العثماني الذي سيصل إلي سينوب في وقت لاحق لهذا الغرض ، وضرورة المشاركة بقوة في هذه الحملة . وهكذا ، وري الفاتح في حملته هذه بحملته علي طرابزون . ولما وصل السلطان إلي أنقره والتقي بحسن بك ابن إسماعيل ابن جندار آنذي جاء علي رأس قوة للمشاركة في حملة طرابزون ، قام السلطان بتعيينه علي سينوب ، كما عين أخيه المحجوز عنده قيزيل أحمد علي قسطنطين . وعندما علم إسماعيل ابن جندار بهذه التطورات تحصن في قلعة سينوب . فتوجه إليه محمود باشا ،

¹⁶⁷ بخصوص تطور العلاقات بين الدولة العثمانية وجنوة خلال عصر الفاتح ، أنظر : Enrico Basso, " İşbirliğinden Aynılığa : XIV ve XV. Yüzyıllarda Cenevizliler ve Türkler", Türkler, IX/357-358 ; keza bk. Tansel, Osmanlı Kaynaklarına göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.89vd.

وحاصره حتي استسلم بعد أخذ بعض الضمانات . وهكذا ضمت سينوب إلى أراضي الدولة . أما قسطنطين فقد أعترف أهلها بـ قيزيل أحمد أميراً لجندار ، إلا أن قيزيل أحمد رفض تنفيذ قرار نقله إلى سنحقية المورة ، ثم فر هارباً إلى حاكم دولة آق قويونلي حسن الطويل . وبذلك دالت إمارة أخرى من إمارات الأناضول ، وضمت أراضيها إلى أملاك الدولة العثمانية نهائياً (١٤٦١م/٨٦٥هـ) ^{١٦٨} .

سقوط إمبراطورية الإمبراطورية في طرابزون : كانت حدود هذه

الإمبراطورية الشمالية تمتد من غيره سون وحتى باتوم وحدودها الجنوبية تصل إلى بايبورد وگوموشخانه ، حيث كان يحكمها في هذه الفترة داويد كومنين الذي اعتلى العرش عام ١٤٥٨م/٨٦٢هـ . فقام داويد بقطع الخراج الذي كان يدفعه أخيه يوانيس للعثمانيين ، وطالب السلطان العثماني بما كان قد دفع من أموال ، وراح يطلب المساعدات من بابا روما وملك فرنسا لويس السابع ، ويحرض أوروبا على الدولة العثمانية ، الأمر الذي دفع الفاتح لتصفية هذه البؤرة الصليبية من الأناضول بعد أن وفق في ضم أماصرا و قسطنطين وسينوب دون إراقة دماء . والحقيقة أن حملة طرابزون كانت تتفق مع الخطة الاستراتيجية للفاتح والتي كانت تقضي بتصفية الأسرات الحاكمة التي يمكن أن تدعي بحقها في حكم استانبول .

وهكذا ، خرج السلطان إلى طرابزون من ناحية البر وأرسل الاسطول تحت قيادة گديك أحمد باشا من البحر . ولما وصل الجيش العثماني إلى أرزنجان ، جاءه وفد من قبل حاكم آق قويونلي أوزون حسن وفيه والدته سارة خاتون سعيّاً للوساطة بين الطرفين . وكان أوزون حسن قد تزوج من ابنة إمبراطور طرابزون حتي يكون له الحق

¹⁶⁸ حول النفوذ العثماني في الأناضول ، ومراحل تدخل العثمانيين في شئون إمارة أبناء جندار حتي

ضمها النهائي للأراضي العثمانية ، انظر : Y.Yücel, Anadolu Beylikleri Hakkında Araştırmalar I., Ankara 1991,s. 201-211; keza bk. Walter Hüns, Uzun Hasan ve Şeyh Cüneyd XV. Yüzyılda İran'ın Milli bir Devlet Haline Yükelışı, çev. T. Bıyıklıoğlu, Ankara 1992, s.28-33; Tansel, Osmanlı Kaynaklarına göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.91vd.

في أملاك الإمبراطورية الآيلة للسقوط . أبلغ الفاتح أوزون حسن بأن الوفد سيقتي معزراً في ضيافة الجيش العثماني حتي انهاء مهمته في طرابزون ، ثم واصل الجيش العثماني سيرة إلي طرابزون . وكان الاسطول قد وصل إلي المدينة قبل الجيش ، فشرع في حصارها من البحر ، وإمطار قلعتها بقذائف المدافع . فلما وصل الجيش البري ، شدد الحصار علي المدينة حتي أجبر الامبراطور علي التسليم في ٢٦ أكتوبر ١٤٦١ / ٢١ محرم ٨٦٦ . وباستسلام داويد كومنن ، يكون الفاتح قد استطاع القضاء علي كافة الأسرات الحاكمة التي يمكن أن تدعي بحقها في وراثة عرش استانبول سواء تلك التي كانت موجودة في أنورة أو في طرابزون^{١٦٩} .

توطيد الحكم العثماني في شمال البلقان :

لقد كان تخلي البنادقة عن سياسة تحريض الأرنأووط ضد الدولة العثمانية خوفاً علي مصالحها التجارية ، وإلحاق أبناء أورانوس بك الهزيمة بإسكندر بك وقتل كبار قواده (١٤٥٥م / ٨٥٨هـ) ، وفقدان الأمير العاصي حماية نابولي بعد موت ملكها الفونس الخامس (١٤٥٨م / ٨٦٢هـ) سبباً لعودة إسكندر بك لحظيرة الطاعة وقبوله لدفع الخراج للدولة العثمانية (١٤٦٠م / ٨٦٤هـ) . ولكن سيطرة العثمانيين علي البوسنة وسقوط أرجوس التابعة للبنادقة في أيديهم ومحاولاتهم المتكررة للسيطرة علي بلاد الأرنأووط ، أحدث تقارباً بين الأمير الأرنأووطي العاصي إسكندر بك والبندية ، حيث قررا دخول الحرب ضد الدولة العثمانية (١٤٦٣م / ٨٦٧هـ) .

الأفلاق ولاية عثمانية : منذ خضوع الأفلاق للتبعية العثمانية ، لم يتردد أميرها

في الخروج علي الدولة والتحالف مع أعدائها كلما سنحت له الفرصة . ولذلك حرص محمد الفاتح علي توطيد النفوذ العثماني في تلك البلاد ، فنجح في مساعدة الأمير الأفلاقي ولاد چېش الذي كان محجوراً لديه حتي تولي إمارة الأفلاق (١٤٥٦م / ٨٦٠هـ) . وإذا كان أمير الأفلاق الجديد قد أظهر الطاعة خلال سنوات حكمه

H. İnalcık, " Mehmed II.", s. 531; Uzunçarşılı, Osmanlı ¹⁶⁹
Tarihi, II./73-74

الأولي ، إلا أنه استغل انشغال الدولة في حملاتها في جنوب البحر الأسود وقام بالإتفاق مع ملك المجر ، وراح يعتدي علي نواحي البلغار التابعة للدولة، حتي أنه استطاع هزيمة الحملة التي جردت ضده وقام بتخريب ونهب نكبولي وويدين وغيرها (١٤٦١م/ ٨٦٥هـ) .

وهكذا ، خرج السلطان العثماني علي رأس جيشه في حملة لتأديبه في ربيع ١٤٦٢م/ ٨٦٦هـ، حيث فر ولاد إلي ملك المجر الذي قام بحبسه وفقاً للمعاهدة المبرمة مع الدولة . وبذلك عين السلطان أخيه الآخر الذي كان محجوراً أيضاً لديه بدلاً منه أميراً علي الأفلاق ، كما عين في الأفلاق حامية عثمانية لتوطيد الحكم العثماني بها ، وألزم الأمير الجديد بدفع خراج قدره ١٢ ألف دوقه للخرينة العثمانية . ومنذ ذلك الوقت ، استقر الحكم العثماني في الأفلاق ، وأصبحت بلاد الأفلاق واحدة من ولايات الدولة ذات نظام حكم خاص^{١٧٠} .

خض العثمانيون لبلاد البوسنة والصرب : لقد كانت البوسنة بموقعها

الهام في البلقان تمثل أهمية خاصة لدي العثمانيين في حالة وقوع أية مواجهة بينهم وبين البنادقة . ولذلك ، لما رفض ملك البوسنة دفع الخراج السنوي للخرينة العثمانية (٥٠ ألف دوقه) ، لم يتردد محمد الفاتح في تجريد حملة هدفها ضم بلاد البوسنة للأراضي العثمانية . وبالفعل خرجت الحملة في ربيع ١٤٦٣م/ ٨٦٧هـ . وفي الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني يحاصر عاصمة البوسنة في يايجه كان وزيره محمود باشا يقوم بمحاصرة ملكها استيفن طوماشافيتش في قلعة كيلوج . وكما نجح محمود باشا في إجبار ملك البوسنة علي الإستسلام ، تمكن الفاتح من فتح يايجه .

¹⁷⁰ ينحصر ضم الأفلاق وتحويلها إلي ولاية تابعة للدولة بنظام " ويودالتي " الخاص ، أنظر :

Viorel Ponoite, "Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehri'nin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan", *Türkler*, IX/206-218; keza bk. Uzunçarşılı, *Osmanlı Tarihi*, II/76-77

لم تكذ هذه الأنباء تصل إلى ملك الهرسك استيفن قوصاروفيتش حتي تجنب مواجهة الجيوش العثمانية وأعلن تبعيته للعثمانيين ، حيث ضمت بعض بلاده للأراضي العثمانية وعين أميراً من قبل الدولة علي بقية بلاد الهرسك ، وأخذ ابنه رهينة لدى السلطان .

وبينما كانت مناطق نفوذ مجرية هامة كالبوسنة والهرسك تسقطان علي هذا النحو في يد العثمانيين ، كانت مواني أرجوس ولبانت التابعتان للبنادقة تدخلان أيضاً تحت النفوذ العثماني ، الأمر الذي أحدث نوعاً من التقارب بين البندقية والمجر والأرناؤوط التي كانت تحت حكم إسكندربك العاصي . وقد تمخض هذا التقارب عن تشكيل حلف صليبي حديد بدأ فعالياته في ديسمبر ١٤٦٣م / ربيع الأول ٨٦٨هـ — بهجوم شامل من قبل الأساطيل البندقية علي المورة وهجوم الجيوش المجرية علي البوسنة^{١٧١} .

التقارب بين التركمانيين - الأوروبيي : تعتبر إمارة أبناء قره مان آخر الإمارات

التركمانية التي تشكلت إثر سقوط دولة سلاجقة الأناضول ، حيث ظلت تقاوم النفوذ العثماني المطلق في الأناضول حتي الربع الأخير من القرن ١٥م / ٩هـ . ولم يتردد الأمراء القره مانين علي الرغم من علاقة المصاهرة بينهم وبين السلاطين آل عثمان في العمل ضد العثمانيين كلما سنحت لهم الفرصة ، فقاموا غير مرة بتحريض الأمراء التركمان علي عصيان الدولة ودفع دول البلقان والبنادقة علي حرمها . ولما عجزت هذه الإمارة عن الاستفادة المثلي من التحالف مع الممالك الأوروبية ، ولّت وجهها شطر الأناضول . وكان تركمان آق قويونلي قد أقاموا دولة قوية في شرقي الأناضول ، حيث راحوا ينافسون العثمانيين في السيطرة علي أملاك إمبراطورية الروم في طرابزون ، ويسعون للتنسيق مع أعداء الدولة سواء في الأناضول وفي أوروبا .

Kenan İnan, "Fatih Sultan Mehmed İstanbul'un Fethi ve Etkileri", Türkler, IX/286 vd.; Tansel, Osmanlı Kaynaklarına göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri, s.124vd.

فلما توفي إبراهيم ابن قره مان ، أوصى بالحكم لابنه اسحق بك ، إلا أن اعتراض أبناءه الآخرين ونشوب الصراع بينهم ، أتاح للدولة العثمانية التدخل في شئون الإمارة . وهكذا ، نشب الصراع بين اسحق بك وأخيه پير أحمد بك ، حيث لجأ الأول لأوزون حسن ولجأ الثاني للعثمانيين . وهكذا ، تمكن پير أحمد بك من استعادة قرمان بمساعدة قوات أمير أنطاليا ، حيث تنازل للعثمانيين عن آقشهر وبكشهر وصيقلان حصار ، وفر اسحق بك إلى أوزون حسن ثانية (١٤٦٤م / ٨٦٩هـ)^{١٧٢} .

الاعتراض الأوروبي بالنفوذ العثماني في البلقان :

لقد كان للانتصارات التي أحرزها العثمانيون بعد فتح القسطنطينية (١٤٥٣-١٤٦٣م / ٨٥٧-٨٦٨هـ) في بلاد الأرناؤوط والبوسنة والمورة والجزر ، ولتمكنهم من القضاء على الأسرات الحاكمة التي يمكنها المطالبة بأملاك بيزنطة ، ولنجاحهم في توحيد الأناضول تحت قيادتهم ، كان لكل هذا أثر عظيم في الانتقال بالدولة العثمانية إلى مرحلة الإمبراطورية . فقد جعلت هذه الفتوحات والانتصارات الدولة وجهاً إلى وجه أمام خصوم أقوى سواء في الشرق كدولة آق قويونلي أو في الغرب كالجرجا وبابا روما وجمهورية البندقية ومملكة نابولي .

والحقيقة أنه علي الرغم من المحاولات الدؤوبة من بابا روما وبعض الدول الأوروبية لتشكيل حلف صليبي ضد الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية ، إلا أن هذه المحاولات التي استمرت أكثر من عشر سنوات لم تتمخض عن النتائج المرجوة منها بسبب المنافسات والخلافات السياسية والمذهبية بين الدول الأوروبية . ولما تجاوزت الفتوحات العثمانية حدود العديد من دول وسط أوروبا وأخذت الأخطار تقترب من منها أكثر فأكثر بانتزاع مناطق شاسعة من أراضيها ، لم تنتظر دولي المواجهة الجرجا والبندقية محاولات التشكيل المزمع للحلف ، بل شرعتا في الإعداد لمواجهة شرسة في البر وفي البحر مع الدولة العثمانية استمرت لأكثر من ستة عشر عام (١٤٦٣-١٤٧٩م / ٨٦٨-٨٨٤هـ) .

تشكل التحالف الصليبي بقيادة المجر والبندقية : إذا كانت الأسباب

الحقيقية وراء هذه المواجهة تتمثل في سعي المجر والبندقية للدفاع عن نفوذهما في البلقان ووسط أوروبا ، وحرص البابوية علي التصدي للزحف العثماني الإسلامي المتنامي بعد سقوط بلاد الأفلاق والبوسنة والهرسك وبلاد الأرناؤوط والمورة وجزر بحر إيجه ، ومحاولات العثمانيين لتأكيد نفوذهم في تلك المناطق ، فقد كانت واقعة سرقة أحد خدم الدولة لنحو مائة ألف آقجه عثمانية والتجاءه إلى مدينة قورون التابعة للبنداقية ، واقتسامه هذه الأموال مع محافظ المدينة البندقي ، ثم قيام قائد المهاجمين عيسى بك ابن أورانسوس بالإستيلاء علي مدينة أرحوس وبعض الأراضي الأخرى في نواحي لبانتو (إنه باختي) بعد رفض البنداقية إعادة الخادم الهارب والأموال المسروقة (مايو ١٤٦٣م / رمضان ٨٦٧) سبباً مباشراً لإعلان البندقية الحرب علي الدولة العثمانية .

وهكذا عقدت جمهورية البندقية مع مملكة المجر اتفاقية دفاع مشترك ضد العثمانيين في ١٢ سبتمبر ١٤٦٣ / ٢٨ ذوالحجة ٨٦٧ ، وقررتا التعهد بشن البنداقية الهجوم علي جبهات الأرناؤوط والمورة وفي البحار وفتح المجر للجهة البرية في البوسنة ، بحيث يقوم البنداقية باستمالة الأمير العاصي إسكندر بك مع تقديم كافة المساعدات العسكرية والمادية إليه . ومن ناحية أخرى ، راح هؤلاء الحلفاء يتصلون بحاكم آق قويونلي أوزون حسن ، حيث نجحوا في عقد اتفاق دفاعي معه ضد العثمانيين . وقد حصل أوزون حسن بموجب هذا الاتفاق علي الأسلحة والمدافع التي تلزمه لمواجهة العثمانيين في الأناضول . وقد شاركت في هذا الحلف فيما بعد البابوية وإمارة نابولي وفرسان رودس ، فقاموا بدور فعال في دعم جيوش الحلف الأوروبي في على طول سواحل البحر المتوسط وبحر إيجه والبحر الأدرياتيكي^{١٧٣} .

انطلاق حرب المئة محضر محاماً (١٤٦٣م / ٨٦٨هـ) : بدأت البندقية

الحرب بالهجوم علي المورة في أغسطس ١٤٦٣ / ذي القعدة ٨٦٧ ، واحتلال قسم كبير

¹⁷³ Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/111-116; keza bk. Kenan İnönü, "Fatih Sultan Mehmed İstanbul'un Fethi ve Etkileri", Türkler, IX/286 vd

من أراضيها ، وقامت بتحريض الأهالي المحليين على عصيان الدولة . وفي الوقت الذي وقعت فيه أول مواجهة بين القوات العثمانية والبنادقة أمام قلعة قورينيتوس في ٢٠ أكتوبر ١٤٦٣ / ٦ صفر ٨٦٨ ، كان ملك المجر ماتياس بن هونياد يدخل البوسنة بقواته ويحتل عاصمتها في يايجه ، وكانت أساطيل الحلفاء الأوربيين تقوم بالهجوم علي مدينة أنطاليا جنوبي الأناضول ، وذلك بينما راح أمير البغدان أيضاً يعلن خروجه علي الدولة في شمالي البلقان ، ويقوم حاكم آق قويونلي أوزون حسن بتحريض أبناء قره مان علي العصيان في وسط الأناضول . وهنا برزت القيادة الفذة لمحمد الفاتح في كيفية مواجهة كل هذه الأخطار في وقت واحد ، حيث اضطر لتحريد عدة حملات في الأناضول والروميلى في وقت واحد ، والتصدي لهذه الإعتداءات في البر وفي البحر .

وهكذا ، خرج الفاتح في حملة صوب البوسنة في ربيع عام ١٤٦٤م / ٨٦٨هـ ، حيث شدّد الحصار علي عاصمتها في يايجه ، وأجبر الجيش المجري علي الفرار . وإذا كان السلطان العثماني قد استطاع في حملته علي بلاد الأرناؤوط (١٤٦٥م / ٨٦٩هـ ، ١٤٦٧م / ٨٧١هـ) إعادة السيطرة علي المضائق ومعظم بلاد الأرناؤوط ، إلا أن مدينة قرويا التي كانت مركزاً للأمير العاصي إسكندر بك لم تفتح إلا في الحملة التي قادها السلطان في يناير ١٤٧٨م / ٨٨٣هـ ، كما فتحت إسكندرية الأرناؤوط (اشكودرا) في العام التالي . والحقيقة أن احتكاك الأسطول العثماني بالقوة البحرية للبندية والبابوية علي مدي ستة عشر عاماً كان قد ساعد علي نمو البحرية العثمانية بإطراد ، فكان نجاحها في فتح جزيرة أغريوز وهي أكبر جزر بحر ايجه (١٤٧٠م / ٨٧٥هـ) ، إعلاناً ببدء مرحلة جديدة في تاريخها .

انتهزت مملكة البغدان التي كانت قد اعترفت بالنفوذ العثماني في المنطقة بعد فتح القسطنطينية وارتضت دفع خراج سنوي يقدر بألفي ذهبية (١٤٥٥م / ٨٥٩هـ) انتهزت فرصة حرب العثمانيين للبندية و نابولي والبابوية في البحر والمحار والأرناؤوط في البر ، فرفع أميرها استيفن جيلىمارا راية العصيان علي الدولة أيضاً منضمّاً للحلفاء الأوربيين . وبذلك أمر السلطان بتوجه سليمان باشا الخادم للخروج في حملة إلي

البغدان (١٤٧٥م / ٨٨٠هـ) ، إلا أن اخفاق هذه الحملة جعل الفاتح يتوجه إليها بنفسه في ربيع ١٤٧٦م / ٨٨١هـ . ولما رفض أمير البغدان استيفن چيلمارا شروط الفاتح التي حددها في أداء الخراج وإعادة الأسري الجنويين وتسليم مدينة " كيلبي " الإستراتيجية ، دخلت الجيوش العثمانية مركز المملكة في صوجي أروا في أواخر هذا العام وأخضع أميرها^{١٧٤} .

انفrazات العثمانيين بالنفوذ المطلق في الأناضول ، وإنهاء حكم

أبناء قره مان : أما علي الجبهة الأناضولية ، فقد كان حاكم أق قويونلي يدعم أمراء قره مان ضد العثمانيين ، ويتحين الفرصة للسيطرة على الأناضول من خلالهم مستفيداً من انشغال السلطان العثماني في المواجهات مع التحالف الصليبي . ولذلك ، لم يكد الأمير القره ماني بير أحمد يخرج عن طاعة السلطان ، حتى جرد السلطان حملة قادها بنفسه عام ١٤٦٦م / ٨٧١هـ ، وسيطر فيها علي قونية ، ففر بير أحمد إلى لارنده (قرمان) ، ثم التجأ إلى أوزون حسن عام ١٤٧٠م / ٨٧٥هـ . وفي العام التالي تمكن الجيش العثماني من السيطرة على إمارة لارنده ، وضم كديك أحمد باشا إمارة علائية الساحلية للأراضي العثمانية . وهكذا، قرر أوزون حسن الدخول في مواجهة مباشرة مع العثمانيين ، حيث دعم أبناء قرمان بير أحمد وقاسم بك بنحو عشرين ألفاً يقودهم ابنه يوسفجه ميرزا (١٤٧٢م / ٨٧٧هـ) . وإذا كانت هذه القوات قد تمكنت من الهجوم علي توقات ولارنده وأقشهر ووصلت حتي بكشهر ، إلا أنها لقيت هزيمة قاسية أمام جيش عثماني يقوده الشهزاده مصطفى ، حيث سقط يوسفجه ميرزا أسيراً ، وفر بير أحمد إلى وزون حسن وقاسم بك إلى ايج ايل .

لقد كان عبور اوزون حسن الحدود العثمانية واحراقه مدينة توقات واحتلاله لقرمان ومطالبته بتنازل الدولة عن قبادوقيا وطرابزون في الوقت الذي كانت فيه أساطيل

¹⁷⁴ لتفصيلات أكثر حول سيطرة العثمانيين على البغدان وانضمامها مع الأفلاق للأراضي العثمانية ،

أنظر : Viorel Ponoite, "Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehri'nin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan", Türkler, IX/206-218; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/133vd.

الحلفاء تخرب سواحل الأناضول على البحر المتوسط وإيجة التابعة للعثمانيين ، اعلاناً بدخوله الحرب إلى جانب الحلفاء . وبذلك أجبر أوزون حسن السلطان العثماني الذي كان يواجه تحديات عديدة للخروج في حملة لمواجهة في مارس ١٤٧٣ / شوال ٨٧٧ ، حيث انتهت المعركة الفاصلة التي وقعت بين الطرفين عند موضع بالقرب من نهر الفرات يقال له " أوتلوق بلي " بهزيمة أوزون حسن ومقتل ابنه زينل ميرزا وأسر عدد كبير من أتباعه (١١ أغسطس ١٤٧٣ / ١٦ ربيع الأول ٨٧٩) .

والحقيقة أن هزيمة أوتلوق بلي لم تفت في عضد حاكم آق قويونلي ، حيث استمر في دعم أبناء قره مان . وبينما كان السلطان العثماني يتوجه إلى أوزون حسن ، كان الأميرال بترو قائد أساطيل الحلفاء قد وصل إلى سواحل إيج إيل لمساعدته ، حيث تمكن قاسم بك ابن قره مان من الاستيلاء على قلاع سليفكه وصيغين وقورقو بمساعدة هذه الأساطيل . وهكذا ، رأي السلطان الفاتح أن الوقت قد حان للقضاء على إمارة أبناء قره مان ، فولي وجهه إليها عند عودته من حملة أوتلوق بلي ، وأرسل الوزير الأعظم كديك أحمد باشا إلى أرمنك ثم إلى سليفكه فضمهما ، كما استعاد القلاع المحيطة بهما ، وفرير أحمد وقاسم بك إلى أوزون حسن وخلصت بلاد قره مان نهائياً للعثمانيين (١٤٧٤ م / ٨٨٠ هـ)^{١٧٥} .

تفكك الحلفاء الصليبي . والاتفاق العثماني - البندقي : وهكذا ، لم

يستطع التحالف بين البندقية والمجر والباباوية ومملكة نابولي وآق قويونلي تحقيق أية مكاسب في هذه الحرب ، فبعد أن تمكن الفاتح من هزيمة أوزون حسن والقضاء على إمارة آل قره مان ، وتحقيق انتصارات متتالية في بلاد الأرناؤوط والمورة ، وعجز الحلفاء

¹⁷⁵ فيما يتعلق بالمراسل الأخير من علاقة إمارة قرمان بالدولة العثمانية ودور حاكم دولة آق قويونلي في هذا الصراع انضمام هذا التكتل الأناضولي إلى الحلف الصليبي والتنسيق بينهما ، أنظر : Ş. Tekindağ, " Son Osmanlı Karaman Münasbetleri Hakkında Araştırmalar", TD., XIII/17-18, İstanbul 1964; R.R. Ahmedi Arat, "Fatih Sultan Mehmed'in Yarığı", Türkiyat Mecmuası, VI, 1939, s.303 vd.; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/87-

عن التنسيق فيما بينهم ، ومحاولة ملك نابولي فرديناند وملك المجر ماتياس بن هونياد عقد هدنة مع العثمانيين ، وعدم مقدرة البندقية علي انقاذ إسكندرية الأرناؤوط (أشكودرا)، علاوة علي الأضرار المالية والتجارية والأزمات الاقتصادية التي لحقت بها خلال هذه الحروب الطويلة ، أجبر البنادقة أخيراً علي عقد الصلح مع السلطان العثماني في ٢٩ يناير ١٤٧٩/٣ ذو القعدة ٨٨٣ . وقد تضمنت المعاهدة التي عقدت بين الطرفين البنود التالية:

١. إعادة كل طرف الأراضي التي استولي عليها من بلاد المورة ودالمجيا خلال فترة الحرب للطرف الآخر .
٢. بقاء مدينة قوريا (آقچه حصار) ، وحزيرة أغريوز في يد العثمانيين .
٣. تسليم مدينة أشكودرا الواقعة تحت الحصار ونواحيها للجيش العثماني .
٤. دفع البندقية مبلغ ٢٠٠ ألف دوقه ذهبية كل سنتين كضمانات عسكرية للعثمانيين .
٥. دفع البندقية خراج قدره ١٢ ألف دوقه ذهبية سنوياً مقابل السماح لها بحرية التجارة في المواني العثمانية .
٦. إعادة جزيرتي ليمني وبوزجه وغيرها للعثمانيين .
٧. تبادل أسري الحرب بين الطرفين .
٨. تعيين بايلوس (قنصل) في استانبول لرعاية مصالح التجار البنادقة في مركز الدولة^{١٧٦} .

دخول القرم تحت النفوذ العثماني :

تعتبر خانية القرم أهم خانات شعبة توقاتيمور (قازان ، أستراخان ، القرم) التابعة لدولة التون أوردو (دشت قهچاق) . وعقب هزيمة خان التون أوردو علي يد

¹⁷⁶ بخصوص العلاقة بين البندقية والدولة العثمانية ، وبخاصة بنود هذه الإتفاقية ، أنظر : Maria Pîa Pedani Fabris, "XV-XVIII Yüzyılda Osmanlı Venedik İlişkileri", Osmanlı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/259-264; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/123-125

تيمورلنك، تفككت الدولة وغرقت في الصراعات الداخلية ، حيث تمكن حاجي گراي من اعلان خانية مستقلة في القرم عام ١٤٣٨م/٨٣٢هـ . ولما توفي حاجي گراي خان (١٤٦٦م/٨٧١هـ) ، نشب صراع بين أبنائه انتهى بوصول نوردولت گراي علي رأس السلطة في القرم (١٤٧٥م/٨٨٠هـ) . وحتى يمكنه التصدي لمنافسة أخيه منگلي گراي في القرم ومحاولات خان ألتون أوردو لاستعادة السيطرة علي القرم ، عقد نوردولت گراي معاهدة صداقة وتعاون مع السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧٧م/٨٨٢هـ . ولما طلبت الدولة العثمانية من نوردولت گراي المشاركة في حملة السلطان علي البغدان وتأخر خان القرم عن المشاركة المطلوبة ، راحت الدولة تستجيب لمساعي أخيه منگلي گراي الذي كان موجوداً في استانبول، وقامت بتعيينه علي خانية القرم بدلاً من نور دولت گراي في أواخر عام ١٤٧٧م/ ٨٨٢هـ . وبذلك ، دخلت القرم تحت النفوذ العثماني^{١٧٧} .

خروج حملة إيطاليا وفتح أوترانتو : منذ فتح القسطنطينية راحت باباوية روما والممالك الإيطالية الأخرى بالبندقية و نابولي وفلورانس وغيرها تلعب دوراً كبيراً في حشد أوروبا وتحريض دولها لحرب الدولة العثمانية ، حيث تمكنت من تشكيل حلف صليبي قاد حرب استمرت نحو ستة عشر عاماً في الأناضول وشرق أوروبا . فلما استطاع العثمانيون فتح أغريبيوز عام ١٤٧٠م/ ٨٧٥هـ ، انضمت نابولي للحلف الصليبي . غير أن السلطان العثماني انتظر حتي تم توقيع معاهدة الصلح مع البنادقة في ١٤٧٩م/ ٨٨٣هـ ، حيث كان نقل العثمانيين لحملاتهم عبر سواحل الأدرياتيك أمراً طبيعياً . وهكذا ، كانت حادثة زواج ليوناردو أمير جزر زانتا وكفالونيا وأياموار التريية من السواحل العثمانية والذي كان يدفع خراجاً سنوياً للعثمانيين ، زواجه من ابنة ملك نابولي دون احاطة السلطان الفاتح علماً بالأمر السبب المباشر لخروج العثمانيين لحملة

¹⁷⁷ فيما يتعلق بدخول القرم تحت التبعية العثمانية ، أنظر : Halil İnalcık, "Yeni

Vesikalara göre Kırım Hanlığı'nın Osmanlı Tabiliğine Girmesi ve Ahidname Meselesi", Belleten VIII/30, 1944, 185-129; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/127-128

جنوب إيطاليا . فصدرت الأوامر لـگديك أحمد باشا للتوجه بالإسطول العثماني لضم جزر زانتا وكفالونيا وإيماورا ، حيث فر أميرها ليوناردو إلي نابولي ، وعين گديك أحمد باشا علي إمارة أولونيا علي ساحل الأرناؤوط ليقوم بالإستعدادات اللازمة لخروج الحملة لجنوب إيطاليا في العام التالي .

وفي ٢٥ تموز ١٤٨٠ / ٨٨٤هـ ، رسي الأسطول العثماني عند ميناء أوترانتو ، حيث ألحق بالجيش الذي أرسله ملك نابولي فردناندو بقيادة ابنه الفونس الهزيمة ، وأحكم العثمانيون سيطرتهم علي أوترانتو في ١١ أغسطس ١٤٨٠ / ٣ جمادي الآخرة ٨٨٥ ، حيث قام گديك أحمد باشا بعد ذلك بفتح القلاع المحيطة بأوترانتو . وفي الوقت الذي كان فيه القائد العثماني يعد العدة لمد الفتوحات العثمانية داخل إيطاليا ، وصلت الأنباء بوفاة السلطان محمد الفاتح^{١٧٨} .

خروج حملة رودس وحصارها : لما كان حكام جزيرة رودس من فرسان

"سان جان" قد لعبوا دوراً هاماً في مساعدة أساطيل الحلفاء ضد العثمانيين حيث بقيامهم بعمليات قرصنة وقطع طريق بين الجزر التي فتحها العثمانيون ، راحت القيادة العثمانية تشعر بضرورة تأمين طرق مواصلاتها بين هذه الجزر وفتح جزيرة رودس . وهكذا ، في الوقت الذي فيه السلطان محمد الفاتح يفكر في تعيين گديك أحمد باشا علي حملة إيطاليا، قام بتكليف مسيح باشا بالخروج في حملة استكشافية إلي رودس بنحو مائة قطعة بحرية في ديسمبر ١٤٧٩ / شوال ٨٨٤ . وبالفعل ، خرج مسيح باشا في ربيع ١٤٨٠م / ٨٨٥هـ بأسطول يتكون من نحو ١٦٠ قطعة بحرية ، ورسى علي سواحل رودس في أواخر مايو ١٤٨٠ / صفر ٨٨٥ . وإذا كان مسيح باشا قد وفق في فتح بعض

¹⁷⁸ بخصوص حملة جنوب إيطاليا التي عرفت باسم " أوترانتو " ، انظر : Konstantinos

Giakoumis, "Osmanlıların Otranto ve Apulia Seferi (1480-1481)", çev. Kürşat Akpınar, Türkler IX/373-380

أجزاء الجزيرة ، إلا أنه اضطر للإسحاب بجيشه منها بسبب سوء تدبيره ، حيث عاد إلى استانبول معزولاً بعد ثلاثة أشهر من القتال المستمر في رودس^{١٧٩} .

التنافس العثماني - المملوكي على إمارة ذوالقندر : كان محمد

الفاتح قد تزوج من ابنة سليمان بك حاكم إمارة ذوالقندر الذي كان يحكم نواحي مرعش وألبستان ويخضع للنفوذ المملوكي . فلما توفي سليمان ١٤٥٤م / ٨٥٨هـ ، تنازع أبنائه علي الحكم ، الأمر الذي جعل السلطان المملوكي يعين شاه بوداق بك الذي يسيطر على مرعش علي الإمارة ، والسلطان العثماني يعين شاه سوار الذي يحكم ألبستان عليها في نفس الوقت . إلا أنه علي أثر تمكن شاهسوار بك من السيطرة علي الإمارة ، فر شاه بوداق إلي السلطان المملوكي (١٤٦٦م / ٨٧١هـ) . ولما تجاوز شاهسوار بك الحدود المملوكية إثر تعقبه لشاه بوداق ، تصدت له القوات المملوكية ، حيث أوقعت به الهزيمة وأسرت ، وأعدم علي باب زويلة في القاهرة (١٤٧٢م / ٨٧٧هـ) ، وعين شاه بوداق علي إمارة ذوالقندر .

ومنذ ذلك الوقت ساءت العلاقة بين الدولة العثمانية ودولة المماليك . فكان الحاق الهزيمة بأوزون حسن وبسط النفوذ العثماني علي شرقي الأناضول ، وتطلع العثمانيين للقيام بدور في العالم الإسلامي بمحاولة محمد الفاتح اصلاح طرق مياه الحرمين الشريفين علي حسابه الخاص ، سبباً في تربص كل طرف بالطرف الآخر . وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا من تعيين علاء الدولة علي إمارة ذوالقندر (١٤٧٩م / ٨٨٤هـ) ، إلا أن الوضع المضطرب علي الحدود العثمانية - المملوكية ، دفع محمد الفاتح وهو علي فراش المرض لإصدار أوامره لابنه جم سلطان بالخروج في حملة صوب الحدود المملوكية ،

حتى أنه توفي بينما كان جم في طريقه لهذه الحملة في ٤ مايو ١٤٨١ / ٤ ربيع الأول ٨٨٥ .^{١٨٠}



وهكذا ، يعد محمد الفاتح مؤسس الدولة العثمانية في عصر الامبراطورية . فقد استمرت غزواته شرقاً وغرباً وشمالاً دون توقف علي مدي ثلاثين عاماً ، فصار حاكماً لبحرين وأرضين ، وجعل كل من الأناضول والبلقان (الروميلي) نواة لنمو الإمبراطورية العثمانية ، ووضع مؤسسات الدولة في شكلها النهائي ، ووفر كافة الظروف لجعل استانبول مركزاً سياسياً وحضارياً لدولة مركزية عالمية .

وقد قام الفاتح باجراء تغييرات جوهرية في سياسة الدولة الداخلية ، فوضع النواة لنظام المركزية في الإمبراطورية . وفي هذا السبيل حرص الفاتح علي تحرير سلطته العليا من نفوذ مراكز القوى المختلفة في الدولة ، وذلك من خلال الإجراءات التالية :

أ- إعادة تشكيل فرقة اليكيجري (الإنكشارية) وتنحية مراكز القوى فيها علي أثر قيام هذه الفرقة برفع راية العصيان عقب تولية الفاتح لمقاليد الحكم في البلاد.

ب- إبعاد الأسرات التركمانية التي شاركت آل عثمان الحكم وعلي رأسها أسرة حاندارلي التي سلبت من البيت العثماني السيطرة علي الحكومة ، ووصلت بنفوذها إلي درجة التأثير في تعيين وعزل السلاطين العثمانيين .

ج- تعيين خواص السلطان وخدمه في المناصب والوظائف الهامة في الدولة والتي يتم مباشرتها بتفويض مباشر من السلطان كمناصب الوزارة والإمارة والقيادة العليا للجيش .



¹⁸⁰ تشير بعض المصادر بأن المرض الفاجئ الذي أصاب الفاتح ، يرجع إلي أن أحد أطبائه قام باعطائه جرعة من السم ، الأمر الذي أدى إلي تدهور حالته بسرعة ووفاته ، فيما يتعلق بالروايات حول هذا

الموضوع أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/141-144

تولي السلطنة للمرة الثانية وهو في العشرين من عمره (١٤٥١م/٨٥٥هـ)،
 حاز علي لقب " الفاتح " عن جدارة بفتحته استانبول وقضاة علي إمبراطورية الروم
 الشرقية ، فسلم الأعداء قبل الأصدقاء بكفائته العسكرية ودهائه السياسي . وقد قضى
 في مقام السلطنة نحو ثلاثين عاماً ، خرج خلالها بنفسه علي رأس خمسة وعشرين حملة
 عسكرية ، وألحق بالأراضي العثمانية ثمانية عشر إقليماً جديداً ، فسيطر علي الأناضول
 والبلقان سيطرة تامة . كان صاحب عزم وإرادة قوية ، مدقق في إدارة الدولة ، يعرف
 كيف يخفي مشاعره ، يحيط استعداداته العسكرية بالكتمان ويواري في حملاته بين
 الشرق والغرب ، جسور في ميادين القتال ، يلقي بنفسه في مقدمة الجيوش تشجيعاً
 للجنود ، ويحافظ علي هدوء أعصابه واعتداله عند اللزوم . وعلاوة علي ما تقدم ، فقد
 كان الفاتح عالماً وشاعراً يجيد عدد من اللغات المعاصرة ، وصاحب فكر حر بعيد عن
 التعصب ، يدعو العلماء لمجالسه ويدير مناقشاتهم العلمية باقتدار وثقة ، يحمي العلماء من
 كافة الاتجاهات ويرعاهم ، بحيث كان كلما سمع بعالم فاضل في أي مكان حرص علي
 دعوته لإستانبول بكل وسيلة^{١٨١} .

ومن ناحية أخرى ، فقد حرص السلطان محمد الفاتح علي جعل استانبول
 مدينة عالمية ، فنقل إليها العديد من الأسرات التركمانية الموجودة في الأناضول
 والأسرات التي دخلت الإسلام من الممالك البلقانية المفتوحة ، وزينها بالعديد من
 المؤسسات الثقافية والاجتماعية المختلفة ، فاستحدثت مدارس " صحن ثمان " الشهيرة،
 ومدارس الـ " تنمه " . وأمر بتدوين القوانين العثمانية التي كانت تطبق حتي عصره
 تحت اسم " قوانين آل عثمان " ، حيث أضاف إليها القوانين التي صدرت في عهده تحت
 اسم " فاتح قانون نامه سي " .

وفي عصره اتخذ محمد الفاتح قرارات ثلاثة حول الأوقاف وأراضي الدولة ثار
 حولها جدل كبير . أولي هذه القرارات ، استحداث قانون تعيين وعزل موظفي وخدم

¹⁸¹ بخصوص جوانب شخصية السلطان محمد الفاتح ، أنظر : Halil İnalcik, "Mehmed II.", IA, VII/534-535; Ekrem H. Ayverdi, " Fatih", Türkler, IX/338-354

الأوقاف بقرار من الديوان الهمايوني وبصدور براءة من السلطان نفسه ، وكانت قبل ذلك يتم وفقاً لرغبة متولي الوقف . أما القرار الثاني ، فيتمثل في وضع قاعدة إصدار براءات مقيدة في دفاتر تحرير الأراضي المعروفة باسم " طاپو " توجه لأصحاب مقاطعات التيمار والزعامت ، وتحتوي علي أسمائهم وأسماء قراهم وقيمة واردات المقاطعة السنوية ؛ والقرار الثالث كان مصادرة قسم كبير من الأوقاف والأملاك لخزينة الدولة ، وذلك بسبب أن الكثير من الأراضي الميرية قد تحولت إلى أوقاف أو أملاك خاصة ، الأمر الذي أدى إلى نقص أعداد جنود سپاهية التيمار وإلى قلة دخل خزينة الدولة في نفس الوقت^{١٨٢} .

وكان لمحمد الفاتح ثلاث أبناء هم وفقاً لترتيب الأكبر سنأ بايزيد ومصطفى وجم ، توفي مصطفى في ديسمبر ١٤٧٤ / شعبان ٨٧٩ ؛ وعين بايزيد علي سنجقية أماسيا وجم علي سنجقية قرمان .

¹⁸² بخصوص الإصلاحات الإدارية والمالية وما تعلق بها من القوانين التي صدرت في عهد محمد الفاتح

: Ahmed Akgündüz, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tahilleri, I. cilt, İstanbul 1990, s.305-308 vd.

الدولة العثمانية في عهد

بايزيد الثاني

(١٤٨١-١٥١٢م / ٨٨٦-٩١٨هـ)

توفي محمد الفاتح وترك ولدان ، الأكبر هو بايزيد والأصغر جم . وكان بايزيد والياً علي ولاية الروم ومركزها مدينة آماسيا ، أما جم فكان والياً علي ولاية قرمان التي مركزها قونية . وكان بايزيد يبلغ من العمر عند وفاة والده ٣٤ عاماً ، في حين أن جم لم يكن يتجاوز عمره آنذاك ٢٣ عاماً فقط . وكان كل منهما قد تلقى تعليماً عالياً وتربية سلطانية راقية .

فعلي الرغم من وضع محمد الفاتح القوانين لإدارة كافة شئون الدولة ، تحدد صلاحياتها وتنظم علاقاتها ، إلا أن مثل هذه القوانين لم تنطبق إلي وضع قاعدة يمكن من خلالها تحديد من يتولي الحكم بعد السلطان المتوفي . واكتفت هذه القوانين بالتأكيد علي القاعدة القديمة التي تعطي لمن تكون السلطنة من نصيبه الحق في التخلص من اخوته لتأمين الاستقرار في البلاد ، أو لتحقيق ما أشار إليه القانون باسم " نظام العالم " . وهكذا ، خضع التمكين لأحد أبناء السلطان لعاملين لا ثالث لهما خلال هذه الفترة : العامل الأول : اتفاق أركان الدولة وقبولهم بأحد أبناء السلطان ليكون ولياً للعهد . العامل الثاني : رغبة الحرس الخاص للسلطان أي فرقة الكيچري^{١٨٣} .

وكان الوزير الأعظم قرماني محمد باشا والوزير الأعظم السابق كديك أحمد باشا يؤيدان الأمير جم ، بينما كانت فرقة الكيچري تؤيد الأمير بايزيد . والحقيقة أنه في الوقت الذي كان فيه الوزير الأعظم يبدي موافقته لرأي بقية رجال الدولة والجند الذين كانوا يفضلون استدعاء بايزيد ليتولي السلطنة ، قام بإرسال أحد رجاله الأوفياء إلي جم

¹⁸³ بخصوص مشكلة اعتلاء العرش العثماني ، وما جاء بقانون نامه الفاتح وعلاقته بالأعراف

التركمانية وكيفية تطبيقها خلال أولياء العهد العثماني ، أنظر : M. Aknan, Osmanlı

Devletinde Kardeş Katli, İstanbul 1997

سلطان الذي كان يقيم في ولاية أقرب إلى استانبول يدعوه أيضاً . إلا أن أحد أتباع بايزيد استطاع القبض علي هذا الرسول وقتله . فلما علم جند الكيجري (بني جري) بالخبر ، قاموا بقتل الوزير الأعظم قرمان محمد باشا ، وأعلنوا العصيان . وقد استمرت القلاقل في انحاء استانبول حتي وصول بايزيد إلى مركز الدولة ، وجلسه علي العرش ، وأعلانه سلطاناً علي البلاد في ٢٠ مايو ١٤٨١ / ربيع الأولي ٨٨٦^{١٨٤} .

ولما علم جم سلطان بمقتل الصدر الأعظم أسرع بالتوجه إلى بورصة ، حيث استقبله أهلها استقبالاً حافلاً ، واستطاع هناك تشكيل قوة تمكن بها من هزيمة الحملة التي جردها بايزيد ضده في ٢٨ مايو ١٤٨١ / ٢٠ ربيع الأول ٨٨٦ . وهكذا ، قام بضرب عملة فضية تحمل اسمه ، وأمر بقراءة الخطبة بإسمه أيضاً في عاصمة الدولة القديمة بورصة معلناً سلطنته علي البلاد أيضاً .

وإذا كان جم سلطان قد أرسل إلى أخيه يدعوه لتقسيم الممالك العثمانية بينهما ، علي أن يكون جم في الأناضول وبايزيد في الروميلي ، إلا أن بايزيد لم يقبل هذا الاقتراح ، وأسرع بتجريد حملة أخرى خرج بنفسه علي رأسها ، حيث التقى الطرفان بالقرب من يكي شهر في ٢٠ يونيو / ٢٢ ربيع الأولي . لم يصمد جم أمام بايزيد طويلاً ، حيث هزم وفر إلى أسكيشهر جريحاً ، ومنها توجه إلى قونية ، ثم رحل إلى الشام بعد ذلك ملتجئاً للسلطان المملوكي قايتباي (٢٥ أغسطس / ٢٠ جمادي الثاني) . وأثناء وجود جم في مصر ، حاول بايزيد استمالته ، وذلك بدعوته للتخلي عن المطالبة بحقه في السلطنة مقابل تخصيص مبلغ مليون أقچه سنوياً ، إلا أن جم رفض هذا العرض أيضاً .

ومن ناحية أخرى ، أتاح الصراع علي العرش بين جم وبايزيد الفرصة لقاسم بك ابن قرمان لاستعادة أملاك آبائه ، حيث أمده حاكم أقي قويونلي أوزون حسن بجيش استطاع به الوصول إلى قونية ولارنده ومحاصرتهما ، إلا أنه أجبر علي التراجع إلى

¹⁸⁴ أنظر في هذا الخصوص : Ş.Tekindağ, "Bayezid II.'nin Tahta Çıkışı : Sırasında İstanbul'da Vukua Gelen Hadiseler Üzerine Notlar", Tarih Dergisi, X/14, 1959, s. 85-96

طرسوس ، حيث فر منها إلى الحدود المملوكية . وفي الوقت الذي أرسل فيه قاسم بك رسالة إلى جم سلطان يدعوه فيها للإتفاق ضد بايزيد بشرط إعادة أملاك القرمانيين إليه ثانية ، أرسل إليه كديك أحمد باشا يدعوه للعودة للأراضي العثمانية ويخبره بأن الرعايا ينتظرونه . وهكذا ، دفعت هذه التطورات جم لمغادرة الأراضي المملوكية في أوائل مايو ١٤٨٢ / ربيع الأولي ٨٨٧ ، فالتقي بقاسم بك في أدنه ، وخرجوا في حملة مشتركة صوب قونية وشرعا في محاصرتها في يونيو/ ربيع الآخرة . وكما عجزا الحليفين عن فتح قونية ، سمدت أمامهم حصون أقسراي .

وقوع جم سلطان في الأسر : ومرة أخرى رفض جم سلطان عرض أخيه

بايزيد بالإقامة في القدس مع تخصيص معاش سنوي له . عندئذ أرسل السلطان العثماني إليه هرسك زاده أحمد باشا للقبض عليه في نواحي طاش إيلي ، إلا أن جم استطاع الفرار إلى جزيرة رودس في ١٦ يولية ١٤٨٢ / ٢١ جمادي الأول ٨٨٧ . وبذلك سقط جم سلطان في يد أوروبا التي لم تتردد في استخدامه كسلاح ضد العثمانيين لفترة تمتد لأكثر من أربعة عشر عاماً .

وفي الوقت الذي راح فيه أمراء رودس يطمننون جم ويعدون له بتقديم المساعدة والدعم اللازم له للوصول إلى الروميلي عبر بلاد البحر ، اتصلوا ببايزيد واتفقوا معه سراً على حجز جم لديهم مقابل تقديم مبلغ قدره ٤٥ ألف دوقه ذهبية سنوياً . والحقيقة أن أمراء رودس لم يترددوا في نقد هذين التعهدين ، حيث اتصلوا بفرنسا سعياً لإبعاد الأمير الأسير إليها (أول سبتمبر ١٤٨٢ / ١٧ رجب ٨٨٧) . وقد بقي جم سلطان أسيراً في فرنسا لمدة سبع سنوات حتي مارس ١٤٨٩ / جمادي الأولي ٨٩٤ .

أراد بابا روما اينوسان الثامن استعمال جم سلطان لإعلان حرب صليبية علي العثمانيين ، فعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا شارل الثامن تم بموجبه تسليم جم للبابا ، ومكافئة رئيس فرسان رودس بمنحه درجة الكاردينال . وإذا كان بابا روما قد دعي جم سلطان لإعتناق المسيحية ، حيث عرض عليه تنصيبه ملكاً علي أوروبا ، وقيادة كل ملوكها لاستعادة أملاك أجداد ، إلا أن جم سلطان رده بقوله : " أنه لا يترك دينه من أجل

صراع علي الدنيا .. " . وهكذا ، استجاب البابا لسعي بايزيد لتجديد اتفاقية حجز جم سلطان مقابل دفع ٤٠ ألف دوقه ذهبية سنوياً . ولما مات اينوسان في ١٤٩٢م / ٨٩٧هـ ، عرض البابا الجديد علي بايزيد الاستمرار في إرسال مصاريه جم أو دفع مبلغ قدره ٣٠٠ ألف ذهبية مقابل قتل جم ، فأرسل بايزيد موافقته علي الاقتراح الأخير . وإذا كان ملك فرنسا قد أراد استعادة جم من البابا الجديد والتوجه به إلي القدس في حرب صليبية جديدة ، إلا أن مرض جم وموته السريع في ٢٥ فبراير ١٤٩٥ / ٢١ جمادي الأولي ٩٠٠ ، أحبط هذه المحاولة^{١٨٥} .

فتح مدينتي حلي وأق كرماني . وإخضاع البغدان :

لقد خضعت أكثر سواحل البحر الأسود للعثمانيين ، غير أنه كان هناك بعض المواضع التجارية الإستراتيجية الهامة بقيت خارجة السيطرة العثمانية . ولذلك ، سعي السلطان بايزيد للخروج في أول حملة له إلي البغدان للسيطرة علي تلك المناطق (١٤٨٤م / ٨٨٩هـ) . فقام بمحاصرة مدينة كييلي من البر والبحر حتي سلمت بعد تسعة أيام في ١٥ يولييه / ١٢ جمادي الآخرة . ومن هناك تحركت الجيوش العثمانية إلي قلعة آق كرماني في منطقة بسارايا ، حيث انضمت إليها قوات خان القرم منغلبي كراي ، فأحكمت الحصار عليها حتي فتحت في ١١ أغسطس ١٤٨٤ / ١٠ رجب ٨٨٩ . وهكذا ، استطاع العثمانيون السيطرة علي الطريق الممتد بين دوبروجه ونهر طونه ، وفتح الطريق الذي يربط البحر الأسود بنهر بروط ، ومن ثم أمكن تأمين مواصلات خان القرم مع الدولة .

وإذا كان أمير البغدان قد حاول استعادة آق كرماني ، إلا أن الحملة التي جردها الدولة في أيلول ١٤٨٥ / شعبان ٨٩٠ ، أجبرته علي الفرار إلي ملك لهستان ، الأمر الذي

^{١٨٥} حول صراع بايزيد جم علي العرش ، واقعة أسر جم سلطان ومحاولات بايزيد للقبض عليه ، ومحاولات أوروبا للاستفادة منه للضغط علي الدولة العثمانية ، وأثر حجزه علي توقف فتوحات الدولة علي مدي اثني عشر عاماً ، أنظر : M.H.Şakiroğlu, "Cem Sultan", DIA, VII/284; keza bk. S. Tansel, Sultan II. Bayezid'in Siyasî Hayatı, İstanbul 1966, s. 43-52; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/165-174

مكن العثمانيون من اخضاع البغدان نفسها أيضاً . والحقيقة أن محاولات أمير البغدان للعودة إلى بلاده لم تتوقف حتى قبل النفوذ العثماني ، وعقد اتفاق تبعية أرتضي بموجبها دفع خراج سنوي قدره أربعة آلاف ذهبية ، وتعهد بعدم الخروج علي الدولة في أية مواجهة أوروبية^{١٨٦} .

المواجهة بين العثمانيين والمماليك :

كانت العلاقة بين الدولتين الإسلاميتين السنتين قد اضطربت منذ استقبال السلطان المملوكي للأمير جم سلطان ودعمه ، حيث قامت الدولة العثمانية من جهتها بدعم أمير ذوالقدر في محاصرته للملاطية التابعة للمماليك والحاق الهزيمة بالقوات المملوكية علي الحدود بين الطرفين (١٤٨٤م / ٨٨٩هـ) . وإذا كان قد أمكن رآب الصدع من خلال تبادل السفراء بين الدولتين ، واعتراف السلطان قايتباي بالأراضي الموجودة تحت يد السلطان العثماني والتوصية بإرسال الخليفة العباسي بمصر لمنشور السلطنة للسلطان بايزيد ، إلا أن معاملة السفير المملوكي معاملة سيئة علي الحدود ، وتعديات القوات العثمانية علي الأراضي المملوكية واحتلالها بعض القلاع هناك ، كان سبباً لنشوب المواجهة العسكرية المباشرة بين الطرفين لأول مرة (١٤٨٥م / ٨٩٠هـ)^{١٨٧} .

لقد استمرت الحرب علي الحدود بين الطرفين نحو خمس سنوات (١٤٨٥-١٤٩٠م / ٨٩٠-٨٩٥هـ) ، حيث تمكنت القوات المملوكية خلالها من هزيمة عدة جيوش عثمانية ، واستعادت القلاع التي كان العثمانيون قد استولوا عليها . وإذا كان بايزيد قد جرّد حملة تحت قيادة أمير أمراء الأناضول هرسك زاده أحمد باشا للسيطرة علي كيليكيا واستعادة تلك القلاع الحدودية ، إلا أنه هزم أيضاً وسقط أسيراً في يد

¹⁸⁶ فيما يتعلق بفتوحات بايزيد الثاني في البغدان ، أنظر : Viorel Ponoite, “Osmanlı

Hakimiyetinin Tuna Nehri’nin Kuzeyinde Yayılışı XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan”, Türkler, IX/206-218;

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/181-184

Ş.Tekindağ, “ II. Bayezid Devri’nde Çukurova’da Nüfus ¹⁸⁷

Mücadelesi ve İlk Osmanlı Memlûk Savaşları”, Belleten,

XXXI/123, 1969, s.345-373

المماليك في ١٤٨٦م / ٨٩١هـ . وقد تمكنت القوات المملوكية من إلحاق هزيمة أخرى بالجيش العثماني عند أطنه في ١٧ أغسطس ١٤٨٨م / ٨ رمضان ٨٩٣ ، حيث تمكنت من استعادة المدينة في أول إبريل ١٤٨٩م / آخر صفر ٨٩٤ .

أما المواجهة الأخيرة بين العثمانيين والمماليك فكانت بسبب تحول أمير ذوالقادر علاء الدولة عن العثمانيين واتفاقه مع المماليك . ولذلك قامت الحكومة العثمانية بتعيين شاه بوداق الموجود في استانبول بدلاً منه . وإذا كانت الإدارة العثمانية قد عجزت عن تمكين شاه بوداق من حكم بلاده بعد العديد من المواجهات بين الطرفين ، فقد دفعت الضائقة المالية وحركة عصيان الجند ، دفعت السلطان المملوكي لقبول وساطة سفير تونس بين الطرفين . وأخيراً ، تم تبادل الأسري ، وأعيدت ولايات أطنه وطرشوس للمماليك نظراً لأنها كانت موقوفة علي الحرمين الشريفين (إبريل ١٤٩١م / جمادى الآخرة ٨٩٦) . وهكذا ، استمرت حالة السلام بين الطرفين لما يقرب من خمسة عشر عاماً أخرى^{١٨٨} .

المواجهات العثمانية لمسلمي الأندلس :

لقد كان إرسال مملكة بني الأحمر سفيرها للدولة العثمانية طلباً للمساعدة علي مواجهة الضغوط الأسبانية ضد المسلمين في آخر معاقلهم بالأندلس (١٤٨٦م / ٨٩١هـ) ، وعدم قدرة الإدارة العثمانية علي تقديم المساعدات اللازمة لتحسين أوضاع المسلمين هناك ، سبباً في تفكير الإدارة العثمانية الجدي لتطوير البحرية

¹⁸⁸ لتفصيلات أكثر حول علاقة إمارة ذوالقادر بكل من الدولتين السنييتين المملوكية والعثمانية ، أنظر

R. Yınanç, Dulkadir Beyliği, Ankara 1989, s.33-69; Ş. Tekindağ, "II. Bayezıt Devrinde Çukurova'da Nüfuz Mücadelesi İlk Osmanlı Memlûklü Savaşları (1485-1491), Belleten, c.XXX. s. 368 vd.; S. Tansel, "Yeni Kaynak ve Vesikalar Karşısında Sultan II. Bayezid Hakkında Bazı mutala'alar", Belleten, c.XVII, sy. 106, s.44-57

العثمانية^{١٨٩}. فعلى الرغم من أنه لم يكن لدى العثمانيين حتى هذا التاريخ القواد البحريين المهرة الذين يمكنهم قيادة حروباً كبرى في أعالي البحار ، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا مستمرة في تهديد بايزيد باطلاق سراح أخيه جم سلطان من الأسر، لم تترد الدولة العثمانية في إرسال أسطولها تحت قيادة كمال رئيس لضرب السواحل الأسبانية ومساعدة المسلمين المهاجرين في الانتقال إلى مختلف الموانئ العثمانية شرقي البحر المتوسط^{١٩٠}.

¹⁸⁹ لقد شهد عهد بايزيد الثاني تطوراً كبيراً في البحرية العثمانية ، حيث أنشأت عدة أساطيل ضمت سفن من أنواع بارجة وقادرغه وقاليته وماونه وقاليون ، علاوة على سفن المدفعية . ولما تم تعيين كمال رئيس قائداً للبحرية العثمانية في ١٤٩٤م / ٨٩٩هـ ، أعطي لهذه الأساطيل فعالية خاصة ، حيث تمكن من تشكيل حيل جديد من البحارة العثمانيين المدربين تدريباً حسناً ، وقام بتدريب الراغبين من رعايا الدولة في الولايات الساحلية غربي الأناضول وسكان الجزر العثمانية للعمل كبحارة في الأسطول العثماني . وبذلك استطاع كمال رئيس الوصول بالبحرية العثمانية إلى درجة منافسة القوة البحرية للندقية : **Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilatı, Ankara , s.344 Vd.**

¹⁹⁰ تشير الدراسات الحديثة أنه وصل للبلاط العثماني من الأندلس عدد من السفراء خلال عهد محمد الفاتح ١٤٧٧م لطلب المساعدة على التصدي لتعدييات الأسبان ، ودعم المسلمين في هذه البلاد البعيدة ، فكانت هذه أول سفارة إلى العثمانيين لهذا الغرض . ولما كانت الدولة العثمانية تخوض حرب الستة عشر عاماً (١٤٦٣-١٤٧٩م) لم تتمكن من إرسال المساعدات الضرورية . ولذلك تكررت هذه الاستغاثات سواء إلى الدولة العثمانية خلال عهد بايزيد الثاني أو إلى الدولة المملوكية خلال عهد قانصوه الغوري ، إلا أن المساعدات المرسله كانت متواضعة للغاية ، واقتصرت على إرسال بعض السفن لنقل المهاجرين المسلمين من بلاد الأندلس إلى شمال أفريقيا . لتفصيلات أكثر في هذا الخصوص، أنظر : **Chakıb Benafri, "Endülüs'te Son Müslüman Kalıntısı Morisko'ların Cezayir'e Göçü ve Osmanlı Yardımı", Hacettepe Ün. Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara 1989, s. 33-52; Mehmet Özdemir, "Endülüs Müslümanlarına Osmanlı Yardımı", Türkler, IX/393-396**

العرب العثمانية - البندقية : لقد دفعت المنافسة بين الجمهوريات

الإيطالية حكومات فلورنسا ونابولي و نابوية علاوة علي إمبراطور ألمانيا إلي تحريض الدولة العثمانية ضد البندقية . وإذا كانت البندقية قد حرصت على تحسين علاقاتها مع العثمانيين لمواجهة هذه التحريضات ، إلا أن مساعدة البنادقة لجون كستريوتا ابن اسكندر بك العاصي في بلاد الأرناؤوط ، وعدم تقديمهم العون لبعض السفن العثمانية التي التجأت لقبرص إثر هبوب عاصفة بحرية عليها ، عوامل حاسمة لإعلان الحرب علي البندقية .

فتح آينه بختي : وهكذا ، صدرت الأوامر لأمير البوسنة بتشديد الهجمات

علي أراضي شمالي البندقية ، وذلك لتمكين الأسطول العثماني للتحرك صوب المستعمرات البندقية في المورة والحيلولة دون وصول المساعدات للبنادقة من الخارج ، وذلك في الوقت الذي خرج فيه الأسطول العثماني (٣٠٠ قطعة بحرية) تحت قيادة القبطان داود باشا بقوة قوامها ستين ألف مقاتل . وفي أول يونية ١٤٩٩ / ٢٠ شوال ٩٠٤ ، خرج بايزيد بنفسه متوجهاً إلي المورة ، حيث أصدر أوامره لقوجه مصطفى باشا بالتوجه لمحاصرة آينه بختي من ناحية البر . وكان الأسطول البندقي يرسو علي سواحل مودون تحت قيادة الأميرال أندريه ، حيث تمكن من إغلاق ميناء آينه بختي بنحو ١٥٠ قطعة بحرية .

ولما وصل الأسطول العثماني وقعت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بمقتل بعض قواد الأسطول البندقي ، الأمر الذي أجبر الأميرال اندريه في البداية للانسحاب إلي قورفو . وعلي الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها العثمانيون في هذه المعركة البحرية، إلا أنها أكدت التفوق العثماني في البحر المتوسط ، وأجبرت قائد قلعة آينه بختي علي تسليم مفاتيحها عقب انسحاب الأسطول البندقي ، ودخل العثمانيون المدينة الإستراتيجية في أغسطس ١٤٩٩ / محرم ٩٠٥ .

فتح مودون وقودون ونوارين : لقد كان خروج ميناء هام كآينه بختي

من يد البندقية بدايةً مرحلة جديدة من مراحل تطور البحرية العثمانية ، حيث شعرت

جمهورية البندقية بالضعف لأول مرة ، وبعدم قدرتها علي تحمل تبعات الحروب المستمرة والطويلة مع العثمانيين ، فأرسلت سفرائها إلى الدولة العثمانية تعرض لتجديد الصلح بين الطرفين ، إلا أن السلطان العثماني حدد شرطين للصلح المزمع هما : تسليم مدن مودون وقورون ونوارين ، ودفع الخراج السنوي للعثمانيين. وكان رفض البنادقة لهذه الشروط إعلاناً عن إستئناف الحرب بين الطرفين مرة أخرى.

وبذلك ، صدر الأمر ليعقوب باشا بالخروج علي رأس الأسطول العثماني ، فقام بمحاصرة مودون ، ثم خرج السلطان في إبريل ١٥٠٠ / رمضان ٩٠٥ ، حيث كانت قوات الروميلي والأناضول تحاصر المورة منذ أكثر من شهر . وأخيراً تمكن العثمانيون من فتح قلعة مودون في ١٠ أغسطس ١٥٠٠ / ١٤ محرم ٩٠٦ . وفي الوقت الذي صدرت فيه الأوامر بترميم القلعة المفتوحة ، كلف خادم علي باشا بالتوجه إلى قورون من البر والقبطان داود باشا بالوصول إليها عن طريق البحر . وفي طريقه إلى قورون تمكن خادم علي باشا من فتح ميناء نوارين سلماً وبدون حرب ، حيث سلمت قورون أيضاً في ١٦ أغسطس / ٢٠ محرم ٩١١ .

حرب صليبية جديدة : بينما كان بايزيد يرسل رسائل فتح (فتحنامه لر) ابنه بخي ومودون وقورون ونوارين إلى الدول الإسلامية والدول الأوروبية ، كانت البندقية تحت هذه الضربات الموجعة تسعى لطلب المساعدات من إمبراطور ألمانيا والبابوية وإنجلترا وفرنسا وأسبانيا وناپولي ولهستان وطانجر ، حيث قام البابا في هذه المرة بتحريض دول أوروبا لإعلان حرب صليبية ضد العثمانيين لإنقاذ البندقية . وبالفعل ، عقدت البندقية اتفاقية دفاع مشترك مع البابوية وطانجر ، حيث تقرر أن تقوم طانجر بمواجهة العثمانيين في الجبهة البرية وتقوم البابوية والدول البحرية الأخرى بمواجهتها في البحر . تحركت أساطيل الحلفاء في خريف ١٥٠٠ م / ٩٠٦ هـ ، فقام الأسطول البندقي بالإستيلاء علي جزيرة أكينه والأسطول الأسباني علي جزيرة كفالونيه ، ورسى

191 حول العلاقات العثمانية البندقية خلال عهد بايزيد الثاني ، أنظر : Uzunçarşılı,

الأسطول الفرنسي عند قلعة زانتا ، واقتربت أساطيل أركون وسيجاليا من جزيرة قورفو، وقامت أساطيل الحلفاء بمحاصرة جزيرة ميديللي . ولما وصلت هذه الأخبار إلي استانبول ، أرسلت الرسل إلي ولايات الدولة المختلفة ، وأعد بسرعة السرب أسطول مكون من ٣٠٠ قطعة بحرية خرجت تحت قيادة هرسك زاده أحمد باشا ، حيث وصل لجزيرة ميديللي في أكتوبر ١٥٠١م/ ربيع الآخرة ٩٠٨ . وفي المواجهة التي وقعت بين الطرفين ، وأثناء الهجوم الأخير الذي شنه الحلفاء علي الجزيرة ، قتل ابن شقيق ملك فرنسا ، وتراجعت سفن فرسان رودس ، وهبت عاصفة أدت لغرق الأسطول الفرنسي ملحقه الهزيمة بأساطيل الحلفاء .

والحقيقة أنه علي الرغم من أن المجر كانت قد عقدت مع الدولة العثمانية معاهدة مدتها ثلاثين عاماً ، إلا أنهم دخلوا الحلف الصليبي مقابل تقديم البندقية لبلغ ٤٠٠ ذهبية سنوياً للملك المجر . وفي الوقت الذي كان فيه قائد المهاجمين علي الجبهة المجرية البرية ابن أورانوس يفتح مدينة دراج في ١٥٠٢/ ٩٠٨هـ ، ويتمكن والي البوسنة إسكندر باشا من فتح عدد من القلاع المجرية ، راح ملك المجر يوحد جبهة أمراء ترانسلفانيا وطمشوار وبلجراد ، ويقودهم في شن الهجمات علي غرطونه وتخريب ويدين ونكبولي .

الاتفاق العثماني - البندقي - المجري : لم تُقصر دول التحالف

الصليبي في مواجهة العثمانيين في البر وفي البحر ، ولكن عدم مقدرة البندقية علي تحمل أعباء الحرب المستمرة دون نتيجة مثمرة دفعها لطلب الصلح من العثمانيين . وفي المقابل ، لم يتردد العثمانيون في قبول الصلح نظراً لظهور الخطر الشيعي في شرقي الأناضول وللأوضاع المضطربة في أنحاء البلاد . وأخيراً ، وفي ١٤ ديسمبر ١٥٠٢/ رجب ٩٠٨ ، وقعت البندقية مع الدولة معاهدة سلام ، أهم ما جاء فيها من بنود :

١. تنازل البندقية عن ابنه بخي ومودون وقورون ، والاعتراف بفتح مدينة دراج التي انتزعت من بلاد الأرناؤوط .
٢. احتفاظ البندقية بجزيرة كفالونيا وإعادة جزيرة ستامورا للعثمانيين .

٣. تبادل الأسري بين الطرفين .

٤. دفع البندقية مبلغ قدره عشرة آلاف دوقه ذهبية سنوياً للخزينة العثمانية .

وفي ٢٠ أغسطس ١٥٠٣ / ربيع الآخرة ٩٠٩ ، وقعت الجمر معاهدة سلام

أخري مع الدولة ، كان أهم بنودها :

١. اعتراف الحكومة العثمانية بحكم ملك الجمر لمناطق اسكولوفانيا ، مورافيا، سيليزيا

ولوزاسي .

٢. اعتراف ملك الجمر بالمناطق التي فتحها المهاجمون العثمانيون علي الحدود الجمرية.

٣. إطلاق الحرية التجارية بين الطرفين^{١٩٢} .

ظهور الخطر الصفوي الشيعي في الأناضول :

تنتسب الأسرة الصفوية إلي الشيخ صفي الدين الأردبيلي جد الشاه إسماعيل

الذي انتسب بدوره إلي إبراهيم زاهد جيلاني مؤسس الطريقة الخلوتية . استطاع الشيخ

حنيد ابن صفي الدين ثم ابنه الشيخ حيدر قيادة متصوفة أردبيل وصنع دعوتهم بالصبغة

السياسية ، حيث تمكن إسماعيل بن حيدر من تحقيق مكاسب سياسية سريعة خلال الفترة

ما بين ١٥٠٢-١٥٠٧م / ٩٠٧-٩١٣هـ ، فاستولي علي إيران والعراق وأذربيجان

حتي وصل إلي ديار بكر وخربوط معلناً قيام الدولة الصفوية الشيعية .

وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لفتنة الشيخ بدر الدين محمود الباطني

خلال عهد محمد جلبي (١٤١٣-١٤٢١م / ٨١٦-٨٢٤هـ) . وإذا كانت الدولة قد

استطاعت القضاء علي فتنته في الأناضول والرومي في وقتها ، إلا أن هذه الطائفة

العلوية التي لبست رداء التصوف في الدولة راحت توطد علاقاتها مع متصوفي أردبيل

الشيعية . وهكذا ، راح الشاه إسماعيل يرسل دعائمه إلي الأناضول ليوطد علاقته بكافة

الطوائف العلوية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، حيث أمر مؤيديه في تلك المناطق

بارتداء قلنسوة حمراء اللون ، فعرفوا منذ ذلك الحين بإسم "قزلباش" . والحقيقة أن هناك

¹⁹² فيما يتعلق بالمواجهات العثمانية - البندقية والعثمانية - الجمرية ، أنظر : Uzunçarşılı,

أسباب ساعدت علي تفاقم الخطر العلوي الشيعي في الأناضول في أواخر عهد بايزيد الثاني يمكن حصرها فيما يلي :

١. ترك بايزيد شئون البلاد لوزراءه ، ورغبته في الإنزواء .

٢. عدم مبالاة وكلاء الدولة في مواجهة التطورات التي كانت تحدث في شرقي الأناضول .

٣. إنشغال أبناء بايزيد ورجال الدولة وجنودها بتأييد المتنافسين علي خلافة بايزيد علي عرش السلطنة .

لم يضع الشاه إسماعيل هذه الفرصة ، حيث أرسل أحد دعاة ويدعي نور علي خليفة إلي الأناضول . استطاع نور علي خلال وقت قصير جمع نحو أربعة آلاف من الميردين هزم بهم فرقة عثمانية خرجت لمواجهة ، حيث تمكن من احتلال مدينة توقات والأمر بقراءة الخطبة باسم الشاه الصفوي فيها . وكان أحد خلفاء الشيخ حيدر والد الشاه إسماعيل ويدعي قره بيقلي أوغلي ، وعرف في التاريخ العثماني باسم " شاه قولي " أو " شيطان قولي " ، كان قد استطاع جذب الكثير من الميردين الذين التفوا حوله ، وتمكن بهم من السيطرة علي أنحاء مختلفة من الأناضول والروميلى، فهاجم مغنيسا وسيطر علي انطاليا (١٥٠٩م / ٩١٥هـ) ، وحاصر كوتاهيه (إبريل ١٥١١ / محرم ٩١٧) ، فألحق الهزيمة بالعديد من الحملات التي جردتها الدولة ضده . وإذا كان علي باشا استطاع هزيمة شاه قولي وأتباعه وقتله في المعركة التي وقعت بينهما في يولية ١٥١١ / ربيع الآخرة ٩١٧ ، إلا أن محاولات الشاه إسماعيل الصفوي في التأثير علي العشائر التركمانية ونشر المذهب الشيعي بينها والسيطرة علي الأناضول لم تتوقف^{١٩٣} .

^{١٩٣} فيما يتعلق بمحاولات الدولة الصفوية بنشر المذهب الشيعي في الأناضول ، انظر : Begset

Karaca, "Safevî Devleti'nin Ortayay Çıkışı ve II. Bayezid Dönemi Osmanlı-Safevî İlişkileri", Türkler, XI/409-417; Ahmed Taksay, "II. Bayezid Döneminde Osmanlı-Safavî İlişkileri", Türk Yurdu, Aralık 1999- Ocak 2000; Yüsuf Küçükdağ, "Osmanlı Devletinin Şah İsmail'in Anadolu'ya Şiileştirme Çalışmalarını Engellemeye Yönelik Önlemleri", Osmanlı, Ankara 1999, c.I,

تأجج مشكلة ولاية العهد :

كان للسلطان بايزيد ثمانية أبناء هم عبد الله ، وشاهنشاه ، وعلمشاه ، ومحمود ، ومحمد ، وأحمد ، وقورقود ، وسليم . مات أكثرهم في حياة أبيهم ، ولم يبق منهم سوى شهنشاه صغير السن ، وقورقود وكان والياً علي مغنيسا ، وأحمد وكان والياً علي أماسيا ، وسليم وكان والياً علي طرابزون . وكان الشهزاده أحمد هو أكبر أبناء بايزيد وأحبهم إليه ، حيث كان السلطان يعدّه لتولية السلطنة من بعده ، كما كان الوزير الأعظم علي باشا يؤيده في ذلك . ولذلك ، حرص الشهزاده أحمد علي إبعاد أخويه الآخرين عن مركز السلطنة ، فكان سبباً في نقل أخيه قورقود من سنجقه القريب في مغنيسا إلي أنطاليا ، الأمر الذي أغضب قورقود ، ودفعه للفرار إلي مصر بدعوي أداء فريضة الحج (إبريل ١٥٠٩ / محرم ٩١٥) . ولما عاد للأراضي العثمانية توجه إلي سنجقه القلم في مغنيسا ليكون قريباً من استانبول (١٥١٠م / ٩١٦هـ)

وكما وصلت الأخبار حول نية السلطان بايزيد لترك السلطنة لإبنه المفضل أحمد إلي قورقود فطالب بإمارة قرية من إستانبول ، وصلت هذه الأخبار أيضاً إلي الشهزاده سليم . فكان سليم دائم المراقبة لتحركات أخويه أحمد وقورقود نظراً لبعده ولايته طرابزون الشديد عن مركز الدولة في استانبول . ولذلك ، طالب سليم الإنتقال لسنجق في منطقة الروميلي ، حيث توجه إلي هناك رغبة منه في مقابلة أبيه وعرض طلبه عليه . وإذا كان الشهزاده أحمد قد طلب من أبيه القيام بتأديب كل من قورقود الذي توجه إلي مغنيسا وسليم الذي توجه إلي الروميلي بدون إذنه ، إلا أن بايزيد زجر إبنه أحمد ، ولم يسمع لقوله .

s.269 vd.; Nejat Birdoğan, Alevîlerin Büyük Hükümdarı Şah İsmail, Hatai 1991, s.44-57; Faruk Sümer, Safevî Devletinin Kuruluşu ve Gelişmesinde Anadolu Türklerinin Rolü, Ankara 1976, s. 51-56; Ş. Tekindağ, "Şahkulu Baba Tekeli İsyanı", Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sy. 3-4, Ankara 1967

وكان رجال الدولة يخافون من شدة الشهزاده سليم وصرامته ، ويميلون لأحمد نظراً لإعتداله ولطفه ، ولذلك حرص سليم على إعداد قواته لمواجهة حاسمة يمكن أن تقع مع أخويه ، حيث كانت فرق اليكيچري تؤيده لتولي السلطنة خلفاً لبازيد . وبتحريض من رجال الدولة خرج بايزيد إلى أدرنه للتصدي لابنه سليم ، إلا أنه أمكن التوصل لاتفاق بين الطرفين يقضي بتعهد بايزيد بعدم تعيين الشهزاده أحمد ولياً للعهد ، وتعيين سليم علي ولاية سمندره في منطقة الروميلي .

وفي الوقت الذي كان فيه سليم يراقب التطورات في استانبول من منطقة فليبه القريبة من استانبول ، وعلي أثر مقتل الوزير الأعظم علي باشا ووفاة الشهزاده شاهنشاه، انزوي بايزيد تماماً عن ممارسة شئون السلطنة ، ودعي رجال الدولة إلى مجلس طارئ ، حيث عرض عليهم رغبته في التزل عن العرش لأحد أبناءه ، فوافق أكثر أهل الديوان علي الشهزاده أحمد . فلما علم سليم بمخالفة أبيه العهد الذي قطعه علي نفسه ، جمع قوة قوامها نحو أربعين ألف رجل ، وسار بهم إلى وادي قاريشتيران في ولاية چورلي، فقام رجال الدولة المؤيدون للشهزاده أحمد بتحريض السلطان علي محاربة ابنه ، حيث وقعت مواجهة بين الطرفين في أغسطس ١٥١١ / جمادي الأولي ٩١٧ انتهت بهزيمة سليم وفراره إلى كفه . وعلي الرغم من أن الوزير الأعظم هرسك زاده أحمد باشا راح يذكر السلطان بايزيد بعهده لأبنائه ويميل الجنود للشهزاده سليم ، إلا أن تأييد بقية رجال الدولة للشهزاده أحمد ، جعل السلطان يسرع بالتوجه إلى استانبول استعداداً لإعلان الشهزاده أحمد سلطاناً علي البلاد في اليوم التالي^{١٩٤} .

تنازل بايزيد عن الحكم للشهزاده سليم ووفاته : وفي آخر ليلة من

شهر سبتمبر ١٥١١ / سلخ جمادي الآخره ٩١٧ اجتمع قادة جند اليكيچري ، وقرروا عدم الاعتراف بأحمد سلطاناً عليهم ، وقاموا بنهب منازل الوزير الأعظم وبعض الوزراء ، وأصروا علي أن يكون سليم ولياً للعهد . ولما علم الشهزاده أحمد بهذه التطورات عاد

¹⁹⁴ بخصوص مرحلة صراع أبناء بايزيد أحمد وقورقود وسليم علي العرش انظر : M. Aknan,

Osmanlı Devletinde Kardeş Katli, İstanbul 1997

إلى الأناضول . وعلى أثر فشل أعداء سليم في تعيين الشهزاده أحمد ، حاولوا جعل قورقود ولياً للعهد بدلاً من سليم ، إلا أنه عندما وصل قورقود إلى إستانبول ، أخبره قواد فرقة اليكيجري بأنهم لا يرتضون إلاّ بسليم سلطاناً عليهم، ووعدوا بعدم التعرض لحياته بأي حال إذا تخلى عن مطالبتة بحقه في السلطنة . وهكذا ، اضطر بايزيد الذي فقد سيطرته على أنحاء البلاد لدعوة سليم إلى إستانبول، حيث استقبله رجال الدولة ، وتوجه للديوان الهمايوني ، فقبل يد أبيه ، ونزل بايزيد عن السلطنة لإبنه الشهزاده سليم في إبريل ١٥١٢ / ٧ صفر ٩١٨^{١٩٥}.

عقب نزوله عن العرش لإبنه السلطان سليم ، توجه بايزيد إلى ديمتوقه ، حيث عُين له معاش قدره ٣٠ حمل أي ٢ مليون أقچه . وقد اصطحبه في رحلته أمير أمراء الروميلي حسن باشا ، وقاسم چلي والطبيب آخي چلي . وقبل أن يصل إلى ديمتوقه توفي فجأة في نواحي پتوري في ٥ يونية ١٥١٢ / ١١ ربيع الأولي ٩١٨^{١٩٦}.

¹⁹⁵ بخصوص الوقائع نتج عنها تولية سليم العرش ، أنظر : Çağatay Uluçay, “Yavuz Sultan Selim Nasıl Sultan Oldu?”, Tarih Dergisi, c. VIII, s. 138; keza bk. Ş. Tekindağ, “Korkut Çelebi ile ilgili İki Belge”, Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sy.17/1969

¹⁹⁶ فيما يتعلق بملاسات وفاة بايزيد الثاني ، أنظر : Ş. Tekindağ, “Bayezid’in

Ölümü Meslesi”, Tarih Dergisi, sy.24, Mart 1976

القيادة العثمانية للعالم الإسلامي عهد ياوز سلطان سليم (الأول) (١٥١٢-١٥٢٠م / ٩١٨-٩٢٦هـ)

لقد حددت التطورات السياسية في شرق الأناضول وشمال أفريقيا والمحيط الهندي خلال عصر السلطان بايزيد الثاني ، حددت الملامح العامة لسياسة الدولة العثمانية خلال عصر السلطان سليم الأول . فكما كانت محاولات نشر المذهب الشيعي بين الجماعات العلوية في الدولة العثمانية سواء في الأناضول أو في الروميلي سبباً في حملات ياوز سلطان سليم علي شرقي والأناضول ثم علي الدولة الصفوية الشيعية حماية للمذهب السني الذي اتخذته الدولة العثمانية مذهباً رسمياً لها منذ ظهورها في الأناضول ، فقد كانت التعديلات الأسبانية علي شمال أفريقيا بعد سقوط آخر ممالك الأندلس وتجاوزات البرتغال في البحر الأحمر والمحيط الهندي وأطماع الصفويين لإحياء المذهب الشيعي في مصر والشام مرة أخرى وعجز دولة المماليك عن مواجهة هذه التحديات الخارجية ، في الوقت الذي نجح فيه إسماعيل الصفوي في عقد إتفاق دفاع مشترك مع قانصوه الغوري ، من أهم العوامل التي دفعت السلطان العثماني الإضطلاع بمهمة الدفاع عن العالم الإسلامي السني ضد الحملات الصليبية في الشمال والجنوب والتوسع الشيعي في الشرق .

توطيد سليف لسلطته علي أرجاء الدولة العثمانية :

لقد كان علي سليم الأول التمكين لحكمة في الممالك العثمانية قبل الخروج في حملات خارجية . فلم يكن اختيار حند اليكيجري للشهزاده سليم سلطاناً علي البلاد ونزول بايزيد الثاني علي رغبتهم نهاية هذه الحلقة من صراع أبناء بايزيد الثاني علي العرش ، بل كان هذا الاختيار سبباً لتأجج هذا الصراع بين الأشقاء الثلاثة . وقد زاد من هذا الصراع وجود مؤيدين سواء من بين رجال الدولة أو من الفرق العسكرية لكل

طرف . ولذلك ، جعل سليم الأول أولي مهامه ، التمكين لسلطته في أنحاء البلاد ، وتنحية كل عوامل اضطراب جبهته الداخلية .

انفراد سليم بالحكم : كان قورقود قد أخذ العهد من فرقة اليكيچري بعدم

المساس بحياته عند جلوس سليم علي العرش . أما الشهزاده أحمد الذي كان أقوى المنافسين فقد توجه إلي قونية ، وأخذ يعد العدة استعداداً لمواجهة أخيه سليم . وفي الوقت الذي كان فيه السلطان الجديد يستقبل السفراء المهينين من المجر والبندقية ومصر وغيرها من الدول ويجدد معاهدات الصداقة معهم ، كان أحمد قد تمكن من السيطرة علي بورصة وأمر بقراءة الخطبة باسمه في مساجدها . ولما أرسل سليم قوة إلي الشهزاده أحمد ، تراجع إلي ملاطية وأرسل إبنه إلي إسماعيل الصفوي يطلب منه المساعدة . وعندما علم سليم بحرص قورقود علي السلطنة أيضاً ، توجه إلي مغنيسا ، وحاصره حتي قبض عليه وأعدم في رمضان ٩١٨هـ / نوفمبر ١٥١٢م .

وبينما كان سليم يقوم بتصفية الجبهة المؤيدة للشهزاده أحمد بإعدام الوزير الأعظم قوجه مصطفى باشا ، قام باستكتاب خطابات من قبل مؤيدين وهميين إلي الشهزاده أحمد يدعونه فيها للعودة لتولي السلطنة . وبالفعل ، خدع الشهزاده بهذه الرسائل ، حيث خرج إلي أماسيا وجمع جنده هناك ، ثم توجه بهم إلي قونية ، ومنها إلي بورصة . وبذلك وقعت المواجهة بينه وبين والي قرمان وأمير أمراء الروميلي عند يكيشهر انتهت بالقبض علي الشهزاده أثناء انسحابه ، حيث أعدم في ٨ صفر ٩١٩هـ / ٥ إبريل ١٥١٣م . وهكذا ، انفراد سليم بالسلطة المطلقة في أنحاء البلاد ، وبدأ في تأمين جبهته الخارجية وجبهته الداخلية^{١٩٧} .

سياسة سليم الشرقية : منذ ظهور العثمانيين في ساحة التاريخ قامت

استراتيجية الفتوحات لديهم علي الغزو والجهاد في أوروبا . ولم تكن مواجهاتهم الأناضولية سوى شكلاً من أشكال الصراع علي بسط النفوذ علي بقية الإمبراطورات

¹⁹⁷ Çağatay Uluçay, “Yavuz Sultan Selim Nasıl Sultan Oldu?”, Tarih Dergisi, c. VIII, s. 138 vd.; keza bk. S. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.3-18; Ahmed Uğur, Yavuz Sultan Selim, s. 19-44

التركمانية . وقد استمرت الجبهة الأوروبية الغربية هي الجبهة الأكثر جذباً لسياسة الدولة العثمانية على مدى قرنين من الزمان ، وحتى العقد الأخير من القرن ٩هـ / ١٥م . والحقيقة أن العالم راح يشهد تحولات جذرية خلال مطلع القرن ١٠هـ / ١٦م كان لها انعكاسات مباشرة على العالم الإسلامي عموماً والشرق الإسلامي بصفة خاصة .

فعلي أثر سقوط آخر ممالك الأندلس في غرناطة في يد الأسبان عام ١٤٩٢م / ٨٩٧هـ ، بدأت حركة هجرة حيرة للمسلمين هناك إلى سواحل شمال أفريقيا ، حيث أخذ الأسبان يتعقبون المسلمين ويتخذون معاقل لهم على طول سواحل الشمال الأفريقي ، حتى وصلت اعتداءاتهم إلى السواحل المصرية في دمياط ورشيد وغيرهما ، كان البرتغاليون قد نجحوا في الإلتفاف حول العالم الإسلامي باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، حيث قاموا بتحويل طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر ومصر إليه وحرموا دولة المماليك من موردها الإقتصادي الأهم ، وقاموا بالتعدي علي مواني البحر الأحمر والمحيط الهندي بالتنسيق مع أمراء رودس الذين راحوا يعتدون أيضاً علي مواني مصر الشمالية .

وفي الوقت الذي لم تتمكن فيه دولة المماليك الآيلة للسقوط من التصدي لكل هذه التحديات ، كانت الدولة الصفوية الشيعية قد كشفت عن طموحاتها في الأناضول والشام ومصر والحجاز وشمال أفريقيا ، وراحت تتعاون مع البنادقة سراً لتنفيذ مخططاتها في مصر والشام ، وتعقد الإتصالات مع أوروبا للنيل من العثمانيين في شرقي الأناضول ، وتتصل بمماليك مصر للتصدي للعثمانيين ، وتحاول نشر المذهب الشيعي في شرقي الأناضول مستفيدة من الطوائف العلوية المنتشرة في الأراضي العثمانية .

وهكذا ، شهدت منطقة الشرق الأوسط سباقاً عالمياً محموماً بين الأسبان والبنادقة والبرتغال والصفويين على الفوز النيل من دولة المماليك حامية الخلافة العباسية السنية والسيطرة على المنطقة بأغراض صليبية أو اقتصادية أو مذهبية . ومن ناحية أخرى ، كان العثمانيون قد استجابوا لطلبات استغاثة المسلمين في شمال أفريقيا للتصدي

لهجمات الأسبان ، ولّبوا احتياجات ممالك مصر لبناء اسطول جديد لمواجهة تعديلات البرتغال في البحار الشرقية والبحر الأحمر ، وراحوا يتخذون التدابير الصارمة للقضاء على المذهب الشيعي في الأناضول .

إذا كان لكل هذه التداعيات دور هام لدفع سليم الأول لتغيير الوجهة الإستراتيجية لحملات الدولة العثمانية ، وتحول تلك الحملات من الغرب إلى الشرق لأول مرة ، فقد كانت التعديلات الشيعية على الأناضول والصراع المملوكي العثماني على إمارة ذوالقدر الحدودية والإتفاق الصفوي - المموكي ضد الدولة العثمانية أسباباً مباشرة لتوجه سليم صوب الشرق في حملاته . ولذلك ، أراد سليم حل مشكلاته مع الدول الأوروبية على الجبهة الغربية أولاً . فاستقبل سفراء الدول الأوروبية الذين جاؤوا لتهنئته بالجلوس على العرش ، وجدد معهم المعاهدات السابقة قبل أن يتخذ الإستعدادات اللازمة لمواجهة الزحف الشيعي على الأناضول^{١٩٨} .

تصفية التجمعات العلوية في الأراضي العثمانية : كان سليم قد يتابع

عن قرب فعاليات الشاه إسماعيل الصفوي في شرقي الأناضول بينما كان والياً على طرابزون ، حيث راح يتعقب أخبار وقائع شاه قولي وتحركات الدعاة العلويين المؤيدين للشاه الصفوي في مختلف أنحاء الدولة ، فأدرك خطورة عقد بعض الأمراء العثمانيين لعلاقات مشبوهة مع الشاه الصفوي وإلباس خلفاء الشاه في الأناضول الشهزاده مراد بن أحمد للتاج الصفوي ، وعلم حساسية الوضع في أنحاء البلاد ، فحث أبيه بايزيد على حسم التجاوزات الشيعية في الأناضول ، ولكن دون جدوي .

وهكذا ، كان على سليم بعد أن استتب له الحكم في البلاد ، وقبل خروجه في أولى حملاته على الشرق ، كان عليه أن يقضي أولاً على تلك الحركات العلوية التي انتشرت في أنحاء البلاد . فأصدر سليم أوامره إلى أمراء الأمراء وأمراء السناحق في مختلف

¹⁹⁸ انظر أحمد دراج ، الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، القاهرة

١٩٦١ ، ص. ١٢٧-١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٧-١٤٨ ، Osmanlı Salih Özbaran, " İmparatorluğu ve Hindistan Yolu " , Tarih Dergisi, XXXI. (Mart 1977), İstanbul 1978, s. 73, 85 , 96.

ولايات الأناضول والروميلي بحصر أعداد الطوائف العلوية التي يمكن أن تقوم بحركات عصيان في حالة نشوب حرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية الشيعية ووضع سجل بأسمائهم . وأخيراً أُتيحت لسليم الفرصة للتكامل بتلك الجماعات العلوية بخروج بعضها علي الدولة ، فأصدر أوامره بالقبض علي كافة المنتسبين للفرق العلوية وفقاً للسجلات المحررة ، فحبس وقتل منهم أكثر من أربعين ألف فرد . وبذلك بدأ سليم في أخذ استعداداته للخروج صوب إيران بعد أن أطمأن لاستقرار جبهته الداخلية^{١٩٩} .

حملة السلطان عليه علي إيران :

لقد كان خروج السلطان سليم في حملته الأولى ضد الدولة الصفوية الشيعية والحاقة الهزيمة بالجيش الصفوي وإعلانه تفوق الدولة العثمانية السنية علي الدولة الصفوية الشيعية ، بدايةً لسيطرة العثمانيين علي شرقي الأناضول لأول مرة والحد من إنتشار الخطر الشيعي في المناطق السنية بها ، ومن ثم تأزم الأوضاع علي الحدود العثمانية المملوكية وتأجج المنافسة علي قيادة العالم الإسلامي السني بين الدولة العثمانية فاتحة القسطنطينية والدولة المملوكية حامية الخلافة العباسية والحرمين الشريفين .

استعداداته عليه وخروجه لحملة إيران : لقد كان للصراع العثماني

المملوكي علي النفوذ المطلق في إمارة ذوالقدر وعلي حماية العالم الإسلامي السني ، دور هام في تردد دولة المماليك سنية المذهب في الدخول في حلف مع الدولة العثمانية ضد الشاه إسماعيل الصفوي . وعلي الرغم من تربص الشاه الصفوي بدولة المماليك لإعادة المذهب الشيعي للشام ومصر ، واتفاقه مع البنادقة وغيرهم علي أن يقوموا بشن الهجمات علي الشام محراً بينما يقوم هو بشن الهجوم علي دولة المماليك من ناحية البر ، رفض السلطان المملوكي قانصوه الغوري دعوة السلطان سليم للإتفاق ضد الدولة

¹⁹⁹ فيما يتعلق بتصفية البور العلوية المؤيدة لحركة إسماعيل الصفوي في الأناضول والروميلي واستصدار الفتاوي الخاصة بالقضاء علي هذه الفئة التي أطلق عليها العثمانيون اسم " القزلباش " ،

أنظر : Mustafa Ekinçi, "Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı Safavî İlişkileri", Türkler, XI/448-449

الصفوية الشيعية في أية مواجهة تقع بين الطرفين ، حيث فضل البقاء علي الحياد انتظاراً لما يمكن أن تتمخض عنه مثل هذه المواجهة المرتقبة²⁰⁰ .

وهكذا ، راحت الدولة العثمانية تأخذ الاستعدادات بمفردها لمواجهة حاسمة مع الشاه الصفوي حامي المذهب الشيعي . ففي الوقت الذي أرسل فيه سليم الأوامر لولاية الأناضول والروميلي للاستعداد للخروج في حملة إيران ، استدعي ابنه سليمان والي مغنيسا إلى أدرنه وكلفه بحراسة منطقة الروميلي . وفي مارس ١٥١٤ / محرم ٩٢٠ تحرك السلطان العثماني من أدرنه متجهاً إلى استانبول ومنها إلى اسكدار ، وأرسل خطاباً إلى الشاه إسماعيل الصفوي دعاه فيه " لرفع المظالم والعودة لحظيرة الإسلام قبل أن يسكت الكلام وتصبح الكلمة العليا للحسام " ، فرد الشاه بأنه يشاق للمواجهة الحاسمة ، ولم تتوقف المراسلات بين الطرفين حتى اتفقا علي الإلتقاء في صحراء چالديران .

تجمعت فرق الولايات من الأناضول والروميلي (سباهية التيمار) وفرق مركز الدولة (القابوقولي) في وادي يكي شهر بالقرب من بورصه ، ثم تحرك الجيش الذي بلغ عدده نحو ١٤٠ ألف فرد إلى سيواس ، حيث تفقد السلطان أحواله ، فأرسل نحو ٢٠ ألف من سباهية التيمار تحت قيادة دوقاكين أحمد باشا للتحسس علي أحوال الشاه ، وأرسل قره جه باشا مع فرقة صغيرة للقبض علي بعض الأسري من الجيش الإيراني لاستجوابهم ، وأمر محمد بك ابن ميخال بشن هجماته علي الحدود الإيرانية²⁰¹ .

²⁰⁰ بخصوص الصراعات التي كشفت عن نفسها بين القوي الدولية المعاصرة ، والأطماع المحيطة بمنطقة الشرق الإسلامي وعجز الدولة المملوكية عن مواجهتها ، أنظر : أحمد دراج ، الممالك والفرنج في القرن التاسع المحجري / الخامس عشر الميلادي ، ص. ١٢٩-١٣٠، ١٣٩، ١٢٨، ١٤١-١٤٢، ١٤٤-١٤٥ ؛ كذا انظر بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص. ١٩١، وما بعدها ، ج ٥، ص. ١٤ ، ١٠٩، ١٦٣ Salih Özbaran, " Osmanlı

İmpratörluğu ve Hindistan Yolu ", s. 97 vd.

²⁰¹ فيما يتعلق باستعدادات سليم للخروج لملاقاة شاه إيران في أول حملة له صوب الشرق ، أنظر :

Mustafa Ekinci, "Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı-Safevî İlişkileri", Türkler, IX/449-500; keza bk. S. Tansel,

وهكذا ، عبرت القوات العثمانية الحدود الإيرانية من موضع يقال له صوشهر ، فلمّا عجز قائد الحدود الغربية للشاه أوستاجلو أوغلي محمد خان عن مقاومة الجيوش العثمانية ، اتبع سياسة الأرض المحروقة . وفي الوقت الذي أخذ فيه الجيش العثماني يعاني من نقص المؤن بسبب تخريب إبن استجالو للمدن التي انسحب منها ، رفض علاء الدولة ابن ذوالقدر مدّ الجيوش العثمانية بالمؤن والزخائر اللازمة . ولم يكفي بذلك ، بل قام بضرب قوافل الزخيرة في مؤخرة الجيش العثماني ، الأمر الذي أوقع الجيش العثماني في ضائقة شديدة .

والحقيقة أن هذه التطورات جعلت الجبهة التي كانت تعارض الخروج للحملة على إيران تكسب مؤيدين من قواد ووزراء الدولة . فلمّا وصلت الحملة إلى نواحي أرزنجان بالقرب من الفرات ، توسل هؤلاء الأمراء إلى لسلطان بمولاه همد باشا لعرض رغبتهم في العودة من الحملة وعدم الاستمرار فيها . وإذا كان ياووز سليم لم يتردد في قطع رقبة همد باشا بسيفه في الحال لو أد الفتنة في مهدها (تموز ١٥١٤ / جمادي الأولى ٩٢٠) ، فقد كظم غيظه عندما قام بعض الأمراء بتحريض فرقة البيكيجري على العصيان ، واكتفى بزجرهم وإعلانه بأنه وصلته رسالة توضح بأن الشاه إسماعيل قد اتخذ مواقفه في وادي جالديران^{٢٠٢} .

معركة جالديران ومزينة الجيش الصفوي : ولما وصل الجيش العثماني

إلى جالديران شمال غرب أذربيجان ، كان جيش الشاه إسماعيل قد أخذ مواقفه في ميدان المعركة ، فأسرع السلطان العثماني بتنظيم فرق جيشه من القابو قولي (جند الدرگاه العالي) أي جند الباب السلطاني وفرق المدفعية . فوقف الوزير الأعظم هرسك زاده أحمد باشا والوزير دوقاكين أوغلي أحمد باشا والوزير الثاني مصطفى باشا بجوار

Yavuz Sultan Selim, s. 38 vd.; Ahmet Uğur, Yavuz Sultan Selim, s. 60-65; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/253-258
Mustafa Ekinci, Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı²⁰²
Safevî İlişkileri”, Türkler, XI/450-451; S. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.48; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/260-261

السلطان، وأخذ أمير أمراء الأناضول خادماً سنان باشا مع جند الأناضول موقعه في الجناح الأيمن من الجيش ، وأمير أمراء الروميلي حسن باشا مكانه مع جند الروميلي في الجناح الأيسر للجيش ؛ ثم وقف أمام مشاه جند القابو قولي أي فرق اليكيجري جند عزب الأناضول والروميلي ، وأمامهم تم نصب خمس مائة مدفع ضريزن . وعلي الطرف الآخر ، كان يقود الجناح الأيمن من جيش الشاه طورمش خان شاملو ونور علي خليفه وغيرهم ، أما الجناح الأيسر فكان تحت قيادة أمير أمراء ديار بكر أوستاجلو أوغلي محمد خان ، وبقي الشاه إسماعيل نفسه في المؤخرة مع قوات الإحتياط . وكان عدد أفراد قوات كلا الطرفين متساو تقريباً .

بدأت المعركة (٢٤ أغسطس ١٥١٤ / ٣ رجب ٩٢٠) بشن الجناح الأيمن لجيش الشاه هجوماً عنيفاً علي الجناح الأيسر للجيش العثماني ، فأبطل إطلاق المدافع، إلا أن تدخل فرق اليكيجري في الوقت المناسب بينادقهم كان له فعل السحر في دحر هذا الهجوم ، وذلك في الوقت الذي قامت فيه مدفعية الجناح الأيمن للجيش العثماني بدور عظيم في تشتيت شمل الجناح الأيسر للجيش الشاهي ، حيث قتل قائده محمد ابن أوستاجلو . وانتهت المعركة بفرار الشاه جريحاً وسيطرة ياووز سليم علي مقر قيادته وأسر زوجته تاحلي هانم والاستيلاء علي خزائنه^{٢٠٣} .

لم يستطع الشاه إسماعيل الإستقرار في عاصمته تبريز بعد هزيمة جالديران ، حيث توجه إلي درگزيرين ، الأمر الذي مكن القوات العثمانية من السيطرة علي العاصمة الصفوية في تبريز . وكان سليم خان يرغب في استئصال شافة إسماعيل الصفوي وتعقب جيشه ، ولذلك ، راح يستعد لقضاء هذا الشتاء في آذربيجان ، حتي يمكنه الخروج عليه في الربيع . فبعد أن أقام السلطان سليم في عاصمة الدولة الصفوية نحو ثمانية أيام ،

²⁰³ بخصوص ميزان القوة العسكرية بين الطرفين ووقائع معركة جالديران ، انظر : Ş.

Tekindağ, "Yeni Kaynak ve vesikaların Işığında Yavuz Sultan Selim'in İran Seferi", TD, XVI./22(1968), s. 49-78; Tayip Gökbiçgin, " Çaldıran ", IA, c. III/329-331; S. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.60 vd.; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/268-269

غادرها متوجهاً إلى منطقة قره داغ ، ولكن تدمر جنود اليكيجري هناك اضطره للتوجه إلى آماسيا ، حيث انتهاز فرصة قيام بعض هؤلاء الجنود بنهب بعض القرى في المنطقة ، وقام بعزل الوزير الأعظم هرسك زاده أحمد باشا وتعيين دوقاكين زاده أحمد باشا بدلاً منه . ولما علم السلطان أن الوزير الأعظم الجديد كان سبباً في تدمر جند اليكيجري أمر بقتله ولم يعين وزيراً مكانه ، حيث قبض علي شئون الدولة بنفسه .

ضم حماه وإمارة ذوالقدر ومناطق شرقي الأناضول للأتراك

العثمانية : لما علم السلطان سليم بأن وضع الجنود لا يسمح بالخروج في حملة أخرى ضد الشاه لتأمين المناطق الشرقية من الأناضول ، وجد أن ضم إمارة ذوالقدر واخضاع عشائر الولايات شرقي الأناضول للإدارة العثمانية قد يفي بهذا الغرض . ونظراً لحدوث قلعة حماه الموجودة في يد القزلباش في نشر الفساد في المنطقة ، تحرك السلطان من آماسيا متوجهاً إليها ، فحاصرها حتى استسلمت في مايو ١٥١٥ / ربيع الآخر ٩٢١ .

وكان عدم تقديم علاء الدولة أمير ذوالقدر المساعدات اللازمة للجيش العثماني في حملته ضد الشاه الأمر الذي أدى إلى تفاقم أزمة التموين بين القوات العثمانية وضربه لإمدادات الجيش العثماني ، سبباً لتوجه سليم إليه . وكان سليم قد قام بتعيين عني ابن شمسوار شقيق علاء الدولة على ولايات قيصري وبوزوق المتاخمة لإمارة ذوالقدر . فلما وقع من أمير ذوالقدر علاء الدولة ما وقع ، قرر سليم خان انتزاع بلاده من يده وتعيين أخيه عليها ، وأمر خادم سنان باشا بالتوجه على رأس قوة قوامها أربعين ألفاً للسيطرة على هذه الإمارة الحدودية الهامة ، حيث كان علي ابن شمسوار مرشداً له في هذه الحملة .

ولما علم علاء الدولة أن سنان باشا عبر حدود بلاده ، خرج للقاءه ، فالتقت به هزيمة عند كوكسون ، حيث فر هارباً صوب جبل طورنه . وبعد مصائدات شديدة بين الطرفين ، تمكن سنان باشا من القبض عليه وقتله مع أربعة من أبنائه ونحو ثلاثين من أمراته وعدد كبير من أقربائه ، وأسر أخيه عبد الرزاق وأبنائه (يونية ١٥١٥ / ربيع الآخرة ٩٢١) . وهكذا ، عين علي ابن شمسوار حاكماً على إمارة ذوالقدر من قبل

الإدارة العثمانية ، وأرسلت رؤوس علاء الدولة أبنائه الأربعة إلى السلطان المملوكي . وبذلك ، وقعت مناطق الشام والجزيرة تحت التهديد العثماني المباشر ، فكان ذلك سبباً في إحداث اضطراباً لقانصوه الغوري وإمرائه من ممالك مصر ، وزيادة تأزم العلاقة بين العثمانيين والمماليك .

ضم ولاية ديار بكر : ولما كانت ديار بكر من أهم المدن والقلاع الموجودة على حدود الدولة الصفوية ، حيث كانت السيطرة عليها تجعل الأراضي الإيرانية تحت التهديد العثماني المباشر ، فقد قرر سليم خان ضم هذه الولاية للأراضي العثمانية . وقد تمكن السلطان العثماني من تحقيق هدفه سلباً ، حيث راح يستميل العشائر التركمانية في تلك المناطق للإدارة العثمانية بواسطة أحد علماء المنطقة ويدعي إدريس البتليسي . وإذا كان العثمانيون بهذه الطريقة قد استطاعوا ضم ديار بكر بدون حرب ، فقد أسرع الشاه إسماعيل وقام بتعيين قره خان ابن استاجلو لاستعادة الولاية الحدودية الهامة . إلا أن المواجهة بين الطرفين أسفرت عن فتح نواحي مردين أيضاً ، وتأكيد تبعية ديار بكر ومقتل قائد الحملة قره خان .

والحقيقة أن إدريس البتليسي قام بدور هام في حشد أمراء الأكراد من أهل السنة في المنطقة واستمالتهم للإدارة العثمانية ، ومن ثم السيطرة على ولاية ديار بكر والمناطق المحيطة بها . وقد نجح البتليسي بهذه الطريقة في جذب نحو ٢٥ من أمراء منطقة شرقي الأناضول يأتي علي رأسهم أمراء أورمية ، عمادية ، بتليس ، خيزان ، سيرت وغيرها ، حيث أرسلت البراءات السلطانية إليهم علي أن يقوموا بإدارة بلادهم وفقاً للقواعد العرفية المعمول بها في تلك البلاد²⁰⁴ .

²⁰⁴ بخصوص ضم العثمانيين لمنطقة شرقي الأناضول عقب معركة حالديران ، أنظر : Gökner Göğebakan, "Doğu Anadolu'nun Osmanlı Hakimiyetine Girişi", Türkler, IX/463-464; Nejat Göyünç, XVI. Yüzyılda Merdin Sancağı, Ankara 1990, s.14-17, 19-21, 23-34; Mehmet Mehdi İlhan, Amid (Diyarbakır), Ankara 2000, s. 73-84; Memet Ali Unal, XVI. Yüzyılda Harput Sancağı, Ankara 1989, s.25- 29

وبعد أن اطمأن السلطان سليم خان لتوطيد الحكم العثماني شرقي الأناضول علي هذا النحو ، عاد من حملة إيران إلي استانبول في ٢٩ جمادى الأولى ٩٢١/ تموز ١٥١٥ . وفي مركز الدولة ، قام بتقصي أسباب حركة عصيان الجند التي وقعت أثناء عودة الحملة ، حيث قام بضرب أعناق مثيرو الفتنة (قاضي العسكر تاجي زاده جعفر جلبي والوزير الثاني إسكندر باشا وسكان باشي الأوجاق باليمز عثمان أغا) في الديوان ، فسكنت الأوضاع في الجيش العثماني (١٨ أغسطس ١٥١٥ / رجب ٩٢١) .

تطور العلاقات العثمانية المملوكية :

عقب توقيع الهدنة بين العثمانيين والمماليك عام ١٤٩١م / ٨٩٦هـ ، وعلي الرغم من المصادمات الحدودية التي كانت تقع بين الطرفين بسبب إمارة ذوالقدر ، استمرت العلاقات الودية بين الدولتين السنتين . فمثلا حرص بايزيد الثاني على دعم قانصوه الغوري لإعادة بناء الأسطول المملوكي وإرسال عدد من البحارة الترك لمواجهة تعديات البرتغال في البحر الأحمر والبحار الشرقية ، احتفل ممالك مصر والشام بانتصار العثمانيين السنة علي الدولة الصفوية الشيعية . وإذا كان السلطان سليم قد دعى السلطان المملوكي للتحالف معه ضد الشاه الصفوي ، إلا أن قانصوه الغوري آثر أن يحافظ علي حياده في الصراع الصفوي العثماني منتظراً نتيجة هذا الصراع السياسي المذهبي بين الطرفين ، ذلك لأنه كان يدرك طموحات الصفويين الشيعية في ميراث الدولة الفاطمية في مصر والشام ، والمنافسة العثمانية القوية لقيادة العالم الإسلامي السني ، ويرى بأن المنتصر في هذه المواجهة سوف يولي وجهه صوب الأراضي المملوكية .

ومن ناحية أخرى ، وعقب هزيمته في جالديران اقترح الشاه إسماعيل الصفوي علي السلطان المملوكي التحالف ضد العثمانيين ، إلا أن خطابات التطمين التي راح يرسلها سليم إلي قانصوه الغوري أحبطت تشكيل مثل هذا التحالف . وعلي الرغم من ذلك ، راحت دولة المماليك تتخذ الاستعدادات الضرورية لمواجهة كافة الاحتمالات ، فأبقت علي الإتصالات السرية مع الصفويين . وبينما كان قانصوه الغوري يستقبل قاسم

بن الشاهزاده أحمد شقيق السلطان سليم رغبة في استخدامه وقت الحاجة ويستعد لمواجهة مقتربة بين الطرفين ، لم يوقف مراسلاته مع السلطان العثماني^{٢٠٥}.

وهكذا ، وفي ربيع ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ أرسل ياورز سليم وزيره الأعظم خادم سنان باشا علي رأس أربعين ألف رجل إلي نواحي الفرات معلناً أن وجهة حملته الأراضي الصفوية . فلما طلب سنان باشا الإذن من الأمراء المماليك لعبور نهر الفرات للتوجه إلي ديار بكر ، رفضوا طلبه ، وذلك في الوقت الذي كان فيه السلطان المملوكي قانصوه الغوري قد ترك الأمير طومانباي نائباً عنه في مصر آخذاً طريقه إلي حلب علي رأس جيش قوامه خمسين ألف فرد^{٢٠٦} . فلما وصلت هذه الأنباء للسلطان سليم الذي كانت مراسلاته مع قانصوه الغوري بلغت إلي زرونها ، اعتبر أن خروج السلطان المملوكي علي رأس جيشه إلي حلب إعلاناً للحرب علي الدولة العثمانية تأييداً للدولة الصفوية الشيعية . وعلي الرغم من ذلك ، حافظ السلطان سليم علي سرية الحملة . فبينما كان يسعى لإستصدار فتوي بمشروعية محاربة الحاكم المسلم الذي يعين الخارجين عن الإسلام ، ويصدر الأمر للجيش العثماني بالتجمع في وادي ولاية قيصري ، أرسل للسلطان قانصوه قاضيعسكر الروميلي زيرك زاده ركن الدين وقره جه باشا لتطمينه إلي أن حملة السلطان وجهتها إيران للقضاء علي أهل الإلحاد من القريلباش ، وأنه يطلب منه الدعاء^{٢٠٧} .

²⁰⁵ فيما يتعلق بمراسلات قانصوه الغوري مع سليم الأول ، أنظر : فريدون بك ، منشآت السلاطين ، استانبول ، ١٢٧٤ ، ص. ٣٦٩-٣٧٥ ، Şınası Altundağ, keza bu hususta bk. "I. Selim", IA., 428-429; Seyyid M. Es-Seyyid, "Kansu Gavri", DIA. cilt XXIV/314-316

²⁰⁶ فيما يتعلق بقيادة الوزير الأعظم سنان باشا لمطلع الجيش العثماني المتوجه للشرق في الحملة التي لم يعلن عنها وكان هدفها الأساسي الأراضي المملوكية ، أنظر : Bekir Kütükoğlu, " (Hadim) Sinan Paşa " , IA, X/663-664; keza bk. Tansel, Yavuz Sultan Selim, s. 101-107, 123-131.

²⁰⁷ أنظر ، فريدون بك ، منشآت السلاطين ، ص. ٤٢٦-٤٢٧ .

وهكذا ، توجه ياوز سلطان سليم إلى الأناضول بعد أن عهد إلى ابنه سليمان حراسة أدرنه ، وإلى پيري محمد باشا حماية استانبول ، وإلى هرسك زاده حماية بورصة (يونية ١٥١٦ / جمادي الأولي ٩٢٢) ، وذلك في الوقت الذي أرسل فيه الأسطول العثماني إلى السواحل السورية . ولما سمع الغوري بتوجه سليم شرقاً ، أطلق سراح السفراء وأرسلهم بصحبة الأمير مغلباي الدودار مع العديد من الهدايا القيمة لعقد الصلح بين الطرفين . غير أن احاطة سليم علماً بأن السلطان المملوكي قانصوه الغوري يعقد اتصالات سرية بينه وبين إسماعيل الصفوي وأنه لن يتردد في استخدام قاسم بن أحمد ضده ، جعله يبلغ مغلباي بأنه ينتظر لقاء السلطان المملوكي في وادي مرج دابق^{٢٠٨} .

معركة مرج دابق وسقوط بلاد الشام : وصل قانصوه الغوري بجيشه إلى مرج دابق بصحبة الخليفة العباسي ، وأرسل خطاباً أخيراً لسليم يحيطه فيه علماً بأن خروجه لحلب كان بضغط من المماليك ، إلا أن وصوله إلى مرج دابق كان قد قطع كل أمل في الصلح بين الطرفين . وفي ٢٤ أغسطس ١٥١٦ / ٢٦ رجب ٩٢٢ التقى الجيشان . وكان في الجناح الأيمن للجيش العثماني أمير أمراء الأناضول زينل باشا ، وفي الجناح الأيسر أمير أمراء الروميلي كوجك سنان باشا ، وفي مركز الجيش كان السلطان سليم وفرق القابو قولي (يكيچري وسواري) وأمامهم فرق المدفعية . أما الجناح الأيمن للجيش المملوكي فكان تحت قيادة نائب حلب خاير بك الذي كان يخبر السلطان سليم سراً ، وفي الجناح الأيسر نائب الشام سيباي ، وفي المركز السلطان قانصوه الغوري وخواص جنوده .

في بداية المعركة انهزم الجناح الأيمن من الجيش المملوكي الذي يقوده خاير بك . وخلال نحو ست ساعات وقعت هزيمة تامة بالمماليك ، حيث بقي قانصوه بمفرده في ميدان القتال ، فاصيب بشلل مفاجئ مات علي أثره . وهكذا ، استولى العثمانيون علي

²⁰⁸ أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص. ٩٨-١١٥ ؛

Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.123 vd.; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/284 vdd

خزائن السلطان المملوكي ، وأسرع يونس باشا بالدخول إلى حلب ، حيث تعقب فلول المماليك في حماة وحمص ، ثم سيطر علي دمشق²⁰⁹ .

ولما كان الجيش المملوكي قد لقي هزيمة قاسية في مرج دابق ، عجزت القيادة المملوكية الجديدة في مصر عن إعداد جيش بسرعة لاستعادة الشام من العثمانيين ، حيث قام السلطان العثماني خلال خمسة أشهر قضائها في بلاد الشام بتنظيم شتوئها ، وتعيين تشكيلاتها . وخلال هذه الفترة ، أمكن للقوات العثمانية ضم جنوب سوريا وحصد و نابلس والقدس وعجلون وغزة من المدن الفلسطينية الهامة . وإذا كان والي غزة المملوكي جانيردي الغزالي قد خرج بقواته للتصدي للقوات العثمانية التي قادها الوزير الأعظم سنان باشا الذي أمر بالتوجه إلى مصر ، إلا أنه انسحب مهزوماً إلى القاهرة (ديسمبر ١٥١٦/دي الحجة ٩٢٢) . وبدأت استعدادات الجيش العثماني للتوجه لمصر .

الحملة على مصر وموقعة الريحانية : عقب وفاة السلطان المملوكي

قانسره الغوري في ميدان المعركة ، انتخب أمراء المماليك نائبه في مصر الأمير طومانباي سلطاناً عليهم . والحقيقة أن ياورز سليم لم يتوجه مباشرة إلى مصر ، بل أرسل إلى السلطان المملوكي الجديد خطاباً طلب فيه أن يصير تابعاً له وأن تكون الخطبة والعملة بإسمه مقابل ترك كافة أنحاء مصر حتى غزة له ، كما أرسل خطابات أخرى إلى الأمراء المماليك بواسطة خاير بك لإستمالتهم . ولما كان الأمراء المماليك يعتقدون أن ضم العثمانيين للشام ، إنما هو ضمّاً مؤقتاً ، وأنه يمكنهم استعادة تلك المناطق مرة أخرى بعد مغادرة سليم البلاد ، وأن صحراء سيناء ستقف مانعاً أمام الجيوش العثمانية كما وقفت أمام المغول من قبل ، رفضوا هذا العرض . وكان السلطان العثماني يعتقد أن العودة دون ضم مصر سيجعل انتصاره في مرج دابق مؤقتاً ، وقد يتيح ذلك الفرصة للأعداء في

²⁰⁹ بخصوص معركة مرج دابق ، أنظر : M.Cevid Baysun, “ Merc-i Dabık ”

IA, VII/752-754; Seyyid M., “Kansu Gavri”, DIA, cilt XXIV/314-316

الشرق والغرب للسيطرة على المنطقة ، ولذلك قرر التوجه إلى مصر بنفسه سعيًا لتوحيد قيادة العالم الإسلامي والتصدي للأخطار التي كانت تحيط به خلال هذه الفترة^{٢١٠} .

وصل الجيش العثماني إلى الريدانية بعد أن اجتاز العريش وخان يونس والصاحية وبلبيس . وكان المماليك قد أقاموا التحصينات حول المدينة ، وفي المنطقة التي تمتد من جبل المقطم وحتى نهر النيل ، حيث نصبوا مدافعهم فوق جبل المقطم . ولذلك ، أحري سليم تغييراً في خطته العسكرية حتى يمكن للجيش العثماني أن يقع بعيداً عن مرمى المدافع المملوكية . وهكذا ، التف الجيش العثماني حول جبل المقطم للوصول إلى الريدانية ، حيث بدأ العثمانيون الهجوم في صباح ٢٢ يناير ١٥١٧/ ٢٩ ذالحجة ٩٢٢ . وإذا كان الهجوم العثماني الأول قد ألحق الإضطراب بالجيش المملوكي ، إلا أن فرسان المماليك أظهروا مقاومة شديدة ، فاستمرت الحرب حتى عصر اليوم التالي . والحقيقة أن معركة الريدانية لم تحسم المواجهة بين الجيش العثماني ومماليك مصر الذين راحوا يدافعون عن آخر معاقلهم بكل بسالة ، فلم يعد أمام طومانباي سوى محاولة القبض على سليم خان أو قتله ، فقام بشن هجوم ليلي على مقر القيادة العثمانية ، وكان يقيم فيه الوزير الأعظم سنان باشا مع بعض أمراءه بدلاً من السلطان ، حيث تمكن من قتلهم جميعاً (١١ محرم ٩٢٣ / فبراير ١٥١٧) . وهكذا ، بدأ طومانباي حرب عصابات في شوارع القاهرة ضد القوات العثمانية التي راحت تسيطر على أنحاء المدينة^{٢١١} .

²¹⁰ أنظر في هذا الخصوص : خليل أدهم ، " مصر فتحي مقدماته دابر مهم بر وثيقه " ، تورك تاريخي انجماني مجموعته سي ، الجزء ١٣-١٨ ، استانبول ١٩٢٧ ، ٤٤٣ وما بعدها ؛ كذا انظر ، محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٦١ ، الجزء الخامس ، ص ٥٨-٧٢ ، ٨٣-٩٧ ، أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، ص. ١٨٤-١٩٦ ،

٢٠٤-٢٢٢

²¹¹ أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، ص ١٨٥-١٩٠ ؛ Seyyid Muhammed es-Seyyid, "Mısır Eyaleti'nde Osmanlı Nizamının Kuruluşu", Osmalı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291 vd.; Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.166 vd.

وعقب دخول العثمانيين القاهرة ، انتقل السلطان سليم إلى بولاق ، ولم يدخل المدينة حتي تم تصفية البؤر المملوكية فيها . وفي ليلة ٢٨ يناير ١٥١٧ / ٥ محرم ٩٢٣ استطاع طومانباي السيطرة علي القاهرة مرة أخرى بقوة مقدارها نحو عشرة آلاف مملوك ، حيث دارت معركة حامية استمرت ثلاث ليال في شوارع القاهرة مع القوات العثمانية التي استطاعت استعادة المدينة بصعوبة بالغة ، وفرّ طومانباي بعدها في عدد من أتباعه إلى صعيد مصر ، ثم انتقل إلى نواحي البحيرة ، حيث تعقبته القوات العثمانية حتي قبض عليه ، ثم قتل في ١٣ إبريل ١٥١٧ / ٢١ ربيع الأولي ٩٢٣^{٢١٢} .

أقام السلطان العثماني في مصر نحو ثمانية أشهر ، حيث قام ببعض الإصلاحات الإدارية ، واستمال الأمراء المماليك ومشايخ العربان ، واستقبل ابن شريف مكة أبو نجي بن بركات الذي جاء للسلطان بمفاتيح الكعبة المشرفة ، حيث أعاد السلطان تعيين أبيه شريفاً علي مكة والمدينة ، وأرسل معه الكثير من الصدقات والأموال لأهالي الحرمين الشريفين أو ما عرف باسم " الصرة المشرفة " ٢١٣^{٢١٣} .

نتائج سقوط الدولة المملوكية في مصر والشام : لقد كان لسقوط

دولة المماليك في مصر والشام نتائج هامة سواء علي منطقة الشرق الإسلامي أو علي الدولة العثمانية نفسها ، حيث يمكن حصر هذه النتائج في العناصر التالية :

١. ضم أملاك المماليك في سوريا وفلسطين والجزيرة والحجاز واليمن ومصر، وهي مراكز دينية وسياسية وحضارية هامة للدولة الإسلامية ، حيث أضافت للدولة العثمانية ثقلاً حضارياً خاصاً في العالم الإسلامي .

²¹² بخصوص يوميات معركة الريدانية أنظر : Haydar Efendi, "Rüzname",

Münşeat's-Salatin, I/480-485

²¹³ فيما يتعلق بالإجراءات الإدارية التي اتخذها سليم الأولي في الفترة التي أقامها في مصر ، أنظر :

Seyyid M. Es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990, s.55-58; Feridun Emecen, كذا بخصوص دخول الحرمين تحت الإدارة العثمانية أنظر :

"Hicaz'da Osmanlı Hakimiyetinin Tesisi ve Ebu Numey", Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.14, 1994, s.90 vd.; Zekeriye Kurşun, "Osmanlı Devleti İdaresinde Hicaz", Türkler, XI/317 vd.

٢. انتقال مركز الخلافة الإسلامية من مصر إلى استانبول ، حيث خطب للسلطان العثماني من فوق منابر الممالك الإسلامية خادماً للحرمين الشريفين ، فأضيف للسلطان العثماني مقاماً دينياً رفيعاً في العالم الإسلامي علاوة على مقامه السياسي ، وأعيد بذلك توحيد السلطتين الدينية والمدنية في يد الحاكم لأول مرة بعد سقوط بغداد .

٣. تصدي الدولة العثمانية للأخطار البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والأخطار الأسبانية في السواحل الشمالية لأفريقيا ، بعد أن أحبطت مخططات الدولة الصفوية الشيعية لإعادة السطو على العالم الإسلامي ، وبذلك أمكن تأمين الحدود الشرقية والجنوبية للعالم الإسلامي.

٤. أصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق التجارة القديم الذي يمر بمصر عبر البحر الأحمر والبحر المتوسط إلى أوروبا ، ومن ثم قامت بتحديد المعاهدات التجارية مع البندقية للسماح لها بالتجارة في الأراضي التي كانت تخضع للمماليك ، وتضع الخطط الأمنية اللازمة للتصدي لاعتداءات البرتغال في الجنوب لتنشيط حركة التجارة في الطريق القديم من جديد .

محوطة عليه إلى مركز الدولة : وقبل عودة السلطان سليم إلى مركز

الدولة (أواخر أغسطس ١٥١٧ / أواسط شعبان ٩٢٣) ، قام بتعيين الوزير الأعظم يونس باشا والياً على مصر ، إلا أن عجزه عن إدارة شئونها ، أجبر السلطان علي اختيار نائب حلب السابق خاير بك ليكون أول أمير امراء في مصر . وحتى يطمئن السلطان لاستقرار الأوضاع في مصر ، وقبل مغادرته القاهرة ، أرسل إلى استانبول أبناء السلاطين السابقين والخليفة وأقربائهم والعديد من الأمراء والعلماء والمشايخ من ذوي النفوذ ، ومن بين هؤلاء الخليفة العباسي المتوكل علي الله الثالث وعمه خليل وأبناءه والأمير محمد بن قانصوه الغوري^{٢١٤} . وعندما وصل السلطان سليم إلى الشام، جاءه مبعوث الشاه

²¹⁴ بخصوص اجراءات سليم الأول لتوطيد الحكم العثماني في مصر ، أنظر : Seyyid Muhammed es-Seyyid, "Mısır Eyaleti'nde Osmanlı Nizamının

إسماعيل الصفوي ، حيث عرض عليه الصلح . وإذا كان السلطان العثماني قد حرص علي استتصال شافة الشاه الشيعي ، إلا أن شعورة بارهاق جنده بسبب طول حملة مصر ، اضطره لإصدار قرار لعودة إلي الأستانة بعد أن وطد النفوذ العثماني في بلاد الشام ، وعين عليها الأمير المملوكي جانبردي الغزالي^{٢١٥} .

اهتمام سليم بتطوير البحرية العثمانية : كانت البحرية العثمانية قد شهدت تطوراً كبيراً علي يد كمال رئيس في عهد بايزيد الثاني ، الأمر الذي مكنها من فتح موالي هامة مثل اينه بختي ومودون وقورون . وعقب ضم أملاك دولة المماليك ، أصبحت الدولة العثمانية تسيطر علي كافة سواحل البحر الأحمر وسواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما أشعر الإدارة العثمانية بضرورة حماية سواحلها الطويلة وطرق مواصلاتها مع المناطق المفتوحة حديثاً في آسيا وأفريقيا . فقام السلطان سليم بإنشاء ترسانة جديدة في ميناء الخليج في استانبول ، حيث أمر ببناء ثلاثمائة سفينة جديدة من مختلف الأحجام ، الأمر الذي أقلق البندقية التي راحت تحصن جزرها في المنطقة . وإذا كان بعض رجال الدولة راحوا يشجعون السلطان العثماني علي فتح جزيرة رودس ، إلا أن البعض الآخر كان يفضل الخروج في حملة جديدة ضد شاه إيران^{٢١٦} .

وفاة السلطان سليم : لقد استمر السلطان ياورز سليم علي فراش المرض لأكثر من شهرين ، حيث توفي في ٢١ مايو ١٥٢٠ / ٨ شوال ٩٢٦ ، بعد حكم دام ثمانية أعوام . ولم يكن له غير ابنه والي مانيسا سليمان الذي استدعي إلي استانبول لتولي عرش الدولة ، وليبدأ مرحلة جديدة من عصر ازدهار الدولة العثمانية^{٢١٧} .

Kuruluşu”, Osmalı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291 vd.; ayn. Mlf., XVI. Asırda Mısır Eyaleti, s. 56-58

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/293-294, 297-299²¹⁵

Uzunçarşılı, Merkez ve Bahriye Teşkilatı, : أنظر في هذا الخصوص²¹⁶ s.396-398

Tansel, Yavuz Sultan Selim, s.367 vd, بخصوص ملابسات وفاة سليم أنظر²¹⁷

Şinasi Altındağ, “Selim I”, IA,X/431-434;

عصر الذروة

عهد سليمان القانوني

(١٥٢٠-١٥٦٦م / ٩٢٦-٩٧٣هـ)

توفي سليم خان ولم يترك علي قيد الحياة سوى ابنه الوحيد سليمان وستة من البنات . ولذلك ، وجد الشهزاده الشاب العرش العثماني خالصاً له دون منازع ، وهو الأمر الذي لم يحدث منذ عهد بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م / ٧٩١-٨٠٥) . وكان الشهزاده سليمان قد وصل لسدة الحكم في الدولة العثمانية (١٧ شوال ٩٢٦ / ٣٠ سبتمبر ١٥٢٠) وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وذلك بينما كانت الدولة قد بلغت أيضاً سن النضج ، وتعيش أزهي عصورها .

والحقيقة أن سليمان كان قد ورث انجازات أجداده عثمان غازي ، وأورخان غازي ، ومراد غازي ، والسلطان يلدرم بايزيد ، والسلطان محمد الفاتح ، وياووز سلطان سليم (١٢٩٩-١٥٢٠م / ٦٩٩-٩٢٦هـ) ، فحافظ علي هذه الإنجازات وأضاف إليها الكثير ، فأصبح عهده عهد الفتوحات العظيمة ، والسياسة الحكيمة ، والعلم والعرفان ، والفنون والآداب ، والنظم والقوانين ، ولعبت الدولة العثمانية في عهده دوراً عالمياً في الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وأصبحت محوراً للسياسة العالمية ، وبرزت ملامح حضارتها الإسلامية الشائخة من خلال مؤسساتها وتشكيلاتها العسكرية والإدارية والمالية والقضائية والعلمية والاجتماعية .

توطيد أركان الدولة في مطلع عهد سليمان ،

كان ياووز سلطان سليم قد عقد هدنة حذرة مع الدول الأوروبية ، ومال في سياسته لحل مسألتَي الصفويين والمماليك اللتان كانتا أكثر إلحاحاً خلال تلك الفترة . وإذا كان سليم خان قد استطاع الحد من الأخطار التي كانت تتعرض لها الدولة العثمانية، بل العالم الإسلامي إلي حد كبير ، ونجح في تحقيق إنجازات ضخمة خلال حملاته الشرقية هذه ، إلا أنه ترك ميراثاً لا يستهان به من المشكلات في تلك المناطق

البعيدة عن مركز الدولة كان علي خلفه سليمان حلها أولاً قبل استئناف فتوحاته في أوروبا مرة ثانية . وقد تمثلت هذه المشكلات في العناصر التالية :

أولاً : عودة النشاط لأتباع المذهب الشيعي من جديد في شرقي الأناضول: وكان تدمير جند القابوقولي أحبر سليم علي العودة وعدم تعقب إسماعيل الصفوي في حملة تالية لتصفية فلولة .

ثانياً : خروج الأمراء المماليك علي الدولة في حركات عصيان متتالية في مصر والشام : كان سليم خان قد ترك الشام ومصر بعد خضوعهما في يد بعض أمراء المماليك الذين أثبتوا إخلاصهم للإدارة العثمانية ليدبروها وفقاً لأعرافهم مع الخضوع للقوانين العثمانية مما شجعهم علي العصيان عندما أتحت لهم الفرصة .

ثالثاً : تفاقم خطر فرسان رودس الذين لم يترددوا في قطع الطريق البحري بين مركز الدولة في استانبول وتلك المناطق التي ضمت حديثاً في جنوب وشرق الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

رابعاً : محاولة ملك المجر الإستفادة من إنشغال الدولة في حملاتها الشرقية ، ونقد الإتفاقيات بين الطرفين بالتعدي علي الأراضي العثمانية في البلقان²¹⁸ .

محضيان جانيردي الغزالي في الشام : كان جانيردي الغزالي قد قدم فروض الطاعة للسلطان سليم عقب ضم مصر ، فأعفي عنه ، وقام السلطان بتعيينه علي إمارة أمراء الشام عند عودته لإستانبول . فلما توفي سليم خان ، أعلن جانيردي عصيانه وإحياء السلطنة المملوكية في الشام ، وجعل الخطبة والسكة بإسمه ، وأطلق علي نفسه "الملك الأشرف" ، وأرسل الرسائل للشاه إسماعيل الصفوي ولوالي مصر المملوكي خاير بك سعياً لتشكيل جبهة ضد السلطان العثماني الجديد ، ثم توجه صوب حلب لحصارها . وهكذا ، قام خاير بك بإرسال خطابات الغزالي للسلطان سليمان عارضاً عليه تجريد

²¹⁸ حول توطيد سليمان لحكمه في أرجاء الدولة ، أنظر : Feridun Emecen, " Sultan

Süleyman Çağı ve Cihan Devleti ", Türkler, IX/501vd.; H.G. Yurdaydın, " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s. 12 vd.

حملة للقضاء علي هذه الحركة . إلا أن السلطان العثماني احتاط للأمر ، وكلف الوزير فرهاد باشا مع سباهية تيمار الأناضول ونحو أربعة آلاف من جند اليكيچري ، وأرسل إلي أمير إمارة ذوالقدر شهبسوار أوغلي علي بك القريب من المنطقة باتخاذ التدابير اللازمة لحماية حلب .

وهكذا ، تمكن شهبسوار أوغلي علي بك من إلحاق الهزيمة بجانيردي أمام حلب في يناير ١٥٢١ / صفر ٩٢٧ ، ثم تعقبه مع أمير أمراء حلب وفرهاد باشا الذي كان قد وصل بقواته متأخراً حتى قبض عليه وأعدم . ولما وصل هذا الخبر لإستانبول ، عين إياس باشا أمير أمراء علي الشام ، كما عين أمراء سناحق علي صفد والقدس وغزة^{٢١٩} .

ضم إمارة ذوالقدر : كان علي بك ابن شهبسوار أمير ذوالقدر قد قدم خدمات جليلة للدولة أثناء حملاتها علي إيران والشام ومصر . إلا أنه أشيع بأنه يسعى للإستقلال ببلاده ، الأمر الذي دفع السلطان للإعلان عن خروج حملة جديدة إلي إيران يعين عليها فرهاد باشا ، ويستدعي علي بك ابن شهبسوار وأبنائه للمشاركة فيها . فلما التقى ابن شهبسوار وأبنائه بقائد الحملة فرهاد باشا قبض عليهم جميعاً ، وضمت بلادهم لأراضي الدولة (١٥٢٢م / ٩٢٨هـ) .

والحقيقة أن قتل علي بك ابن شهبسوار وأبنائه قد أشعل موجة من العصيان قام بها أصحاب مقاطعات التيمار في المنطقة ، حيث كان قلندر چلي العلوي دور في تأجيج هذه الاضطرابات التي استمرت تفعل فعلها في شرقي الأناضول حتي أعيدت الأوضاع للإستقرار بمساعي الوزير الأعظم إبراهيم باشا عند عودته من مصر (١٥٢٥م / ٩٣١هـ) . فقام ببعض الإصلاحات الإدارية واستمال أصحاب المقاطعات ، وقضي علي حركة عصيان قلندر چلي هناك بعد أن فرق جماعته^{٢٢٠} .

²¹⁹ بخصوص حركة جانيردي الغزالي ضد السلطان سليمان ، أنظر : " Feridun Emecen, "Canberdi Gazali", DIA., VII/142-143; H.G. Yurdayın, "Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s. 23-26

²²⁰ تتحدث المصادر عن دور الصراع بين رجال الدولة لنيل الخطوة لدي السلطان سليمان القانوني في إدعاء فرهاد باشا بأن الأمير شهبسوار يعد للخروج علي الدولة ، حيث تشير إلي أن السلطان

فتح بلجراد : كان العثمانيون قد حاصروا بلجراد عدة مرات خلال القرن

١٥م/٩هـ، حيث كانت ضمن الأراضي الصربية آنذاك . فلما عجز الصرب عن حمايتها ، تنازلوا عنها للمجر . وكانت الدولة العثمانية قد جددت معاهدها مع المجر لعام آخر بعد عودة سليم من مصر ، وذلك علي الرغم من محاولة المجر الاستفادة من انشغال الدولة في حملاتها الشرقية ، وإعتدائها علي منطقة إيزورنيك التابعة للعثمانيين. فلما أرسل أحد چاوشية الديوان الهمايوني للملك المجر يحيطه علماً بوفاة سليم وتولي سليمان ، أهين سفير السلطان في الوقت الذي قامت فيه القوات المجرية بالاستيلاء علي مركز إمارة سنجق البوسنة .

وهكذا ، أراد الوزير الأعظم پيري محمد باشا التمكين للسلطان الشاب في أوروبا باصراره علي تجريد حملة علي بلجراد التي كانت تعتبر مفتاح بلاد المجر . ولذلك، كلف دانشمند رئيس بحراسة سواحل نهر طونه ، وصدرت الأوامر لأمرأء الحدود وفرق المهاجمين (آقينجيلر) بها الموجودة تحت قيادة أمير البوسنة بشن الهجمات علي طول حدود المجر . ولما خرج السلطان علي رأس الجيش ، أمكن فتح قلعة بوكوردلن الإستراتيجية علي نهر صوا والمناطق المحيطة ببلجراد ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الوزير الأعظم پيري باشا يشدد الحصار علي مدينة بلجراد نفسها . وبعد حصار المدينة لمدة شهر تقريباً ، أثر محافظ قلعتها طلب الأمان ، وقام بتسليمها في أغسطس ١٥٢١م/رمضان ٩٢٧ . وبعد تحصين المدينة ، عين عليها أمير البوسنة السابق بالي بك ابن

العثماني كان قد وجه الأمر لكل من القائدين للقضاء علي حركة جانيردي الغزالي في الشام ، غير أن فرهاد باشا كان قد وصل متأخراً ، الأمر الذي مكن شهبسوار من تحقيق الغلبة علي جانيردي وقطع رقبته وإرسالها للسلطان ، الأمر الذي أشغل الغيرة في نفس فرهاد باشا ودفعه للإدعاء بأنه يعد للخروج علي الدولة ، ليحقق انجازاً وهمياً بضم إمارة ذو القدر للأراضي العثمانية ، فيما يتعلق بضم إمارة ذو القدر للأراضي العثمانية والملابسات المحيطة بها ، أنظر : Hasan Basrı Karadeniz, " Osmanlı Devletinin Beylikleri İlhak Siyaseti ve Dulkadirli Beyliği'nin İlhakı ", Türkler, Ankara 2002, IX/490 vd. ; R. Yınanç, Dulkadır Beyliği, Ankara 1989, s.133 vd.

يحي باشا . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت بلجراد واحدة من أهم مراكز تجمع الجيش العثماني في الحملات الأوروبية ، حتى أطلق عليها إسم " بلجراد دار الجهاد " ٢٢١ .

فتح جزيرة رودس : كانت رودس تعد خط المواجهة الأول لأوروبا بعد تصفية العر الصليبية في الشام . ومنذ ذلك الحين ، ونظراً لموقع الجزيرة الإستراتيجي ، كان أمراء الجزيرة يقومون بدور كبير في قطع الطريق علي سفن التجار والحجاج المسلمين . وإذا كانت الحملة التي جردها السلطان محمد الفاتح لفتح رودس قد فشلت ، إلا أن حرص العثمانيين علي فتحها قد زاد عقب قيام أمراء الجزيرة بسدور كبير في استعمالهم سلطان ضد الدولة خلال عهد بايزيد ، وبعد ضم أملاك الدولة المملوكية في مصر والشام للأراضي العثمانية وضرورة تأمين خطوط مواصلات تلك المناطق مع استانبول . ولذلك ، اتخذ السلطان سليم تدابير للخروج لفتحها وأعد الأساطيل اللازمة لذلك ، ولكن لم يُقدر له ذلك أيضاً .

وعلي الرغم من وجود مثل هذه الأسباب الموجبة لخروج الحملة ، كان عدد من رجال الدولة يعترضون علي تجريدها نظراً لشهرة أمراء الجزيرة وتحصيناتها القوية وإمكانية تقديم أوروبا المساعدات اللازمة لها وأخفاق العثمانيين في فتحها من قبل . ولكن ، مرة أخرى يقف الوزير الأعظم پيري محمد باشا والوزير الثاني جويان مصطفى باشا إلي جوار السلطان الشاب ، ويؤيده لخروج هذه الحملة . وفي الوقت الذي كانت فيه أخبار خروج العثمانيين لحملة علي رودس قد وصلت لأمير الجزيرة ويليادو ليل أدام الذي أسرع لطلب المساعدة من حلفائه بابا روما وفرنسا ، كان جويان مصطفى باشا الذي عين سرداراً علي الحملة يقود الأسطول الذي أعده سليم الأول لهذا الغرض مسن قبل بعد إكماله (٧٠٠ قطعة بحرية) متجهاً صوب الجزيرة ببحراً ، والسلطان سليمان يقود الجيش العثماني برأ في مايو ١٥٢٢ / رجب ٩٢٨ .

²²¹ أنظر في هذا الخصوص : H.G. Yurdayın, " Kanunînin Cülûs ve İlk

Seferleri, Ankara 1961, s.45 vd.

قام مصطفى باشا بنشر سفن أسطوله حول الجزيرة لمنع أية مساعدات قد تأتي إليها من الخارج وشرع في حصارها ، إلا أن حصانة الجزيرة أدت إلى طول فترة الحصار. وفي هذه الأثناء صدرت الأوامر بتعيين مصطفى باشا إلى والياً مصر علي إثر وفاة خاير بك ، حيث كلف الوزير الثاني أحمد باشا بقيادة الحملة بدلاً منه . ولما وصل السلطان سليمان إلى الجزيرة وأحكم الحصار عليها ، وأيقن أمير رودس عدم امكانية وصول المساعدات إليه ، اضطر لتسليم الجزيرة وفقاً للشروط التالية :

١. منح الحرية للمسيحيين الذين يرغبون في البقاء في الجزيرة .
٢. عدم أخذ جند لفرق القابو قولي بنظام الديوشيرمه من سكان الجزيرة .
٣. اعفاء سكان الجزيرة من الضرائب لمدة خمس سنوات .
٤. مغادرة الراغبين في ترك الجزيرة خلال ثلاث سنوات .
٥. جلاء قوات الفرسان عن الجزيرة وتسليمها خلال اثني عشر يوماً .

وهكذا ، عين مصلح الدين رئيس علي إمارة سنحق رودس في أواخر ديسمبر ١٥٢٢/ أوائل صفر ٩٢٩ ، حيث قام بمباشرة تنفيذ بنود الاتفاقية ، وراح فرسان الجزيرة يغادرونها إلى جزيرة مالطة . وعقب فتح رودس ، فتحت أيضاً جزر استانكوي وسومبكي وعدد من القلاع الموجودة علي سواحل الأناضول التي كانت تابعة لفرسان الجزيرة ، وأطلق سراح ما يقرب من ثلاثة آلاف أسير من المسلمين في تلك القلاع^{٢٢٢} .

²²² تحدث الروايات المعاصرة عن حرص سليمان القانوني علي البحث عن أبناء جم سلطان الذين كانوا ضمن الأسري ، فوجدهم وقد ارتدوا عن الإسلام بعد نفي جم في فرنسا وروما ، فضم بناته لنساء السراي العثماني ، أما أبنائه فقد طالبهم بالعودة للإسلام ، فلما أبوا أمر باعدامهم كمرتدين حتي لا تحاول أوروبا استخدامهم ضد الدولة مرة أخرى ، فيما يتعلق بحملة رودس وأهم نتائجها ، أنظر : Ş. Turan, " Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına ", Kanunî Armağanı, Ankara 1970, s. 33vd.; keza bk. ; H.G. Yurdaydın, " Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri, Ankara 1961, s. 23-26

عصيان المماليك في مصر : لما وصل الوزير الثاني چوبان مصطفى باشا

إلى القاهرة والياً على مصر بدلاً من خاير بك (٢٣ أكتوبر ١٥٢٢ / ٢٣ ذي القعدة ٩٢٨)، أحدث تغييرات عديدة في مؤسسات الولاية وتشكيلاتها ، حيث ألغى ما بقي من مؤسسات وتشكيلات مملوكية في مصر وأحل محلها مؤسسات وتشكيلات عثمانية ، وأبطل العديد من الوظائف والأعراف المملوكية ، الأمر الذي دفع من بقي من ممالك في مصر للخروج على الإدارة العثمانية في حركات عصيان متتالية .

ففي جمادي الآخرة ٩٢٩ / مايو ١٥٢٣ ، خرج العديد من أفراد الجهاز الإداري السابق لخاير بك وعلي رأسهم قانصوه ومصريا ساعين لإحياء دولة المماليك من جديد . وإذا كان مصطفى باشا قد أحاط علماً بهذه الحركة في وقت مبكر ، وتمكن من إحباطها والقضاء على تنفيذها ، إلا أن بعض الكشاف المماليك في عدد من ولايات مصر وعلي رأسهم حاتم السيفي كاشف الفيوم والبهنسا ، قاموا بحركة عصيان أخرى بعد ثلاثة أشهر من الحركة الأولى . وكانت هذه الحركة تحمل نفس أهداف الحركة السابقة وتسعى للقضاء على النظام العثماني وإعادة التشكيلات المملوكية من جديد . والحقيقة أن أمير أمراء مصر لم يستطع القضاء على هذه الحركة إلا بعد إستمالة العديد من الأمراء المماليك ومشايخ العربان في ولايات مصر بمختلف الوسائل . ولما وصلت أنباء هذه الحركات العثمانية إلى استانبول ، جُردت حملة كبيرة تحت إمرة السدتردار درويش باشا ، إلا أن هذه القوات وصلت بعد القضاء على هذه الحركات بمساعي مصطفى باشا^{٢٢٣} .

لقد سكنت الأوضاع في مصر عقب وصول القوات العثمانية ، ولكن سكون قبل العاصفة . فعلى أثر تعيين الوزير الثاني أحمد باشا والياً على مصر في أغسطس ١٥٢٣ / شوال ٩٢٩ بدلاً من مصطفى باشا ، وسعيه للاستفادة من القوي المملوكية في

²²³ فيما يتعلق بمحاولات ممالك مصر إحياء دولتهم عقب وفاة سليم وتولية سليمان ، أنظر :

Seyyid Muhammed es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990, s. 73-76

الولاية ، والاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، اضطرت الأوضاع في مصر مرة ثانية . فقد قام أحمد باشا بتشكيل فرق عسكرية من الأحباش وأعاد التشكيلات المملوكية العسكرية والإقطاعية من جديد ، وأعاد قاضي العسكر والدفتردار إلى الآستانه ، وتعقب جنود القابو قولي الموجودين في مصر بالقتل والحبس . فلما وصلت هذه الأخبار للآستانه ، أرسل أمراً شريفاً لقره موسى بك الموجود بالقاهرة ، يأمره فيه بإعدام أحمد باشا وتولي شئون مصر ، إلا أن هذا الفرمان سقط في يد أحمد باشا الذي أسرع بقتل قره موسى وأعلن عصيانه وسلطته في مصر ، وجعل الخطبة والسكة بإسمه ، وأحكم سيطرته على قلاع ومواني مصر ، وقطع كافة علاقته بالآستانه .

وإذا كان أحمد باشا قد نحي الكثير من خدم الدولة عن إدارته ، إلا أن العديد من احتل وظائف هامة في حكومته كانوا يحافظون سراً على طاعتهم للسلطان العثماني ، وكان من هؤلاء وزيره الأعظم قاضي زاده محمد بك . استطاع قاضي زاده تشكيل جبهة سرية من المؤيدين للدولة في مختلف أنحاء مصر ، حيث تمكنوا من محاصرة الباشا بينما كان في أحد الحمامات خارج القلعة . وإذا كان أحمد باشا قد استطاع الفرار ، إلا أن المؤيدين للدولة ممن بقي من جند القابو قولي تمكنوا من السيطرة على القلعة ، وتعقب الباشا الخائن الذي فر إلى مشايخ عرب الشرقية ، حيث قبض عليه هناك وأعدم . وبينما كان الوفد الذي يحمل رأس الباشا العاصي في طريقه لإستانبول ، صادف في الشام الحملة التي كانت الدولة قد جردتها للقضاء على حركة أحمد باشا ، فعادت الحملة من توها .

ومهما يكن من أمر ، فقد تركت حركات العصيان المتتالية تلك ولاية مصر غرقى في حالة من الاضطراب الإداري والمالي ، الأمر الذي دفع السلطان سليمان القانوني لتعيين وزيره الأعظم إبراهيم باشا علي مصر (٣٠ سبتمبر ١٥٣٤ / أول ذي الحجة ٩٣٠) لإعادة تنظيم إدارتها من جديد ، ووضع القوانين العامة التي تكفل لها توطيد علاقتها مع مركز الدولة والتي عرفت باسم "مصر قانون نامه سي" . ولم يغادر إبراهيم باشا مصر إلا بعد أن وضع الأساس لنظام إداري ومالي خاص بمصر ، عرف

باسم " نظام الساليانه " ، حيث ترك مهمة إدارة الأيالة لسليمان باشا الخادم وعاد إلى الأستانه في ١٤ يونية ١٥٢٥ / ٢٢ شعبان ٩٣١ بعد أن قضى في مصر نحو ثمانية أشهر لتنظيم أحوالها^{٢٢٤} .

الدولة العثمانية دولة عالمية

لقد ورثت الدولة العثمانية أملاك دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن ، فواجهت البرتغال في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والصفويين في شرقي الأناضول والعراق . ولما نشطت الحركة الشيعية في الأناضول وحاولت الدولة الصفوية بسط نفوذها علي المنطقة ، صدت لها الدولة العثمانية حامية الحرمين الشريفين وممثلة الخلافة الإسلامية في العالم الإسلامي . وتفككت دولة التون أوردو في استراخان وقازان والقرم ، فدعمت الدولة خانية القرم لمواجهة الأطماع الروسية ، وحاولت إمبراطورية الهابسبورج السيطرة علي أوروبا ، فلعبت دوراً هاماً للحد من أطماعها في وسط أوروبا والبحر المتوسط وشمال أفريقيا ، وتصدت للتحالفات الصليبية - الشيعية في الشرق والغرب بعد أن وحدت العالم الإسلامي السني تحت قيادتها . وهكذا ، فتحت

²²⁴ تذكر المصادر المعاصرة الظروف التي احاطت بمطالبة الوزير الثاني أحمد باشا بولاية مصر ، وتعيينه عليها ، والأسباب التي أدت لضرورة توجه الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر لإصلاح شئونها ، ووضع نظام دائم لها ، فتشير إلي أن تعيين إبراهيم أغا في مقام الوزارة العظمى خلافاً للقانون المعمول به في الدولة ، وتجاوز الوزير الثاني أحمد باشا ، أغضب الأخير وراح يحدث هرجاً في الديوان الهمايوني مطالباً بتعريضه عن هذا المنصب بتعيينه علي مصر ، الأمر الذي جعله يتجه إلي مصر علي نية العصيان هناك ، والاستقلال بها مستفيداً بأوضاعها المضطربة ورغبة المماليك في الإطاحة بالحكم العثماني في مصر . فلما أعلن عصيانه ، واضطربت الأوضاع في مصر للغاية ، أمر السلطان سليمان الصدر الأعظم إبراهيم بالتوجه للولاية لتنظيم إدارتها ووضع قوانين ولوائح دائمة لها عرفت باسم " قانون نامه مصر " . أنظر في هذا الخصوص : Seyyid Muhammed es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990, 77-90; keza bk. "Mısır Eyaleti'nde Osmanlı Nizamının Kuruluşu", Osmalı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291 vd

في عهد سليمان القانوني العديد من الجبهات ، وفُرضت علي الدولة الكثير من المواجهات إما للذود عن دينها ضد المخططات الصليبية والشيعية أو لتدعيم مكانتها ونفوذها في الشرق والغرب والجنوب والشمال .

حملات سليمان القانوني في بلاد المجر :

منذ أن انتقل العثمانيون إلي أوروبا ، وخلال مدة تربو عن قرن ونصف من الزمان لعبت المجر دور الداعم الأول لخصماء الدولة أو الخصم اللدود لها . وهكذا ، استمرت المواجهات المتبادلة بين الطرفين حتي انتهت بالقضاء علي مملكة المجر ، وإلحاقها بأمالك الدولة العثمانية . ولذلك ، كان إلحاق المجر بالأراضي العثمانية من أولويات السلطان سليمان القانوني في هذه المرحلة حتي يمكنه إحكام السيطرة علي منطقة البلقان، والقضاء علي الداعم الأول لها . والحقيقة أن هجمات القوات الحدودية ازدادت باطراد منذ فتح بلجراد علي بلاد المجر والخروات وترانسلفانيا ودالماتيا .

حملة المجر ومعركة موهاج (٢٩ أغسطس ١٥٢٦ / ٢٠ ذي القعدة

٩٣٢) : أرسل السلطان سليمان وزيره الأعظم وأمير أمراء الروميلي إبراهيم باشا إلي بلاد المجر علي رأس قوة استطلاعية ، ثم تحرك بنفسه علي رأس قوة تبلغ ١٠٠ ألف فرد في ٢٣ إبريل ١٥٢٦ / ١١ رجب ٩٣٢ . وخلال ثلاثة أشهر ، تكامل الجيش العثماني بعد وصول فرسان سباهية التيمار في الأناضول والروميلي إلي بلجراد . وهكذا ، بدأ الصدر الأعظم بفتح مدينة بترو وارادين ، وتمكن أمراء البوسنة من فتح القلاع الموجودة في منطقة سيرم وعلي طول نهر طونه (يوليه / شوال) . ولما علم ملك المجر ليوش الثاني بالزحف العثماني علي بلاده ، راح يتخذ استعداداته للمواجهة ويطلب المساعدة من ملوك وأمراء أوروبا .

أخذ الجيش المجري مواقعه عند وادي موهاج ، وكان يتشكل من ١٥٠ ألف مقاتل ، علاوة علي نحو ٧٠ ألف من المتطوعين من مختلف الدول الأوروبية يقودهم ملك المجر بنفسه . أما الجيش العثماني فكان يبلغ تعدادة نحو ٣٠٠ ألف جندي يقودهم

السلطان العثماني بنفسه . وقد أخذ الوزير الأعظم وأمير أمراء الروميلي إبراهيم باشا مكانه في الجناح الأيمن من الجيش العثماني ، أما أمير أمراء الأناضول بهرام باشا فكان في الجناح الأيسر ، والسلطان وأغا اليكيجري وجند القابوقولي في الوسط . وكانت القيادة العثمانية قد أعلنت منذ البداية أن هدف الحملة هو عاصمة مملكة المجر في بودين^{٢٢٥} .

بدأت المعركة في عصر يوم ٢٩ أغسطس ١٥٢٦/ ٢٠ ذي القعدة ٩٣٢ بتكتيك عثماني مبتكر ، أوقع الجيش المجري في مرمي المدافع العثمانية ، حيث حرج الملك ليوش وتوفي في أرض المعركة ، وإلحزم جيش الحلفاء خلال ساعتين من النهار ، وتعقب الجيش العثماني فلوله للحيلولة دون تجميع قوته مرة ثانية .

وعندما وصلت القوات العثمانية أمام بودين في ٢٠ سبتمبر/ ٤ ذي الحجة ، كان أهالي المدينة قد فروا منها ، ولم يبق فيها سوى مجموعة من اليهود يرأسهم يهودي يدعي صالامون بن يوسف الذي قام بتسليم مفاتيح قلعة بودين للسلطان سليمان . وبذلك فتح مركز مملكة المجر دون قتال ، وانتزع مقر عرش المجر دون إعدام أي شخص ، حيث أقام فيها السلطان سليمان نحو أربعة عشر يوماً ، وعند عودته فتحت سكاكين وبعض المدن الأخرى .

لم يكن للملك المجر المقتول وريث لعرش المجر ، ولذلك انتخب بعض أمراء المجر حاكم أردل جون زابوليا ملكاً على المجر (١٥ نوفمبر ١٥٢٦/ ٣ محرم ٩٣٣) . وبعد أن أجريت مراسم جلوس زابوليا على عرش المجر ، غادر الجيش العثماني بودين . ولما كان زابوليا على خلاف مع الملك السابق ، لم يرض أمراء شرقي المجر في ترانسلفانيا

²²⁵ بخصوص معركة موهاج ، والمراحل التي مرت بها الدولة في فتوح بلاد المجر ، أنظر : Geza

Perjes, Mohac Meydan Muharabesi, özet ve tanıtma: Şerif Baştav, Ankara 1988; M. Tayib Gökbilgin, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macaristan ve Avrupa Siyasetinin Sebepleri ve Amilleri Geçirdiği Safhaları ", Kanunî 'ya Armağan, TTK.yay. Ankara 1970 , s. 213 vd.

بزابوليا ملكاً علي كل بلاد المجر ، واختاروا زوج أخت ملك المجر المقتول دوق النمسا وشقيق إمبراطور الهابسبورج فرديناند ملكاً علي المجر ، حيث عقد إمبراطور الهابسبورج شارلكن المجلس العرفي الذي أقر بأن فرديناند هو الملك الشرعي للمجر وأن زابوليا خارجاً عليه . وهكذا ، اجتمع أمراء المجر ورفضوا زابوليا ، ودعوا فرديناند وتوجوه ملكاً علي المجر . وبذلك ، أصبح للمجر ملكان ، زابوليا الواقع تحت الحماية العثمانية وفرديناند الموجود تحت حماية الإمبراطور شارلكن ، حيث بدأ الصراع العثماني النمساوي الطويل علي بلاد المجر^{٢٢٦} .

حصار فيينا الأول : قام فرديناند باحتلال بودين عقب عودة الجيش العثماني

، وألحق الهزيمة بزابوليا الذي التحأ إلي ملك لهستان سيجموند ، ثم عرض علي الدولة العثمانية قبوله ملكاً علي المجر مقابل دفع الخراج السنوي ، إلا أن الدولة رفضت وطالبته بإعادة المجر لزابوليا . وهكذا ، خرج السلطان سليمان إلي بلاد المجر ثانية علي رأس جيش يقدر بـ ٢٥٠ ألف فرد في ١٩ مايو ١٥٢٩ / ٢ رمضان ٩٣٥ ، فالتقي بزابوليا في وادي مهاج ، حيث شرع في محاصرة بودين التي لم تقاوم كثيراً ، واضطرت للتسليم . وبذلك ، أعيد زابوليا ملكاً علي المجر وألبس تاج المجر ودفع الخراج للسلطان العثماني .

والحقيقة أن الجيش العثماني لم يواجه أية مقاومة عند تعقبه لفلول قوات فرديناند ، حيث وجد أمامه الطريق مفتوح حتى أسوار فيينا . وكان فرديناند قد قام بنحسين فيينا ، وترك لحمايتها ١٦ ألف فرد ، ثم راح يجول في أوروبا لجمع المتطوعين . هكذا ، باشر العثمانيون حصار فيينا ، حيث أمر السلطان سليمان حاميتها بالتسليم . وعلي أثر رفضها الطلب قامت القوات العثمانية بالتضييق علي قلعة المدينة بإستخدام الألغام لفسح ثغرات في أسوارها . ولكن الحقيقة أن حصار فيينا لم يكن من بين أهداف هذه الحملة التي كان غرضها الأساسي إعادة إجلال زابوليا علي عرش المجر ، ولذلك لم

²²⁶ أنظر في هذا الخصوص : Kanunî Sultan M. Tayib Gökbilgin, " Süleyman'ın Macaristan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiği Safhaları ", 44-52 .

يكن سليمان القانون قد اتخذ التدابير اللازمة للحصار ، ولم يحضر المدافع الكبار والمؤن اللازمة للجيش . وهكذا ، اضطر السلطان العثماني لرفع الحصار عن المدينة بعد ثلاثة أسابيع من بدايته بسبب اقتراب موسم الشتاء وشدة برودة الجو ، حيث تم تبادل الأسري بين الطرفين ، وعاد السلطان إلي بودين بنحو ٦٠ ألف أسير (١٤ أكتوبر ١٥٢٩ / أول صفر ٩٣٦)^{٢٢٧} .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان حصار العثمانيين لفيينا سبباً لحدوث هياج عظيم في كافة أنحاء أوروبا ، حتي أن مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستنتي راح يخطب خطابه الشهير ضد العثمانيين لإثارة حماسة المتطوعين ، وطلب شارلكن من عدوه ملك فرنسا فرانسوا الأول بإسمه وبإسم بابا روما الإنضمام للحلف المزمع تشكيله ضد العثمانيين ، واضطرت البندقية التي كان لها مصالح تجارية في الأراضي العثمانية للتعامل مع العثمانيين والحلفاء بوجهين لتلبية النداء .

الحملة الثالثة علي بلاد المجر (حملة الألمان) : وإذا كانت الدولة

العثمانية قد رفضت مرة أخرى طلب فرديناند الاعتراف به ملكاً علي المجر مقابل دفعه الخراج للعثمانيين ، وتمسكت زابوليا ملكاً علي بلاد المجر ، إلا أن الأخير لم يستطع فعلاً السيطرة علي مقاليد الحكم في البلاد . فلما قام أمير سيكتوار التابع له بحركة عصيان ، أرسل زابوليا قوة كبيرة لتأديبه . عندئذ انتهز فرديناند الفرصة ، واستولى علي قلاع استرغون وويشه جراد وواج ، ثم توجه لمحاصرة بودين ، فقام زابوليا بطلب المساعدة من أمير سمندره . فلما علم فرديناند بعودة الجنود من سيكتوار ووصول قوات الحدود مع أمير سمندره وأمير البوسنة ، رفع الحصار الذي استمر نحو ٥٧ يوماً عن المدينة .

وصلت الأنباء إلي إستانبول بقيام فرديناند بحصار بودين ، عندئذ خرج السلطان سليمان إلي بلاد المجر في ٢٥ إبريل ١٥٣٢ / ١٩ رمضان ٩٣٨ ، وتحرك الجيش

²²⁷ حول حصار فيينا الأول ، والظروف التي أدت لفشل هذا الحصار ، أنظر : Uzunçarşılı,

العثماني الذي كان يتشكل من ٢٠٠ ألف جندي و ٨٠ ألف من قوات الحدود ونحو ٣٠٠ مدفع ، تحرك شمال وغرب بلاد المجر ، حيث آثرت العديد من القلاع في تلك المناطق التسليم بدون قتال . وإذا كان السلطان سليمان قد خرج لهذه الحملة بعد أن دعي شارلكن لمواجهته علي الأراضي المجرية ، وعلي الرغم من أن القوات العثمانية قد دخلت في عمق الأراضي الألمانية ، إلا أن شارلكن لم يشأ الخروج للقتال . ولذلك ، بدأ الجيش العثماني في العودة بعد أن فتح نحو خمسة عشر قلعة في طريق فيينا ، وذلك في أواخر نوفمبر ١٥٣٢ / ٢٣ ربيع الآخر ٩٣٩هـ .^{٢٢٨}

وهكذا ، ذهبت جميع محاولات فرديناند لحكم المجر أدراج الرياح ، حيث أوصاه شارلكن بالتفاهم مع العثمانيين . فكان لهذه الرغبة عند العثمانيين صدي أيجابياً نظراً للتحركات الصفوية علي الجبهة الشرقية في شرقي الأناضول . وبذلك اتفق الطرفان علي بنود الصلح في يولييه ١٥٣٣ / ذو الحجة ٩٣٩ ، حيث جاء فيها :

١ . عدم تعدي فرديناند علي أراضي زابوليا .

٢ . تحديد الحدود بين الطرفين ، حيث قسمت أراضي المجر قسمين : قسم يحكمه زابوليا تحت الحماية العثمانية ، وقسم يحكمه فرديناند ويدفع عنها الخراج لسليمان .

٣ . التصديق العثماني علي أي اتفاق يعقد بين زابوليا وفرديناند حتي يصير ساري المفعول .

٤ . دفع فرديناند ٣٠ ألف ذهبية للخزينة العثمانية سنوياً مقابل ترك بعض الأراضي المجرية في حوزته .

²²⁸ جول حملة ألمان ونتائجها ، أنظر : Ö. Kumrular, " İspanyol Kaynakları Işığında Kanunî'nin Alman Seferi ", Tarih ve Toplum, XXXVI/216, Aralık 2001.

٥. إرسال شارلكن سفير من طرفه لعقد الصلح مع العثمانيين بعد الإتفاق مع فرديناند .

٦. يحتفظ العثمانيون بحقوقهم في نقض الصلح ، إذا لم يقيم شارلكن بعقد الصلح معهم .

٧. ارتباط سريان مفعول المعاهدة بمدى التزام فرديناند بينودها^{٢٢٩} .

بلاد المجر بعد معاهدة ١٥٣٣م / ٩٣٩هـ :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية منشغلة في حروبها الشرقية مع الصفويين والبحرية مع شارلكن وحلفائه ، كانت قوات فرديناند تنقض العهد مع الدولة وتقوم بالتعدي علي حدودها . إلا أن قوات أمراء الحدود تمكنت من التصدي لهذه الإعتداءات ودحرها عام ١٥٣٧م / ٩٤٤هـ . وعلي أثر وفاة زابوليا عام ١٥٤٠م / ٩٤٧هـ ، وبينما كانت أرملته إيزابيلا تطلب من السلطان العثماني تعيين أبنها الصغير ملكاً علي المجر محل أبيه ، قام فرديناند وقوات شارلكن بمحاصرة بودين . وإذا كان هذا الحصار قد أخفق ، إلا أنه أسهم في دفع سليمان القانوني للخروج في حملة جديدة علي المجر .

تشكيل إمارة أمراء بودين : أسرع القانوني بتجريد حملتين سريعتين

تحت قيادة أمير أمراء الروميلي والوزير الثالث صقوللي محمد باشا للحيلولة دون سقوط بودين ، ثم خرج بنفسه علي رأس الجيش في ربيع ١٥٤١م / ٩٤٨هـ . فلما علم فرديناند بوصول الجيش العثماني ، رفع الحصار عن المدينة ، وانسحب بجيشه . وهكذا ، دخل السلطان سليمان بودين ، حيث أرسل إليه فرديناند سفيراً يرفع إليه طلب تعيينه علي بلاد المجر بدلاً من سيجسموند بن زابوليا مقابل زيادة الخراج الذي يدفعه

Ö. Kumrular, " İspanyol Kaynakları Işığında Kanunî'nin 229
Alman Seferi ", Tarih ve Toplum, , s. 213 vd.

للعثمانيين. إلا أن السلطان رد عليه بقوله : " فالترفع يدك عن بلاد المجر ، وتندفع الخراج عن أراضي النمسا نفسها ، وليس هناك طريق آخر للصالح بيننا " ٢٣٠ .

وهكذا ، أبلغ السلطان سليمان القانوني أرملة زابوليا بأن الجيوش العثمانية سوف تقوم بالسيطرة على بودين لحمايتها من فرديناند حتى يكسر الملك الصغير سيجسموند ، حيث أرسله مع أمه الوصية عليه إلى إمارة أردل تحت الحماية العثمانية. وبذلك ألحقت أراضي المجر التي كانت موجودة تحت سيطرة زابوليا بالأراضي العثمانية مباشرة ، حيث شكلت منها إمارة أمراء بودين التي قسمت إلى ١٢ سنحقا ، وعين عليها سليمان باشا المجري الأصل ، وكلف بتحرير بقية أراضي المجر .

وعقب عودة الحملة إلى إستانبول ، عاد فرديناند وحاصر بودين ثانية ، مما أجبر السلطان للخروج إليه بنفسه في ٢٣ إبريل ١٥٤٣ / ١٨ محرم ٩٥٠ . فلما سمع فرديناند بخروج السلطان إليه ، راح يرفع الحصار عن المدينة . عندئذ ، تعقب الجيش العثماني فرديناند ، حيث انتزع خلال هذه الحملة من أراضي مدينة أسترغون التي كانت المقر القديم للملك المجر ، ومدينة أستيوني بلجراد التي كانوا يتخذونها موقداً لهم ، كما سقطت مدينتي شكولوس ووالبو الواقعتان على نهر دراوا . وهكذا ، اضطّر فرديناند لتوقيع هدنة مع العثمانيين مدتها خمس سنوات ، حيث قضت هذه الهدنة بتنازل الدولة عن بعض المناطق التي فتحت ، ودفع فرديناند مبلغ ٣٠ ألف ذهبية للتخزين العثمانية . وقد شارك في هذه الهدنة شارلكن والبابا وملك فرنسا والبندقية (٩ يونيو ١٥٤٧ / ١١ ربيع الآخرة ٩٥٤) ٢٣١ .

²³⁰ نقلاً عن : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/342 vd.

²³¹ بخصوص حملة السلطان سليمان القانوني المعروفة باسم " أسترغون " أنظر : İ. Miroğlu,

Kanunî Sultan Süleyman'ın Estergon Seferi", Osmanlı Araştırmaları, X, (1990), 137-159; keza bk. Gabor Agoston, "Macaristan'da Osmanlı-Habsburg Serhadı (1541-1699) : Bir Mukayese", Osmanlı , I/434-451

حل مشكلة أردل وتشكيل إمارة أمراء طمشوار : كانت الملكة إيزابيلا

الوصية علي وريث عرش المجر سيحسموند تقع تحت الحماية العثمانية خلال هذه المرحلة، وكان أحد مستشاريها يؤيد فرديناند ، حيث راح يسعى لتنحية إيزابيلا ، ويمهد الطريق لفرديناند ليحل محلها . وإذا كانت الدولة قد أُحيطت علماً بهذه الخطة ، إلا أنها كانت منشغلة خلال هذه الفترة في الحملة علي الصفويين . ولذلك ، أكتفى السلطان سليمان بتعيين صقولي محمد باشا سراداراً علي رأس حملة قوامها ٨٠ ألف رجل ، حيث قامت هذه الحملة بفتح عدة قلاع وحاصرت طمشوار ، غير أن سوء الطقس أجبرها علي العودة لبلجراد دون أن تتم مهمتها (١٥٥١م/٩٥٨هـ) . وعلي أثر انسحاب صقولي محمد باشا بجيشه، تمكن الجيش النمساوي من دخول أردل ، حيث احتل عدداً من القلاع في المنطقة وحاصر سكدين .

قام أمير سكدين المحاصر بإبلاغ أمير أمراء بودين خادم علي باشا بالأمر . وإذا كان علي باشا قد تمكن من فك الحصار عن سكدين ، إلا ان الدولة اضطرت لتجريد حملة علي المجر تحت قيادة الوزير الثاني أحمد باشا لحماية إمارة أردل (٢٣ إبريل ١٥٥٢ / ١٩ ربيع الآخرة ٩٥٩) . فتوجهت الحملة مباشرة صوب طمشوار، حيث حاصرت قلعتها التي سقطت بعد ٣٥ يوم من بدء الحصار ، وأسر قائدها ، وأستعادت منطقة ليبوا ، وفتحت ويسهرم . وبذلك سيطرت الدولة علي المناطق الشمالية من إمارة أردل . ونظراً لأهمية هذه المناطق المفتوحة ، قامت الدولة بضمها لأراضي الدولة ضمّاً مباشراً ، وشكلت منها إمارة أمراء طمشوار .

والحقيقة أن المصادمات بين القوات الحدودية العثمانية وبين القوات النمساوية، ومحاولات فرديناند المتكررة للحصول علي تنازل من السلطان سليمان حتي يمكنه بسط النفوذ علي إمارة أردل لم تتوقف حتي أصبح إمبراطوراً علي ألمانيا بعد أن تنحي شارلكن عن العرش في ١٥٦٢م/٩٧٠هـ . ومنذ ذلك الحين ، أعلن الإمبراطور الجديد فرديناند تخليه عن المطالبة بحكم إمارة أردل ، حيث قام بتوقيع معاهدة سلام مع الدولة العثمانية

تقضي بدفعه مبلغ يقدر بـ ٣٠ ألف دوقه مقابل قبول الدولة بترك الأراضي الموجودة تحت يده من المجر^{٢٣٢} .

حملة السلطان سليمان على البغداد : كانت البغداد قد خضعت للنفوذ

العثماني عقب فتح السلطان بايزيد الثاني لمدينتي كيللي وآق كرمان عام ١٤٨٤م/ ٨٨٩هـ . وإذا كان أمراءها قد تقاعسوا عن دفع الخراج للدولة العثمانية خلال فترة إنشغالها في حملات مصر وإيران ثم المجر ، إلا أنهم اضطروا لدفع الخراج للسلطان عند عودة الجيش العثماني من حصار فيينا الأول (١٥٣٠م/ ٩٣٦هـ) . والحقيقة أن أمير البغداد بتروراراش لم يستطع مقاومة الضغوط الخارجية عليه للخروج ضد الدولة العثمانية ، حيث اتصل بملك النمسا فرديناند وعقد عدة مباحثات معه ، الأمر الذي أوجب على الدولة تجريد حملة لتأديبه . وهكذا ، خرج السلطان سليمان بنفسه على رأس الحملة دون إعلان وجهتها في يولييه ١٥٣٨/ صفر ٩٤٥ ، حيث شارك فيها خان القرم صاحب گراي بقوة قوامها ٢٠٠ ألف رجل . ولما وصل أمير البغداد خبر خروج السلطان إليه ، أرسل سفيراً يتعهد أمام السلطان برعاية بنود المعاهدة مع العثمانيين . إلا أن رفض أمير البغداد المحيئ إلى مركز قيادة الجيش العثماني لتقدم فروض الطاعة ، دفع السلطان العثماني باصدار أوامره للجيش بعبور نهري طونه وبروت والتوجه لبلاد

²³² فيما يتعلق بالعلاقات العثمانية المجرية في اطار الصراع العثماني - الهابسبورجي ، أنظر : M.

Tayib Gökbişgin, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macaristan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiği Safhaları ", s. 35-67; keza bk. Ali İbrahim Savaş, Osmanlı Devleti ile Habsburg İmparatorluğu Arasındaki Diplomatik İlişkileri", Türkler IX/555-565; P. Fodor- Geza David, " Hungarian – Ottoman Peace Negotiations İn 1512-1514, Hungarian-Ottoman Military and Diplomatic Telations İn The Age Of Süleyman The Magnificent, Budapest 1994.

البغدان . وبذلك اضطر أمير البغدان الذي عجز عن مواجهة الجيوش العثمانية للفرار إلى ترانسلفانيا ، حيث قام ويودا الأفلاق بتشتيت قواته هناك .

وعلى الرغم من التحصين الشديد لعاصمة البغدان سجاو والعاصمة الثانية ياش بازاري ، فقد أدرك أمراء البغدان أنه لا طاقة لهم في مواجهة الجيوش العثمانية ، فأرسلوا مفاتيح القلاع للقوات العثمانية ، وقاموا بالتسليم . وهكذا ، صدر الأمر السلطاني لأمراء البغدان بعقد اجتماع فيما بينهم لاختيار أمير ويودا عليهم . وبالفعل، انتخبوا الويودا استيفان أميراً على البغدان ، حيث وافق السلطان على اختيارهم ، وأجلسه على كرسي المملكة في سجاو ، وقرر في براءة التعيين ضرورة قيام الويودا باحضار خراج البغدان بنفسه إلى الأستانة مرة كل عامين ، ثم أعلن عفواً عاماً في البلاد .

لم يغادر السلطان سليمان بلاد البغدان حتي رسم الحدود بين الأراضي العثمانية وأراضي البغدان ، حيث أعتبر نهر ديستر وبروت حدوداً فاصلة ، وكلف أمير البغدان بإنشاء قلعتين ، وشكلت من المنطقة العازلة بين الطرفين والتي تضم مدينتي كيلى وآق كرمان الإستراتيجيتين إمارة سنجقية تحت إسم "إمارة كيلى وآق كرمان"^{٢٣٣}.

النشاط العلوي في الأناضول وبعده حملاته الحولية على إيران ،

لم تنه حملات السلطان سليم الأول على إيران وضمه لمناطق شرقي الأناضول النفوذ العلوي في تلك المنطقة ، حيث توفي إسماعيل الصفوي (١٥٢٤م / ٩٣٠هـ —) دون أن يعقد أي تفاهم مع العثمانيين حول الأناضول . ولذلك ، استمر التأثير الصفوي

²³³ حول حملة السلطان سليمان على البغدان أنظر : M. Guboglu, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Boğdan Seferi ve Zaferi", Belleten, L/198, (1987), s. 727-805; keza bk. Viorel Panaite, " Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehrinin Küzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan ", Türkler, Ankara 2002, UX/206-218.

علي قيزيلباش الأناضول ، فلم يكن العلويون المنتشرين في الأناضول يترددون في إعلان العصيان كلما سنحت لهم الفرصة وشعروا بانشغال الدولة في حروبها الخارجية . ومن ناحية أخرى ، كانت ممارسات موظفي تحرير الأراضي في الأناضول التي جانبها الصواب واحدة من الأسباب التي دفعت الكثير سباهية التيمار في الأناضول للإلتحاق بجماعات العصاة هؤلاء خلال هذه الفترة .

وهكذا ، ظهرت عدة حركات عصيان في الأناضول أثناء إنشغال الجيوش العثمانية في معاركها ببلاد البحر . فقد ظهرت حركات عصيان قادري خوجه بابا وإبنة شاه ولي ، وبابا ذو النون في بوزوق ، وولي خليفة ، ودوموز أوغلان في أدنة ، ويكجه بك في طرسوس . إلا أن أعظم الحركات العلوية التي أثرت في كافة أنحاء الأناضول تمثلت حركة عصيان قلندر چلي المشهور بإسم " شاه قلندر " ، حيث راحت الدولة الصفوية تؤيد هذه الحركات وتدعمها مادياً ومعنوياً (١٥٢٧/٩٣٣هـ) .

فقد استطاع قلندر چلي جمع نحو ٢٠ ألف من المريدين العلويين ، وهزم بهم العديد من أمراء وولاة شرقي الأناضول ، الأمر الذي أبحر الدولة علي تجريد حملة تحت قيادة الوزير الأعظم إبراهيم باشا لدحر حركته . وإذا كان العصاة قد ألحقوا بالحملة هزيمة في حولتها الأولى ، إلا أن نجاح إبراهيم باشا في إستمالة أمراء العشائر في المنطقة بإعادة المقاطعات التي كانت قد صادرتها الدولة إلى أصحابها ، قد مكّنه من إلحاق الهزيمة بقلندر چلي وقتله ، وتشتيت شمل جماعته (١٥٢٧/٩٣٣هـ) . وبعد مرور عامين (١٥٢٩م / ٩٣٥هـ) خرج في أدنه شخص من القزلباش يدعي سيدي وسيطر علي مناطق إياس وقارص وذوالقدر ، حيث ألتحق به شخص يدعي " انجير به مز " ، غير أن أمير أدنه پيري باشا تمكن من السيطرة علي الموقف بسرعة وقتلها^{٢٣٤} .

²³⁴ أنظر في هذا الخصوص : J. İ. Bacque Grammont, " XVI. Yüzyılın İlk Yarısında Osmanlılar ve Safavîler " Prof. Dr. Bekir Kütükoğlu'na Armağan, İstanbul 1991, 205 vd.; keza bk. Mustafa Akdağ, Celali İsyanları, İstanbul 1995, s. 32 vd.

حملة العراقيين : لم يرسل إسماعيل الصفوي سفراء لتهنئة سليمان بجلوسه علي العرش (١٥٢٠/٩٢٦هـ) . ولما تولي طهماسب الحكم في إيران (١٥٢٤م/ ٩٣٠هـ) ، اتبع سياسة أبيه العدائية ضد الدولة ، حيث راح يرأسل شارلكن وفرديناند ويعرض عليهما التحالف ضد العثمانيين . ولما لجأ أحد أمراء البيت الصفوي ويدعي اولامه سان للعثمانيين ، ولجأ حاكم بتليس شرف خان التابع للعثمانيين لشاه إيران ، وأرسل خان بغداد ذو الفقار خان مفاتيح بغداد للسلطان سليمان القانوني ، قام الشاه طهماسب بمحاصرة بغداد لمدة طويلة حتي تمكن من قتل ذو الفقار والاستيلاء عليها (١٥٣٢م/ ٩٣٩هـ) . ولما كانت الدولة منشغلة في حملات البحر ، قامت بتعيين أولامه خان علي رأس حملة لاستعادة بتليس ، وطلبت من ولاية الأناضول تقديم الدعم اللازم له . وهكذا ، كان فشل أولامه خان في مواجهة شرف خان الذي دعم بالقوات الإيرانية، سبباً في شعور الدولة بضرورة تجريد حملة علي إيران .

عين الوزير الأعظم إبراهيم باشا سرداراً علي حملة إيران في سبتمبر ١٥٣٣ / ربيع الثاني ٩٤٠ . وفي هذه الأثناء ، كان أولامه خان قد تمكن من تحقيق الانتصار علي شرف خان وقطع رقبتة قبل وصول الحملة ، حيث قام بإرسالها إلي الوزير (٢١ أكتوبر ١٥٣٣ / ٨ جمادي الأولي ٩٤٠) . ولما أيقن أولامه خان بعدم قدرته علي مواجهة شمس الدين بن شرف خان ، لجأ إلي الوزير الأعظم ، الذي قام باستمالة شمس الدين بتعيينه علي بلاد أبيه في بتليس ، ووعد أولامه خان بوظيفة أخرى . وأثناء قضاء الجيش الشتاء في حلب قام السردار الوزير باستمالة العديد من أمراء القلاع التابعين للصنزيين ، ثم تحرك في الربيع إلي تبريز التي كان طهماسب قد غادرها في رحلة صيد ، حيث دخلها بدون مقاومه في ١٣ يولية ١٥٣٤ / ٢٢ ذو الحجة ٩٤٠ . وبذلك ، قام إبراهيم باشا بتعيين أولامه خان علي ولاية أذربيجان ، وتنصيب أحد أفراد أسرة آق قويونلي ويدعي مراد بك علي حكومة العراق .

خروج السلطان لحملة العراقيين وخروج بغداد : تحرك سليمان القانوني

من إستانبول متوجهاً إلي بغداد في ١٩ يونية ١٥٣٤ / ٢٨ ذو القعدة ٩٤٠ ، حيث وصل

بعد مرور ثلاثة أشهر ونصف إلى موضع يقال له أوجان بين تبريز وخوي ، فاستقبله الوزير الأعظم هناك ، وقدم حاكم غيلان مظفر خان له فروض الطاعة . وإذا كان السلطان قد خطط لقضاء موسم الشتاء في تبريز ، إلا أنه اضطر للتحرك من تبريز متوجهاً إلى بغداد عن طريق قصر شيرين بعد ٢٧ يوماً . ولما سمع محافظ بغداد تكه لي خان بوصول السلطان العثماني ، غادر المدينة . ودخل السلطان بغداد بدون مقاومة في ١٠ ديسمبر ١٥٣٤ / ٢٤ جمادي الأولى ٩٤١ ، حيث قضى بها نحو أربعة أشهر ، فأمر بتحرير أراضيها ، ووضع نظم دائمة لمؤسساتها وتشكيلاتها ، ثم عاد إلى حاضرة الدولة عن طريق حلب ، ووصل إليها في ٧ يناير ١٥٣٦ / ٤ رجب ٩٤٢^{٢٣٥} .

حماية النفوذ المطلق وبواحد حلقة جديدة من حلقاته الصراخ

مخلى العرش : لقد أصبح منصب الصدارة العظمى خلال عهد سليمان القانوني يزاحم منصب السلطنة نفسه سموً وعظمة ، حيث ظهر التنافس عليه تنافس أبناء السلاطين علي عرش السلطنة . فقد سعي الوزير الثاني أحمد باشا سعيًا حثيثاً للإيقاع بين الوزير الأعظم پيري محمد باشا والسلطان سليمان حتي تمكن من عزله رغبة في أن يتولي هو هذا المنصب السامي ، إلا أنه لما قام القانوني بتعيين أغا دار السعادة إبراهيم باشا في منصب الوزارة العظمى متجاوزاً الأعراف الجارية في الدولة، سعي الوزير الثاني أحمد باشا لتولي ولاية مصر لتعويض ما فقده ، حيث قام بعصيان الدولة هناك والاستقلال بمصر لفترة من الزمن كما ذكرنا آنفاً .

ولما تولى إبراهيم باشا منصب الصدارة العظمى زوجه القانوني أخته ، ومنحه صلاحيات مطلقة عبّر عنها الوزير نفسه عند لقائه بسفراء ملك النمسا فرديناند بقوله : " إن الذي يدير هذه الدولة العظمى هو أنا ، فكل فعل أقوم به مؤكد ولا يرد لأن النفوذ كله في يدي أنا . كل ما أعطيه يكون قد أعطي ، وكل ما أردّه يكون قد ردّ . حتي أن

Feridun Emecen, "İrakayın Seferi", DIA, XIX/117 vd.; keza²³⁵
bk. Bekir Kütükoğlu, Osmanlı – İran Siyasi Münasebetleri,
İstanbul 1962, s. 45 vd.

رغبة السلطان الأعظم في الإحسان بأي شيء لا تتم إلا بتصديقي أنا ، فكل شيء الحرب والسلام والثروة والقوة كلها في يدي ... " ٢٣٦

والحقيقة أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا راح يستخدم الصلاحيات التي منحت له بشكل أشعر السلطان نفسه بأنه يشاركه في الملك ، مما أعطي منافسيه الفرصة للكيد له لدي السلطان العثماني . وكان أولامه خان قد أقنع إبراهيم باشا أثناء حملة العراقين بأن يضيف للقب السردار صفة سلطان ، حيث راح الصدر الأعظم والسردار الأكرم إبراهيم باشا أيضاً يوقع علي المناشير والفرمانات السلطانية بإسم " سردار سلطان " .

وهكذا ، أخذت قضية مشاركة الوزير الأعظم لنفوذ السلطان المطلق تتفاقم إثر ربطها بقضية خلافة سليمان القانوني علي عرش السلطنة . فقد كان السلطان سليمان يعد ابنه الأكبر الشهزاده مصطفى لتولي السلطنة من بعده ، وكان الصدر الأعظم يشاركه هذه الرغبة نظراً لشجاعة مصطفى وفطنته . أما زوجة السلطان ажرية الحسنة روكسلانه والمعروفة في الحرم السلطاني بـ " خرم سلطان " ، فقد كان لها رأي آخر . كان لحرم سلطان من السلطان سليمان ثلاثة أبناء هم بايزيد وسليم ومحمد ، وكانت ترغب في أن يلي ابنها بايزيد الحكم بعد أبيه ، وتري أن إبراهيم باشا هو العقبة الكوود أمام تحقيق هذه الرغبة . وبذلك ، كان عليها العمل علي التخلص من الوزير الأعظم ، حيث راحت تشيع بين أروقة السراي الهمايوني أن إبراهيم باشا يسعى للسطو علي السلطنة مستفيدة من تجاوزات الصدر الأعظم المشار إليها . فلم يتردد السلطان سليمان عقب عودته من حملة العراقين في استدعاء صدره الأعظم كالعادة والأمر بقتله في ٦ مارس ١٥٣٦ / ٤ رمضان ٩٤٢ ٢٣٧ .

²³⁶ جلال زاده مصطفى چلي ، طبقات الممالك ودرجات المسالك ، ليدن ١٩٨١ ، ص. ٣٢٤ .

²³⁷ أنظر في هذا الخصوص : F. Emecen, " İbrahim Paşa Makbul ", DİA., XXI/333-335; keza bk. İ. Rierce, Harem-i Hümayûn, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümranlık ve Kadınlar, terc. A. Berktaş, İstanbul 1996, s.85 vd.; Halil İnalcık, "Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyet Telekkisi ile İlgili", AUDTCFD., CXIV, (1959), s. 144 vd.

حملة سليمان الثانية على إيران : تمكنت الحملة السليمانية الأولى على

إيران من الإستيلاء على تبريز ثم على بغداد . وإذا كان الصفويون قد تمكنوا من إستعادة تبريز ، إلا أن بغداد بقيت في يد العثمانيين . وعلى الرغم من أن الأوضاع على الجبهة الشرقية كانت تستدعي عملاً عسكرياً حاسماً من قبل الدولة ، إلا أن جبهة البحر كانت تستحوذ خلال هذه الفترة على حل الإهتمام العثماني . ومن ثم تمكن الشاه طهماسب من إستعادة العديد من المناطق التي كان العثمانيون قد ضموها لأراضيهم في الحملة الأولى .

ولكن ، كان قيام شقيق طهماسب ووالي شيروان " القاص ميرزا " بحركة عصيان ضد أخيه ، وفراره إلى استانبول عقب فشله في السيطرة على الحكم في إيران ، حافزاً جاداً للسلطان سليمان للتفكير في محاولة الإستفادة من هذا الصراع . ولذلك قرر تجريد حملة جديدة على إيران لإستعادة الأراضي التي احتلها الصفويون وتوطيد الحكم العثماني في المنطقة . وهكذا ، قام القانوني بإستدعاء أولامه باشا وتعيينه مستشاراً للقاص ميرزا وأميراً للأمراء على أرضروم ، وأرسلهما إلى شرق الأناضول ، ثم تحرك السلطان بنفسه على رأس الحملة من استانبول في إبريل ١٥٤٨ / صفر ٩٥٥ . دخل القانوني تبريز للمرة الثالثة دون مواجهة أية مقاومة ، حيث كان طهماسب قد غادر المدينة قبل زحفه . وأثناء إقامة السلطان بها ، تمكنت القوات العثمانية من إستعادة قلعة وان الإستراتيجية في أغسطس ١٥٤٨ / رجب ٩٥٥ . وإذا كان جيش طهماسب قد ظهر بعد عودة الجيش العثماني ، حيث راح يعتدي على نواحي بحيرة وان ، إلا أن القوات العثمانية المتمركزة في تلك المناطق ألحقت به هزيمة شديدة بالقرب من كماه^{٢٣٨} .

²³⁸ بخصوص التجاء القاص ميرزا إلى الدولة العثمانية ومحاولة الدولة الإستفادة من ذلك بتجريد حملة

على إيران ، أنظر : J. R. Walsh, " The Recolt of Elkas Mırza", WZLM : 68 (1976), s. 61-78; keza bk. Bekir Kütükoğlu, Osmanlı – İran Siyasi Münasebetleri, s. 79 vd.

فتوح بلاد الكرج : كانت تحركات الشاه طهماسب العسكرية في المنطقة

قد دفعت السلطان الذي كان يقضي الشتاء في حلب للتحرك صوب ديار بكر بجيشه في عام ١٥٤٩م/٩٥٦هـ . وكانت بلاد الكرج تقع علي الحدود العثمانية الإيرانية، ولذلك كان أمرائها يسلكون سياسة مزدوجة تميل أحياناً إلى العثمانيين وأحياناً أخرى إلى الصفويين ، وذلك علاوة علي أنهم كانوا ينتهزون فرصة انشغال الدولة في حروبها الأوروبية والبحرية ويتعدون علي الحدود العثمانية من وقت لآخر . وهكذا ، قرر السلطان أثناء وجوده بديار بكر تأديب هؤلاء الكرج ، فأرسل إليهم وزيره قره أحمد باشا الذي استطاع خلال شهر ونصف من الحملات المستمرة في المنطقة فتح أكثر من عشرين قلعة علي رأسها قلعة طورطوم وأقچه قلعه ، حيث شكلت من هذه المنطقة إمارة سنجقية ، ثم قفلت الحملة عائدة إلى إستانبول.

وعقب عودة الجيش العثماني ، قام الشاه طهماسب باستعادة قلاع أرجيش وعادالجوار وبارگيري وأحلاط ، وذلك في الوقت الذي كان فيه ابنه إسماعيل ميرزا يقوم بالتعدي علي نواحي أرضروم ويحقق بعض الانتصارات فيها . فلما وصلت هذه الأخبار لمركز الدولة قرر السلطان تجريد حملة جديدة علي إيران^{٢٣٩} .

حملة سليمان الأخيرة علي إيران : لم يكن من المقرر خروج السلطان في

هذه الحملة ، حيث عين عليها الصدر الأعظم رستم باشا ، إلا أن وصول الأنباء عن قيام بعض المؤيدين للشهزاده مصطفى بترويج الدعاية له بين جند اليكيجري ، جعل السلطان يخرج بنفسه علي رأس الجيش لغرض في نفسه (أغسطس ١٥٥٣ /رمضان ٩٦٠) . والحقيقة ، كانت حلقات المكيدة التي أحكت ضد مصطفى للحيلولة دون وصوله لكرسي العرش قد اكتملت ، حيث توقف السلطان في طريقه لحلب في قونية ، وأمر بقتل الشهزاده مصطفى بعد أن وصلته الأنباء بسعيه للسطو علي العرش . وإذا كان السلطان قد خرج من حلب قاصداً إيران في الربيع لمواجهة طهماسب ، إلا أن عدم

Fehmettin Kırzoğlu, Osmanlı Kafkas Ellerini Fethi (1451-²³⁹ 1590), Ankara 1976, s. 183-203

خروج طهماسب للقاء السلطان ، يسر علي الجيش العثماني ضم مناطق نخجوان وأريوان (روان) وقره داغ .

معاهدة أماسيا بين القانوني وطهماسب : أثناء وجود السلطان

سليمان في أرضروم ، أرسل إليه شاه إيران رسالة يدعوها فيها لعقد الصلح بين الطرفين . ولذلك ، قرر السلطان عودة الجيش العثماني في سبتمبر ١٥٥٤ / ذو القعدة ٩٦١ ، حيث توجه بعدها إلي أماسيا وأقام خيامه بها . وهناك عقدت مباحثات الهدنة بين سفراء طهماسب والسلطان سليمان ، ووقعت إتفاقية أماسيا التي أفتت ٣٧ عاما من الحروب بين الطرفين (٢٩ مايو ١٥٥٥ / ٨ رجب ٩٦٢) . وموجب هذه الإتفاقية التي تعد الأولى من نوعها بين العثمانيين والصفويين ، بقيت أذربيجان ومركزها في تبريز ومنطقة شرقي الأناضول وعراق العرب تحت النفوذ العثماني . وقد استمر مفعول هذه المعاهدة خمسة وعشرين عاماً حتي وفاة طهماسب (١٥٧٦م / ٩٨٤هـ)^{٢٤٠} .

النشاط البحري العثماني في عهد القانوني

لقد كان سقوط دولة الماليك وضم أملاكها في مصر والشام والحجاز واليمن للأراضي العثمانية ، وتولي العثمانيين مسئولية القيادة في العالم الإسلامي ، واستمرار التعديات الأوروبية علي المسلمين في شمال أفريقيا وفي بلاد الهند وأندونيسيا ، من أهم الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية للقيام بواجباتها الدفاعية عن المسلمين خلال عهد سليمان القانوني . فإذا كانت الدولة العثمانية قد استطاعت الحد من التعديات الأوروبية في البحر المتوسط عقب فتح رودس ١٥٢٢م / ٩٢٨هـ ، وفي البحر الأحمر بالسيطرة علي جدة ، إلا أن التطورات الدولية والأطماع الأوروبية قد دفعت بالدولة العثمانية

²⁴⁰ بخصوص أول معاهدة تعقد بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية التي عرفت باسم " معاهدة

أماسيا " ، أنظر : A. Ekber Diyanet, İlk Osmanlı – İran Anlaşması

1555, Amasya Mühahedesi, İstanbul 1971

للإضطلاع بمسئولياتها في حماية العالم الإسلامي عبر البحار وتأمين خطوط مواصلاتها معه .

الصراخ العثماني - الأوروبي في البحر المتوسط وشمال أفريقيا :

عقب سقوط إمارة بني الأحمر آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م/ ٨٩٧هـ ، أخذت القوات الأسبانية تتعقب المسلمين في شمال أفريقيا التي راحت تغورها تتساقط الواحدة تلو الأخرى ، وذلك في الوقت الذي عجزت فيه دولة المماليك والدولة العثمانية عن وقف هذا التريف . وهكذا ، ظهرت المقاومة المحلية في شمال أفريقيا ، حيث برز فيها شخصيات عديدة يأتي علي رأسها الأخوين عروج وخير الدين بربروس اللذين تمكنا من بسط نفوذهما علي الجزائر عام ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ . إلا أنه عقب وفاة عروج بربروس عام ١٥١٨م/ ٩٢٤هـ، تعرض خير الدين بربروس لضغوط شديدة من قبل أساطيل شارلكن ، الأمر الذي دفعه لطلب المساعدة من العثمانيين . ففي عام ١٥١٩م/ ٩٢٥هـ قام خير الدين بارسال وفد إلي السلطان سليم بصحبة أربع سفن محملة بالأسري الأسبان مع بعض الهدايا ، فاستقبله السلطان استقبالا حافلا ، وأرسل معهم إلي خير الدين بربروس براءة الإمارة ، ونحو ثلاثة آلاف جندي ، علاوة علي الكثير من لوازم بناء السفن واحتياجات الحروب ، وقرر له اللزوم من جند الأناضول .

أثار دخول بربروس تحت الحماية العثمانية حكام تونس وتلمسان وجعلهم يحرضون أهل الجزائر علي العصيان ، الأمر الذي أجبر خير الدين لمغادرة الجزائر إلي جيجل (١٥٢٤م/ ٩٣٠هـ) . وبعد ثلاث سنوات تمكن خير الدين من العودة للجزائر بعد هزيمة قائد العصاة ، حيث وطد أقدامه بها عقب فتحه لجزيرة " بنون " (أداقلعة) التابعة للأسبان (١٥٣٠م/ ٩٣٦هـ) ، ونجاحه في التصدي لهجمات قائد الأسطول الأسباني أندريه دوريا ، واستئناف نشاطه في نقل المسلمين من سواحل أسبانيا إلي شمال افريقيا .

وكان نشاط أندريه دوريا في البحر المتوسط قد أشعر الدولة العثمانية السي كانت تحقق انتصارات عظيمة في الجبهات البرية شرقاً وغرباً بحاجتها الماسة لقائد فذ يعكس مكانتها العالمية في البحار أيضاً . وبالفعل ، وقع اختيار سليمان القانوني علي خير الدين بربروس للقيام بهذا الدور ، حيث أرسل إليه بالحضور لإستانبول ، فوصل إليها في ١٥٣٣م/ ٩٤٠هـ. فلما التقى بالسلطان العثماني ، عينه أميرالاً علي جميع سفن الترسانة العثمانية برتبة أمير أمراء ، ثم قام الوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي كان في حلب آنذاك كقائد لحملة إيران ، قام بتوجيه قبطانية غاليبولي مع إمارة أمراء الجزائر إليه ، ثم عاد لإستانبول^{٢٤١} .

بربروس قائداً للأسطول العثماني : خرج خير الدين بربروس باشا بالأسطول الهمايوني في أولي حملاته من استانبول في مايو ١٥٣٤ / ذو القعدة ٩٤٠ . وفي الوقت الذي كان فيه السلطان سليمان في طريقه إلى إيران ، كان خير الدين باشا يتوجه بنحو ٨٠ قطعة بحرية إلى السواحل الإيطالية لمواجهة أندريه دوريا هناك. ولما لم يصادف خير الدين باشا أندريه دوريا ، قام بضرب سواحل جنوب إيطاليا ، ثم اتجه إلى الجزائر . وهناك علم باضطراب الأوضاع في تونس ، فخرج إليها ، وحاصر قلعتها في حلق الواد ، حيث قام بابرار جنوده هناك ، ففر حاكمها مولاي حسن ، ودخلها خير الدين باشا منتصراً . وإذا كان مولاي حسن قد حاول عدة مرات استعادة تونس ، إلا أنه فشل ، الأمر الذي أجبره للإلتجاء إلى الإمبراطور شارلكن وطلب مساعدته^{٢٤٢} .

Ercüment Kuran, "Osmanlı Döneminde Mağrib Tarihi",
Osmanlı, I/398 vd.²⁴¹

²⁴² بخصوص الفعاليات البحرية العثمانية خلال عهد خير الدين بربروس ، أنظر : "Fahir İz, Barbaros Hayreddin Paşa Gazavatnamesi Üzerinde Yeni Bir Araştırma", TDAY, Belleten 1972 (1989), s.81-92; Ersin Gülsay, " XVI-XVII Yüzyıllarda Akdeniz'de Osmanlı Hakimiyeti ", Türkler, Ankara 2002, IX/589-598; keza bk. Miguela Angel De Bunes, "Kanunî, Barbaros Paşa ve V. Charles : Akdeniz Bünyası", Osmanlı , I/ 392 vd.

وهكذا ، كلف شارلكن اندريه دوريا بقيادة اسطول يتشكل من ٥٠٠ سفينة لإحتلال تونس ، حيث تبعه الإمبراطور بنفسه ، وبعد حصار شديد لها ، اضطر خير الدين للتراجع والتخلي عن تونس ، حيث قامت قوات شارلكن باحتلالها في مايو ١٥٣٥ / ذي الحجة ٩٤١ . وبينما كان خير الدين باشا في طريقه لإستانبول ، وبالقرب من جزيرة ماريوكا ، تمكن من السيطرة على سفن الأسري الذين نقلوا من تونس ، فحرر المسلمين ، وأسر الأسبان وأشعل النيران في السفن .

البندقية في التحالف الأوروبي : كانت البندقية تتبع سياسة مزدوجة

تجاه العثمانيين ، ففي الوقت الذي حرصت فيه البندقية علي تحسين علاقتها معهم نظراً لمصالحها التجارية الحيوية الهامة في الأراضي العثمانية ، راحت تتفق سراً مع شارلكن ، وتقوم بالتعدي علي السفن العثمانية كلما سنحت لها الفرصة . وكان السبب وراء إعلان البنادقة للعداء هذه المرة يرجع لتحريض بابا روما بول الثالث الذي تمكن من إحداث تقارب بين شارلكن وملك فرنسا وتوقيع معاهدة سلام بينهما مدتها عشر سنوات ، وذلك في اطار سعيه لحشد القوي الأوروبية ضد العثمانيين . وهكذا ، كان توفير والي البوسنة غازي خسرو بك في فتح جزيرتي صولين وكليس التابعتان للبنادقة محفزاً علي انضمام البنادقة لهذا التحالف عام ١٥٣٧م / ٩٤٣هـ .

تحرك الأسطول العثماني المكون من أكثر من ٤٠٠ قطعة بحرية تحت قيادة خير الدين بربروس أولاً إلي بحر الأدرياتيك ، حيث خرج السلطان سليمان في أثره متجهاً إلي ساحل أولونيا للقضاء علي حركة عصيان هناك (مايو ١٥٣٧ / ذي الحجة ٩٤٣) ، وأصدر أوامره للأسطول بضرب سواحل إيطاليا الشرقية ، وللوزير لطفي باشا بمحاصرة جزيرة قورفو التابعة للبنادقة . وبينما كان بربروس يحقق انتصارات مهمة بفتحه جزر شيرا وياثموص ، وناقصوص وغيرها ، رفع الحصار عن جزيرة قورفو بحلول الشتاء .

معركة بروه ذه (١٥٣٩ / ٩٤٦هـ) : ولما علم خير الدين بربروس بأن

أساطيل الحلفاء (أسبانيا ، البندقية ، الباباوية ، والبرتغال) قد تجمعت عند جزيرة

قورفو، أخذ في تحصين بروه زه . فلما وصلت أساطيل الحلفاء إلي بروه زه ، فشلت في إبرار جنودها إلي الجزيرة . وإذا كانت المواجهة الأولى بين الطرفين قد فشلت بسبب هبوب الرياح الشديدة ، إلا أنه علي أثر إعلان بربروس السفير العام في الأسطول العثماني، راحت البحرية العثمانية تحت قيادة خير الدين بربروس تثبت كفاءتها في هذه المواجهة ، حيث أجبرت أندرية دوريا علي الفرار وترك بقية أساطيل الحلفاء تلقي الهزيمة المنكرة في المعركة (٢٨ سبتمبر ١٥٣٩/٥ جمادي الأولي ٩٤٦) . وهكذا ، شنت جيش الحلفاء وأسطوله ، وأستولي علي نحو ٣٦ قدرعة وفرقاطة ، وسقط في الأسر منهم نحو ألف فرد .

لقد حقق انتصار بروه زه سيطرة مطلقة للأساطيل العثمانية في البحر المتوسط، حيث ألحقت بالبندقية أضراراً مادية عظيمة ، ولم تتمكن من تحقيق أهدافها ، الأمر الذي أجبرها علي توقيع الصلح مع العثمانيين . وبحسب هذا الإتفاق تنازلت البندقية عن قلاعها الموجودة في سواحل المورة ودالماسيا والجزر التي قام بربروس بفتحها ، كما أجبرت علي دفع غرامة عسكرية تقدر بنحو ٣٠٠ ألف ذهبية^{٢٤٣} .

محاولة شارلكن إحتلال الجزائر : لقد أحكم العثمانيون قبضتهم علي

البحر المتوسط بعد معركة بروه زه ، فبينما كان السلطان سليمان يخرج علي رأس جيشه إلي بلاد انجر ، كان خير الدين بربروس يقوم بحماية سواحل الأدريساتيكي باسطوله . ولذلك ، حاول شارلكن الإستفادة من إنشغال الجيوش والأساطيل العثمانية ، وتعويض فشله في بروه زه ، فتوجه إلي الجزائر باسطوله وحنده سعياً لاحتلالها ، إلا أن المقاومة

²⁴³ فيما يتعلق بمعركة بروه زه وأثرها في سيطرة البحرية العثمانية علي مقدرات البحر المتوسط لفترة

تجاوز نصف قرن من الزمان ، أنظر : Afif Büyüktuğrul, " Preveze Deniz Muharebesine İlişkin Gerçekler" TTK Belleten, XXXVII/145(1973), s. 51-85; ayn. Mlf., "Preveze Muharebesine ilişkin Belgeler", Belleten,XLII/169,8(1978), s.629-665

الجزائرية ألحقت بقواته خسائر فادحة ، وأجبرته علي الانسحاب بعد أربعة أشهر من المواجهات المستمرة (ديسمبر ١٥٤١ / رمضان ٩٤٨).

التعاون العثماني - الفرنسي : كانت فرنسا تتعرض لضغوط شديدة

من الباباوية سعيًا لانضمامها في حلف صليبي يشارك فيه شارلكن ضد العثمانيين ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الحرب بين فرانسوا الأول وشارلكن لم تكن قد وضعت أوزارها بعد ، الأمر الذي أجبر فرنسا علي التعامل مع الدولة العثمانية بسياسة مزدوجة . وعلي الرغم من علم سليمان القانوني بتلك السياسة ، وافق علي تقديم المساعدات للأسطول الفرنسي الذي لم يكن في وضع يسمح له بمواجهة أساطيل الهابسبورج .

وهكذا ، خرج الأسطول العثماني (١٥٠ قدرغة ، و ١٠ ماونه) في ربيع عام ١٥٤٣م / ٩٥٠هـ تحت قيادة خير الدين بربروس إلي البحر المتوسط ، ووصل إلي نواحي ريجيو بالقرب من نابولي ، حيث تمكن من فتحها ، ثم توجه إلي ميناء روما في أوستيا ، لإستيفاء احتياجات الأسطول ، ثم استأنف رحلته إلي مرسيليا التي وصلها في ٢٤ يونية ١٥٤٣ / ١٢ ربيع الأول ٩٥٠ . وبعد أن أستقبل الأسطول العثماني استقبالا رسمياً هناك ، قرر التوجه إلي مدينة نيس التي كانت في قبضة الدوق صاوا التابع لشارلكن . وبعد تضييق الحصار علي المدينة ، أعلنت حاميتها التسليم في ٢٠ أغسطس ١٥٤٣ / ١٠ جمادي الأول ٩٥٠ ، ثم قضى الأسطول العثماني موسم الشتاء في ميناء طولون الفرنسي . وبينما كان بربروس في غربي البحر المتوسط ، قام بالإغارة علي سواحل أسبانيا ، وضرب جزيرة صاردونيا التابعة لشارلكن ، كما تمكنت القوات الفرنسية من الإستفادة من وجود الأسطول العثماني في المنطقة وحققت بعض النجاحات أيضاً . وأخيراً عاد بربروس إلي استانبول مصطحباً معه نحو ٤٠٠ من رجال التجديف الذين عملوا في الأسطول الفرنسي (١٥٤٤م / ٩٥١هـ) .^{٢٤٤}

²⁴⁴ فيما يتعلق بالتعاون العثماني الفرنسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وأثره علي سيطرة

العثمانيين علي طرق البحار وتحقيق النفوذ المطلق في المنطقة خلال هذه الفترة ، أنظر : İsmail Soysal, " Türk – Fransız Diploması Münasebetlerinin İlk Devri

ضم طرابلس خربج الأراضي العثمانية : لم يمكث صقوللي محمد باشا

في قبطانية البحر العثمانية بعد بربروس طويلاً ، حيث تولاهما سنان باشا من بعده. وفي ربيع من عام ١٥٥١م / ٩٥٨هـ ، خرج الأسطول العثماني تحت قيادة سنان باشا صوب جزيرة مالطة التي كانت تُعد مركزاً لقراصنة أوروبا ، وبعد محاصرتها لفترة ، رفع الحصار عنها واتجه إلى طرابلس غرب التي كانت في قبضة فرسان مالطة . وبعد محاصرة طرابلس غرب من البر والبحر لفترة ، سقطت في يد سنان باشا في ١٤ أغسطس ١٥٥١م / ٢ شعبان ٩٥٨هـ .^{٢٤٥}

حملات الأسطول العثماني بحري البحر المتوسط : خرج الأسطول

العثماني تحت قيادة القبطان سنان باشا في ربيع عام ١٥٥٢م / ٩٥٩هـ ، وذلك لمساعدة الأسطول الفرنسي للمرة الثانية . وصدر الأمر لطورغود رئيس بضرب سواحل سيجيليا حتي وصل إلي سواحل نابولي ، حيث نصب كميناً لأسطول أندريه دوريا الذي كان يتوجه إليها ، وأوقع به هزيمة شديدة فر علي أثرها إلي جزيرة صاردونيا . ولما لم يظهر الأسطول الفرنسي خلال ذلك عاد الأسطول العثماني إلي استانبول .

ولما تولى بيالة باشا قيادة البحرية العثمانية بعد سنان باشا ، خرج في ربيع ١٥٥٨م / ٩٦٦هـ في حملة جديدة إلي غربي البحر المتوسط ، حيث تمكن من فتح مدينة سيوداديللا ، وقام طورغود باشا بضرب السواحل الإيطالية حيث تمكن من فتح مدينة ريجيو ، وانتزاع أوراني علي الساحل الأفريقي من يد الأسبان ، الأمر الذي أحدث تقارباً

Tarih Dergisi , sy. 3-4, 63-94 " , لم يخرج خير الدين بربروس في حملة أخرى بعد

عودته إلي استانبول ، حيث كانت الدولة قد عقدت معاهدة سلام مع فرديناند وشارلكن ، حيث توفي بعد سنتين (١٦ يولييه ١٥٤٦م / ٢ جمادى الأولى ٩٥٣) عن عمر يناهز الثمانين

Şerefeddin Turan, "Barbaros Hayreddin Paşa", DIA, V/65-67:

²⁴⁵ قام الأسبان باحتلال طرابلس غرب عام ١٥١٠ ، ولما تمكن العثمانيون من انتزاع رودس

١٥٢٢م وانتقل فرسانها إلي جزيرة مالطة ، تنازل الأسبان عن طرابلس غرب لهم أيضاً في ١٥٣٠م :

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/385

بين أسبانيا والباباوية والجمهوريات الإيطالية ، ومهد لتشكيل تحالف جديد لمواجهة العثمانيين في البحر^{٢٤٦} .

معركة جربة (١٥٥٩ / ٩٦٧ هـ) : كان شارلكن قد تنازل عن الإمبراطورية لأخيه فرديناند وعن أسبانيا لابنه فيليب ، حيث سعي فيليب لعقد صلح مع فرنسا ، واتخذ التدابير لاستعادة إمارة أمراء طرابلس غرب التي عين عليها طورغود باشا . وكان طورغود يحاصر جربة سعيًا لانتزاعها من يد الأسبان . فلما وصل أسطول الحلفاء الذي تشكل من نحو ٢٠٠ قطعة بحرية ، انسحب طورغود إلى طرابلس غرب ، وأخير مركز الدولة بالوضع . أستولي الحلفاء علي جربة وأسرعوا في تحصينها استعداداً لمواجهة الأسطول العثماني . وهكذا ، خرج بيالة باشا علي رأس الأسطول العثماني المكون من أكثر من ٢٠٠ قطعة بحرية . وبدأت مواجهة بين الطرفين ، أكد فيها الأسطول العثماني تفوقه ، وألحق بأسطول الحلفاء أكبر هزيمة بعد معركة بروه زه ، حيث أغرقت ٦٠ سفينة كبيرة ، وقتل نحو ٢٠ ألف شخص ، وتمكن من الفرار نحو ١٧ سفينة فقط . وعقب المعركة ، شدد الحصار علي جربة ، حيث تم فتحها وإلحاقها بطرابلس غرب تحت قيادة طورغود باشا ، ثم عاد الأسطول العثماني إلى استانبول^{٢٤٧} .

حصار مالطة : لقد حرصت الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة علي تأمين أملاكها في حوض البحر المتوسط وعلي سواحل ولاياتها المطلة عليه . وكانت جزيرة مالطة تمثل حجر عثرة لخطة الدولة الأمنية تلك ، الأمر الذي جعل فتحها والاستيلاء عليها ضرورة ملحة . وكانت أسبانيا تتحسب لعمل عسكري تقوم به الدولة علي مالطة ،

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/385 vd. ²⁴⁶

لتفصيلات أكثر حول معركة جربة وأثرها في سيطرة العثمانيين علي حوض البحر المتوسط ، ²⁴⁷

أنظر : Zekeriyazade, Ferah (Cerbe) Savaşı, sadeleştirme O. Ş. Gökyay, İstanbul 1980; keza bk. Meguel A. De Bunes Ibarra, " Yavuz Sultan Selim ve Kanunî Sultan Süleyman Devirlerinde İspanya ve Osmanlı İmparatorlukları Arasında Deniz Savaşları ", Türkler, IX/599-607

فعملت علي تحصينها . وهكذا ، كان قيام بعض السفن المملطية بالإستيلاء علي سفينة عثمانية تحمل احتياجات السراي العثماني بينما كانت في طريقها إلي استانبول ، سبباً في إحياء رغبة الدولة في تجريد حملة علي جزيرة مالطا سعياً لفتحها .

صدر الأمر للأسطول العثماني للخروج لمحاصرة مالطة في ربيع ١٥٦٥م/ ٩٧٢هـ ، حيث كلف الوزير مصطفى باشا بقيادة القوات البرية وبيالة باشا بقيادة الأسطول الذي تشكل من ١٨٠ قطعة بحرية ، ثم التحق به أسطول طورغود باشا وصالح باشا ، فأصبح مجموع سفن الأسطول العثماني المعد للحصار أكثر من ٣٠٠ قطعة بحرية . وإذا كانت القوات العثمانية والأسطول قد باشرا حصار قلعة سنته لن ، حيث شن هجوم عام علي القلعة وتم فتحها في ٢٤ يونية ١٥٦٥/ ١٦ ذي القعدة ٩٧٢ ، إلا أن طورغود رئيس أصيب في المعركة ، حيث توفي متأثراً بجراحه ، ودفن في مسجده بطرابلس غرب . وعقب فتح قلعة سنته لن ، حوصرت مالطة ، غير أن اقتراب موسم الشتاء وقلة المؤن والذخائر ، ووصول المساعدات من فرنسا والباباوية وأسبانيا ، أجبر قائد الحملة علي رفع الحصار والعودة إلي استانبول دون إتمام الفتح^{٢٤٨} .

حملات الدولة في المحيط الهندي وبحر عمان :

عقب اكتشاف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨م/ ٩٠٣هـ) ، راحوا يسيطرون علي طرق التجارة الشرقية ، حيث استطاعوا باستيلائهم علي جزيرة سوقطرة في مدخل البحر الأحمر وعلي مضيق هرمز في مدخل خليج البصرة (١٥١٥م/ ٩٢١هـ) ، استطاعوا قطع الطريق التجاري القديم علي سفن المسلمين . وكان حاكم گوجرات الهندي محمود خان قد طلب المساعدة من السلطان المملوكي قانصوه الغوري لمواجهة التعديات البرتغالية علي السواحل الهندية ، إلا أن الأسطول الذي أرسله الغوري

²⁴⁸ فيما يتعلق بحصار مالطة ، أنظر : İ. Bostan-A. Gassola-T. Sheben, The 1565 Ottoman Malta Campaign Register, Malta 1998; keza bk. Ş. Turan, " Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına ", Kanunî Armağanı, Ankara 1970.

تحت قيادة حسين بك (١٥٠٨م / ٩١٤هـ) لم يحقق النتيجة المرجوة بعد بعض المواجهات مع السفن البرتغالية في المنطقة ، كما عجز الأسطول الذي شكله الغوري لمواجهة تخريبات البرتغال في عدن والبحر الأحمر تحت قيادة سلمان رئيس ، عجز أيضاً عن التصدي للبرتغال في المنطقة .

ولما ورثت الدولة العثمانية أملاك المماليك وضمت البصرة وبغداد واليمن والحجاز ومصر ، أصبح اغلاق البرتغال لطريق التجارة القديم عبر البصرة والبحر الأحمر ضربة سياسية واقتصادية موجهة للدولة العثمانية . وفي عام ١٥٣٥م / ٩٤١هـ، طلب سلطان گجرات بهادر شاه مساعدات عسكرية من السلطان سليمان لمواجهة اعتداءات البرتغال من البحر والمغول من البر . وهكذا ، تقرر تجريد حملة كبيرة صوب الهند ، حيث كلف أمير أمراء مصر سليمان باشا الخادم بإتمام انشاء الأسطول في ميناء السويس وقيادة هذه الحملة^{٢٤٩} .

حملة الهند وفتح عدن : تحرك أسطول السويس المكون من ٧٦ قطعة

بحرية والمشحون بنحو سبعة آلاف جندي في يونيو ١٥٣٨م / محرم ٩٤٥ تحت قيادة خادم سليمان باشا . والحقيقة أن سليمان باشا رأى أن ضم عدن التي تعد بوابة البحر الأحمر في بداية حملته إلى الهند سوف يُمكن الدولة من السيطرة على البحر الأحمر ويوطد أقدامها في اليمن والحجاز ومصر . فقام بحيلة تمكن من خلالها من دعوة حاكم عدن من بني طاهر عامر بن داود ، ثم قام بالقبض عليه وتعيين برهام بك علي مدينة عدن ، ثم توجه إلى بلاد الهند .

وصلت المساعدات العثمانية والأسطول العثماني أمام جزيرة ديو بعد أن تمكن البرتغال من قتل حاكم گجرات بهادر خان وتعيين الشاه محمود الثالث تحت حمايتهم (١٥٣٧م / ٩٤٤هـ) . وإذا كان سليمان باشا قد قام بإنزال المدافع الكبار وإبرار الجنود والشروع في محاصرة قلعة مدينة ديو ، وعلي الرغم من تمكن القوات العثمانية من فتح

عدد من أبراج قلعة المدينة ، إلا أنها صمدت أمام الهجوم الشديد الذي استمر عشرين يوماً، الأمر الذي أجبر سليمان باشا علي التراجع عن الحصار والعودة ، بعد أن علم أن الأسطول البرتغالي يتوجه إلى الجزيرة^{٢٥٠} .

الحاق بلاد اليمن بالأراضي العثمانية : عقب ضم الشام ومصر

للأملاك العثمانية ، أعلن ممالك اليمن الاعتراف بالحكم العثماني . وفي عام ١٥٢٤م/٩٣٠هـ ، قام سلمان رئيس يادخالها تحت الإدارة العثمانية ، حيث تمكن مع حسين بك من انتزاع جزيرة قورمان من البرتغال . وهكذا ، وصل أسطول السويس تحت قيادة خادم سليمان باشا ، بينما كانت إدارة اليمن تحت إدارة حسين بك . ولما عاد الأسطول من حملة الهند إلى ميناء موخا ، قام سليمان باشا بدعوة أمير زبيد للقاءه ، إلا أنه احتاط ولم يستجب لهذه الدعوة ، فقام سليمان باشا بإبرار جنوده إلى الساحل ، حيث ألحق الهزيمة بأمير زبيد وضم بلاده في ٩ مارس ١٥٣٩ / ٩ شوال ٩٤٥ .

عقب سقوط زبيد ، بدأ العثمانيون بضم بقية بلاد اليمن ، حيث تمكن أمير زبيد أويس باشا من الاستفادة من الاختلافات بين الأسرات الزيدية ، واستولى على تعز إثر دعمه الأمير مطهر بن شرف الدين (١٥٤٥م / ٩٥١هـ) . وبعد مقتل أويس باشا في حركة عصيان ، عين علي إمارة أمراء اليمن فرهاد باشا . وكما قام أوزدمير باشا الذي وصل لليمن مع حملة خادم سليمان باشا بالاستيلاء علي صنعاء ، استطاع أمير أمراء اليمن فرهاد باشا توطيد الحكم العثماني في عدن والجبل وتهامه ، ومصطفي باشا تأمين حالة الاستقرار في البلاد حتي نهاية عهد سليمان القانوني . وفي عام ١٥٦٧م/٩٧٥هـ ، خرج أحد أئمة الزيديين في حركة عصيان ، حيث قام بقتل أمير أمراء اليمن مراد باشا ، ثم سيطر علي صنعاء وعدن وغيرها من مدن اليمن . وهكذا ، صدرت الأوامر لعثمان باشا

بن أوزدمير ولقبطان السويس قورد أوغلي خضر رئيس بالخروج لليمن لمواجهة العصاة ، واستعادة سلطة الدولة في البلاد^{٢٥١} .

تشكيل إمارة أمراء الحبش : عند عودته من اليمن (١٥٣٩م / ٩٤٥هـ) ، قام سليمان باشا الخادم بإنزال جنده في ميناء القصير علي البحر الأحمر . وهناك كلف الأمير المملوكي أوزدمير باشا باستطلاع المنطقة ، حيث وفق في استمالة بعض العشائر العربية . توجه أوزدمير باشا بعد ذلك صوب إبريم ، وسيطر على قلعتها، ثم على قلعة درر ومدينتي مغراق وساي ، ثم أنشأ قلعة عند ساي لحماية الحدود الجنوبية للدولة . وإذا كان أوزدمير باشا قد زحف بقواته علي ممتلكات دولة الفوننج في بلاد الحبش ، لم يتيسر لقواته إلا السيطرة علي ميناء سواكن الإستراتيجي علي البحر الأحمر والمناطق المحيطة به . وهكذا ، شكلت في عام ١٥٥٤م / ٩٦١هـ من هذه المنطقة إمارة سنحقية ، وألحقت بإيالة مصر . ونظراً لأهميتها الإستراتيجية علي البحر الأحمر ، شكل في العام التالي من سواكن ومصووع والمناطق المحيطة بها إمارة أمراء مستقلة (١٥٥٥م / ٩٦٢هـ)^{٢٥٢} .

المواجهات العثمانية - البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط

الهندي : استمرت المواجهات العثمانية - البرتغالية عقب عودة حملة سليمان باشا إلى مصر . فقد استطاع الأسطول البرتغالي دخول البحر الأحمر وحاولوا التعدي علي بنادر

²⁵¹ لتفصيلات أكثر حول دخول بلاد اليمن تحت الإدارة العثمانية المباشرة ، أنظر : İhsan

Süreya Sırma, " Yemen'in Geo-politik Durumu ve Osmanlı Devletine Katılması ", Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.12, 427-444; keza bk.Hulusı Yavuz, Kabe ve Haremeyn için Yemen'de Osmanlı Hakimiyeti 1517-1571, İstanbul 1984

²⁵² بخصوص دخول بلاد الحبش في ظل الحكم العثماني ، وأثر ذلك في السيطرة علي بوابة البحر

الأحمر وحركة التجارة الشرقية والتصدي لحصار البرتغال وتعدياتهم ، أنظر : Cengiz Orhunlu, Habeş Eyaleti, İstanbul 1974, 23-30; ayn. Mlf. "XVI. Asrın İlk yarısında Kızıldeniz Sahillerinde Osmanlılar", Tarih Dergisi, XVI (1962), 1-10;

جدة واحتلال ترسانة السويس وإحراق الأسطول هناك . إذا كانت محاولتهم هذه قد باءت بالفشل ، إلا أنهم استطاعوا إشعال النيران في منطقة طور سيناء (١٥٤٣م/٩٥٠هـ). وخلال هذه الفترة تمكن البرتغال من احتلال عدن لمدة قصيرة تقديراً لأهميتها ، إلا أن قبطان السويس پيري باشا استطاع حصار قلعتها ومينائها واستعادتها ثانية . وفي عام ١٥٥١م/٩٥٨هـ ، خرج پيري رئيس باسطول السويس لتوطيد الأمن في المنطقة ، فمر بجدة ثم بساحل عمان ، حيث سيطر علي مسقط جنوب شرق جزيرة العرب . وبينما كان اسطول السويس بالمنطقة التقى باسطول البرتغال ، وألحق بها الهزيمة ، ثم تعقبه حتي قلعة هرمز ، حيث قام بحصارها . وإذا كان پيري رئيس قد أسرع بمحاصرة قلعة هرمز ، وطلب المساعدة من والي البصرة ، إلا أنه قام برفع الحصار لما علم بوصول الإمدادات للبرتغال ، حيث ترك سفن الأسطول العثماني هناك وفر إلي مصر بثلاث سفن، حيث أعدم هناك (١٥٥٣م/٩٦٠هـ).

عين سيدي علي رئيس قبطاناً علي أسطول السويس ، حيث أمر بإعادة الاسطول من خليج البصرة (١٥٥٣م/٩٦٠هـ) . فلما وصل وسار بالأسطول إلى سواحل عمان ، واجه اسطولاً للبرتغال تمكن من هزيمته ، وبالقرب من مسقط التقى باسطول برتغالي آخر علم أنه لن يتمكن من مواجهته في المحيط ، حيث أرسى سفنه علي الساحل ، وبدأت معركة شرسة بين الطرفين استمرت حتى أعيت كلا المتحاربين فافترقا ، حيث عصفت الرياح الشديدة ببقية مراكب أسطول السويس ، فوصل إلى ديو وگجرات وصورات في حالة سيئة لا تصلح للحرب . وهكذا ، ترك سيدي علي رئيس ما بقي من سفن وتجهيزات حربية لدي سلطان گجرات في ميناء صورات ، وعاد براً إلي استانبول ، حيث وصلها في ١٥٥٦م/٩٦٣هـ^{٢٥٣} .

²⁵³ حول حملات الدولة التي قادها كل من پيري رئيس وسيدي علي رئيس في البحار الشرقية ،

ونائجها المتواضعة ، أنظر : C. Orhunlu, "Hind Kaptanlığı ve Piri Reis", Belleten, XXXIV/134 (1970), s.235-254; ayn. Mlf., " Seyidi Ali Reis", Tarih Enstitüsü Dergisi, I, 1970, s39-56; keza bk.

كان البرتغال قد سيطروا علي الكثير من جزر المحيط الهندي ، وكان حاكم اقليم آجي السلطان علاء الدين يسيطر علي شبه جزيرة ملاكة وجزيرة سومطرة . ولما شعر السلطان علاء الدين بأطماع البرتغال في بلاده أرسل سفيراً إلي استانبول يطلب مساعدته ومده بالمدافع والبنادق والجنود ، حيث أخبر بأن البرتغال يحاربون حكام المسلمين في سيلان وكلكتا (١٥٦٥م / ٩٧٢هـ) . وكان السفير قد وصل استانبول بينما كان السلطان سليمان القانوني يهم بالخروج إلى حملة سيكتوار التي توفي بها . وإذا كانت الدولة العثمانية قد وافقت علي تقديم المساعدات اللازمة ، حيث صدر الأمر لقبطان السويس قورد أوغلي خضر رئيس بإيصالها في عشرين سفينة، فقد حالت حركة عصيان الإمام الزيدي المطهر التي اشتعلت في بلاد اليمن دون وصول هذه الإمدادات إلي سلطان آجي ، حيث أمر خضر بك بمساعدة سردار اليمن سنان باشا في انهاء حركة العصيان تلك ، وإعادة فتح بلاد اليمن ، وأرسلت الإحتياجات إلي حاكم آجي بالسفن فيما بعد^{٢٥٤} .

الصراع بين أبناء سليمان القانوني علي ولاية العهد : لقد أيقظ

تقدم سليمان القانوني في السن وعدم وجود قاعدة أو قانون لورثة العرش في الدولة ، أيقظ مشكلة صراع الأشقاء علي العرش ثانية . فقد كان لسليمان أربعة أبناء سليم وبايزيد وجهانگیر وأكبرهم مصطفى . وكان الشهزاده مصطفى أكثر أبناء القانوني شبهاً به ، وكان قد حصل تعليماً عالياً ، وكان محبباً سواء لجنود اليكيجري أو لرجال الدولة والعلماء نظراً لخلقته وفضله وكماله وشجاعته . والحقيقة أنه إذا كان الشهزاده مصطفى يعد الأمير الأنسب لتولي منصب السلطنة من بين أبناء القانوني ، إلا أن زوجة السلطان

Salih Özbaran, " Osmanlı İmparatorluğu ve Hindistan Yolu",
Tarih Dergisi, XXXI/131-141

²⁵⁴ فيما يتعلق برسالة حاكم اقليم آجي للسلطان سليمان القانوني طلباً للمساعدات لمواجهة هجمات

البرتغال علي بلاده ، أنظر : Ranzhak Şah, " Açe Padişah Sultan
Ala'eddin'in Kanuni Sultan Süleyman'a Mektubu ", Tarih
Araştırmaları Dergisi, c.V/8-9, (1967), 372-409.

روكسلانه (خرم سلطان) التي كان للسلطان منها أربعة أبناء هم سليم وبايزيد وجهانگیر ومحمد ، كانت تميل إلي بايزيد وتسعى بكل طريق لجعله يلي السلطنة بعد أبيه سليمان . وحتى يمكنها تحقيق هذا الأمر كان عليها أولاً التخلص من الوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي كان يؤيد الشهزاده مصطفى ، ثم إزاحة الشهزاده مصطفى من أمام ابنها بايزيد^{٢٥٥} .

وهكذا ، قامت خرم سلطان بالتخلص من الوزير الأعظم إبراهيم باشا أولاً ، ثم بدأت أولى خطوات مسلسل التخلص من المرشح الأول لعرش السلطنة الشهزاده مصطفى ، حيث طلبت من السلطان نقله إلى ولاية بعيدة عن استانبول ، حيث نقل إلى ولاية قونية ، ونقلت ابنها بايزيد إلى كوتاهية ، ثم قام زوج ابنتها الوزير الأعظم رستم باشا الذي عين محل إبراهيم باشا بدور هام في السعي للتخلص من الشهزاده مصطفى ، وذلك بتزوير مراسلات بينه وبين شاه إيران طهماسب .

ولما كان السلطان سليمان قد أصابه المرض خلال هذه الفترة ، فقد قام بتكليف قره أحمد باشا بالخروج إلى أردل ، وتكليف الوزير الأعظم رستم باشا بالخروج للحملة علي إيران . فلما خرج رستم باشا بالحملة ، ووصل إلى آق سراي روج اشاعة بأن جند اليكيجري يطالبون باقالة السلطان لأنه لا يستطيع الخروج للحملة لتقدمه في السن ، وأنهم يريدون الشهزاده سلطاناً عليهم ، ثم أرسل شمس أحمد باشا أغا السباهية ورئيس الجاوشية هذه الإشاعة إلى استانبول ، وطلب من السلطان الخروج علي رأس هذه الحملة وانتظره في آق سراي . وهكذا ، استدعي رستم باشا للعودة في أواخر أغسطس ١٥٥٣ / رمضان ٩٦٠ ، وخرج بنفسه للحملة. فما أن وصل السلطان إلى منزل آق تبه حتى لحق بالجيش الشهزاده مصطفى الذي طلب منه الخروج للحملة أيضاً . وبينما كان

F. Emecen, " İbrahim Paşa Makbul ", DİA., XXI/333-335; :²⁵⁵
keza bk. İ. Rierce, Harem-i Hümayûn, Osmanlı
İmparatorluğunda Hükümranlık ve Kadınlar, terc. A. Berktaş,
s.85 vd.

من العادة دخول الشهزاده مصطفى لخيمة أبيه لتقبيل يده ، إلا أنه لم يجد السلطان بالخيمة السلطانية ، ووجد بها سبعة من الجلادين أسرعوا بالإحاطة به وخنقوه . وما أن وصل السلطان إلي مشناه في حلب حتي توفي ابنه الثاني جهانگیر متأثراً بجائحة مقتل أخيه الشهزاده مصطفى²⁵⁶ .

وعقب مقتل الشهزاده مصطفى بقي لسليمان ابنين هما : سليم وبايزيد . وإذا كانت تُحرم سلطان تحب بايزيد أكثر ، فقد كان رجال الدولة أيضاً أكثر انجذاباً له بعد مصطفى نظراً لتمييزه عن أخيه سليم ، الأمر الذي جعل من حكم المؤكد أن الشهزاده بايزيد هو الذي سيخلف سليمان القانوني . وعلى الرغم من ذلك ، فقد استطاعت خرم سلطان المحافظة علي حالة الوثام بين ابنيها حتي وفاتها (١٥٥٨م/٩٦٥هـ) ، حيث بدأ الخلاف ينشب بين الأخوين بعد وفاتها سعيّاً للإستئثار بمقام السلطنة . وهكذا ، حاول السلطان الحيلولة دون نشوب مشاحرة بين الأخوين فنقل سليم إلي قونية ، ونقل بايزيد إلي أماسيا ، كما كلف الوزيران صقوللي محمد باشا وبرتو باشا بنصح الأخوين ، حتي أن السلطان هدهما بنقل مقام السلطنة إلي ابن أخيه إذا لم يقلعوا عن التراع .

كانت تُحرم سلطان قبل وفاتها قد استطاعت إعادة رستم باشا إلي منصب الصدارة مرة أخرى عام ١٥٥٥م/٩٦٢هـ ، وكان لالا مصطفى باشا المرافق للشهزاده سليم يتخذ موقفاً ضد رستم باشا الذي كان يؤيد بايزيد . وكان لالا مصطفى باشا من مؤيدي بايزيد في البداية ، الأمر الذي جعل بايزيد يأمن جانبه ، وجعل لالا مصطفى باشا يلعب دوراً مؤثراً في تعميق الخلافات بين الأشقاء . فقام بتحرير خطابات إلي بايزيد لإغفاله ، ثم راح يرسل ردوده إلي السلطان مباشرة مظهراً بايزيد أنه في حالة عصيان . فكما قام رجال لالا مصطفى باشا بالقبض علي حاملي رسائل السلطان إلي بايزيد والتي

²⁵⁶ حول دور الوزير الأعظم رستم باشا في عملية الاطاحة بالشهزاده مصطفى بن سليمان ، أنظر :

T. Gökbilgin, " Rüstem Paşa ve Hakkındaki İtihamlar ",
TD.VIII/11-12 (1956), s. 38

كانت تنصحه بعدم الشقاق والفوز بدعاء السلطان ، سقطت في يد لالا مصطفى باشا أيضاً العرائض التي كان يرفعها بايزيد للإعتذار لأبيه.

وهكذا ، أعلن أن بايزيد عاصياً للسلطان ، حيث جردت عليه حملة تحت قيادة صقوللي محمد باشا . وإذا كان بايزيد قد انتصر في المواجهة الأولى بين الطرفين ، إلا أنه هزم بعد ذلك وفر إلى أماسيا . ولما عجز بايزيد عن الاتصال بأبيه سليمان القانوني ليحيطه علماً بحقيقة الأمر ، أخذ أبنائه الأربعة وخرج مع نحو ألف من أتباعه قاصداً إيران . والحقيقة أن بايزيد تمكن من الحاق الهزيمة بمن تعقبوه حتى دخل الأراضي الإيرانية ، حيث التجأ إلى والي روان شاه قولي سلطان في ٢١ يناير ١٥٦٠ / ١٣ ربيع الآخرة ٩٦٧ . وعلي أثر اصرار سليمان القانوني علي طلب بايزيد وأبنائه من طهماسب ، وارساله الهدايا والأموال مع وفد كبير ، تم تسليم بايزيد وأبنائه الأربعة للوفد الذي كان لديه أوامر بقتلهم ونقلهم إلى مقابرهم في سيواس (١٥٦١م / ٩٦٩هـ) . وهكذا ، أنفرد الشهرادة سليم بولاية العهد بعد السلطان سليمان القانوني المريض والمتقدم في العمر^{٢٥٧}.

حملة القانوني الأخيرة حوجب المجر ووفاته :

كانت النمسا قد عقدت معاهدة مع الدولة مدتها ثمان سنوات ، وذلك عام ١٥٦٢م / ٩٧٠هـ . وبعد مرور عامين من توقيعها مات فرديناند ، حيث حل محله ابنه ماكسيميليان الذي وافق علي تجديد المعاهدة ودفع المبالغ المتأخرة من الخراج عن الأراضي المجرية الموجودة تحت سيطرة النمسا . وفي هذه الأثناء قام أمير أردل سيجسموند الواقع تحت الحماية العثمانية بالتعدي علي الأراضي النمساوية واحتلال مدينة جاتمار . وفي الوقت الذي اشتكى فيه الإمبراطور الجديد للحكومة العثمانية من تصرف أمير أردل ، قام

²⁵⁷ بخصوص اشتعال الصراع بين ابني روكسلانه (خرم سلطان) بعد وفاتها ، وتأيد بعض رجال الدولة طرف ضد الآخر ، في حلقة جديدة من حلقات الصراع علي العرش ، أنظر : Ş. Turan, Kanuni'nin Oğlu Şehzade Bayezid Vakası, Ankara 1961; ayn. Mlf., “Şehzade Beyazid'in Babası Kanunî Sultan Süleyman'a gönderdiği Mektuplar”, Tarih Vesikaları, I/16 (1955), 118-127

بتجاوز حدود أردل واحتلال توقاي وسره نج . ولما توفي الوزير الأعظم سمير علي باشا الذي لم يكن يميل إلى الخروج لحرب جديدة ، وتولي صقوللي محمد باشا الذي يؤيد الحرب ، أعلنت الحرب علي النمسا في آخر إبريل ١٥٦٦ / ٩ شوال ٩٧٣ .

كان الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا قد رحج خروج السلطان بنفسه علي رأس هذه الحملة ، وذلك لتلافي التأثير السيئ لأخفاق الدولة في حملة مالطة . أما السلطان سليمان فكان قد تقدم به العمر وأصيب بالعديد من الأمراض ، وذلك علاوة علي تأثره كثيراً بفقد أبنيه الشهباده مصطفى والشهباده جهانگیر في حملة إيران الأخيرة . وبالفعل ، تقرر خروج السلطان ، حيث تحرك الوزير الثاني برتو باشا قبل السلطان علي رأس فرق القابو قولي بنحو شهرين ، والتقي بقوات الأفلاق والبغدان والقرم وسپاهية ويدين وسمندره ، حيث توجه الجيش صوب الحدود النمساوية من جهة أردل لتنفيذ الأوامر السلطانية بالاستيلاء علي گوله ، واستعادة قلاع چاتمار وتوقاي . فلما وصل الجيش الهمايوني تحت قيادة السلطان سليمان القانوني عن طريق بلجراد ، استقبله في صحراء زامون أمير اردل الذي لحق بعد ذلك بالجيش الذي يقوده برتو باشا .

فتح سيگتوار : وفي الوقت الذي كانت فيه الحملة تتجه صوب أكري ،

وصلت الأخبار بأن أمير سيگتوار الكونت زريني (زرينسكي مولقوش) قد تمكن من قتل أمير سنجق ترحالة وإبنه في شيكلوش ، حيث غيرت الحملة وجهتها إلى قلعة سيكت غربي بلاد المجر . وهكذا ، حوصرت قلعة سيگتوار في ٥ أغسطس ١٥٦٦ / ٩ محرم ٩٧٤ ، وبعد ٣٤ يوماً من الحصار الشديد ، تمكنت المدفعية العثمانية من هدم أسوار المدينة ، فانسحب المدافعون إلى القلعة بعد أن اضطروا لحرق المدينة . لم تصمد القلعة طويلاً حيث استسلمت حاميتها بعد أن سقط زريني بين القتلى في يوم السبت ٧ سبتمبر ١٥٦٦ / ٢١ صفر ٩٧٤ . ومن ناحية أخرى ، كانت القوات التي أرسلت بصحبة برتو

باشا قد استطاعت فتح قلاع غوله ويانوا ولوغوس وغيرها علي الحدود بين أردل والنمسا^{٢٥٨}.

وفاة سليمان القانوني : بينما كان المهجوم مستمراً علي قلعة سيكتوار،

وفي ساعة متأخرة من الليلة السابقة للفتح توفي السلطان سليمان (٦ سبتمبر ١٥٦٦ / ٢٠ صفر ٩٧٤) عن عمر يناهز ٧٣ عاماً . ونظراً لخطورة إعلان خبر وفات السلطان ، أخفي الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا الخبر حتي عن وزراء الدولة في البداية ، وقام سراً بإرسال خطاب مع أحد جاشية الديوان إلي الشهزاده سليم والي كوتاهية طلب منه فيه اللحاق بالجيش بسرعة . وبعد ذلك قام الوزير الأعظم بإعلام وزراء الدولة بوفاة السلطان، وأمر جعفر أغا الذي كان خطه يشبه خط السلطان بتحرير بعض الخطوط الهمايونية حتي يشعر جند القابو قولي (خدم الباب) بوجود السلطان علي قيد الحياة ، ثم قام بجمع نحو ١٢ ممن عرف بوفاة السلطان ، وأقاموا صلاة الجنازة علي حثمانه ، ثم أخفوه في خيمته .

وهكذا ، قام صقوللي محمد باشا بإرسال رسائل الفتح إلي مختلف البلدان، وأمر بإصلاح القلعة وشحنها بالجنود والعتاد ، ووفقاً للعادة العثمانية أمر بتحويل كنيسة سيكتوار إلي جامع ، وقرأت قصيدة المولد في الخيمة السلطانية ، وأعلن انعقاد الديوان الهمايوني وكان السلطان سليمان مازال علي قيد الحياة . بقي الجيش الهمايوني في سيكتوار حتي يحى خبر وصول السلطان الجديد إلي بلجراد ، حتي إذا وصل الجيش إلي بلجراد كان خبر وفاة السلطان سليمان قد انتشر وصار في حكم المؤكد .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فإنه يمكن القول بأن ما أطلق عليه اسم "العهد الذهبي" للدولة العثمانية والذي استغرق نحو ٤٦ عاماً يكون قد وصل إلى نهايته بوفاة السلطان

258 بخصوص آخر حملات السلطان سليمان القانوني في سيكتوار ، أنظر : T. Gökbiçgin,

"Kanunî Süleyman'ın 1566 Sigetvar Sebepleri ve Hazırlıkları",
Tarih Dergisi, XVI/21 (1966), 1-14

سليمان القانوني . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح عهد السلطان سليمان القانوني هو النموذج التي راحت تسعى الدولة بكل أجهزتها خلال مراحل تطورها التالية للوصول إليه مرة ثانية حتي يمكن للدولة أن تعود لسابق عزها وقدم مجدها .

لقد ترك سليمان القانوني لابنه سليم الثاني إمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من حدود موسكو وترانسلفانيا وقفقاسيا شمالاً وحتى بلاد الحبش والمحيط الهندي وشمال أفريقيا جنوباً ، ومن حدود آذربيجان والخليج الفارسي شرقاً وحتى أبواب فيينا وبلاد المغرب غرباً . وترك مع هذه الحدود الشاسعة والأجناس المتباينة والأديان المتعددة واللغات المختلفة مشكلات بنفس هذا الإتساع والتنوع والاختلاف .

وإذا كان سليمان القانوني صاحب الصفات الفذة قد نجح في حمل تبعات هذا الصرح العظيم باقتدار على مدي ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، حيث ملأ بمقام السلطنة كسلطان عالمي " جهانكير " خلال فترة حكمه فعرف بسليمان العظيم، ووضع الملامح الثابتة والدائمة لقواعد الملك ومؤسسات الإمبراطورية وتشكيلاتها فاطلق عليه السلطان سليمان القانوني ، وختم بذلك سلسلة السلاطين العثمانيين العظام بيلدرم بايزيد ومحمد الفاتح وسليم الأول ، فإن شخصية وارث العرش العثماني سليم بن سليمان لم تكن على نفس النموذج الفذ الذي يمكنه حمل أعباء إمبراطورية مترامية الأطراف .

والحقيقة أن سليمان لم ينجح في بناء سياسة الدولة العثمانية الداخلية والخارجية فحسب ، وإنما أمكن له خلال فترة حكمه الطويلة أن يربي جيلاً رائداً من القادة الأفذاذ والإداريين الخبراء ، شاركوه هذا الإنجاز العظيم ، وحملوا العبئ الثقيل من بعده ، وحافظوا على كيان الدولة ومؤسساتها ونظمها والأعراف التي قامت عليها، وراحوا يقاومون عوامل الخلل التي بدأت تسري في كيان الدولة . وهكذا ، أصبح الجيل الذي نشأ في عهد القانوني حارساً أميناً على إنجازات هذا العصر لفترة طويلة من الزمان .

وإذا كان القرن ١٦م/ ١٠هـ قد شهد تغييرات عالمية كبرى في الشرق والغرب ، إلا أن القوة الدافعة لفتوحات الدولة العثمانية وإنجازاتها السياسية والعسكرية

وقوتها الإقتصادية واكتفائها الذاتي جعلها في منأى عن التأثير السلبي لهذه التحولات خلال عهدي سليم الأول وسليمان القانوني . ولما كان البناء الهرمي للدولة العثمانية قد جعل السلطان العثماني يمثل قمة السلطة التشريعية والتنفيذية في الدولة ، فقد تمكن سليم وإبنه سليمان من الخروج من هذه الإزمات العالمية بمكاسب عظيمة ضاعفت مساحة الدولة وزادت من امكاناتها وقدراتها . غير أن الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع علي عرش الدولة التي وقعت في أواخر عهد سليمان راحت تتمحض عن انفراد أقل أبناء سليمان قدرة علي حمل هذه الأعباء الثقيلة فضلاً عن الدفع بإنجازات الدولة إلى الأمام .

وهكذا ، يعتبر فوز سليم الثاني بالعرش بعد سليمان بداية لمرحلة تحول كبري تعرضت لها الدولة العثمانية منذ وفاة القانوني ، راح يزيد أثرها في انحاء الدولة بالتسدرج حتي أواخر القرن ١٦م / ١٠م . والحقيقة أنه علي الرغم من أن سليم الثاني لم يكن من هؤلاء السلاطين الأفذاذ ، فإن قادة وإداريي عصر سليمان القانوني راحوا يقبضون علي مقاليد البلاد ، وأخذوا يديرونها وفقاً لأعراف عهد القانوني ، ويحافظون علي الإنجازات ومكاسب الدولة خلال عهدي سليم الثاني ومراد الثالث باقتدار ، فقاموا بإدارة شئون البلاد في الوقت الذي عزف فيه السلاطين سليم ومراد ومن بعدهم محمد الثالث عن مباشرة مسئولياتهم الإدارية ، وقادوا الجيوش في ميادين القتال بينما كان هؤلاء السلاطين قابعين وراء أسوار السراي العثماني ، وحافظوا على أعراف الدولة وقوانينها في حين لم يلق سلاطين هذه الحقبة بالاً أو حرمة لنظمها الراسخة . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت مراحل تطور الدولة العثمانية التي ارتبطت منذ البداية بعهد السلطان وإنجازاته ، أصبحت ترتبط بمؤثرات فاعلة في الداخل وفي الخارج .

وهكذا ، وعلي أثر تنازل هذه الفئة من السلاطين الضعاف عن سلطاتهم بالتدريج ، بدأ رجال الدولة وقواد الجيوش والولاة ونساء وأغوات السراي يتنازعون هذه السلطات ، وبدأت الإمبراطورية العثمانية تشهد تغييرات عميقة وشاملة سواء في المجتمع العثماني أو في مؤسسات الدولة ، ومن ثم راحت تتأثر بالتغيرات العالمية من حولها .

ويعمل عهدي سليم الثاني ومراد الثالث المرحلة الإنتقالية التي شهدتها الدولة في رحلتها من الإزدهار إلى الضعف . وخلال هذه المرحلة ، لم تتوقف الفتوحات ، ولم تضطرب الإدارة ، ولم ينل أحد في الداخل أو في الخارج من سلطة الدولة . ولكن، فقدت الدولة خلالها السلطان صاحب السلطة العليا والكلمة الحاسمة الأخيرة في المواقف الصعبة وضامن وحدة مؤسساتها ، ومن ثم فتح الباب لمرحلة جديدة من مراحل تطور الدولة الدولة العثمانية .

بداية طريق العودة من القمة

عهد سليم الثاني

(١٥٦٦-١٥٧٤م / ٩٧٤-٩٨٢هـ)

كان سليم الثاني قد انفرد بعرش السلطنة عقب فرار أخيه بايزيد ومقتله. فلما بلغه خبر وفاة أبيه توجه الشهزاده سليم من كوتاهية إلى استانبول ، حيث جلس على عرش السلطنة في ٢٤ سبتمبر ١٥٦٦/ سلخ صفر ٩٧٤ . وبينما كان السلطان الجديد يسرع إلى بلجراد ، كان الجيش العائد من حملة سيغتوار قد وصل مع جثمان السلطان سليمان إليها . وهكذا ، عاد السلطان الجديد بجثمان القانوني إلى استانبول في ظل حزن عام شمل كافة أرجاء الدولة ، حيث أقيمت الصلاة عليه في مسجد السليمانية ودفن في تربته^{٢٥٩} .

السلطان عليه الثاني ومشكلة إنعام الجلوس : لم يكد سليم يتولى الحكم حتى وُضع على المحك أمام طلبات جنود الباب السلطاني . وكانت طائفة جند الباب قد حُرمت من أخذ " إنعام الجلوس " وفقاً للعادة العثمانية طول فترة حكم السلطان سليمان الطويلة . وفي الوقت الذي كان فيه جند الباب السلطاني يتطلعون إلى هذا العطاء بحرص شديد ، أعلن الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا أنه ليس هناك أموال كافية في الخزينة لدفع إنعام الجلوس ، وأنه سوف يتم توزيعه فيما بعد ، ولكن لا ينبغي العجلة في هذا الشأن . ولكن السلطان الجديد سليم الثاني ومعلمه وندمائه راحوا يصرون على توزيع العطاء ، فلم يرض جند اليكيجري بما قرّر لهم ، وراحوا يطالبون بزيادة هذا العطاء ، بل أخذوا يتناولون على السلطان باللسان . ولما وصل موكب السلطان لإستانبول تجمهروا في طريق السلطان معلنين العصيان . وهنا أدرك السلطان سليم صواب رأي الوزير الأعظم صقوللي محمد باشا ، وأمر بتوزيع العطاء كاملاً على الجنود لخمدة الفتنة قبل أن تستفحل.

وهكذا ، ظهر سليم الثاني في وضع العاجز في أول مشكلة يتعرض لها أمام جند الباب الذين لم يتجرأوا على التطاول على سلطة الدولة ونفوذ السلطان لسنوات طويلة ، كما تراجع السلطان الجديد خطوة أمام الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا الذي رسخت مكانته وارتفع مقامه درجة سواء أمام السلطان أو أمام جند الباب السلطاني . ومنذ ذلك الحين ، راح سليم الثاني يترك شئون الدولة الداخلية والخارجية لبيديها وزير والده القدير صقوللي محمد باشا ، حيث أصدر قراره بمنح الصدر الأعظم حرية مطلقة في إدارة شئون الدولة^{٢٦٠}.

وقد زادت مكانة صقوللي مرة أخرى ، عندما استطاع انهاء مشكلة مطالبة نحو ثمانية آلاف شاب تركماني كانوا قد قدّموا الدّعم لسليم في مواجهته أمام أخيه بايزيد، مطالبتهم بالمكافئة التي وعدهم بها سليم . وكان سليم قد وعدهم بتسجيلهم كجنود في فرق الباب السلطاني عندما يصل إلى عرش السلطنة . فلمّا جلس على العرش جاؤوا يطالبون بحقوقهم في الانضمام لجيش القابو قولي (الباب السلطاني) . إلا أن صقوللي وقف مرة أخرى مدافعاً عن نظم الدولة ، وقام بزجر أفرادهم ويوزيع بعض مقاطعات التيمار على رؤسائهم ، وواد فتنه أخرى في مهدها كان من الممكن أن تستفحل^{٢٦١} .

فتح جزيرة ساقيز : لقد حرصت الدولة العثمانية على تأمين سواحل الأناضول بفتح الجزر المطلة عليها الواحدة تلو الأخرى ، إلا أنها لما أخضعت جزيرة ساقيز تركت أمرائها يحكمونها مقابل دفع الخراج السنوي للدولة . ولكن ، قام أمراء ساقيز بتحويل الجزيرة إلى مركز للقرصنة يراقب تحركات الأسطول العثماني ، ويرسل المعلومات

²⁶⁰ فيما يتعلق بسياسة صقوللي باشا المالية في أوائل عهد سليم الثاني ، أنظر : Taner Timur,

“Osmanlı Devleti’nde Para ve Politika Sokollu Mehmed Paşa ve Yasef Nasi”, Tarih Çevresi, XIV(Ocak-Şubat 1995), s. 6 vd.; keza bk. Mücteba İlgürel, ” Zirveden Dönüş: II. Selim’den III. Mehmed’e”, Türkler, XIV/643-644

²⁶¹ Taner Timur, “Osmanlı Devleti’nde Para ve Politika Sokollu Mehmed Paşa ve Yasef Nasi”, s. 8 vd.

للأعداء . ولما تأكدت الدولة من قيام أمراء ساقيز بمساعدة أعدائها أثناء حملة مالطة (١٥٦٥م / ٩٧٣هـ) وكانوا قد منعوا دفع الخراج السنوي منذ عدة سنوات ، قررت تجريد حملة على ساقيز لضمها ضمّاً مباشراً خلال عصر القانوني . إلا أن الدولة كانت تستعد في هذه الأثناء للخروج إلى حملة سيكتوار ، فأرجأت هذه الحملة إلى حين .

وهكذا ، كان خروج الأسطول الهمايوني لساقيز أمراً ضرورياً لتأمين نفوذ الدولة في البحر المتوسط . فخرج قبطان البحر بياله باشا بنحو ٧٠ سفينة قدره في ١٤ إبريل ١٥٦٦ / ١٥ رمضان ٩٧٣ ، حيث رسي الأسطول عند ميناء چشمه المقابل لجزيرة ساقيز . ولما علم أمراء الجزيرة بهذه التطورات ، أسرعوا بتقديم الهدايا والإعتذار ، إلا أن بياله باشا حجز وفدهم وحاصر الجزيرة التي فتحت دون إراقة دماء. وبعد الفتح حصنت الجزيرة ووضع عدد كاف من المحافظين فيها وحُولت أكبر كنائسها إلى مسجد بحسب العادة العثمانية . وهكذا ، كان فتح ساقيز خطوة أولى في طريق فتح قبرص التي كانت تعد أحد المراكز الإستراتيجية للقراصنة في غرب البحر المتوسط^{٢٦٢} .

توطيد الحكم العثماني في اليمن : لقد كانت منطقة اليمن ذات أهمية

كبيرة بالنسبة للدولة ، وذلك نظراً لبعد هذه الولاية عن مركز الدولة في إسطنبول ، واستقرار البرتغال في المنطقة وقطعهم الطريق على التجارة الشرقية ومحاولتهم التعدي على الأراضي المقدسة . ولذلك ، لما خرج الإمام مطهر علي الدولة وقام بأسر أمير أمراء زبيد مراد باشا ، والأمر بقراءة الخطبة باسمه ، شعرت الدولة بالقلق من هذه التطورات ، وأصدرت أمراً بتجريد حملة علي اليمن تحت قيادة أمير أمراء مصر سنان باشا ، وبتعيين عثمان باشا ابن أوزدمير والياً إمارة أمراء اليمن .

وبينما كان عثمان باشا يواجه مطهر في البر ، كان قبطان السويس خضر رئيس يحاصر عدن من البحر ، حيث وفق في إعادة السيطرة عليها ، ثم تمكن من بسط

²⁶² فيما يتعلق بدخول جزيرة ساقيز تحت الإدارة العثمانية ، أنظر : Turan S., "Sakız'ın Türk Hakimiyetine Alınması", Tarih Araştırmaları Dergisi, IV/6-7, Ankara 1966, s. 175-193

نفوذه علي صنعاء وكوكبان . وبذلك ، أجبر سنان باشا مطهر علي إعلان الطاعة ، وعينت له مقاطعة ليقم فيها . وبعد ذلك قام سنان باشا بوضع نظام جديد لإدارة اليمن وقام بتوجيهها إلي بهرام باشا . وإذا كانت الدولة قد تمكنت بهذه الحملة من إعادة السيطرة علي المناطق الحضرية من اليمن ومدنها وموانئها الرئيسية ، إلا أن الزيديين ، راحوا يحافظون علي سيطرتهم علي الجبال ، ليكونوا مصدر قلق دائم للإدارة العثمانية في اليمن^{٢٦٣} .

السياسة الشمالية للدولة ومشروع فتح قنال الحodon - فولجا : لم تشعر

الدولة العثمانية بأي خطر محقق بنفوذها علي حدودها الشمالية من جانب الدولة الروسية في موسكو حتي عام ١٥٣٠م / ٩٣٦هـ . وعلي الرغم من مرور مملكة الجيش الذهبي (آلتون أوردو) بتحويلات جوهرية خلال هذه الفترة ، فقد حافظت الإدارة العثمانية علي علاقاتها الطويلة والمؤيدة لمملكة القرم ، ولم تفرط في تحسين العلاقات مع مملكة موسكو ، حتي أن السلطان بايزيد الثاني وافق علي منح التجار الروس الحرية في ممارسة الأعمال التجارية في طول البلاد العثمانية وعرضها (١٤٩٧م / ٩٠٢ هـ) .

واعتباراً من عام ١٥٣٢م / ٩٣٩هـ ، بدأ العثمانيون يشعرون بالخطر الروسي عن قرب ، وذلك أثناء الحروب الطويلة التي اشتعلت بين موسكو ومملكة القرم من أجل الفوز بممرات مملكة الجيش الذهبي في أستراخان وقازان . وكان العثمانيون قد استطاعوا السيطرة التامة علي البحر الأسود وجعله بحيرة عثمانية بعد أن تمكنوا من انتزاع جنوبي بسارابيا من البغدان عقب حملة سليمان القانوني علي البغدان عام ١٥٣٨م / ٩٤٥هـ ، حيث شكلت هناك إمارة " آق كرمان " . والحقيقة أن خان القرم راح ينافس الروس في الفوز بممرات دولة الجيش الذهبي في حوض الفولجا ، حيث يطلب المساعدة من العثمانيين . وعلي الرغم من محاولات خان القرم السيطرة علي أستراخان وحماية قازان

²⁶³ فيما يتعلق بتطور الأوضاع في اليمن خلال عهد سليم الثاني ، أنظر : Mücteba

İlgürel, "Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e", Türkler, XIV/644 vd.;keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III, Ankara 1951, s.26-28

من الخطر الروسي ، استطاع جاز الروس إيفان الرابع الاستيلاء علي قازان في ١٥٥٢م/ ٩٥٩هـ ، ثم علي استراخان فيما بين ١٥٥٤-١٥٥٦م/ ٩٦١-٩٦٣هـ ، ثم استقطب جماعات من الجركس والقازاق في عام ١٥٥٩م/ ٩٦٦هـ ، حيث قاموا لأول مرة بالهجوم علي آزاق وسواحل القرم^{٢٦٤} .

وهكذا ، ظهرت البوادر الأولى للخطر الروسي علي العالم الإسلامي عموماً وعلي الحدود الشمالية للدولة العثمانية علي وجه الخصوص ، حيث وصلت للبلط العثماني استغاثات ممالك وسط آسيا الإسلامية ، وطلبات المساعدة من أمراء شيروان وگورجستان إلي الدولة العثمانية للتصدي للزحف الروسي في المنطقة . ومنذ ذلك الحين بدأت الإدارة العثمانية توجه اهتمامها بالمسألة الشمالية ، حيث وضعت في عهد السلطان سليمان القانوني خطة للقيام بحملة شاملة علي استراخان عام ١٥٦٣م/ ٩٧٠هـ ، فعقدت هدنة مع الهابسبورج عام ١٥٦٢م/ ٩٦٩هـ ، إلا أن الحملة لم تتحرك إلا في عام ١٥٦٩م/ ٩٧٧هـ . وكان هذا المشروع العسكري الذي تقدم به الوزير الأعظم صوقوللي محمد باشا يستهدف حل مسألتی إيران وموسكو في وقت واحد ، حيث انحصرت هذه الأهداف في العناصر التالية :

- فتح قنال تصل بين نهری الدون والفولجا .
- إبعاد الروس عن حوض الفولجا الجنوبي بالسيطرة علي استراخان .
- إتاحة الفرصة للأسطول العثماني للوصول إلي بحر الخزر من البحر الأسود عن طريق القنال المزمع شقها .
- تطوير الدولة الصفوية من الشرق .
- بسط نفوذ الدولة العثمانية علي قفقاسيا وحكمها .
- عقد علاقات مباشرة مع حكام الممالك الإسلامية في وسط آسيا .

264 فيما يتعلق ببيدایات المنافسة العثمانية الروسية ، وحملة الدون - فولجا ، أنظر : Halil

İnalçik, "Osmanlı-Rus Rekabetinin Menşe-i ve Don-Volga Kanalı Teşebbüsü", Belleten, III/46, s. 349-402; keza bk.

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/33-37

- السيطرة علي طريق التجارة خوارزم - استراخان - القرم ومحاوله إحيائه من جديد .

لم تنهون الدولة العثمانية في الإعداد لهذه الحملة الإعداد المناسب ، حيث تمكن الجيش العثماني من الوصول بالإسطول إلى أقرب نقطة تصل نهر الفولجا بنهر الدون . ولما استيقنت القيادة العثمانية استحالة حفر قنال هناك بعد أن تم حفر ثلثها تقريباً ، انزلت الأسطول إلى الفولجا بمزالق السفن ، حيث وصلت به أمام استراخان، وباشرت حصار قلعتها في الحال . والحقيقة أن مقاومة الجيش الروسي لهذا الحصار كانت مقاومة شديدة ، حيث ألحقت خسائر فادحة بالجيش العثماني أثناء انسحابه إلى القرم . وهكذا، كان لهذا الإخفاق تأثير عظيم علي عدم تفكير الدولة خلال هذه الفترة في القيام بحملة أخرى في المناطق الشمالية ، واضطرار السلطان العثماني للإستجابة لطلب جار السروس لعقد هدنة بين الطرفين ، حيث جاء في بنود هذا الإتفاق :

- فتح طريق استراخان .
- هدم القلاع التي أقامها الروس في منطقة قابارتاي .
- حماية وتأمين حالة السلم مع القرم .
- الإعتراف بحق السلطان العثماني في حماية بلاد القرم والأمراء الجراكسة في تلك

النواحي

- تخلي الدولة عن مناطق قازان واستراخان التي بقيت في يد الروس²⁶⁵ .

ومهما يكن من أمر ، فقد أجمعت صراعات الدولة مع القوى الأوروبية في البحر المتوسط وفي البحر مع الشيعة في إيران ، أجمعت العثمانيين علي ترك خان القرم يدبر أمره بمفرده لصد الهجمات الروسية في الشمال والشرق . وخلال العقدین التاليين ،

²⁶⁵ لتفصيلات أكثر حول التصدي العثماني لمحاولات الروس السيطرة علي المناطق الشمالية ، أنظر :

Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/33-37; Halil İnalcık, "Osmanlı-Rus Rekabetinin Menşe-i ve Don-Volga Kanalı Teşebbüsü", Belleten, III/46, s. 349-402

أخذ جدار الروس ينقض الإتفاقية بين الطرفين ، ويقوم ببناء الحصون والقلاع شمالي فقفسيا ، ويعمل بخطة ثابته علي بسط نفوذه علي مناطق القازاق والنوجاي والجر كس. وفي نفس الوقت ، كانت عصابات قازاق الروس التي جُهزت بالأسلحة النارية تعمل علي نشر النفوذ الروسي في أنحاء صربيا .

التفكير في شق قناة السويس : لقد كان تفاقم مشكلة نفوذ البرتغال

في البحار الشرقية وقطعهم طريق التجارة الشرقية وتعديهم علي الموانئ العثمانية وطرق التجار والحجاج في البحر الأحمر ، وعدم استقرار الحكم العثماني في ولايتي اليمن والحبش ، وضرورة توفير الدعم اللازم والسريع والمستمر لمواجهة هذه التحديات في هذه المنطقة ، وراء تفكير الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا في شق قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر . ولذلك أرسل إلي أمير أمراء مصر أمراً يشير إلي ضرورة مواجهة هذه الأخطار بشق قناة تربط بين السويس والبحر المتوسط ، وضرورة بحث تنفيذ هذا المشروع ، وتوفير الاحتياجات اللازمة له من مهندسين وبنائين (١٥٦٨م / ٩٧٦هـ —) . إلا أن انشغال الدولة في جهات مختلفة خلال هذه الفترة ، وغياب الدعم الفعلي من السلطان سليم الثاني ، جعل هذا المشروع فكرة لم يتم تحقيقها^{٢٦٦} .

فتح قبرص وتوطيد النفوذ العثماني في شرق البحر المتوسط:

لقد زاد حرص الدولة العثمانية علي توطيد نفوذها في الحوض الشرقي للبحر المتوسط عقب ضمها لمصر الشام ، حيث كان فتح رودس عام ١٥٢٢م / ٩٢٨هـ ثم فتح ساقيز عام ١٥٦٦م / ٩٧٣هـ خطوة في هذا الطريق . وكان أمراء قبرص يدفعون الخراج عن الجزيرة لدولة المماليك ، فلما ضم العثمانيون مصر ، استمروا في دفع الخراج للدولة . والحقيقة أن قبرص لم تكن تمثل أي خطر علي الدولة خلال عهد القانوني . إلا أنه في أواخر هذا العهد ، أخذ قراصنة قبرص يعتدون علي السفن التجارية للدولة ، مما أشعر

²⁶⁶ بخصوص فرمان الصادر لأمير أمراء مصر لبحث موضوع شق قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عبر خليج السويس ومدى ضرورته الإستراتيجية بالنسبة لتوطيد الدولة لنفوذها في

البحار الشرقية ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/32 vd.

الإدارة العثمانية بضرورة القضاء علي هذه البؤرة المعادية لها والموافقة علي اقتراح قبطان البحر بياله باشا بفتح الجزيرة .

ولما علم البنادقة بنية الدولة في تجريد حملة لفتح قبرص ، راحو يرسلون السفراء إلي الإدارة العثمانية ليثبثوها عن سعيها ، وذلك في الوقت الذي أخذوا فيه يتصلون بأوروبا لطلب المساعدات . وإذا كان البابا قد نجح في تشكيل تحالف يضم كل من ملك اسبانيا فيليب الثاني وفرسان مالطة ، وجنوه وصاوا وغيرها ، إلا أن هذا الأسطول لم يستطع الوصول في الوقت المناسب لإنقاذ قبرص .

فقد خرج الأسطول العثماني (٢٣٠ قطعة بحرية) تحت قيادة قبطان البحر مؤذن زاده علي باشا ، مع نحو ٢٥ ألف من القوات البرية تحت قيادة لالا مصطفى باشا من استانبول في مايو ١٥٧٠ / ذي الحجة ٩٧٧ ، حيث شرع في إبرار القوات ومحاصرة قلعة لفقوشة التي سقطت بعد ٥١ يوماً من الحصار . غير أن حصار مغوصه استمر لمدة عام كامل قبل أن يتم فتحها في أول أغسطس ١٥٧١ / آخر صفر ٩٧٩ . وبعد فتح الجزيرة ، شكلت منها ومن طرسوس وعلائية وإيجل إمارة أمراء عين عليها مظفر باشا ، كما نقل إليها عدد كبير من سكان إمارات قونية وقره مان ونكیده وقيصري وفقاً للأعراف العثمانية القديمة^{٢٦٧} .

معركة لبانتو (إبنه بختي) : وفي ٧ أكتوبر ١٥٧١ / ٨ جمادي الأولى ٩٧٩ ، وبينما كان الأسطول العثماني عائداً إلي لبانتو بعد فتح جزيرة قبرص وانتهاء موسم الحملات البحرية ، تعرض لهجوم مفاجئ وكبير من قبل أسطول الحلفاء الذي شكله البابا

²⁶⁷ بخصوص الأسباب التي دعت العثمانيين لفتح قبرص ، ووقائع الفتح أنظر : Recep

Dündar, "Kıbrıs'ın Fethi", Türkler, XIV/667-675; keza bk. Recep Dündar, Kıbrıs Beylerbeyliği (1570-1670), basılmamış Doktora Tezi, Malatya 1998, s. 14 vd.; Uzunçarşılı, "Kıbrıs'ın Fethi ile Lepant (İnebahtı) Muharebesi Sırasında Türk Devleti ile Venedik ve Müttefiklerinin Faaliyetlerine Dair Hazine-i Evrak Kayıtları", Türkiye Mecmuası, III (1935), s. 257

من قوات البندقية وأسبانيا والبابوية وفرسان مالطه تحت قيادة دون جوان. وفي المعركة التي وقعت بين الطرفين في خليج لبانتو بين المورة وتسالياً ميني الأسطول العثماني بنكسة مريرة ، لم ينج فيها من سفنه التي كانت تبلغ ٢٣٠ سفينة حربية سوي ثلاثين سفينة فقط كانت تحت قيادة اولوج علي بك^{٢٦٨} .

والحقيقة أن هذا الانتصار الذي حققته أساطيل الحلفاء جعلهم يخططون للهجوم في العام التالي إما علي قبرص لإستعادتها إر علي استانبول نفسها . ولكن تمكّن الوزير الأعظم صقولي محمد باشا من حشد كل قوي الدولة لإستيعاب هذا الإخفاق خلال موسم الشتاء ، وبناء اسطول أكثر قوة في وقت قياسي وإنزاله للبحر كعادة الدولة في موسم الربيع ، جعل الحلفاء يعيدون التفكير في مشروعاتهم البحرية ضد الدولة العثمانية. وكان سفير البندقية في استانبول قد التقى بالصدر الأعظم صقولي محمد باشا ليعرف رد فعل الدولة علي هزيمة لبانتو ، فرد عليه صقولي بقوله: "إننا قطعنا ذراعاً حيواً لكم بإنزعنا قبرص من أيديكم ، وتلك الذراع لا يمكن أن تعود ثانية ، أما هزيمتكم الاسطول العثماني في إينه بختي ، فلم تكن أكثر من قطع شعرة من لحية السلطان لا تلبث أن تنبت أقوى وأشد مما كانت ."

وهكذا ، اضطرت البندقية لعقد صلح منفرد مع الدولة متخيلة عن حليفاتها في مارس عام ١٥٧٣م/ ذي القعدة ٩٨٠ ، حيث ارتضت دفع خراج قدره ٣٠٠ ألف ذهبية للخزينة العثمانية كل عام ، وذلك علاوة علي دفع مبلغ ١٥ ألف دوقة عن ترك جزيرة زانتا ، والتنازل عن قلعتين علي سواحل الأرناؤوط للدولة^{٢٦٩} .

²⁶⁸ فيما يتعلق بمعركة إينه بختي (لبانتو) والنتائج التي تمخضت عنها ، أنظر : İdris Bostan, "İnebahtı Deniz Savaşı", DIA, c. 22, s. 287-269; M. Cavid Baysun, "Lepanto", IA, VII/39-45; keza bk. S. Soncek, "İnebahtı Savaşı (1571) Hakkında Bazı Mülâhazalar", Tarih Enstitüsü Dergisi, sy. 4-5, s. 35-43

²⁶⁹ فيما يتعلق بنتائج اخفاق إينه باختي ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi,

إستعادة تونس : كان خير الدين بربروس قد انتزع تونس من يد الأسبان عام ١٥٣٤م/٩٤١هـ . إلا أن الأسبان أعادوا إحتلالها في العام التالي . وعقب هزيمة إبنه بخني أراد الصدر الأعظم صفوللي محمد باشا تأكيد النفوذ العثماني في البحر المتوسط، فاستصدر الأمر بخروج الأسطول العثماني الجديد لإستعادة تونس ، وكلف قبطان البحر قليج علي باشا كقائد للأسطول و سنان باشا كقائد للقوات البرية بهذه المهمة . وبالفعل ، تمحرت الحملة في مايو ١٥٧٤ / صفر ٩٨٢ . وبعد حصار شديد لقلعة " حلق الواد " الحصينة ، تم فتحها وغيرها من القلاع ، حيث سقطت البلاد في يد العثمانيين ، ومن ثم تم تشكيل إمارة أمراء تونس في المناطق المفتوحة^{٢٧٠} .

الحلّان نظام جديد لتولية العرش العثماني :

حرصت الدولة العثمانية في أواخر عصر القانوني على وضع بعض التدابير الجديدة لمواجهة مسألة صراع أبناء السلطان علي العرش . وكان علي رأس هذه التدابير منع تعيين أبناء السلاطين علي المناطق السنجقية وفقاً للعادة العثمانية القديمة ، وذلك عدا أكبر الأبناء سناً ، حيث أصبحت سنجقية معينسا منذ ذلك الحين هي ولاية الشهبازة يعين عليها أكبر أبناء السلطان وولي عهد السلطنة . وكان الشهبازة مراد أكبر أبناء سليم الثاني قد عين علي سنجقية معينسا منذ عام ١٥٦٢م/٩٦٩هـ . فلما توفي سليم الثاني متأثر بمرض الحمي الذي أصيب به عن عمر يناهز الخمسين في ١٥ ديسمبر ١٥٧٤ / ٢١ شعبان ٩٨٢ ، أرسل إلي إبنه مراد الموجود بمعينسا لتولي العرش محل أبيه^{٢٧١} .

²⁷⁰ بخصوص معركة حلق الواد واستعادة تونس ، أنظر : Mahmud Şakiroğlu, "Halku'l-Vâd", DİA, c. XV/375-376; keza bk. Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/29 vd. ²⁷¹ Mücteba İlgürel, "Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e", Türkler, XIV/649; keza bk. Feridun Emecen, XVI. Asırda Manisa Kazası, Ankara 1989

وإذا كان سليم الثاني هو أول سلطان يتوفي في استانبول ، وأول سلطان ترك
شئون الدولة لوزيره الأعظم ، وأول سلطان ترك عادة الخروج علي رأس الجيش
السلطاني في الحملات العسكرية ، ومن ثم يكون أول من وضع أعرافاً لعصر السلاطين
الضعاف خلال الربع الأخير من القرن ١٦م/ ١٠هـ ، فإن ابنه مراد الثالث ، هو آخر
من أكتسب خبرة إدارية من سلاطين هذه المرحلة ، وأول سلطان قام عقب تسلمه
مقاليد الحكم في البلاد بقتل أخوته الخمسة حماية لنظام الدولة والحيلولة دون خروجهم
عليه أو استخدامهم من قبل الأعداء ضد الدولة .

خطوة جديدة في طريق العودة من القمة

عهد مراد الثالث

(١٥٧٤ - ١٥٩٥ م / ٩٨٢ - ١٠٠٣ هـ)

لما وصلت رسالة الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا إلى الشهزاده مراد الموجود في مغنيسيا تخبره بوفاة أبيه ، وتطلب إليه الإسراع إلى استانبول ، توجه السلطان الجديد إلى مركز الدولة ، حيث جلس علي سرير العرش في ٢٢ ديسمبر ١٥٧٤ / ٢٨ شعبان ٩٨٢ ، واستقبل سفراء البندقية وهستان وراحوزه والنمسا وإيران الذين أتوا للتهنئته بالجلوس السلطاني وتقديم الهدايا^{٢٧٢} .

نفوذ النساء في السراي العثماني : استطاع الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا المحافظة علي مكانته كنائب مطلق للسلطان خلال السنوات الأولى من عهد مراد الثالث ، فبقي في منصبه ، وتزوج من أخت السلطان أسمهان سلطان ، الأمر الذي زاد من نفوذه وسلطته . وعلي الرغم من ذلك ، بدأ نفوذ نساء السراي العثماني يزداد بالتدريج خلال عهد السلطان الجديد ، حيث أخذن يتدخلن في كافة شئون الدولة . وقد ساعد على ظهور طائفة نساء السراي كعنصر فاعل في إدارة شئون الدولة ، عزوف السلطان مراد الثالث عن مباشرة سلطاته المركزية العليا ، وظهور فئة من رجال السراي أضمرت الحسد لمكانة صقوللي باشا لدى السلطان ونفوذه المطلق في أنحاء الدولة ، فسعت بكل طريق لإضعاف هذا النفوذ وتلك المكانة .

وقد كشف نفوذ نساء السراي عن نفسه خلال الشجار الذي كان يشب بين زوجة السلطان صفية سلطان والدة الشهزاده محمد وبين والدة السلطان نوربانو سلطان ، حيث انعكس خلافهما في أحيان كثيرة علي الكثير من شئون الدولة ، وذلك بعد أن راحت كل امرأة تبحث لها عن مؤيدين بين رجال ونساء السراي وأركان الدولة . وإذا

²⁷² بخصوص وصول سفراء الدولة لاستانبول لتقديم التهنئة بجلوس السلطان الجديد ، أنظر : Bekir

Kütükoğlu, "Şah Tahmasb'ın III. Murad'a Cülüs Tebriki", Tarih Dergisi, sy.15, s. 1-24

كان الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا قد ضاق ذرعاً بهذا التدخل الذي نال من سلطته ونفوذه ، وراح يقاومه بحرص شديد ، إلا أن بُعد السلطان مراد عن شئون الدولة وإنغماسه في لهوه وملذاته ، والتدخلات المستمرة للندماء والنساء ، راح ينعكس سلباً على سيطرة الوزير الأعظم بالتدريج على مختلف مؤسسات الدولة^{٢٧٣} .

إضطراب الأوضاع في إيران وبداية حملاته الشرق : استمر مفعول

معاهدة أماسيا ١٥٥٥م/ ٩٦٢هـ بين العثمانيين والصفويين حتي وفاة الشاه طهماسب عام ١٥٧٦م/ ٩٨٤هـ . والحقيقة أن الدولة الصفوية راحت تمر خلال السنوات التي تلت وفاة طهماسب بحالة اضطراب شديدة بسبب المنافسة على العرش، حيث اقترح أمير أمراء وان على الدولة محاولة الاستفادة من تلك الإضطرابات . وإذا كان الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا قد أوضح للسلطان الآثار السلبية التي يمكن أن تنتج عن تجريد حملة علي إيران خلال هذه الفترة ، إلا أن فقدان صقوللي لنفوذه القديم ، مكن المتنافسين على القيادة وتحقيق الشهرة من استصدار الأمر بخروج الحملة علي الشرق^{٢٧٤} .

فتح بلاد الكرج (گرجستان) : خرجت الحملة تحت قيادة لالا مصطفى

باشا في ربيع ١٥٧٧م/ ٩٨٥هـ ، حيث كان هدفها الإستيلاء علي بلاد الكرج وشيروان . عبر لالا مصطفى باشا إلي أراضي الكرج من أردخان ، حيث خرج إليه الجيش الصفوي في ٣٠ ألف فرد تحت قيادة توقماق خان ، ووقعت بين الطرفين المواجهة الأولى عند جيلدر عام ١٥٧٨م/ ٩٨٦هـ . وكان النصر من نصيب العثمانيين الذي شرعوا في الإستيلاء علي بلاد الكرج ، حيث أعتق أحد أمراء جنوبي گرجستان ويدعى مينوچهر الإسلام . اعترف مينوچهر بالنفوذ العثماني ووجهت إلي أخيه حيريجووار

²⁷³ لتفصيلات أكثر حول نفوذ النساء في البلاط العثماني ، أنظر : İ. Pierce, Harem-I

Hümayun, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümdarlık ve Kadınlar, terc. A. Berktaş, İstanbul 1996, s. 45 vd. ; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/I, s.43-44; M.Tayyib Gökbilgin, “ Mehmed Paşa, Sokullu Tavil “, IA/VII., 268-272

²⁷⁴ بخصوص دور لالا محمد باشا وغيره في إخراج حملة الشرق ، أنظر : Bekir Küttükoğlu,

“Mustafa Paşa, Lala”, IA/VIII, s.732-736

سنحق أولتي . ولما تمكن لالا مصطفى باشا بعد ذلك من فتح تفليس وأعلن أمراء ميرت وقارتلي الطاعة ، قام بتشكيل إمارة أمراء تفليس وعين عليها محمد باشا بن فرهاد باشا (١٥٧٨م/٩٨٦هـ) .

انتقل لالا مصطفى باشا بعد ذلك إلى شيروان ، حيث تمكن من ضم مركزها في شماخي ، واتخذ دربند (دمبر قابو) عاصمة لولاية شيروان . وبعد أن عين عليها أمير أمراء دياربكر أوزدمير أوغلي عثمان باشا ، وأمده بالجند اللازم لحمايتها ، عاد السردار لالا مصطفى باشا إلى مركز الدولة قبل حلول الشتاء .

وعقب عودة السردار قام جيش إيراني تحت قيادة خان شيروان السابق أوروس خان بدخول شيروان ، حيث توجه إلى شماخي التي كان يتحصن بها عثمان بن أوزدمير باشا ، حيث وقعت بين الطرفين مواجهة شرسة في ٩ نوفمبر ١٥٧٨ / ٩ رمضان ٩٨٦ . وعلي أثر وصول فرقة من قوات القرم تحت قيادة شقيق خان القرم عادل گراي ، اندحر هجوم أوروس خان ، حيث سقط قتيلاً في أرض المعركة . إلا أن سقوط عادل گراي في الأسر بعد ذلك ، أجبر عثمان باشا علي الانسحاب إلى دربند . ولما وصل خان القرم محمد گراي بقوة تقدر بـ ١٠٠ ألف رجل ، عاد عثمان باشا إلى شماخي . غير أن عودة خان القرم إلى بلاده بسرعة جعلت عثمان باشا ينتظر قوات الروميلي التي أرسلت إلى دربند تحت قيادة جعفر باشا في ١٥٨٢م/٩٩٠هـ^{٢٧٥} .

والحقيقة ، لم تنقطع المواجهات بين القوات الإيرانية والقوات العثمانية تحت قيادة سنان باشا (١٥٨٠-١٥٨٢م/٩٨٨-٩٩٠هـ) ، ثم تحت قيادة فرهاد باشا (١٥٨٣-١٥٨٥م/٩٩١-٩٩٣هـ) ، ثم تحت قيادة عثمان باشا بن أوزدمير (١٥٨٥-١٥٨٦م/٩٩٣-٩٩٤هـ) ، وأخيراً تحت قيادة فرهاد باشا ثانية (١٥٨٧-١٥٩٠م/٩٩٥-٩٩٨هـ) . وعلي الرغم من تحقيق مكاسب مؤقتة للدولة العثمانية في

²⁷⁵ بخصوص تفاصيل أكثر حول المواجهات العثمانية-الصفوية خلال عهد مراد الثالث ، أنظر :

Bekir Kütükoğlu, Osmanlı-İran Siyasî Münasebetleri, İstanbul 1962, s.90-103; ayn. Mlf., "Murad III.", IA/VIII., s.615-625

المنطقة ، إلا أن هذه الحملات الطويلة راحت تستنزف خزينة الدولة وترهق الإقتصاد العثماني عموماً أيما إرهاق^{٢٧٦} .

معاهدة إستانبول (١٥٩٠م / ٩٩٨هـ) : وعقب تحقيق النصر على القوات الإيرانية ، وتمكن فرهاد باشا من رفع الحصار عن تبريز وضم گنجه وقره باغ ، واستطاع جغاله زاده سنان باشا احتلال نهاوند وحدد الحدود مع جورجستان ، أجبر الشاه عباس على ارسال شقيقه حمزة ميرزا علي رأس وفد لعقد الصلح مع العثمانيين . وقد جاء في المعاهدة التي وقعت في استانبول ٢١ مارس ١٥٩٠ / ١٥ جمادي الأولي ٩٩٨ ، وأنهت الحرب بين الطرفين البنود التالية :

١. أن تبقي تبريز والمناطق المحيطة بها من أذربيجان وقره باغ وگنجه وقارص وبتليس وشهريزور وناوند ولوريستان تحت الإدارة العثمانية .
٢. أن يضمن الشاه منع الشتائم والسباب التي يطلقها علماء إيران علي الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وعلي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، ومنع تلقينها للناس .
٣. أن ي بقي حمزة ميرزا محجوراً كرهينة لدي العثمانيين ضماناً لتنفيذ بنود المعاهدة^{٢٧٧} .

مقتل الصدر الأعظم صقوللي محمد باشا ونهاية عصر الإزدهار :

كان صقوللي باشا قد حقق نجاحات عديدة خلال عهود سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث ، مما جعل له مؤيدون كثيرون ، إلا أن إعتراضه علي خروج حمليتي قبرص ثم إيران ، وتأيد السلطان العثماني لخروج هاتين الحملتين ، أعطى فرصة لمنافسيه للكيد ضده عند السلطان مراد الثالث ، الأمر الذي أضعف نفوذه كثيراً خلال

²⁷⁶ حول حملات القفقاس ، أنظر : Fahrettin Kırzioğlu, Osmanlıların Kafkas

Ellerini Fethi (1451-1590), Ankara 1976, s. 152 vd.

²⁷⁷ بخصوص بنود معاهدة استانبول ، أنظر : Bekir Kütükoğlu, Osmanlı-Iran

Siyasî Münasebetleri, s. 193-198; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, III/I, s. 62-63

السنوات الأخيرة من صدارته . وفي ١٢ أكتوبر ١٥٧٩ / ١١ شعبان ٩٨٧ ، تمكن أحد مريدي شيخ صوفي كان قد قتل في استانبول في وقت سابق من طعنه بخنجر في صدره أثناء عقده الديوان ، حيث توفي علي أثر هذه الطعنة بعد عدة أيام .

وكان صقوللي محمد باشا خلال فترة صدارته (١٥٦٤ - ١٥٧٩ م / ٩٧٢ - ٩٨٧ هـ) رجل دولة بكل ما تعنيه الكلمة ، فلم يتجاوز قوانين الدولة في أي من سياساته الداخلية ، وحالفه التوفيق في سياساته الخارجية ، وحافظ علي سلطة الدولة وأعرافها في الداخل وفي الخارج ، وكان أميناً علي كيان الدولة ، محافظاً علي مكائدها الدولية بعد عهد سليمان القانوني وخلال عهد سليم الثاني ومراد الثالث ، فوصلت خلال فترة صدارته إلي أقصى إتساع لها . والحقيقة أن الكثير من المؤرخين قد لاحظوا تغييرات واضحة في سياسة الدولة الداخلية الخارجية بعد مقتله ، حيث اعتبروا نهاية عهده ، نهاية لعصر إزدهار الدولة العثمانية ، وبداية لعصر طويل من الضعف والإضطراب^{٢٧٨} .

²⁷⁸ بخصرر سيرة صقوللي محمد باشا ودوره في تثبيت سلطة الدولة في الداخل والخارج ، أنظر :

M. Tayyib Gökbilgin, "Mehmed Paşa Sokullu, Tavi", IA/VII, s. 268-272

المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

- ابن كمال (كمال باشا زاده) أحمد عاشقي ، تواريخ آل عثمان ، نشر ن. آتسز ، استانبول ١٩٤٩ (انظر الدفتر السابع ، تحقيق شرف الدين طوران ، أنقرة ١٩٩١ ، الدفتر الثامن ، تحقيق أحمد أوغور ، أنقرة ١٩٩٧ والدفتر العاشر ، تحقيق شرف الدين سورجان ، أنقرة ١٩٩٦)
- بجوي إبراهيم ، تاريخ ، جزآن ، نشر ب. س. بايقال ، استانبول ١٩٨٣
- تاجي زاده جعفر جلي ، محروسة استانبول فتحنامه سي ، تاريخ عثمانی انجماني ، علاوه لر ، استانبول ١٣٣١
- جلال زادة مصطفى جلي ، طبقات الممالك ودرجات المسالك ، نشر تيتزه ، ليدن ١٩٨١
- جلال زادة مصطفى جلي ، سليم نامه ، نشر أحمد أوغور ، م. جوهادار ، أنقرة ١٩٩٠
- حسن بك زاده ، تواريخ آل عثمان ، نشر نزيهي أيقوت ، أنقرة ١٩٩٣
- حيدر أفندي ، " روزنامه " ، منشآت السلاطين لفريدون بك ، الجزء الأول ، استانبول ١٢٧٤
- خواجه سعد الدين ، تاج التواريخ ، استانبول ١٢٧٩ (كذا أنظر نشر عصمت بارماقسزأوغلي ، انقره ١٩٩٢)

- سلاحشور ، فتح نامهء ديار عرب ، نشر صلاح الدين طانسل ، مجلة الوثائق التاريخية ، عدد ١٧ ، استانبول ١٩٥٨ ، ص. ٣٨ - ٦٤
- صولاق زاده محمد همدمي جلي ، عثمانلي تاريخي ، استانبول ١٢٩٨ (كذا انظر نشر وحيد جابوق ، أنقره ١٩٨٩)
- طوسون بك ، تاريخ أبو الفتح ، تاريخ عثمانلي أنجماني ، استانبول ١٣٣٠ (كذا انظر نشر مرتول طولوم ، استانبول ١٩٧٧)
- عالي مصطفى ، كتاب تاريخ كنه الأخبار ، نشر أحمد أوغور وأ. كول وم. جوهادار ، قيصريه ١٩٩٧
- فريدون أحمد بك ، منشآت السلاطين ، جزاءن ، استانبول ١٢٧٤
- قوامي ، فتحنامه سلطان محمد ، نشر بانجر ، استانبول ١٩٥٥
- قره جلي زاده عبد العزيز ، روضة الأبرار ، بولاق ١٢٤٨
- كاتب جلي ، تحفة الكبار في أسفار البحار ، نشر أورهان شايق كوكياي ، استانبول ١٩٧٣
- لطفي باشا ، تواريخ آل عثمان ، نشر علي بك ، استانبول ١٩٤١
- هائم فون ، دولت عثمانية تاريخي ، ترجمة محمد عطا ، استانبول ١٣٣٠
- مجدي أفندي ، شقايق نعمانية وذيللري ، نشر عبد القادر أوزجان ، استانبول ١٩٨٩
- منجم باشي أحمد دده بن لطف الله ، ترجمة جامع الدول (صحائف الأخبار) ، استانبول ١٢٨٥ (كذا انظر نشر أحمد اغيراقچه لوقائع ١٢٩٩-١٤٨١ ، استانبول ١٩٩٥)

ثانياً - المراجع :

١ - التركية :

- Agoston Gabor, “ Macaristan’da Osmanlı-Habusbürg Serhadı (1541-1699) : Bir Mukayese” (الحدود العثمانية) I/434-451 , Osmanlı , I/434-451 (١٦٩٩-١٥٤١) الهابسبورجية في بلاد البحر
- Akdağ Mustafa, Celali İsyanları (حركات عصيان الجلاي), İstanbul 1995
- Altındağ Şınası, “I. Selim” (سليم الأول), IA.,428-429;
- Angel De Bunes Mıguela, “Kanunî, Barbaros Paşa ve V. Charles : Akdeniz Bünyasi” (القانوني ، بربروس باشا وتشارلز الخامس ،) I/ 392 vd. Osmanlı , I/ 392 vd. وعالم البحر المتوسط
- Arat R.R. Ahmedî, “Fatih Sultan Mehmed’in Yarlığı”, Türkiyat Mecmuası, VI, 1939, s.303 vd.
- Akgündüz Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tahilleri (القوانين العثمانية وتحليلها القانوني), I.cilt, İstanbul 1990
- M. Aknan, Osmanlı Devletinde Kardeş Katli (قتل الأخ في الدولة) (Osmanlı Devletinde Kardeş Katli) (العثمانية), İstanbul 1997
- Ayverdi Ekrem H., “ Fatih”, Türkler, IX/338-354
- Barbaro Nicolo, Kostantiniyye Muhasarası Ruznamesi (يوميات محاصرة القسطنطينية) 1453, çev. Ş. T.Diler, İstanbul 1953
- Basso Enrico, “ İşbirliğinden Ayrılığa : XIV ve XV. Yüzyıllarda Cenevizliler ve Türkler” (من التعاون والإنفاق إلى) IX/357-358 Türkler, IX/357-358 , الترك والجنويون خلال القرنين ١٤-١٥م
- Bastav Serif, “ Bizans İmparatorluğu Tarihi Son Devir (1261-1461), Osmanlı Türk-Bizans Münasebetleri (تاريخ)

الإمبراطورية البيزنطية ، المرحلة الأخيرة (١٢٦١-١٤٦١) العلاقات التركية البيزنطية)
Ankara 1989

- Bayır Önder, “Çağ Açan Fetih İçin Yapılan Hazırlıklar” (الإستعدادا التي أجريت للفتح الذي فتح عصر جديد), Türkler, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 2002, IX/322-324
- Baysun M.Cevîd, “Merc-i Dabık “, IA, VII/752-754
- Baysun M. Cavid, “Lepanto”, IA, VII/39-45
- Birdoğan Nejat, Alevîlerin Büyük Hükümdarı Şah İsmail (حاكم العلويين العظيم إسماعيل الصفوي), Hatai 1991
- İdris Bostan, “İnebahtı Deniz Savaşı” (المعركة البحرية ، اينه بختي), DIA, c. 22, s. 287-269
- Bunes İbarra Meguel A. De, " Yavuz Sultan Selim ve Kanunî Sultan Süleyman Devirlerinde İspanya ve Osmanlı İmparatorlukları Arasında Deniz Savaşları (الخروب البحرية بين الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية خلال عصري سليم الأولي " (Türkler, IX/599-607, وسليمان القانوني)
- Büyüktuğrul Afif, “ Preveze Deniz Muharebesine İlişkin Gerçekler” (حقائق حول المعركة البحرية بروه زه) TTK Belleten, XXXVII/145(1973), s. 51-85
- ayn. Mlf., “Preveze Muharebesine ilişkin Belgeler” (الوثائق المتعلقة بمعركة بروه زه) Belleten, XLII/169,8(1978), s.629-665
- Chakıb Benafri, “Endülüs’te Son Müslüman Kalıntısı Morisko’ların Cezayir’e Göçü ve Osmanlı Yardımı” (هجرة الموريسكيين من بقايا المسلمين في الأندلس إلى الجزائر والمساعدة العثمانية), Hacettepe Ün. Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara 1989
- Çavdaroglu M, Fatih Sultan Mehmed Hân-i Sâni ve İstanbul’un Fethi (فتح استانبول للسلطان محمد الفاتح خان الثاني), İstanbul 1953

- Demircan Yesemin, “Ege Adalarında Osmanlı Hakimiyeti” (النفوذ العثماني في جزر بحر إيجه), *Türkler*, IX/365-366
- Ditimtekin Feridun, “Fatih Önce İstanbul” (استانبول قبل الفاتح), 511 Yıldönümü Konferansları, İstanbul 1964
- Diyanet A. Ekber, İlk Osmanlı – İran Anlaşması 1555, Amasya Mühahedesi (المعاهدة العثمانية الإيرانية الأولى ، معاهدة أماسيا ١٥٥٥م), İstanbul 1971
- Dukas , Bizans Tarihi (تاريخ البيزنطيين), çev. Mirmiroğlu, İstanbul 1962
- Dünder Recep, “Kıbrıs’ın Fethi” (فتح قبرص), *Türkler*, XIV/667-675
- Dünder Recep, Kıbrıs Beylerbeyliği (1570-1670) (إمارة أمراء ١٥٧٠-١٦٧٠), basılmamış Doktora Tezi, Malatya 1998
- Emecen Feridun, “İstanbul’un Fethi” (فتح استانبول), *Türkler*, IX/312-320
- Feridun Emecen, " Sultan Süleyman Çağı ve Cihan Devleti " (عصر السلطان سليمان والدولة العالمية), *Türkler*, IX/501-518
- Feridun Emecen, “Hicaz’da Osmanlı Hakimiyetinin Tesisi ve Ebu Numey” (تأسيس الحكم العثماني في الحجاز وأبو نعي), *Tarih Enstitüsü Dergisi*, sy.14, 1994, s.90-112
- Feridun Emecen, “ Canberdi Gazali ”, *DİA.*, VII/142-143
- Feridun Emecen, “İrakayin Seferi” (حملة العراقيين), *DİA.*, XIX/117-118
- Emecen F., “ İbrahim Paşa Makbul “ (مقبول إبراهيم باشا), *DİA.*, XXI/333-335
- Emecen Feridun, XVI. Asırda Manisa Kazası (المنطقة القضائية في القرن ١٦م) , Ankara 1989

- Ekinci Mustafa, “Yavuz Sultan Selim Döneminde Osmanlı Safavî İlişkileri” (العلاقات العثمانية الصفوية خلال عهد ياوروز سلطان سليم), *Türkler*, XI/448-455
- Feridun Emecen, “İrakayin Seferi”, *DIA*, XIX/117-122
- Fabris Maria Pia Pedani, “XV-XVIII Yüzyılda Osmanlı Venedik İlişkileri”, *Osmanlı, Yeni Türkiye Yayınları*, Ankara 1999, I/259-264
- Giakoumis Konstantinos, “Osmanlıların Otranto ve Apulia Seferi (1480-1481)” (حملة العثمانيين علي أوترانتو), çev. Kürşat Akpınar, *Türkler* IX/373-380
- Göğebakan Gökñur, “Doğı Anadolu’nun Osmanlı Hakimiyetine Girişı” (دخول شرقي الأناضول تحت الحكم العثماني), *Türkler*, IX/463-464;
- Gökñilgin Tayip, “ Çaldıran “, *IA. c. III*/329-331
- Gökñilgin M. Tayib, " Kanunî Sultan Süleyman'ın Macarıstan ve Avrupa Siyasetinin Sebep ve Amilleri Geçirdiğı Safhaları " (المراحل التي مرت بها دوافع سياسة السلطان سليمان) (المراحل التي مرت بها دوافع سياسة السلطان سليمان), *Kanunî 'ya Armağan*, TTK.yay. Ankara 1970
- Gökñilgin T., “Kanunî Süleyman’ın 1566 Sigetvar Sebepleri ve Hazırlıkari” (اسباب واستعدادات سليمان القانوني لحملة (سبب و استعدادات سليمان القانوني لحملة), *Tarih Dergisi*, XVI/21 (1966), 1-14
- M.Tayyib Gökñilgin, “ Mehmed Paşa, Sokullu Taviñ “, *IA/VII.*, 268-272
- Gökñilgin T., " Rüstem Paşa ve Hakkındaki İtihamlar " (رستم باشا والإتهامات المحيطة به), *TD.VIII*/11-12 (1956), s. 38
- Göyünç Nejat, XVI. Yüzyılda Merdin Sancağı (سنجق ماردين في القرن السادس عشر), Ankara 1990

- Grammont J. İ. Bacque, “ XVI. Yüzyılın İlk Yarısında Osmanlılar ve Safavîler “ (العثمانيون والصفويون خلال النصف الأول من القرن السادس عشر) Prof. Dr. Bekir Kütükoğlu'na Armağan, İstanbul 1991
- Guboglu M., “ Kanunî Sultan Süleyman'ın Boğdan Seferi ve Zaferi” (حملة السلطان سليمان القانوني على البغدان ، وانتصاره فيها) , Belleten, L/198, (1987), s. 727-805
- Ersin Gülsay, " XVI-XVII Yüzyıllarda Akdeniz'de Osmanlı Hakimiyeti " (الحكم العثماني في البحر المتوسط خلال القرنين ١٦-١٧) (Türkler, Ankara 2002, IX/589-598)
- Hins Walter, Uzun Hasan ve Şeyh Cüneyd XV. Yüzyılda İran'ın Milli bir Devlet Haline Yükelışı (أوزون حسن والشيخ جنيد في إيران خلال القرن ١٦م) , çev. T. Bıyıklıoğlu, Ankara 1992
- İlhan Mehmet Mehdi, Amid (Diyarbakır), Ankara 2000
- İlgürel Mücteba,” Zirveden Dönüş: II. Selim'den III. Mehmed'e” (العودة من القمة : من عهد سليم الثاني إلى عهد محمد الثالث) (Türkler, XIV/643-644)
- İncik Halil, Fatih Devri Üzerinde Tetkikler ve Vesikalar (دراسات ووثائق حول عهد الفاتح) , Ankara 1954
- İncik Halil, “Yeni Vesikalara göre Kırım Hanlığı'nın Osmanlı Tabiliğine Girmesi ve Ahidname Meselesi” (دخول خانية القرم للتبعية العثمانية ومسألة العهدنامه وفقاً للوثائق الحديثة) , Belleten VIII/30, 1944, 185-129
- İncik Halil, “Osmanlılarda Saltanat Veraseti Usûlü ve Türk Hakimiyet Telekkisi ile İlgili” (أصول وراثۃ السلطنة لدى العثمانيين ، وما يتعلق بها من أعراف الحكم العثماني) , AUDTCFD., CXIV, (1959), s. 144

- İnalçık Halil, “ Mehmed II.”, IA., s.521-532
- Halil İnalçık, “Osmanlı-Rus Rekabetinin Menşei ve Don-Volga Kanalı Teşebbüsü” (محاولة شق قنال الدون- الفولجا وبداية (Belleten, III/46, s. 349-402
(التنافس العثماني الروسي)
- İnan Kenan, “Fatih Sultan Mehmed İstanbul’un Fethi ve Etkileri” (فتح السلطان محمد الفاتح استانبول وتأثيراته), Türkler, IX/286-293
- İz Fahir, “ Barbaros Hayreddin Paşa Gazavatnamesi Üzerinde Yeni Bir Araştırma” (دراسة حديثة حول غزواتنامه بريروس خير (TDAY, Belleten 1972 (1989), s.81-92
(الدين باشا)
- Karaca Begset, “Safevî Devleti’nin Ortaya Çıkışı ve II. Bayezid Dönemi Osmanlı-Safevî İlişkileri” (ظهور الدولة الصفوية والعلاقات العثمانية الصفوية في عهد بايزيد الثاني), Türkler, XI/409-417
- Karadeniz Hasan Basrı, " Osmanlı Devletinin Beylikleri İlhak Siyaseti ve Dulkadirli Beyliği'nin İlhaki " (سياسة إلحاق الدولة العثمانية للإمارات ، وإلحاق إمارة ذوالقدر), Türkler, Ankara 2002, IX/490
- Kırzoğlu Fehmettin, Osmanlı Kafkas Ellerini Fethi (1451-1590) (الفتح العثماني لولايات القفقاس), Ankara 1976
- Kuran Ercüment, “Osmanlı Döneminde Mağrib Tarihi” (تاريخ المغرب خلال العصر العثماني), Osmanlı, I/398
- Kumrular Ö., " İspanyol Kaynakları Işığında Kanunî'nin Alman Seferi " (حملة القانوني علي الألمان في ضوء المصادر الإسبانية), Tarih ve Toplum, XXXVI/216, Aralık 2001.
- Kurşun Zekeriye, “Osmanlı Devleti İdaresinde Hicaz” (الحجاز تحت الإدارة العثمانية), Türkler, XI/317-321
- Küçükdağ Yüsuf, “Osmanlı Devletinin Şah İsmail’in Anadolu’ya Şiileştirme Çalışmalarını Engellemeye

Yönelik Önlemleri” (تصدي الدولة العثمانية لمنع فعاليات الشاه إسماعيل لنشر التشيع في الأناضول), Osmanlı, Ankara 1999, c.I,

- Kütükoğlu Bekir, “ (Hadim) Sinan Paşa “, İA, X/663-664
- Kütükoğlu Bekir, Osmanlı – İran Siyasi Münasebetleri (العلاقات العثمانية – الإيرانية), İstanbul 1962
- Bekir Kütükoğlu, “Mustafa Paşa, Lala”, IA/VIII, s.732-736
- ayn. Mlf., “Murad III.”, IA/VIII., s.615-625
- Bekir Kütükoğlu, “Şah Tahmasb’ın III. Murad’a Cülüs Tebriki” (تهنئة الشاه طهماسب بجلوس مراد الثالث), Tarih Dergisi, sy.15, s. 1-24
- Miroğlu İ., “ Kanunî Sultan Süleyman’ın Estergon Seferi” (حملة السلطان سليمان القانوني على استرغون), Osmanlı Araştırmaları, X, (1990), 137-159
- Nicol D., Bizans’ın Son Yüzyılları (1291-1453) (القرون الأخيرة), tec. B. Umur, Isatnbul 1999
- Cengiz Orhunlu, Habeş Eyaleti (ولاية الحبش), İstanbul 1974
- ayn. Mlf., “XVI. Asrın İlk yarısında Kızıldeniz Sahillerinde Osmanlılar” (العثمانيون في سواحل البحر الأحمر في النصف الأول من القرن ١٦م), Tarih Dergisi, XVI (1962), 1-10;
- C. Orhunlu, “Hind Kaptanlığı ve Piri Reis” (قبطانية الهند وبيري), Belleten, XXXIV/134 (1970), s.235-254
- ayn. Mlf., “ Seyidi Ali Reis”, Tarih Enstitüsü Dergisi, I, 1970
- Özdemir Mehmet, “Endülüs Müslümanlarına Osmanlı Yardımı” (المساعدات العثمانية لمسلمي الأندلس), Türkler, IX/393-396

- Özbaran Salih, " Osmanlı İmparatorluğu ve Hindistan Yolu " (الإمبراطورية العثمانية وطريق الهند) , Tarih Dergisi, XXXI. /131-141 (Mart 1977), İstanbul 1978
- Perjes Geza, Mohac Meydan Muharabesi (معركة موهاج), özet ve tanıtma: Şerif Baştav, Ankara 1988
- Panaite Viorel, " Osmanlı Hakimiyetinin Tuna Nehrinin Kuzeyinde Yayılışı : XIV ve XVI Yüzyıllarda Eflak ve Boğdan " (انتشار النفوذ العثماني شمالي نهر طونه : الأفلاق والبغدان خلال القرون (۱۴-۱۶م), Türkler, Ankara 2002, UX/206-218
- Pierce İ., Harem-I Hümayun, Osmanlı İmparatorluğunda Hükümdarlık ve Kadınlar (الحرم الهمايوني ، الحكم والنساء في الإمبراطورية العثمانية), terc. A. Berktaş, İstanbul 1996
- Razanhak Şah, " Açe Padişah Sultan Ala'eddin'in Kanuni Sultan Süleyman'a Mektubu " (خطاب سلطان آجي السلطان علاء الدين إلى السلطان سليمان القانوني), Tarih Araştırmaları Dergisi, c.V/8-9, (1967), 372-409.
- Savaş Ali İbrahim, Osmanlı Devleti ile Habsburg İmparatorluğu Arasındaki Biplomatık İlişkileri" (العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وإمبراطورية الهابسبورج), Türkler IX/555-565.
- Seyyid M. Es-Seyyid, "Kansu Gavri", DIA. cilt XXIV/314-316
- Seyyid Muhammed es-Seyyid, "Mısır Eyaleti'nde Osmanlı Nizamının Kuruluşu" (تأسيس النظام العثماني في إيالة مصر), Osmanlı, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, I/291
- Seyyid M. Es-Seyyid, XVI. Asırda Mısır Eyaleti (إيالة مصر في القرن ۱۶م), İstanbul 1990

- Sırma İhsan Süreya, " Yemen'in Jeo-politik Durumu ve Osmanlı Devletine Katılması " (الوضع السياسي لليمن وضمها للدولة العثمانية), Tarih Enstitüsü Dergisi, sy.12, 427-444
- Soysal İsmail, " Türk – Fransız Diploması Münasebetlerinin İlk Devri " (المرحلة الأولى للعلاقات التركية الفرنسية), Tarih Dergisi , sy. 3-4, 63-94
- Soncek S., “ İnabahti Savaşı (1571) Hakkında Bazı Mülahazalar” (ملاحظات حول معركة ابنه بختي ١٥٧١), Tarih Enstitüsü Dergisi, sy. 4-5, s. 35-43
- Sümer Faruk, Safevî Devletinin Kuruluşu ve Gelişmesinde Anadolu Türklerinin Rolü (تأسيس الدولة الصفوية ودور تركمان الأناضول في تطورها), Ankara 1976
- Şakiroğlu M.H., “Cem Sultan”, DIA, VII/284-286
- Şakiroğlu Mahmud, “Halku'l-Vâd”, DİA, c. XV/375-376
- Tacizade Cafer Çelebi, Mahruse-i İstanbul Fetihnamesi (فتحنامه استانبول المحروسة), TOEM., ilaveler
- Taksay Ahmed,”II. Bayezid Döneminde Osmanlı-Safavî İlişkileri” (العلاقات العثمانية الصفوية خلال عهد بايزيد الثاني), Türk Yurdu, Aralık 1999- Ocak 2000
- Tansel Selahattin, Fatih'in Askerî ve Siyasî Faaliyetleri (الفعاليات العسكرية والسياسية للفتح), Ankara 1953
- Tansel S., Sultan II. Bayezid'in Siyasî Hayatı (الحياة السياسية لبايزيد الثاني), İstanbul 1966
- S. Tansel, “Yeni Kaynak ve Vesikalar Karşısında Sultan II. Bayezid Hakkında Bazı mutala'alar” (بعض المطالعات حول السلطان بايزيد الثاني وفقاً للمصادر والوثائق الحديثة), Belleten, c.XVII, sy. 106, s.44-57

- Tansel S., Osmanlı Kaynaklarına göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasî ve Askerî Faaliyetleri (الفعاليات السياسية), والعسكرية لمحمد الفاتح وفقاً للمصادر العثمانية) Ankara 1999
- Tekindağ Ş., “ Son Osmanlı Karaman Münasbetleri Hakkında Araştırmalar” (دراسات حول العلاقات العثمانية القرمانية الأخيرة), TD., XIII./17-18, İstanbul 1964
- Tekindağ Ş., “ II. Bayezid Devri'nde Çukurova'da Nüfus Mücadelesi ve İlk Osmanlı Memlük Savaşları” (الصراع علي النفوذ في حقوراوا في عهد بايزيد الثاني، والحروب العثمانية المملوكية الأولى), Belleten, XXXI/123, 1969, s.345-373
- Tekindağ Ş., “Bayezid II.'nin Tahta Çıkışı Sırasında İstanbul'da Vukua Gelen Hadiseler Üzerine Notlar” (ملاحظات حول الحوادث التي وقعت في استانبول أثناء اعتلاء بايزيد الثاني (ملأ العرش), Tarih Dergisi, X/14, 1959, s. 85-96
- Tekindağ Ş., “Korkut Çelebi ile ilgili İki Belge” (وثيقتان ,تعلقان بقورقود حلي), Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sy.17/1969
- Tekindağ Ş., “Şahkulu Baba Tekeli İsyanı” (حركة عصيان تكله لي ,لشاه قولي بابا), Belgelerle Türk Tarihi Dergisi, sy. 3-4, Ankara 1967
- Tekindağ Ş., “Bayezid'in Ölümü Meslesi” (مشكلة وفاة بايزيد), Tarih Dergisi, sy.24, Mart 1976
- Tekindağ Ş., “Yeni Kaynak ve vesikaların Işığı Altında Yavuz Sultan Selim'in İran Seferi” (حملة سليم الأول علي إيران في ضوء الوثائق والمصادر الحديثة), TD, XVI./22(1968), s. 49-78
- Timur Taner, “Osmanlı Devleti'nde Para ve Politika Sokollu Mehmed Paşa ve Yasef Nasi” (النقود والسياسة في الدولة العثمانية وصقولي محمد باشا ويوسف الناسي), Tarih Çevresi, XIV(Ocak-Şubat 1995), s. 6

- Turan Ş., " Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına " (من فتح رودس وحتى حصار مالطة) Kanunî Armağanı, Ankara 1970, s. 33
- Turan Ş., Kanuni'nin Oğlu Şehzade Bayezid Vakası, Ankara 1961
- _____, "Şehzade Beyazid'in Babası Kanunî Sultan Süleyman'a gönderdiği Mektuplar" (الخطابات التي أرسلها الشهزاده بايزيد لأبيه السلطان سليمان القانوني) Tarih Vesikaları, I/16 (1955), 118-127
- Şerefeddin Turan, "Barbaros Hayreddin Paşa", DIA, V/65-67
- Turan S., "Sakız'ın Türk Hakimiyetine Alınması" (دخول ساقيز تحت الحكم العثماني) Tarih Araştırmaları Dergisi, IV/6-7 , Ankara 1966, s. 175-193
- Uluçay Çağatay, " Yavuz Sultan Selim Nasıl Sultan Oldu? " (كيف أصبح ياوز سلطان سليم سلطاناً ؟) Tarih Dergisi, c. VIII, s. 138-145
- Memet Ali Unal, XVI. Yüzyılda Harput Sancağı (سنحق) Xrupo خلال القرن ١٦م) Ankara 1989
- Uzunçarşılı İ.H , Osmanlı Tarihi (التاريخ العثماني) , I., 4. bas., Ankara 1982
- _____, Osmanlı Tarihi (التاريخ العثماني) , II. Cilt, Ankara 1983, s.20 vd.
- _____, Osmanlı Tarihi (التاريخ العثماني) , III, Ankara 1951
- _____, Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilatı (تشكيلات المركز والبحرية في الدولة العثمانية) , Ankara 1943

- _____, "Kıbrıs'ın Fethi ile Lepant (İnebahtı) Muharebesi Sırasında Türk Devleti ile Venedik ve Müttefiklerinin Faaliyetlerine Dair Hazine-i Evrak Kayıtları" (قيود خزانة الأوراق المتعلقة بفعاليات الدولة التركية والبنادقة وحلفائها "Kayıtları", Türkiye Mecmuası, III (1935), s. 257)
- Yınanç R., Dulkadır Beyliği (إمارة ذوالقادر), Ankara 1989
- Hulusı Yavuz, Kabe ve Haremeyn için Yemen'de Osmanlı Hakimiyeti 1517-1571 (الحكم العثماني في اليمن من أجل الكعبة 1517-1571), İstanbul 1984
- Yurdaydın H.G., "Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri (جلوس Kanunî'nin Cülûs ve İlk Seferleri), Ankara 1961
- Yücel Y., Anadolu Beylikleri Hakkında Araştırmalar (دراسات حول الإمارات الأناضولية) I., Ankara 1991
- Zekeriyazade, Ferah (Cerbe) Savaşı (معركة حربه), sadeleştirme O. Ş. Gökyay, İstanbul 1980

- غير التركية :

- Bostan İ. -A. Gassola-T. Sheben, The 1565 Ottoman Malta Campaign Register, Malta 1998
- Christine Isom, "An Ottoman Report about Martin Luther and the Emperor, Turcica, XXVIII(1996)299-318
- Boser C., The Portuguse Seaborn Empire 1415-1825, London 1969
- David Geza - P. Fodor, " Hungarian – Ottoman Peace Negotiations İn 1512-1514, Hungarian-Ottoman Military and Diplomatic Telations İn The Age Of Süleyman The Magnificent, Budapeste 1994
- Walsh J. R., " The Recolt of Elkas Mirza", WZLM 68 (1976)

- Jensen Delamar, "The Ottoman Turks in Sixteenth Century French Diplomacy", *The Sixteenth Century Journal*, XVI/4(1985), 451-466
- İnalcık Halil, *The Ottoman Empire The Classical Age, 1300-1600*, London 1963

١٤٥١	- جلوس محمد الثاني (١٨ فبراير) .
---	- حملة محمد الثاني علي أبناء قره مان (مايو - يونية) .
---	- تجديد العثمانيين لمعاهدة السلام مع البنادقة (١٠ سبتمبر) ومع
---	المجر (٢٠ نوفمبر) .
١٤٥٢	- إنشاء قلعة روميلي حصار لإحكام السيطرة علي مضيق البسفور .
---	- بداية المواجهة بين العثمانيين والبيزنطيين .
١٤٥٣	- محاصرة استانبول (٦ إبريل - ٢٩ مايو) .
١٤٥٤	- عقد الفاتح معاهدة السلام مع البنادقة (١٨ إبريل) .
---	- حملة الفاتح علي بلاد الصرب .
---	- نزول الأسطول العثماني في البحر الأسود .
---	- إجبار المستعمرات الجنوبية علي البحر الأسود علي دفع الخراج .
١٤٥٥	- إلزام مولدافيا علي دفع الخراج .
---	- حملة الفاتح الثانية علي بلاد الصرب .
١٤٥٦	- إلزام إمبراطورية الروم في طربزون علي دفع الخراج .
١٤٥٨	- حملة محمود باشا علي بلاد الصرب .
---	- غزو محمد الفاتح للمورة .
١٤٥٩	- فتح سمندره (يونية) .
---	- فتح أماصرا .
١٤٦٠	- فتح المورة .
١٤٦١	- ضم أراضي إمارة أبناء جنदार إلى الأملاك العثمانية .
---	- القضاء علي إمبراطورية الروم في طرابزون .
١٤٦٢	- فتح محمد الثاني لبلاد الأفلاق .
---	- دخول محمود باشا جزيرة ليمني .

١٤٦٣	- بداية الحرب مع البنادقة ، سيطرة البنادقة علي بلاد المورة .
---	- فتح السلطان محمد الثاني لبلاد البوسنة ، ودخول ملك المجر لعاصمتها في يايجه .
١٤٦٤	- إستعادة العثمانيين لبلاد المورة من جديد .
---	- محاصرة محمد الفاتح لمدينة يايجه .
---	- موت إبراهيم بن قره مان ، وبدء الصراع الداخلي في الإمارة.
١٤٦٧	- حملة محمد الفاتح علي إسكندر بك العاصي في بلاد الأرناؤوط .
---	- إلتجاء شهبسوار إبن ذوالقدر إلي العثمانيين .
١٤٦٨	- ضم محمد الفاتح لولاية قره مان .
١٤٧٠	- فتح محمد الفاتح لجزيرة أكري بوز .
١٤٧١	- عقد أوزون حسن اتفاق دفاعي مع البنادقة وأمراء قبرس ورودس ضد العثمانيين .
١٤٧٢	- استيلاء جيش الآق قويونلي - القره ماني علي قره مان .
---	- قتل المماليك لأمير ذوالقدر شهبسوار .
١٤٧٣	- معركة أوتلق بلي (١١ أغسطس) .
١٤٧٨	- محاصرة مدينة أشكودرا ، وإستسلام قلعة قوريا في بلاد الأرناؤوط .
---	-
١٤٧٩	- عقد اتفاقية السلام بين العثمانيين والبنادقة (٢٥ يناير) .
١٤٨٠	- محاصرة مسيح باشا لجزيرة رودس ، ودخول أحمد باشا أوترانتو
١٤٨١	- وفاة محمد الفاتح (٣ مايو) .
---	- جلوس بايزيد الثاني (٢٠ مايو)
---	- الحرب بين بايزيد وجم سلطان (٢٠ يونية) .
١٤٨٢	- عقد بايزيد الثاني للإتفاقية مع فرسان رودس حول حجز جم في رودس .
---	-

- حملة بايزيد الثاني علي مولدافيا ، وضم أراضي كييلي وآق كرمان للعثمانيين .	١٤٨٤ ---
- الحرب العثمانية - المملوكية .	١٤٨٤-١٤٩١
- وفاة جم سلطان (٢٥ فبراير)	١٤٩٥
- الحرب مع البنادقة .	١٤٩٩-١٥٠٣
- انتصار العثمانيين البحري في نوارين (١٢ أغسطس) ، وفتح اينه بختي .	١٤٩٩ ---
- دخول الشاه إسماعيل الصفوي لبغداد .	١٥٠٤
- إجبار سليم الأول أبيه بايزيد علي التزل عن العرش بتأييد اليكيجري (٢٤ إبريل) .	١٥١٢ ---
- وفاة بايزيد الثاني (٢٦ مايو) .	---
- هزيمة سليم لإخوته وقتلهم .	١٥١٢-١٥١٣
- القضاء علي أتباع إسماعيل الصفوي في الأناضول .	---
- هزيمة السلطان سليم الأول للشاه إسماعيل الصفوي في معركة چالديران (٢٣ أغسطس) .	١٥١٤ ---
- عصيان جند اليكيجري (فبراير) .	١٥١٥
- ضم كماه وإمارة ذوالقدر للأراضي العثمانية .	---
- ضم ديار بكر ، وخضوع شرقي الأناضول للعثمانيين .	١٥١٦
- معركة مزج دابق بين العثمانيين والمماليك ، ودخول سليم الأولي لحلب .	---
- معركة الريدانية (٢٢ يناير) . قيادة طومانباي المقاومة المملوكية في القاهرة .	١٥١٧ ---
- تقديم شريف مكة فرض الطاعة للسلطان سليم في القاهرة .	---
- وفاة ياووز سلطان سليم .	١٥٢٠

- تولية سليمان القانوني .	---
- فتح بلجراد (٢٩ أغسطس) .	١٥٢١
- عصيان جانيردي الغزالي في الشام ، والقضاء علي حركته وقتله (فبراير) .	---
- فتح رودس (٢١ يناير) .	١٥٢٢
- تعيين إبراهيم باشا وزير أعظم .	١٥٢٣
- عصيان أحمد باشا في مصر .	١٥٢٤
- توجه إبراهيم باشا إلي مصر ، ووضعه لنظامها الدائم في العصر العثماني .	١٥٢٥
- معركة مهاج (٢٩ أغسطس)	١٥٢٦
- دخول سليمان القانوني لبودين (١٠ سبتمبر) ، وإجلاس زابوليسا علي عرش المجر (١٠ نوفمبر)	---
- دخول فرديناند ملك النمسا لبودين .	١٥٢٧
- إستعادة سليمان القانوني لبودين (٨ سبتمبر) ، إلباس زابوليا تاج مملكة المجر (١٤ سبتمبر) .	١٥٢٩
- محاصرة سليمان القانوني لمدينة فيينا بالنمسا (٢٦ سبتمبر - ١٦ أكتوبر) .	---
- حملة سليمان القانوني علي النمسا .	١٥٣٢
- عقد الهدنة مع ملك النمسا فرديناند (٢٢ يونية) .	١٥٣٣
- تعيين خير الدين بربروس في قيادة الأسطول العثماني (أغسطس) .	---
- فتح قورون (١٢ سبتمبر) .	---
- الحرب مع إيران (أغسطس) .	---
- فتح تبريز (١٣ يوليه) .	١٥٣٤
- دخول السلطان سليمان القانوني لبغداد .	---

١٥٣٥	- دخول شارلكن (شارل الخامس) لتونس (٢١ يولية) .
١٥٣٦	- إعدام إبراهيم باشا (٥ مارس) .
١٥٣٧	- بداية الحرب مع البنادقة .
١٥٣٨	- دخول سليمان القانوني لمولدافيا ، ضم جنوبي مولدافيا للأراضي العثمانية
---	---
---	- وصول سليمان باشا أمام ديو (٤ سبتمبر) .
---	- انتصار بروه زه البحري (٢٩ سبتمبر) .
١٥٤٠	- عقد اتفاق السلام مع البنادقة (٢ أكتوبر)
---	- موت زابوليا ، ومحاصرة النمسا لبودين .
١٥٤١	- حملة ايستابور علي فرديناند .
---	- ضم بلاد المجر للأراضي العثماني .
---	- وصول شارل الخامس للجزائر .
١٥٤٣	- استيلاء اسطول التحالف العثماني - الفرنس علي نيس (٢٠ أغسطس) .
---	---
---	- دخول السلطان سليمان بلاد المجر وفتحه والبر وبشته وشيكلوس وجراند .
١٥٤٥	- الهدنة بين سليمان القانوني وفرديناند .
١٥٤٧	- عقد معاهدة السلام بين العثمانيين والهابسبورج والبابا والبناقية وفرنسا (١ أغسطس) .
١٥٤٨	- حملة سليمان القانوني علي إيران ، وضم وان (٢٥ أغسطس) .
١٥٤٩	- الفتوح العثمانية لبلاد گرجستان
١٥٥١	- دخول العثمانيين للبغدان ، وفتح واراد وجناد ولييا .
١٥٥٢	- فتح طمشوار والمدن الأخرى في نواحي بناط .
---	- إحتلال الروس لقازان .

١٥٥٣	- الحرب مع إيران .
---	- إعدام الشهزاده مصطفى .
١٥٥٤	- حملة سليمان القانوني علي إيران ، وفتح نخجوان وأريوان .
---	- احتلال الروس لإستراخان .
١٥٥٥	- عقد العثمانيين معاهدة سلام في أماسيا مع إيران .
١٥٥٩	- مشاجرة أبناء سليمان سليم وبايزيد علي ولاية العهد ، وفرار بايزيد إلي إيران .
---	- دخول الأسبان إلي حربه ، وفتح قبطان البحر بيالة باشا للجزيرة (٣١ يولية) .
١٥٦١	- إعدام الشهزادة بايزيد (٢٥ سبتمبر) .
١٥٦٥	- محاصرة جزيرة مالطة (٢٠ مايو - ١١ سبتمبر) .
١٥٦٦	- محاصرة سيكتوار (٥ أغسطس - ٧ سبتمبر) .
---	- وفاة السلطان سليمان القانوني امام سيكتوار (٦ سبتمبر) .
---	- إعتلاء سليم الثاني العرش (٢٤ سبتمبر) .
---	- فتح جزيرة ساقيز .
١٥٦٧	- حركة عصيان الزيدية وآل مطهر في اليمن .
١٥٦٨	- عقد السلام مع إمبراطور النمسا .
١٥٦٩	- حملة العثمانيين ضد الروس .
---	- مشروع قتال الدون - فولجا ، ومحاصرة استراخان (سبتمبر) .
١٥٧٠	- ضم ألوج علي تونس للأراضي العثمانية .
---	- حملة قبرص ومحاصرة لفكرشة .
١٥٧١	- تشكيل التحالف المقدس ضد العثمانيين (٢٠ مايو) .
---	- فتح العثمانيين لماغوسة (١ أغسطس) .
---	- معركة إينه بختي (٧ أكتوبر) .

١٥٧٢	- إستيلاء خان القرم دولت گراي علي موسكو .
---	- احتلال ملك النمسا دون جوان لتونس .
١٥٧٣	- عقد اتفاق السلام مع البنادقة (٧ مارس) .
١٥٧٤	- وفاة سليم الثاني (١٢ ديسمبر) .
---	- إعادة سنان باشا لفتح تونس (٢٤ أغسطس) .
١٥٧٩	- بداية الحرب مع إيران ، انتصار لالا مصطفى باشا في چيدر (
---	١٠ أغسطس) .
---	- مقتل الوزير الأعظم صقولي محمد باشا .
---	- ضم جورجستان وشيوان ودر بند للأراضي العثمانية .

الفصل الثالث

عوامل الخل وأسباب الانهيار

الدولة العثمانية

في الرحلة من عصر النشأة والازدهار إلى عصر الضعف والانحيار

يرتبط انهيار دولة من الدول ارتباطاً أصيلاً بضعف الدعائم التي قامت عليها هذه الدولة ، وبخبر القوة الدافعة التي حققت لها الانطلاقة الأولى ، وبالتخلي عن المثل العليا التي ضمنت سلامة هذه الدعائم من التدهار ، وحافظت على استمرار الحيوية في تلك القوة الدافعة .

ولما كان لكل حدث مقدماته التي تتناسب مع حجمه وقوة تأثيره في المحيط الزماني والمكاني ، ولكل واقعة أسبابها التي تتفق أهميتها مع مدى ما تمخضت عنه تلك الواقعة من نتائج ، فإن النتائج بعيدة المدى لانهيار الدولة العثمانية تجعلنا دائماً نرجع إلى الوراء لنلقى نظرة متفحصة على الأسباب التي أدت إلى هذا الانهيار ، ومن ثم إلى ظهور العديد من بؤر الصراع في العالم اليوم .

والحقيقة أن أسباب انهيار الدولة العثمانية لم تكن وليدة القرنين الأخيرين من حياة الدولة ، وإنما امتدت جذورها إلى عصر النشأة ، وارتبطت بنظام الحكم فيها ، وبسياستها الداخلية والخارجية . ولذلك ، لزم علينا ، بداية ، أن نعرض في لحظة سريعة لظهور الدولة العثمانية على ساحة التاريخ ، والدعائم التي قامت عليها وكان لتزلزلها أثر عظيم في عملية الانهيار .

الدولة العثمانية في عصر النشأة والازدهار :

لقد كان للموقع الفريد الذي اتخذته قبيلة آل عثمان منطلقاً لها في شمال غربي الأناضول وعلى طول خط الحدود السلجوقية - البيزنطية^{٢٧٩} ، أثر عظيم في

^{٢٧٩} محمد فؤاد كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمه وقدم له أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٢٧ ، ١٨٣ .

تحديد الهدف الإستراتيجي للإمارة الوليدة ، ثم للدولة العثمانية بعد ذلك ، وفي تشكيل الطبيعة العسكرية لها ، ومن ثم في جعل كافة مؤسساتها تعمل في خدمة هذا الهدف المتمثل في عمليات الغزو والجهاد .

وهكذا ، لم يكن للإمارة العثمانية منذ ظهورها ، ثم استقلالها على يد عثمان غازي (١٢٩٩م/٦٩٩هـ) وحتى عصر مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م/٧٦٣-٧٩١هـ) عدو سوى مركز الكنيسة الشرقية في "بيزنطة" ، ولا جبهة إلاّ الجبهة الغربية المفتوحة على أوروبا^{٢٨٠} ، الأمر الذي مكّنها من سرعة التوسع والنمو على حساب الأراضي البيزنطية . وهكذا راح الغزاة العثمانيون تحت قيادتهم الموحدة ، ومن خلال مؤسسة عسكرية ذات قوة ضاربة ومدد معنوي ومادي لا ينضب ، يديرون دولتهم في الداخل ويحققون الانتصارات المتتالية في الخارج ، حتى استطاعت الدولة العثمانية خلال قرن واحد من الزمان أن تبني فكرة حكم العالم بنظام مركزي مطلق وأن 'توفق في تنفيذها عقب فتح "القسطنطينية" (١٤٥٣م/٨٥٧هـ) على يد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/٨٥٥-٨٨٦هـ)^{٢٨١}.

وقد تزامنت مرحلة ازدهار الدولة العثمانية مع ظهور تحديات جديدة لها في الشرق وتمثل في قيام الدولة الصفوية (١٥٠١م/٩٠٧هـ) التي راحت تتصدى للثقل العثماني السني صوب الشرق ، وتنشر المذهب الشيعي بين التجمعات

^{٢٨٠} خليل اينالجي ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " ، دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة وتقديم وتعليق سيد محمد السيد ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣٧-٤٥ ؛ كوبريلي ، قيام الدولة العثمانية ، ص ١٨٠-١٨٢ ؛ Paul Wittek , Osmanli Imparatorlugunun Kurulusu , Ist. 1971, cev.Guzin Yalter ,Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , s. 33,42

^{٢٨١} خليل اينالجي ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " ، ص ٦١-٧٠ ؛ Paul Wettik , " Ankara Bozgunundan Istanbul"un Fethine Kadar " cev. Mualla Suerdin , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , 55, 76

التركمانية^{٢٨٢} ، وفي الغرب بقيام دولة الهابسبورج التي أخذت تواجه الزحف العثماني في عمق أوروبا وفي البحر المتوسط ، وتعمل كرأس حربة للعالم المسيحي حتى مطلع القرن ١٨م/١٢هـ-^{٢٨٣} ، وفي الجنوب بالتفاف البرتغال حول العالم الإسلامي لقطع موارده الاقتصادية^{٢٨٤} . فقامت الدولة العثمانية بدورها ، باعتبارها قائدة العالم الإسلامي آنئذ ، في حماية العالم الإسلامي السني من التعديات الشيعية والصليبية ، وتوسيع حدوده ناحية الغرب ، ونشر نفوذه على مناطق شاسعة من العالم من خلال توجيه السياسة العالمية في الشرق والغرب .

دعائه قيام الدولة العثمانية وازدهارها :

لقد قامت الدولة العثمانية على دعائم ضربت بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي وتشعبت فروعها في أنحاء العالم الإسلامي ، وحددت وجهتها منذ اليوم الأول من وجودها السياسي على مسرح الأحداث ، وانطلقت إليه دون أن يشغلها شاغل حتى ظهور عوامل الخلل وأسباب الانحطاط .

وإذا كانت الدولة العثمانية تدين بوجودها السياسي للهدف الإستراتيجي الذي قامت عليه ، وهو الغزو والجهاد ، فإن ازدهارها يرجع في المقام الأول إلى نجاح القيادة العثمانية في توظيف إمكاناتها المادية والمعنوية ، وفي الاستفادة من التطورات الخارجية لتحقيق هذا الهدف . وبذلك يمكن أيضا ربط اضمحلالها وزوالها بعجز هذه القيادة عن حماية ما تحقق من انجاز ، فضلا عن الاستمرار في تحقيق الهدف

^{٢٨٢} -Ismail Aka , “ X. yuzyildan XX. Yuzyila Kadar Siilik “

Milletlerarasi Tarihte ve Gunumzde Siilik Sempozyumu (13-15 Subat 1993) Istanbul 1993 , s. 90 .

^{٢٨٣} - I. H. Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , II. 4.bas. , Ank. 1983

s.482

^{٢٨٤} فاروق عثمان اباطة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرخاء الصالح ، وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، القاهرة د.ت. ، ص ٥٤-٥٦ ، ٧٢-٧٣ ، كذا انظر بول كولز ، العثمانيون في أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٦ .

المنشود . ويمكننا حصر الدعائم الأساسية التي قامت عليها الدولة العثمانية في العناصر التالية :

أ - **وضوح المذهب** : لقد كانت حماية العالم الإسلامي من الحملات الصليبية ، وتوحيده في مواجهتها ، وانطلاق الغزو والفتح توسيعاً للدولة الإسلامية غرباً ، هي الأهداف التي سعى العثمانيون لتحقيقها في انطلاقتهم صوب أوروبا ، منذ تأسست دولتهم، وحتى ظهور عوامل الخلل فيها^{٢٨٥} .

ب - **القيادة القادرة على تحقيق المذهب** : لقد تولى الدولة العثمانية في عصر النشأة والازدهار عشرة أمراء غزاة وسلاطين عظام ، توفرت فيهم صفات الشجاعة والجدية والإقدام ومحبة الجهاد ، وحسن القيادة العسكرية ، والحنكة السياسية والمقدرة على الإدارة الحكيمة والتنظيم ، وذلك علاوة على الخلال الكريمة من عدل ، وإنصاف وكرم . استطاع أربعة منهم [يلدريم بايزيد(١٣٨٩-١٤٠٢م/٧٩١-٨٠٥هـ) ، محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/٨٥٥-٨٨٦هـ) ، ياووز سليم (١٥١٢-١٥٢٠م/٩١٨-٩٢٦هـ) ، وسليمان القانوني(١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٤هـ)]^{٢٨٦} نقل الدولة من مصاف الإمارات الحدودية الصغيرة إلى دولة عالمية ، صارت محورا للسياسة الدولية حتى القرن العشرين .

ج - **الطبيعة العسكرية للدولة** : لم تكن الطبيعة العسكرية للعثمانيين طارئة عليهم ، بل كانت أصيلة استمدوها من بيئتهم وعززتها الغاية التي حملها العثمانيون على عاتقهم . فقد كانت قبيلة آل عثمان ، إحدى القبائل التي كانت ترابط على الثغور الغربية للدولة السلجوقية تعمل لخدمة الغزاة الذين كانوا في حالة

^{٢٨٥} Feridun Emecen , “ Osmanli Siyasi Tarihi , Kuruluşan

Küçük Kaynarca ” , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , Editor: Ekmeleddin Ihsanoglu , I. Ist. 1996 , 8-9

I. H. Uzuncarsili , Osmanli Devletinin Saray Teskilati , 3. bas. ^{٢٨٦}

Ank. 1984,s. 80-85

حرب دائمة مع الإمارات البيزنطية^{٢٨٧} . ولذلك عرف الجيش العثماني الأول وظيفتان هما : الحرب في ميدان القتال ، وحكم الأراضي المفتوحة. فكان الأمراء يقودون الغزاة وقت الحرب ، ويحكمون الولايات ويديرون شئونها وقت السلم^{٢٨٨} . فلما اتسعت حدود الدولة ، انقسم الجيش إلى قسمين :

الأول - جيش المركز : وعرف باسم " قابو قولى " أي خدام الباب ؛ وكان يتشكل من جند المشاة (يكيچرى / أى الانكشارية) ، والفرسان (سوارى)، ثم القوات المساعدة . وكان هذا الجيش يمثل القوات الخاصة المرتبطة بشخص السلطان العثماني ، والقوة الدافعة للدولة خلال فترة النشأة والإزدهار^{٢٨٩} . وقد انبهر المستشرق " لوبولد رونكه " بأخلاقيات وأدآب وتربية وتدريب وفدائية وإخلاص هذا الجيش النظامي للسلطان العثماني وللدولة ، فلم يملك إلا أن يصفهم بقوله : " ... انهم لم يكن لهم وطن غير السراى السلطانى ، ولم يكن لهم سيلا سوى السلطان العثماني ، فلم يعرفوا إلا أوامره وإرادته ، ولم يطمعوا إلا في رعايته ، .. وانهم لم يعرفوا حياة غير الانضباط الجاد ، والطاعة العمياء ، ولم يكن لهم عمل غير الحرب والقتال تحت قيادة السلطان ، ولم تكن لهم رغبة إلا في العزة في الحياة ، ودخول الجنة التي تفتح أبوابها للمجاهدين بعد المات ... " ^{٢٩٠}

^{٢٨٧} محمد فؤاد كوبرلى ، قيام الدولة العثمانية ، ص. ١٢٧-١٣٤ ؛ Uzuncarsili, Osmanli

Tarihi, I.4.bas. Ank.1982,s.79

^{٢٨٨} Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , I. , s. 504-506

^{٢٨٩} Uzuncarsili , Osmanli Devleti Teskilatinden Kapukulu

Ocaklari , I. 2.bas. , Ank. 1984 ,1-4

^{٢٩٠} Leapold Von Renke , " on altinci ve on yedinci asirda

Osmanlilar ve Ispanya Kiralligi " cev. Halid Ilteber , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , s. 131 .

الثاني - جيش الولايات : وهو ما عرف أفراده بإسم " سپاهية التيمار " (تيمار سپاهيلرى) . وكان هذا الجيش يتشكل من خلال " نظام التيمار " ، حيث كان كل أمير يتولى مقاطعة تيمار يلتزم بإعداد وتجهيز عدداً محدداً من الفرسان ، فيخرج على رأسهم وقت الحرب ، ويدير هذه المقاطعة وقت السلم ، وذلك مقابل أن تترك الدولة له خراج هذه المقاطعة^{٢٩١} .

وقد اعتبر هذا الجيش ، الدعامة الأساسية للدولة العثمانية ، فهو يمثل الميمنة والميسرة في ميدان القتال ، وهو جيش غير دائم ، تقوم على عاتق أفراده مسئوليات عديدة داخلية وخارجية ؛ فيقوم بحماية الولايات من أهل الفساد ، وتعمير أراضيها في الداخل ، والمراقبة عند ثغور الدولة . وكان " نظام التيمار " ييسر للدولة توفير أعداد كبيرة من الفرسان المحاربين من كافة ولاياتها وقت الحاجة ، دون أن تتحمل الخزينة أية أعباء مالية ، وإدارة ولاياتها وحمايتها دون أن تلتزم بدفع رواتب دورية أو غير دورية للأمراء وللجنود ، وزراعة أراضيها وتوفير احتياجات ولاياتها الاقتصادية والمالية ؛ فكان نظام التيمار بمثابة نظام عسكري - اقتصادي - اجتماعي مثالي لدولة قامت على سياسة الغزو والجهاد .

الدولة العثمانية في طور الضعف والانحيار :

لقد اتفق المؤرخون المعاصرون على أن عصر السلطان سليمان القانوني ، هو العصر الذهبي للدولة العثمانية ، وأكد الكثير منهم على أن أولى مظاهر ضعف وانحيار هذه الدولة قد بدأت في الظهور أيضاً خلال هذا العصر^{٢٩٢} ؛ غير أن هؤلاء المؤرخين

^{٢٩١} - Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , I , s. 516-517 ; Abdulkadir ozca, " Osmanli Askeri Teskilati " , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , s. 351-353 .

^{٢٩٢} محمد انيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الاوسط الحديث ١٥١٦-١٩١٤ ، القاهرة د.ت. ، ص ٩٩ ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثمانى ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٠ - ١٠٤ ؛ اوموند تيلور ، سقوط الأسر الحاكمة ، ترجمة علي عزت الانصارى ، مراجعة محمد انيس ،

اختلفوا حول الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف ، وذلك الاضحلال . ففي الوقت الذي يرى فيه البعض أن العوامل الداخلية كضعف سلطة السلطان العثماني ، وفساد أنظم العسكرية والإدارية هي أصل الداء^{٢٩٣} ، فإن البعض الآخر راح يؤكد على أن العامل الخارجي الذي يتمثل في يقظة أوروبا في مواجهة الزحف العثماني ، هو العامل الحاسم الذي تمكن من القضاء على الدولة في النهاية^{٢٩٤} . والحقيقة أن كلا من هذين العاملين كان سبباً ونتيجة للآخر ، فهما متداخلان توالدت فيهما الأسباب والنتائج ، فتشعبت آثارهما السلبية في مختلف مؤسسات الدولة العثمانية حتى آلت للسقوط مع مطلع القرن ١٩م/١٣هـ .

الإحذالك المبكر لظواهر الانهيار :

لقد أدرك بعض رجال الدولة العثمانية ، منذ وقت مبكر ، بعض مواطن الضعف التي تسلت لمؤسسات دولتهم خلال عصر سليمان القانوني ، ألا أن عظمة الدولة وقوتها في هذه الفترة حالت دون أخذ الملاحظات التي طرحها الوزير الأعظم المخلوع لطفى باشا (١٥٣٩-١٥٤١م / ٩٤٦-٩٤٨هـ) حول السلبات التي كانت موجودة في جهاز الدولة ومؤسساتها آنذ^(٢٩٥) مأخذ الجد ، حتى بدأت هذه السلبات تظهر بوضوح منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ .

القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٧٣-١٧٤ ، ١٧٨ ، V. Ronke , “ XVI. ve XVII. asirda Osmanlilar ve Ispanya Kiralligi “ , s. 161 ; Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , II. / 401-408

^{٢٩٣} - Halil Inalcik , “ Turkler (Osmanlilar) “ , IA. XII/2 , s. 296 .

^{٢٩٤} فيما يتعلق بهذا الرأي انظر : نادية محمد مصطفى وآخرون ، " العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية " ، العلاقات الدولية في التاريخ الاسلامي ، ج ١١ ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ١١١٤-١١١٥ .

^{٢٩٥} - Mubahat Kutukoglu , “ Lutfu Pasa Asafnamesi “ , Prof. Dr. Bekirkutukoglu'na Armagan , TEM.(Tarih Enstutusu Dergisi) , Ist. 1991 , s. 49-99

وإذا كان التقدم العثماني نحو الغرب قد شغل أوروبا أيضا منذ القرن ١٤م/٨هـ، حيث مثل العثمانيون الخطر الإسلامي الداهم على الشعوب المسيحية في أوروبا منذ سقوط القسطنطينية (١٤٥٣م/٨٥٧هـ) ، وبدأ ملوكها وقادتها ومفكروها يبحثون عن الوسائل لمواجهة هذا الخطر في الداخل وفي الخارج ، ويرصدون تلك التغيرات التي بدأت تظهر ملامحها في أجهزة الدولة منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ^{٢٩٦} ، فإن النجاح الأول الذي حققه التحالف الصليبي ضد العثمانيين عند لبانتو (ابنه باختي) عام ١٥٧١م/ ٩٧٩ هـ ، جعل رجال الدين والسياسة الأوروبيون يعلنون أن الدولة العثمانية تتعرض لتغيرات هامة في نظامها الأساسي قد تؤدي بها إلى الانهيار ، وأنه يجب البحث عن عوامل قوتها لإضعافها ، ومظاهر الضعف فيها لنشرها^{٢٩٧} .

ومن ناحية أخرى ، لما بدأ علماء الدولة العثمانية ومؤرخوها يسجلون أخبارها وفتحاتها في الشرق والغرب ، ويفسرون أحداثها ووقائعها ، ويتبعون تطورها خلال النصف الثاني من القرن ١٦م/١٠هـ ، استطاعوا أن يضعوا أيديهم على العديد من مواطن الضعف التي بدأت تظهر ملامحها في مؤسسات الدولة ، ويحذرون من خطر هذه العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى اضمحلالها . فكما كشف المؤرخ مصطفى عالي (ت. ١٥٩٩م/ ١٠٠٨هـ) عن هذه المظاهر في العديد من آثاره مثل " موائد النفائس في قواعد المجالس"^{٢٩٨} ، " نصيحة

^{٢٩٦} بين كولز شغل أوروبا بتبع أوضاع الدولة العثمانية ورصدها لما يحدث من تغيرات فيها بقوله : " ففى فرنسا وحدها ظهر في الفترة ما بين ١٤٨٠-١٦٩٠م أكثر من ثمانين كتابا عن الدولة العثمانية، بينما لم يصدر إلا أربعون كتابا عن الأمريكين " : العثمانيون في أوروبا ، ص ١٦٠-١٦١ .

^{٢٩٧} شكيب أرسلان ، " التعصب الاوروي لم التعصب الاسلامة ، ومائة مشروع لتقسم تركيا " ، حاضر العالم الاسلامي ، لوثرروب ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض ، ج ٣ ، القاهرة ١٣٥٢ ، ص ٢٤٠ .

^{٢٩٨} طبع في استانبول عام ١٩٥٧

السلطين "٢٩٩" ، فإن المؤرخ مصطفى سلانيكى (ت. ١٥٩٩م/ ١٠٠٨هـ) لم يتردد ، عند سرده لوقائع الدولة العثمانية خلال عصور السلطين سليم الثاني (١٥٦٦- ١٥٧٤م/ ٩٧٤-٩٨٢هـ) ومراد الثالث (١٥٩٥/ ١٥٧٤م / ١٠٠٣-٩٨٢هـ) ، ومحمد الثالث (١٥٩٥- ١٦٠٣م/ ١٠٠٣-١٠١٢هـ) في الإشارة إلى مظاهر الخلل في جهاز الدولة والجيش .

وإذا كان سلانيكى لم يشر من قريب إلى ضعف السلطين ، إلا أن كافة المظاهر التي أوما إليها ، كانت نتيجة مباشرة لهذا ضعف ؛ فيشير إلى حالة الجند المعنوية وكيف أنهم فقدوا حمية الغزو والجهاد في غياب قيادة السلطان الذي يمكن أن يقود جيشه بقوله : " في الحقيقة ، لما غابت الحمية في عسكر الإسلام، ... وصار أكثرهم طالبين حطام الدنيا ، لم يتجنبوا ارتكاب الذنوب قط."٣٠٠ . ولما تطرق لأوضاع الدولة الإدارية ، ومدى ما وصلت إليه من فساد واضطراب ، أكد أن مثل هذا الوضع لا بد وان يصل بالدولة إلى حافة الانهيار بقوله : " .. والآن (عصر مراد الثالث) ، لما وقع زمام أمور الملك والسلطنة في أيدي الجهلاء ، أصبح مدبرو ومباشرو مصالح المسلمين غير لائقين ولا مستقيمين، نتيجة لسوء نواياهم ، فليجعل الله تعالى العاقبة خيراً .. "٣٠١ . ويتحدث في موضع آخر عن حالات التزوير التي انتشرت بين الكتبة ، فيقول : " لقد ظهرت طائفة من الكتبة تقوم بمحو الخطوط

٢٩٩ قام تيتزه A. Tietze بنشره في جزئين في فيينا عامي ١٩٧٩، ١٩٨١ .

٣٠٠ " في الحقيقة ، عسكر اسلامده غيرت قالميوب ، اسلامه ضعف كلوب ، أكثرى حطام الدنيا طالب اولغله ، قطعاً حرامدن احتتاب اولنمايوب .. " : سلانيكى تاريخي ، استانبول ١٣٨١، ص

١١٠

٣٠١ " حالياً ، زمام امور ملك وسلطنت ناكاردنلر انه دوشمكله ، مصالح مسلمين مدبرلري غرض نفس ايله مغشوش ومشوش حاكملرده در . حق سبحانه وتعالى انجمن خير ايله . " : سلانيكى تاريخي ، ص ٣٣٩

الحررة على الأوراق المختومة ، وكتابة ما تريد فيها ..^{٣٠٢} . وأخيرا يسجل خشيته من عاقبة هذا الفساد الإداري ، والرشوة ، وأثارها على سلامة الدولة وبقائها عندما قال : " .. أن باب الرشوة الذى فتح في هذه الدولة لا يشير إلى بقائها طويلا .."^{٣٠٣} .

ومع ازدياد إدراك علماء الدولة العثمانية لمظاهر الضعف والاضطراب التي راحت تطرأ على مختلف مؤسسات الدولة ، بعد أن بدأت آثارها تنتشر في أنحاء البلاد خلال القرن ١٧م/١١هـ ، تضاعف عدد مؤلفاتهم حول تلك التغيرات ، حتى اضطرت الدولة لبحث هذه الأوضاع المضطربة خلال إحدى جلسات الديوان الهمايوني (١٩ مارس ١٦٥٣م/ ١٩ ربيع الآخرة ١٠٦٣هـ) ، حيث كلف كاتب جلي (١٦٠٨-١٦٥٧م/ ١٠١٧-١٠٦٧هـ) بوضع تقرير حول حالة الخلل العامة هذه^{٣٠٤} ، فوضعه ، وسماه " دستور العمل في إصلاح الخلل "^{٣٠٥} . ومن أهم المؤلفات التي راحت تكشف عن أسباب الخلل وعوامل التغيير تلك " أصول الحكم في نظام العالم " لحسن كافي^{٣٠٦} ، كما أن هناك رسالتان لمصطفى قوچى بك (وفاته ١٦٥٠ م / ١٠٦١هـ) قدم إحداها للسلطان مراد الرابع (١٦٢٣-

^{٣٠٢} " كاتبلىر بر جنس .. ييدا ايتمشلركه جملة كتابت اولئان خط يته كاغددن سلينوب ، راستدكلرين بازوب .. " : نفس المصدر، ص ٢٧٢

^{٣٠٣} " بو دولته باب رشوتكه آجلدى ، بقاى سلطنته دلالت ايلمز .. " . وقد ذكر سلايىكى هذه العبارة على لسان محمد باشا النيشانجى : نفس المصدر، ص ١٦١ ، كذا انظر ص ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٤١٨ .

^{٣٠٤} - Orhan Saik Gokyay , " Dusturu'l-Amel " , TDV. Islam Ansiklopedisi , cilt X. / 50-51

^{٣٠٥} طبع في استانبول عام ١٢٨٠ .

^{٣٠٦} قام محمد ايشيرلى بنشر الاثر بالحروف اللاتينية في العدد التاسع من مجلة المعهد التاريخى (TED) في استانبول عام ١٩٨١ .

١٦٤٠م/١٠٣٢-١٠٥٠هـ)^{٣٧} . ولما كان قوحي بك ، هو أحد المستشارين المقربين لهذا السلطان الذي كان يسعى لإصلاح الأوضاع المضطربة في الدولة ، فقد أخذ صاحب الرسالة يعرض في مقارنة فريدة الفرق بين ما كانت عليه الدولة من عوامل استقرار خلال عصر السلطان سليمان القانوني وبينها في ظل الخلل الذي بدأت تتعرض له أجهزة مؤسساتها منذ عهد مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م/٩٨٢-١٠٠٣هـ) .

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول المؤرخون والعلماء العثمانيون الوقوف على أسباب هذه التغيرات ، وتلك الاضطرابات التي انتشرت في أنحاء الدولة منذ القرن ١٦م/١٠هـ ، وذلك بحسب المفهوم السائد عن الدولة آنذاك ، حيث اتفقوا جميعا على حصر أسباب هذا الخلل في عنصرين أساسيين ، تفرعت عنهما عناصر أخرى عديدة ، كان كل منها معول هدم في بناء الدولة العثمانية على مدى أكثر من ثلاثة قرون متتالية :

العنصر الأول - ضعف سلطة السلطان وتجزئتها : لقد اعتبر هذا العنصر سبباً أساسياً لفساد النظم العثمانية ، منذ أواخر عصر السلطان سليمان القانوني . وكانت حالة الضعف هذه ، نتيجة أسباب عديدة أخرى أهمها :

أ- ضعف السلاطين العثمانيين بعد القانوني ، وهماوهم في رعاية شعون الدولة عن قرب ، وقيادة الجيوش .

ب- ظهور مراكز قوى في الإدارة والجيش والسراي العثماني كنتيجة مباشرة لضعف السلاطين وضعف سلطتهم .

^{٣٧} نشرت رسالة قوحي بك لمراد الرابع لأول مرة عام ١٠٤٠هـ في استانبول ؛ ثم قام على كمالى أقسوت بنشرها بالحروف اللاتينية في استانبول ايضا عام ١٩٣٩ . ونظرا لأهمية هذه الرسالة ، فقد ترجمت لعدة لغات اجنبية : **Franz Babinger , Osmanli Tarih Yazarlari ve Eserleri , cev. Coskun Uçok , Ank.1982, 203 -204.**

ج- انتشار التجاوزات في تطبيق قوانين ونظم الدولة ، وعدم إطاعة أوامر السلاطين .

العنصر الثاني - اختراق الفساد لنظم ومؤسسات الدولة : لقد وضع

هؤلاء المؤرخون على رأس هذه النظم وتلك المؤسسات التي تطرق إليها الفساد ، " نظام الديوشيرمة " ، و " نظام التيمار " . وقد تفرع عن فساد هذه النظم أسباب أخرى كان لها الأثر العميق في التغييرات التي طرأت على الدولة خلال هذه الفترة :

أ - استخدام الدولة الرعايا العثمانيين بدلا من أفراد الديوشيرمة في السراى وفى الجيش.

ب- توزيع مقاطعات " التيمار " و " الزعامة " على رجال القصر وأعيان الدولة .

ج- زيادة أعداد جند " القابو قولى " بمركز السلطنة زيادة عظيمة ، الأمر الذي أدى إلى صعوبة توفير المرتبات لهذه الأعداد ، فكان ذلك سببا للعديد من حركات العصيان في الدولة .

د- اهتزاز حالة التوازن بين جيش " سباهية التيمار " الذى بدأ في الضعف ، وجيش " القابو قولى " ، وبخاصة فرقة المشاة (يكيجرى / اى الانكشارية) ، مما أدى إلى زيادة نفوذ جند " القابو قولى " سواء في مركز الدولة أو في ولاياتها .

هـ- زيادة مصاريف خزانة الدولة ، مما أجبر الدولة على فرض ضرائب ورسوم جديدة على الرعايا ، فهجر هؤلاء قراهم فخرت أراضيهم .

وإذا كان هؤلاء المؤرخون قد أكدوا أيضا على أن الملامح الأولى لهذه التغييرات قد بدأت خلال عصر سليمان القانوني ، إلا أنهم يعتقدون أن المفاصل التي هوت بالدولة إلى حافة الانهيار ، قد بدأت في الظهور في عصر مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م / ٩٨٢-١٠٠٣هـ) ، حيث ربطوا عوامل انهيار الدولة هذه بما كان يجرى خلال هذه المرحلة من عدم التقيد بالقوانين والنظم التي وضع أساسها

محمد الفاتح ثم سليمان القانوني . وكانوا يعتقدون أن كل شيء يمكن أن يعود إلى نصابه بمجرد التقيد بهذه القوانين وتلك النظم تحت قيادة سلطان قوى^{٣٠٨} .

التهامون بالتحديات الخارجية :

والحقيقة أن المؤرخين العثمانيين حصروا أنفسهم عند تحديد أسباب الخلل الذى طرأ على الدولة ، في عوامل التغيير التى ظهرت في بناء الدولة الداخلي ؛ ولم يتجاوزوا ذلك إلى تلك التى نمت خارج نطاق الدولة وكان لها انعكاسات بعيدة المدى عليها ، حيث انشغلوا بأوضاعهم الداخلية ، وغابت عنهم تلك التطورات الإيجابية التى كانت تمر بها أوروبا الغربية ، أو أنهم لم يستطيعوا إدراك حجمها الطبيعي ومدى ما يمكن أن تمثله من تحديات خارجية للدولة في مرحلة تالية . على أن روح تفوق الدولة العثمانية التى رسخت على مدى القرون الماضية كانت لا تزال تفعل فعلها ، حيث راح العلماء ورجال الدولة على حد سواء يتهاونون بما كان يحققه الغرب من إنجازات واكتشافات ، ويجدوى رصد التطورات التى أخذت تسير بخطى سريعة في أوروبا خلال القرنين ١٦-١٧م/١٠-١١هـ .

ولذلك ، فانه في الوقت الذى كانت فيه أوروبا تهلل بهزيمة العثمانيين في موقعة لبانتو (ابنه باحتي) عام ١٥٧١م/ ٩٧٩ هـ ، عبرت الدولة العثمانية عن رأيها من خلال تصريح الوزير الأعظم محمد صقوللى (١٥٦٥-١٥٧٩م/ ٩٧٢-٩٨٧ هـ) الذى أدلى به عندما التقى بسفير البندقية باربارو Barbaro الذى أراد أن يعرف مدى ميل الحكومة العثمانية للصالح بعد نجاح التحالف الصليبي في تحطيم الأسطول العثماني قائلا : " .. انك ترى أن حصارنا لم نتخذ بعد معركة ابنه باحتي، فهناك فرق بين خسائرتنا وخسائركم ، فنحن استطعنا قطع ذراعاً لكم بفتحنا لجزيرة قبرص ، وأخذها منكم ، أما انتم بهزيمتكم أسطولنا ، تكونون كما لو كنتم

^{٣٠٨} خليل اينالچق ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " سيد محمد السيد ، دراسات في التاريخ

العثماني ، ص ٨٨ - ٩١ ، Osmanli Siyasi Tarihi ، Feridun Emecen ،

Kurulustan Kucuk Kaynarcaya " ، s. 45 - 46 .

قد حلقتم شعرةً من لحيتنا . فالذراع المقطوعة لا يمكن إعادتها ثانية، أما اللحية التي حلقت ، فلسوف تنمو أقوى مما كانت "٣٠٩ .

بظهور الضعف والانهييار :

إنّ تتبعنا لأحداث ووقائع الدولة العثمانية ، أثبت أنّ عوامل الضعف والانهييار التي راحت تعاني منها الدولة العثمانية منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ وخلال القرن ١٧م/١١هـ ، لم تظهر فجأة ، ومن ثم لم تنعكس آثار تلك العوامل على وضعها العسكري والسياسي في الخارج إلّا بالتدريج . فليس معنى نمو الدولة شرقاً وفتوحاتها غرباً، وتضخم مؤسساتها وعظم مواردها خلال فترة النشأة والازدهار أنّها كانت تخلو من عوامل الفناء . والحقيقة أنّ القوة الدافعة للدولة آنذاك ، كانت تستطيع من خلال قيادتها الحازمة، وجيشها الصارم أن تقضى على كافة التحديات الداخلية والخارجية التي كانت تواجهها ، فضلاً عن توظيفها توظيفاً إيجابياً يخدم مصالحها في الداخل وفي الخارج . فقد كانت كل حالة فساد أو تجاوز أو عصيان إداري أو عسكري في الدولة آنذاك ، تجعل القيادة أكثر حرصاً على تنقية الجيش والإدارة من عناصر الشغب ، وكل مواجهة خارجية أو حركة عصيان داخلية، تزيد من اتساع فتوحات الدولة ونفوذها شرقاً وغرباً .

وهكذا ، يمكننا القول بأنّ تغير العوامل التي كانت سبباً جوهرياً لقيام الدولة العثمانية ، وتبدل الظروف الداخلية والخارجية التي ساعدتها على الازدهار، كانت من أهم أسباب عجز الدولة عن مقاومة هذه التحديات ، ومن ثم ظهور الاضطرابات في مؤسساتها الداخلية ، وسياستها الداخلية والخارجية ، فتوقفت الفتوحات ، وتقلصت الحدود تدريجياً حتى أدى ذلك بالدولة إلى الانهيار التام .

Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , cilt III./I. Kisim , 3.bas., ٣٠٩

Ank.1983 , s. 23 وقد اورد شكيب ارسلان هذا الحوار تعليقا على نفس المناسبة في مقالته المطولة " مائة مشروع لتقسيم تركيا " ، ولكنه ذكر ان قائل هذه العبارة هو السلطان سليم الثانى المعروف باسم " سليم السكير " : ١١ : ص ٢٣٦ .

لقد اتبعت الدولة العثمانية نظم الدول الإسلامية والتركية السابقة عليها مع إضافة بعض التغييرات التي كانت ترتبط بالتقاليد التركية في الحكم . ويرى الباحث أن دولة آل عثمان راحت تطبق بعض هذه النظم وتلك السياسات في عصر نشأتها ، فتطورت بتطورها حتى أصبحت في عصر الاضمحلال من أهم أسباب انهيارها . . ويمكن تقسيم هذه النظم وتلك السياسات إلى قسمين أساسيين : ١- نظم وسياسات داخلية ، ٢- وسياسات خارجية

١- النظم والسياسات الداخلية :

وتتضمن بعض نظم وسياسات الدولة العثمانية التي قامت عليها ، وكان لها اثر عظيم في إحداث الخلل في مختلف مؤسسات الدولة وتشكيلاتها منذ أواسط القرن ١٦م/ ١٠هـ ، وأهمها : أ- الحكم المركزي المطلق ب- ولاية العهد ج- الديوشيرمه د- استمالة البلدان المفتوحة وأهلها هـ - جمود مؤسسات الدولة .

أ - الحكم المركزي المطلق :

لقد ارتبطت سياسة المركزية في الدولة العثمانية بسياسة الحكم المطلق منذ عصر النشأة ، حيث ظهرت المحاولة الأولى لإقامة دولة مركزية في عهد ييلدرم بايزيد (١٣٨٩-١٤٠٢م/ ٧٩١-٨٠٥ هـ) بضمه أراضي إمارات الأناضول ، وجعلها ملكا للدولة ، تديرها من خلال إدارة مركزية في العاصمة^(٣١٠) . ولما تأكدت مركزية الدولة في عهد محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/ ٨٥٥-٨٨٦هـ) ، وتم وضع القوانين اللازمة لها ، بدأ السلطان في اتخاذ الخطوة التالية التي تمثلت في التخلص من الأسرار ذات النفوذ في الدولة ، حيث شرع في جمع كافة السلطات في

يده ، ثم راح سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٣هـ) يقنن لسياسة المركزية هذه ويرسخها ضمن نظام الحكم المطلق الذي اتبعته الدولة ^{٣١١} .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح السلطان هو صاحب الدولة الذي له الحق في التصرف فيما تحت يده . فهو يرأس الجيش والديوان ، ولا يُنفذ أمراً إلا بإذنه ، حيث يعتبر الأمر الذي يقره السلطان في حكم القانون الواجب الإتياع . وعلى الرغم من ذلك ، كان يتحد من تلك السلطات المطلقة للسلطان ، ضرورة تطابق أوامره مع أصول الشريعة الإسلامية ، وعدم تعارضها معها ^{٣١٢} .

وإذا كان السلاطين العثمانيين حتى الربع الأخير من القرن ١٦م/١٠هـ، قد عرفوا خطورة هذه المهام ، وتمكنوا من إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية على الوجه الأكمل ، ولم يعطوا الفرصة لأحد من أجل الانتقاص من سلطاتهم ، إلا أنه على أثر وصول سلاطين ضعاف إلى مقام السلطنة ، وتركهم قيادة الجيوش ومتابعة شئون الدولة عن قرب ، وانغماسهم في الترف ^{٣١٣} ، راحت تنتقل هذه السلطات المطلقة ، والحكم المركزي ، ومن ثم مقدرات الدولة عامةً ، بالتدريج إلى مراكز القوى التي أخذت تنمو باطراد ، حتى أعتبر ضعف سلطة هؤلاء السلاطين عاملاً هاماً من عوامل انهيار الدولة العثمانية .

بج- ولاية العهد :

لم يكن لدى العثمانيين قانوناً ثابتاً يتعلق بولاية العهد فانحصرت منذ عصر مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩م/٧٦٣-٧٩١هـ) في أسرة أمير الغزاة الذي كان هو

^{٣١١} خليل اينالتي ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٦١-٦٨ ؛ F. Emecen ، 139 -140

^{٣١٢} Ahmed Akgunduz , Osmanli Kanunnameleri , ve Hukuki Tehlikeleri , I. Ist. 1990 , 205-207 .

^{٣١٣} Uzuncarsili , Saray Teskilati , s. 87 - 100 ; Osmanli Tarihi, III., s. 114 , 119 -122 .

رئيس العشيرة في نفس الوقت . فكان ينتخب بمعرفة الأمراء الغزاة الذين يديرون أمور الدولة وجماعة "الآحيان" التي لعبت دوراً عظيماً في تأسيسها . ولم يكن يرفع إلى مقام السلطنة ، في ذلك العصر إلا من يثبت أنه صاحب المقدرة والكفاءة من أفراد أسرة آل عثمان . عندئذ ، كان السلطان الجديد يسعى للتخلص من أخوته ، منافسيه على العرش ، وذلك للمحافظة على الأمن والاستقرار في البلاد . وقد أخذت هذه العادة شكل القانون في عصر محمد الفاتح فيما عرف آنذاك باسم " نظام العالم " ^{٣١٤} .

ولما كان أبناء السلاطين حتى ذلك الوقت ، يعينون كأمرء سناحق في بعض الولايات تدريباً لهم على الحكم والسياسة ، ويخرجون على رأس الحملات ممرساً في ساحات القتال ^{٣١٥} ، كان لكل منهم طموح في تولي أمر السلطنة . ويرى الباحث أنه على الرغم من أن الصراع الذي كان ينشب بين الأخوة على العرش ، كان يجعل الدولة في حالة فراغ سياسي ويؤدي إلى انقسام رجالها لفترة من الزمن ، إلا أنه كان من ناحية أخرى ، يمثل اختبار عملي لقدرات ولى العهد العسكرية والسياسية ، ومن ثم لم يكن يتولى هذا المقام حتى عصر سليمان القانوني ، إلا من كان أهل له وجدير به .

ومنذ أواخر عصر القانوني ، بدأت أمهات السلاطين وزوجاتهم ورجال ونساء السراي وأغوات " باب السعادة " ، وجند " القابو قولى " (خدم الباب) يلعبون دوراً بارزاً في عزل وتولية ولى العهد ، حيث أدى ذلك إلى وصول أفراد ضعاف أو أطفال لم يبلغوا الحلم إلى سدة الحكم ^{٣١٦} . وقد ازداد الأمر سوءاً إثر ترك عادة تعيين أبناء السلاطين على بعض سناحق الدولة ، ومن ثم عدم خروجهم لساحات القتال منذ عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م/١٠٠٣-

^{٣١٤} Saray Teskilati , s. 45 - 49

^{٣١٥} Saray Teskilati , s. 117 - 121 , 144 - 145

^{٣١٦} Saray Teskilati, s.151-158; Osmanli Tarihi, III., s.137- 142

١٠١٢هـ) الأمر الذي حرم ولى العهد من أية كفاءة سياسية أو عسكرية عملية ، فأصبح أكبر أبناء آل عثمان سناً وليس أقدرهم وأكفأهم ، هو المرشح لولاية العهد^{٣١٧} . وهكذا ، زادت تدخلات السراى والجند في مثل هذه التعيينات، فكان صدى هذا المعول هو الأكثر عمقا على الأوضاع الداخلية والخارجية في الدولة منذ أواخر القرن ١٦م/ ١٠هـ .

ج - الديوشيرمة :

لقد اعتمدت الإمارة العثمانية منذ بداية نشأتها سواء في الحكم والإدارة أو في الغزو والجهاد على أمراء وأفراد العشيرة العثمانية ، إلا أنه منذ عصر مراد الأول ، بدأ التفكير في الاستفادة من أسرى الحروب لتشكيل فرق عسكرية من نسبة خمس (بنج يك) الأسرى التي كانت تخصص للدولة ؛ وبذلك ، تشكلت فرقة " غلمان العجم " (عجمى اوغلان) . وبعد موقعة أنقرة (١٤٠٢ م / ٨٠٥هـ) وعلى أثر انقطاع سيل الأسرى ، استحدثت " قانون الديوشيرمة " أي الجمع والالتقاط ، حيث كان يؤخذ الصبية من الولايات الأوروبية التابعة للدولة بأعداد معينة ، ثم ينضمون إلى فرق غلمان العجم بعد تعليمهم العادات والتقاليد الإسلامية والتركية وتلقينهم اللغة التركية . فكان الصبية من أصحاب الصفات المميزة يرسلون إلى السراى العثماني ليكونوا خدماً للسلطان ، أمّا الآخرين فكانوا ينضمون إلى فرق اليكيجرى أي مشاة الباب السلطاني أو المدفعية أو المهمات أو البحرية ، بحيث كان من يرقى من هؤلاء ، ينضم إلى فرقة عرفت باسم "سوارى القابو قولى"^{٣١٨} .

وهكذا ، ومنذ عصر مراد الثانى (١٤٢١-١٤٤٤م/ ٨٢٤-٨٤٨هـ) بدأ يظهر رجال للدولة وقواد للجند ممن تربى في هذه الفرق العسكرية ، وفى السراى العثماني ، حيث أطلق على هذه الفئة اسم " ديوشيرمة " ، أى الذين دخلوا في خدمة

^{٣١٧} Saray Teskilati , s. 46-49

^{٣١٨} Uzuncarsili , Osmanli Devleti Teskilatinden Kapukulu Ocaklari , I., 2.bas., Ank.1984, s. 5vd.,22-25.

الدولة بنظام الديوشيرمه . فلما أراد السلطان محمد الفاتح القبض على أزمة الحكم في الدولة ، وتنحية أمراء الأسرات التركمانية ذات النفوذ ، والذين شاركوا آل عثمان الحكم والقيادة ، وكان لهم اليد الطولى في تعيين ولى العهد ، أصبح المجال متسعاً للذين دخلوا خدمة الدولة بطريق "بنج يك / الخمس " ، و"نظام الديوشيرمه " . وقد راح هؤلاء يتدرجون في مناصب الدولة حتى وصلوا إلى مقام الصدارة العظمى^{٣١٩} . ومنذ ذلك الحين ، اعتمدت الدولة العثمانية في مؤسساتها الإدارية والعرفية والعسكرية والملكية على هذه الفئة ؛ فصار منهم الجنود والقواد والأمراء والوزراء والقباطنة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد استطاعت العناية بهذا النظام عناية فائقة ، وتأمين تخريج أجيال من القواد الأفذاذ والجنود الشجعان والإداريين المخلصين والساسة المخنكين خلال عصر نشأة الدولة وازدهارها ، فكان لهم الدور العظيم في علو شأن الدولة ، إلا أن تطرق الفساد إلى هذا النظام ، منذ أواخر القرن ١٦م/ ١٠هـ ، كما أدى إلى وصول أفراد غير أكفاء إلى المناصب الإدارية والعسكرية العليا في الدولة ، ساعد أيضاً على اضطراب نظام جيش المركز " قابو قولى " ، وانتشار الفساد في أجهزة الحكم والإدارة والجيش . وقد زاد من هذا الاضطراب وذلك الفساد ، ضعف سلطة السلطان الذى كان يعجز عن القبض على أزمة الأمور ، وأعطى الفرصة لظهور مراكز قوى من هؤلاء الرجال في الجيش والسراى والإدارة ، حيث راحت تسلب منه ما تبقى له من سلطة .

ومن ناحية أخرى ، كان نتيجة لعدم خضوع الديوشيرمه للبرامج الدينية والتربوية اللازمة بحسب النظام المعمول به ، أن قل الإخلاص ، والبذل والتضحية لدى هؤلاء ، الأمر الذي جعل العديد منهم يرتد عن الإسلام ، وينحاز بما لديه من

^{٣١٩} خليل اينالچق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٦٩ .

فرق عسكرية أو سفن حربية إلى الدول المخاربة للدولة ، أو تسليم الولايات أو القلاع المكلف بحمايتها إلى الأعداء عندما وجد نجم آل عثمان آخذ في الأفول^{٣٢٠} .

د - استمالة البلدان المفتوحة وأهلها :

لما انطلق العثمانيون كإمارة حدودية غازية ، وسقطت في أيديهم الممالك الأوروبية الواحدة تلو الأخرى ، كانوا يعطونها في البداية لأمرأء من الأسرات الحاكمة في تلك الممالك بشروط الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها ودفع الجزية والخراج ، والاشتراك بفرق عسكرية مع الجيش العثماني في حروبه عند اللزوم . وبذلك ، كان هؤلاء الأمرأ يديرون بلادهم بحسب قوانينهم السابقة ، وعاداتهم القديمة مع ربطها بقوانين الدولة العثمانية ، الأمر الذي كان يجعلهم يخرجون على الدولة ، كلما أتاحت لهم الفرصة . عندئذ كانت الدولة العثمانية تقوم بضم هذه المملكة ضمّاً مباشراً ، وتعين عليها أمرأ عثمانيين وهيئة إدارية عثمانية ، معتمدة في تغيير الطبيعة الطبوغرافية للبلاد المفتوحة على عمليات الهجرة التركمانية إلى تلك المناطق^{٣٢١} .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد نجحت إلى حد كبير في دمج مساحات شاسعة من الأراضي المفتوحة في الدولة ، حيث كانت سياسة التسامح والاستمالة التي اتبعتها مع غير المسلمين من رعاياها وبخاصة من كانوا في المناطق الأوروبية ، وعدم تعرضها لهم ولا لتشكيلاتهم الدينية أو جمعياتهم المحلية ، ذات نتائج عظيمة على عملية الانتشار السريع التي حققتها في أوروبا خلال عصر قوتها وانطلاقها ، إلا أن شعور مسيحيي الدولة ، وبخاصة ممن كانوا يقطنون في ولايات الروميلي ، بضفت الآستانة واضطراب أحوالها الداخلية ، ورؤيتهم هزيمتها على يد التحالفات الصليبية ، جعلهم يزدون من اتصالاتهم بتلك الدول الأوروبية المخاربة للدولة ، ويحيون

^{٣٢٠} كوزلر ، العثمانيون في أوروبا ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

^{٣٢١} خليل اينالجق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ٥١ .

تشكيلاتهم مستجيبين للدعوات الباباوية لطرد العثمانيين من أوروبا ، حتى صاروا شوكة في ظهر الدولة في هذا الوقت العصيب ، واستطاعت الدول الأوروبية استخدامهم لإضعاف الجبهة الداخلية للدولة بإثارة حركات العصيان كلما أتاحت لهم الفرصة^{٣٢٢} .

ومن ناحية أخرى ، فقد أبقي العثمانيون بعد ضمهم للولايات الشرقية، على النظم والتشكيلات القديمة والجارية في تلك البلاد ، وربطوها بنظم وتشكيلات الدولة ؛ كما أنهم لم يفكروا في القضاء على القوى المحلية ، وسعوا للاستفادة من خبراتها في إدارة شئون البلاد المفتوحة . وهكذا ، راحت الدولة تقنن لهذه النظم القديمة ، وتضع نظاماً متوازناً للعلاقة معها . إلا أن انضباط هذا النظام كان رهين قوة القيادة العثمانية ، وانضباط الإدارة المركزية ، بحيث ما إن شعرت تلك القوى المحلية بملامح الضعف تسرى في جسد المركز ، حتى راحت تستولي على السلطة المحلية ، ثم بالتدريج على السلطة المركزية بالولايات وتهمش دور الإدارة العثمانية بها^{٣٢٣} ؛ فكان ذلك من أهم عوامل انقراط عقد المركزية العثمانية ، ومن ثم انهيار الدولة من أطرافها .

هـ - جمود مؤسسات الدولة :

لقد ورثت الدولة العثمانية ، عند قيامها ، ميراثاً حضارياً امتزجت فيه حضارة الإسلام بتقاليد الترك ، وتدعم هذا الميراث الحضاري بضم أملاك الدولة السلجوقية ودولة المماليك في الشرق . وإذا كانت دولة آل عثمان ، منذ ظهورها ، حريصة على أن تدعم قوتها العسكرية بوسائل وتقنيات العصر ، بحيث أصبحت

^{٣٢٢} عصمت بارماقسر اوغلي ، " الدولة العثمانية في القرن ١٧م " ، دراسات في التاريخ العثماني ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

^{٣٢٣} سيد محمد السيد ، " دستور العمل في النظام الإداري والمالي في إيالة مصر في مطلع القرن ١٨م / ١٢هـ " ، بحث مقبول للنشر في مؤتمر الشرق الأوسط الأول الذي تنظمه جامعة الفرات بمدينة الازيع بتركيا خلال هذا العام .

صاحبة أعظم قوة ضاربة في العالم آنذاك ، إلا أنها لم تدرك أن الفتوحات التي حققتها في الغرب والشرق تتطلب رصد دقيق لأوضاع الدول المتحاربة معها على امتداد حدودها الواسعة ، حتى لا تتخلف عنها في مجال التقنيات الحديثة ، وتتمكن من المحافظة على أملاكها الواسعة فضلاً عن استمرار الانطلاق إلى الأمام .

ويرى الباحث أن تعظيم العثمانيين لإنجازات سلاطينهم الأوائل ، وعدم تجرئهم على تعديل النظم والقوانين التي وضعوها تعديلاً اختيارياً بما يتناسب مع متغيرات العصر ، ولمواجهة التحديات المتجددة في الدولة ، كان من أهم عوامل حالة الجمود التي أصيبت بها المؤسسات العثمانية خلال فترة الضعف والانهيار . والواقع، أن اعتقادهم في القوانين التي وضعت في عصر السلطان سليمان القانوني، قد زاد إثر شعور رجال الدولة وعلمائها بديب عوامل الضعف والانهيار يسرى في جسد الدولة، حتى صرحوا بأن كل شيء يمكن أن يعود إلى سابق عهده بمجرد الالتزام بتطبيق هذه القوانين كما ينبغي . غير أنه إذا كانت قوانين القانوني تصلح للتطبيق خلال عصره ، فإن الدولة العثمانية وأوروبا والعالم بأسره كان خلال هذا العصر يتعرض لتغيرات عظيمة ، تحتّم على الدولة العثمانية أن تعدّل من مفاهيمها القديمة ، ونظمها وقوانينها بما يتفق مع هذه التطورات في الداخل وفي الخارج . فكان هذا الاعتقاد في قوانين سليمان القانوني، هو الحائل الحقيقي أمام محاولات الإصلاح التي راحت الدولة تطبقها سعياً لإعادة حيويتها من جديد ؛ وكان الاعتقاد في قدرة هذه القوانين على مواجهة تحديات العصر هو المانع الذي حال دون وضع نظم جديدة للدولة العثمانية لمواجهة عصر الانقلابات في أوروبا .

وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتعرض لتغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية عظيمة خلال القرن ١٦م/١٥هـ ، كان العثمانيون يؤكدون تفوقهم العسكري ، وينظرون إلى ما كان يحدث في أوروبا من تطورات نظرية هاون ، غير مدركين لما يمكن أن تتمخض عنه هذه الانقلابات من آثار سلبية على كيان الدولة

العثمانية^{٣٢٤} . فقد كان اعتقاد العثمانيين بمبدأ السيادة العالمية وشعورهم بالتفوق الدائم على الغرب ، من أهم العوامل التي حالت دون رصد التطورات على الساحة الأوروبية ، ومحاولة مجاراة هذه التطورات في مؤسسات الدولة على نفس الأسس العثمانية الإسلامية ، ومن ثم أدت لمفاجأة أوروبا للدولة العثمانية بتفوقها العسكري والتقني خلال القرن ١٧م/١١هـ ، وتقديمها البديل الحضاري الغربي ، الأمر الذي أدى فيما بعد لاختراق مؤسسات الدولة وبخاصة العسكرية منها ، وإحداث التغييرات على النمط الغربي فيما عرف باسم "الإصلاحات" . فكان مبدأ قبول الدولة لتلك التغييرات على النمط الأوروبي من أهم معاول تفكيك مؤسساتها الأصلية من الداخل قبل إلغائها ، واستبدالها بأخرى أوروبية ، تمهيدا لتنفيذ حكم الإعدام في الرجل المريض .

٢ - السياسة الخارجية :

لقد قامت سياسة الدولة العثمانية الخارجية على " فكرة العالمية " التي حاول بايزيد الأول تطبيقها في الروميلي والأناضول ، فاصطدمت في المرة الأولى بتيمورلنك الذي تمكن من إجهادها (١٤٠٢م/٨٠٥هـ) ، فأعاد إمارات الأناضول إلى أصحابها ثانية ، أعطى الفرصة للممالك الأوروبية لاستعادة ما فقدته في الفترة ما بين (١٤٠٢-١٤١٣م / ٨٠٥-٨١٦هـ) . فلما اعتنق محمد الفاتح هذه الفكرة ، ونجح في وضع ملامحها في عصره ، تيسر لسليم الأول تحقيق قسمها الشرقي بضم أملاك المماليك في مصر والشام (١٥١٦-١٥١٧م / ٩٢٣هـ) ، وتمثيل العالم الإسلامي باعتباره خادم الحرمين الشريفين ، وراح سليمان القانوني يرسخ من مفهوم الدولة العالمية في أوروبا حتى أواسط القرن ١٦م/١٠هـ^{٣٢٥} .

^{٣٢٤} Uzuncarili , Osmanli Tarihi , II. , s. 512

^{٣٢٥} Feridun Emecen , Osmanli Siyasi Tarihi , s. 45

ومنذ ذلك الحين ، أخذ الصفويون في الشرق ، والنمسا ثم روسيا في الغرب والشمال يحاولون بشكل مباشر أو غير مباشر وقف هذا الزحف ، والقضاء على ذلك المفهوم حتى نجحوا في ذلك على مدى القرن ١٧م/١١هـ ، في الفترة ما بين عقد معاهدة " زسيتوا توروك " عام ١٦٠٦م/١٠١٥هـ ، وعقد معاهدة " كارلوفيجه " عام ١٦٩٩م/١١١١هـ ، وخلال القرن ١٨م/١٢هـ حتى معاهدة كوجك قاينارجه (١٧٧٤م/١١٨٨هـ) ؛ فكان ذلك بمثابة الخيار لأحد عناصر قوة الدولة الأصلية التي ظهرت ثم نمت بنموها .

أ - الجبهة الغربية :

لقد ظهرت إمارة آل عثمان كواحدة من الإمارات التركمانية التي استوطنت منطقة الحدود الغربية للدولة السلجوقية ، استطاع أميرها عثمان غازي (ت. ١٣٢٤م/٧٢٤هـ) أن يجذب الغزاة في هذه المنطقة الحدودية تحت لوائه ، ويقودها في حركة دائبة لا تنقطع من الغزو والجهاد ؛ فاتسع نفوذه تدريجياً في المنطقة إثر فتحه " قره جه حصار " (١٢٨٨م/٦٨٧هـ) ثم " بروصة " (١٣٢٦م/٧٢٦هـ) ، " وازنيق/ نيقية " (١٣٣١م/٧٣١هـ) ، واستطاع أورخان غازي (١١٣٢٤-١٣٦٢م/٧٢٤-٧٦٣هـ) نقل فتوحاته إلى الطرف الأوروبي ، فسقطت غاليبولى في يده (١٣٥٤م/٧٥٥هـ) ، ثم أدرنه وتراقيا الشرقية (١٣٦١م/٧٦٢هـ)^{٣٢٦} . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ التحدث في أوروبا عن الخطر العثماني .

ولما توالى الفتوحات العثمانية في أوروبا ، وسقطت ممالك البلغار (١٣٨٦م/٧٨٨هـ) ، والصرب (١٣٨٩م/٧٩١هـ) ، وانكشفت القسطنطينية ، وحوصرت عدة مرات حتى فتحت (١٤٥٣م/٨٥٧هـ) ، فانساح العثمانيون في أوروبا ووصلوا إلى أبواب فيينا (١٥٢٩م/٩٣٥هـ) ، حيث راحت حصون شرق

^{٣٢٦} خليل اينالجت ، ص ٤٦-٤٧ ، ٥٠-٥٣

ووسط أوروبا تتساقط ، وسيطرت الأساطيل العثمانية على حوض البحر المتوسط^{٣٢٧} ، بدأت أوروبا تفكر في كيفية مواجهة هذا الخطر الإسلامي ، ووقف زحفه نحو أوروبا .

وهكذا ، سعت الدول الأوروبية للتحالف فيما بينها لشن هجوم شامل على العثمانيين لتحرير مسيحي أوروبا من الحكم الإسلامي ، وطرد العثمانيين من أوروبا . غير ان هذه التحالفات لم تستطع النيل من العثمانيين إلا عند لبانتو (إينه باختي) عام ١٥٧١م/٩٧٩هـ^{٣٢٨} . والحقيقة ، انه إذا كانت القوة الدافعة العثمانية قد استطاعت دحر هذه التحالفات حتى نهاية القرن ١٦م/ ١٠هـ ، إلا أن هذا التحدي الخارجي المتمثل في التنسيق بين الدول الأوروبية لجعل الدولة العثمانية في حالة حرب مستمرة ، استطاع أن يشكل على مدى أكثر من ثلاثة قرون متتالية من الزمان ، السبب الخارجي الرئيسي لانهايار الدولة العثمانية .

ج - الجبهة الشرقية :

لقد استطاع العثمانيون بسط نفوذهم على إمارات الأناضول الواحدة تلو الأخرى، فتمكن بايزيد الأول حتى عام ١٣٩٨م/٨٠٠هـ من ضم إمارات وسط وشرق الأناضول ، حيث استطاع محمد الفاتح بعد ذلك القضاء على هذه الإمارات تماماً وضمها ضمّاً مباشراً للأملاك العثمانية ، بعد إيقاعه الهزيمة بحاكم آق قويونلي اوزون حسن في عام ١٤٧٣م/ ٨٧٨ هـ . عندئذ ، راح العثمانيون يصطدمون بالدولة الصفوية التي قامت على المذهب الشيعي (١٥٠١م/٩٠٧هـ) ، وحاولت توظيف القبائل التركمانية في المنطقة لنشر مذهبها في شرق الأناضول ، وبسط نفوذها السياسي على المنطقة^{٣٢٩} ، فكان ذلك سبباً لظهور تحدياً خارجياً آخر للدولة

^{٣٢٧} خليل اينالچق ، ص ٦١ ، ٨٠ .

^{٣٢٨} شكيب ارسلان ، " مائة مشروع لتقسيم تركيا " ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ٢٣٢ ؛ كولز ،

العثمانيون في اوروبا ، ص ١٠٩ ، ١٥٦ .

^{٣٢٩} Uzuncarsili, Osmanli Tarihi , II. s. 257 vd.

العثمانية ، كان له الفضل الأكبر في نجاح المخططات الأوروبية ضدها ؛ فلم يتردد هذا التحدي في التنسيق مع أعداء الدولة لاستنزاف القوة العثمانية حتى أواسط القرن ١٨م / ١٢هـ ، فكان ذلك من أهم المعاول التي فتت في المقاومة العثمانية لما كانت تواجهه في الداخل وفي الخارج .

مما سبق يتضح لنا أن هناك العديد من عوامل الضعف والانهيار التي احتلت مكانها في نظم ومؤسسات الدولة الداخلية والخارجية منذ نشأتها ، وإن هذه العوامل ظلت راقدة بلا حراك طوال الفترة التي كانت القيادة العثمانية تحافظ فيها على سلامة دعائمها الأساسية من الخلل ، وأنها راحت تنتفض وتسرى فيها الحيوية مع كل معون يضرب في تلك الدعائم، حتى أعلنت عن نفسها في شكل حالة من الاضمحلال العام في كل أنحاء الدولة .

* * *

لقد قامت الدولة العثمانية على عقيدة ذات حضارة راسخة ، فامتدت بها امتداداً عظيماً ، فوصلت إلى أبواب فيينا غرباً ، وإيران شرقاً ، وجنوب روسيا شمالاً ، وبلاد الحبش جنوباً ، وضمت شعوباً مختلفة الأعراق متبينة اللغات والأديان . ولذلك ، لم يكن إهتبار هذا الكيان العظيم انهياراً مفاجئاً ، ولم تكن محاولة تفكيك أجزائه وفصلها عن القلب أمراً يسيراً ، بل راحت عوامل المقاومة تفعل فعلها في مواجهة عناصر الانهيار في هذا البناء الضخم لمدة تربو على ثلاثة قرون متتالية (أواخر القرن ١٦م / ١٠هـ - أوائل القرن ٢٠م / ١٤هـ) . ولما بدأت عناصر قوة الدولة ، والعوامل الأساسية التي قامت عليها تضعف منذ الربع الأخير من القرن ١٦م / ١٠هـ ، بحيث كان ضعف كل عنصر يمثل حالة انهيار جزئية في مقاومة الدولة ، هوت هذه المقاومة أمام معاول الهدم حتى باستسلام الدولة لعوامل الانهيار منذ الربع الأخير من القرن ١٨م / ١٢هـ .

ومهما يكن من أمر ، فقد اختلف الباحثون حول بداية انهيار الدولة العثمانية والنهاية الفعلية لها اختلافهم حول نقاط التحول الداخلية والخارجية التي كان لها الدور الأكبر في تحديد مراحل هذا الانهيار . غير أن المؤرخين القدماء والمحدثين اتفقوا على أن عصر سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٤هـ) قد شهد البوادر الأولى لعوامل الضعف والانهيار ، وأن هذه العوامل لازالت تتوالد في الداخل حتى انتشرت أثارها في مختلف مؤسسات الدولة وتشكيلاتها ، ثم راحت تنعكس بالتدريج على كافة إنجازاتها وعلى مدى قدرتها على مواجهة التحديات حتى انهارت دفاعاتها في الخارج إثر توقيع معاهدة كارلوفيجه عام ١٦٩٩م/١١١١هـ .

والحقيقة أنه خلال هذه الفترة ، بدأت تبلور العوامل الداخلية والخارجية لانهيار الدولة العثمانية ، حيث كانت التداعيات التي ظهرت في المراحل التالية من تاريخ هذا الانهيار تعتبر نتائج مباشرة أو غير مباشرة لهذه العوامل . ولذلك ، فإن الباحث سوف يحاول تتبع عوامل وأسباب اضمحلال الدولة خلال هذه الفترة تتبعاً تاريخياً موضحاً كيف أن هذه الأسباب الداخلية وتلك العوامل الخارجية كانت متداخلة ، تتوالد ويتشعب بعضها من بعض حتى أنها لم تدع عنصراً سليماً من عناصر الدولة إلاً واحترقته ، الأمر الذي أدّى إلى سقوط مقاومتها في الداخل وفي الخارج ، ومن ثم سقوط كيانها السياسي في النهاية .

عوامل اضمحلال الدولة العثمانية

(١٥٥٣-١٦٩٩م/٩٦٠-١١١١هـ)

لقد امتزجت في بداية هذه الفترة الملامح الأولى لضعف الدولة العثمانية بمظاهر القوة التي كانت تمثلها خلال القرن ١٦م/١٠هـ . وإذا كان عصر السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م/٩٢٦-٩٧٤هـ) قد مثل عصر قوة الدولة وازدهارها ، فقد أعتبر في نفس الوقت البداية الحقيقية لرحلة الدولة الطويلة نحو السقوط والانهيار . فقد بدأ السلطان نفسه في ضرب المعول الأول في حائط الدولة المنيع . ففي الوقت الذي كان فيه القانون حريصاً على وضع القوانين المنظمة لشئون الدولة ، صدر منه أول تجاوز لهذه القوانين ، وذلك بتعيينه أغا باب السعادة إبراهيم أغا وزيراً أعظماً ، مما أدى إلى تمرد الوزير الثاني أحمد باشا وعصيانه في مصر عام ١٥٢٣م/٩٢٩هـ . وفي النصف الثاني من عهد القانوني ، راح يخضع لرغبات زوجته خرم سلطان (روكسلانة) التي كانت تسعى لأن يتولى أحد أبنائها عرش السلطنة بدلاً من أكبر أبناء السلطان ولي العهد الأمير مصطفى . وفي هذا السبيل ، بذرت بذور الخلاف بين السلطان والصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان يؤيد الأمير مصطفى ، مما أدى لعزله وتعيين رستم باشا بدلاً منه ، ثم تزويج الأخير إحدى بناتها . وهكذا استطاعت بمساعدة الوزير الأعظم الجديد رستم باشا إيهام السلطان سليمان بان الأمير مصطفى يسعى للاستقلال وتنحيته ، وتولية السلطنة بدلاً منه^{٣٣٠} . وبذلك ، تمت المؤامرة وُغرّر بالسلطان ، فأمر بقتل أفضل أبنائه على الإطلاق وأقدرهم على تحمل المسؤوليات العالمية للدولة عام ١٥٥٣م/٩٦٠هـ . وهكذا ، وضعت روكسلانة البذور الأولى لمفاسد وفتن السراي العثماني ، ومن ثم تدخل نساء ورجال السراي في شئون الدولة ، ولبداية تولية سلسلة طويلة من السلاطين الضعاف .

لم تنته هذه المرحلة حتى كانت هذه العوامل قد عمّت أثارها في مختلف مؤسسات الدولة وتشكيلاتها ، وراحت تنعكس بالتدريج على إنجازاتها الخارجية. فخلال الحرب العثمانية النمساوية (١٥٩٣-١٦٠٦م/١١٠١-١٠١٥هـ) التي استمرت أربعة عشر عاماً، كشف عن ضعف قدرات الدولة العسكرية ، وعدم جدوى جيش سباهية التيمار ، وضرورة زيادة أعداد الجنود المسلحين بالبنادق^{٣٣١} ، مما أدى إلى ضعف جيش السباهية ، وفساد جيش المركز ؛ فكانت لذلك كله آثاراً عميقة على النظم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة خلال النصف الأول من القرن ١٧م / ١١هـ . وبذلك ، وضعت معاهدة زسيتواتوروك / Zitvatorok (١٦٠٦م / ١٠١٥هـ) النهاية لفكرة السيادة العالمية التي انطلق على أساسها العثمانيون في فتوحاتهم وفي تعاملاتهم مع الأمم الأخرى ، واهتزت في الداخل وفي الخارج فكرة الدولة الأبدية^{٣٣٢} .

وإذا كان السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م/١٠٢٧-١٠٣١هـ) قد أدرك هذا الأثر الخارجي لحالة الخلل التي أصيبت بها أجهزة الدولة ، فخرج على رأس الجيش ، ورأى بعينه الحالة المتردية التي وصل إليها ، وشعر بضرورة تطوير قدرات الجيش العثماني ، إلا انه لم يجد من بين رجال الدولة من يعينه على تحقيق هذا الإصلاح ، فذهب ضحية لمحاولته هذه^{٣٣٣} . وعلى الرغم من تمكن السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م/١٠٣٢-١٠٥٠هـ) من إجراء العديد من الإصلاحات في نظم الدولة ، ومنها الجيش^{٣٣٤} ، ثم تمكن أسرة الصدر العظام " كوبريلي " من إعطاء دفعة جديدة للدولة من خلال بسط نفوذها على مقاليد الأمور مرة أخرى^{٣٣٥} ،

^{٣٣١} خليل اينالجي ، ص ٩٣-٩٤ F. Emecen , s. 44-45

^{٣٣٢} F. Emecen , s. 45 .

^{٣٣٣} Osmanli Tarihi , III. 133, 137 , 141

^{٣٣٤} Osmanli Tarihi , III. / 186 vd

^{٣٣٥} Osmanli Tarihi , III/367 , 370 , 373 , 394 , 401

إلا أن هذه الإصلاحات لم تتطرق إلى أسباب الخلل الحقيقية ، وراحت تعالج مظاهر الداء فقط ، وارتبطت بأشخاص منفذوها ، فلم تتعد عصورهم ، حيث كانت الأوضاع بعدهم تعود إلى أسوأ مما كانت عليه من قبل .

وأخيراً ، كان إخفاق حصار فيينا الثاني عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ ، ونجاح الحلف الصليبي في الإيقاع بالعثمانيين في عدة مواقع أخرى في زانتا عام ١٦٩٧م/١١٠٨هـ ، ومن ثم توقيع معاهدة كارلوفيج عام ١٦٩٩م/١١١١هـ بين الدولة العثمانية والأطراف الأوروبية المحاربة لها ، وفقدان الدولة لجزء عظيم من أراضيها في أوروبا^{٣٣٦} ، من أهم النتائج الخارجية لحالة التردّي التي كانت تتقدم باطراد في مختلف أنحاء الدولة ومؤسساتها في الداخل وفي الخارج والتي كانت بمثابة أسباب خارجية جديدة لمرحلة انهيار جديدة تمر بها الدولة العثمانية .

أولاً - عوامل الانهيار الداخلية :

لقد كان الترابط بين العناصر الأساسية لحالة الخلل الداخلي التي كانت تمر بها الدولة ، هي السّمة التي تميزت بها هذه المرحلة ، فكان كل عنصر يؤثر تأثيراً سلبياً في العنصر الآخر ، الأمر الذي أحدث خللاً تاماً في نظام الدولة الهرمي المتشابك لا يمكن إصلاح عنصر منه في غياب بقية العناصر الأخرى . والحقيقة أن حالة الخلل هذه ، كانت تتمثل في ضعف السلاطين أصحاب الحكم المركزي المطلق ، وعدم ظهور صدور عظام يمكنهم أن يملأوا فراغ السلطة هذا ، ومن ثم يضعوا الخطط الجادة للإصلاح . وهكذا ، راحت عوامل الخلل تتفشى في كافة مؤسسات الدولة دون أن تجد من يمكنه أن يوقف تقدمها نحو الهاوية . وكانت أهم هذه الأسباب :

أ - ضعف سلطة السلاطين العثمانيين : لقد أصاب المؤرخون العثمانيون عندما وضعوا على رأس عوامل ضعف الدولة ، ضعف سلطة السلاطين . فلما كان السلطان العثماني ، هو مدار الدولة ، والعمود الفقري للنظام الإداري والعسكري ،

^{٣٣٦} 44- 54 s. , " Osmanli Siyasi Tarihi " , F. Emecen ,

وصاحب كافة السلطات فيها^{٣٣٧} ، كان أي ضعف يصيبه أو يصيب سلطته ، يمثل ضعفاً للدولة بكل مؤسساتها ، وللسلطة التي تسيّر دفة الحكم فيها ، فيكون ذلك سبباً في عدم التقيد بقوانين الدولة ، وبقرمانات السلطان ، فيضعف نفوذه على مؤسسات الدولة ، وتفكك سلطاته ، فتتنازعها مراكز القوى التي كانت تجد ، عندئذ ، مجالاً رحباً للظهور في السراي العثماني [أمهات السلاطين وزوجاتهم ، وأغوات دار السعادة وغيرهم] وفي أجهزة الدولة الإدارية والعسكرية [الوزراء والأمراء ، والقوى المحلية ، وجنود القابو قولي وبالخاصة فرق الانكشارية] بمركز الدولة والولايات ، الأمر الذي أدى إلى حالة من الخلل العامة في الدولة^{٣٣٨} .

وإذا كان المؤرخون قد أقرّوا بأن سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤م/٩٧٣ - ٩٨٢هـ) كان فاتحة السلاطين الضعاف ، نظراً لأنه أوّل من سنّ عدم خروج السلاطين على رأس الجيوش في الحملات ، وأوّل من لم يرع شئون الدولة عن قرب ، وأوّل من انزوى في القصور غارقاً في نزواته مفتتناً بالنساء خاضعاً لرغباتهن^{٣٣٩} ، إلّا أنّ هذا السلطان ترك شئون الدولة للوزير الأعظم صقوللي محمد باشا ، فساس هذا الوزير أمورها بحكمة ، وحافظ على مكانتها الخارجية باقتدار طوال فترة حكمه . أمّا مراد الثالث (١٥٧٣ - ١٥٩٥م/٩٨٢ - ١٠٠٣هـ) الذي أضاف إلى ما استحدثه والده من عادات سيئة بضعف إرادته الشديد ، وعدم احاطته بما يدور حوله ، خضوعه لمن كان حوله من نساء ورجال القصر ؛ فجمع في يده جميع السلطات التي راحت تعبت بها أمه وزوجته وأغا دار السعادة^{٣٤٠} . وازداد الوضع سوءاً في عصر السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣م/١٠٠٣ - ١٠١٢هـ) الذي

Ahmed Akgunduz , Osmanli Kanunnameleri , I/ 205 -207 ^{٣٣٧}

Uzuncarsili , Saray Teskilati , s. 156 - 158 , 175 ; Osmanli ^{٣٣٨}

Tarihi , III./119 -122

Osmanli Tarihi , III. / 40 -42 ^{٣٣٩}

Osmanli Tarihi , III. / 42 -44 ^{٣٤٠}

اعتبر آخر السلاطين الذين تولوا إمارة سنجق خلال فترة ولايتهم للعهد تدريباً لهم على الحكم والقيادة^{٣٤١} ، الأمر الذي أضعف الأمل في ظهور سلاطين على مقدرة عسكرية أو كفاءة سياسية في الدولة فيما بعد .

فلما تولى احمد الأول العرش (١٦٠٣-١٦١٧م/١٠١٢-١٠٢٦هـ) ، ولم يتعد سنه أربعة عشر عاما ، ثم أعقبه مصطفى الأولى (١٦١٧-١٦١٨م/١٠٢٦-١٠٢٧هـ) وكان معتوها ، ثم عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢م/١٠٢٧-١٠٣١هـ) وكان صغير السن عديم الخبرة ، ومراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م/١٠٣١-١٠٥٠هـ) ولم يكن مدركا لما حوله حتى عام ١٦٣٣م/١٠٤٠هـ ، استمر فراغ السلطة ، وازداد الصراع على كسب النفوذ بين رجال ونساء السراي العثماني . فلما توفي مراد الرابع ، تردت أوضاع الدولة أكثر، حيث تولى بعده إبراهيم (١٦٤٠-١٦٤٨م/١٠٥٠-١٠٥٨هـ) ثم محمد الرابع الذي كان لا يزال في السابعة من عمره (١٦٤٨-١٦٨٧م/١٠٥٨-١٠٩٨هـ)^{٣٤٢} . وقد استمرت حالة التفكك في سلطة السلاطين العثمانيين حتى تولية كوبريللي محمد باشا الصدارة العظمى عام ١٦٥٦م/١٠٦٦هـ ، وذلك بعد أن اشترط استعادة السلطات المطلقة للسلطان . وهكذا ، استعاد كافة السلطات في يده مرة أخرى ، ثم في يد أسرته من بعده حتى انتهاء هذه المرحلة بإخفاق فيينا عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ ، وما تبعه من أحداث مأساوية انتهت بتوقيع معاهدة كارلوفيجه عام ١٦٩٩م/١١١١هـ .

ب - عدم كفاءة الصدور العظام : لقد أطلقت الدولة عليهم ألقاب عديدة أوضحت مكانتهم العظيمة في بنائها . فالصدر الأعظم هو الوزير الأول في الدولة ، صاحب الخاتم السلطاني ، والوكيل المطلق للسلطان ، بل هو " نظام

^{٣٤١} Saray Teskilati , s. 119 – 121

^{٣٤٢} Osmanli Tarihi , III./ 116 , 127 , 223 , 137

العالم^{٣٤٣} . فقد كان سلاطين الدولة الأوائل يعرفون سمات الرجال العظام ، فيعينونهم في هذا المنصب ، حتى صاروا دعامة قوية في تحقيق إنجازاتهم في الداخل وفي الخارج^{٣٤٤} . وقد استطاع بعض هؤلاء الصدور ملئ الفراغ السياسي الذي تركه ضعف السلاطين ، حيث تمكن صقوللي محمد باشا من ممارسة سلطاته الكاملة في الدولة ، فلم تظهر عوامل الانهيار الداخلي إلا بعد عزله عام ١٥٧٩م / ٩٨٧هـ . وبعد صقوللي ، لم تجد الدولة رجل على نفس الطراز والمقدرة والكفاءة ؛ ففي ظل عزوف السلطان مراد الثالث عن النظر في شئون الدولة ، وتولية صدور عديمي الخبرة والكفاءة ، ازدادت تدخلات نساء ورجال السراي وندماء السلطان حتى أطلق بعض المؤرخين على الدولة في هذه الفترة اسم "سلطنة النساء والندماء"^{٣٤٥} .

وكان من أهم نتائج ضعف الصدور ، أن تناوب على هذا المنصب تسعة عشر وزيرا خلال ثمانية عشر عاما فقط (١٥٨٠-١٥٩٨م / ٩٨٨-١٠٠٧هـ) ، مما أدى إلى عدم استقرار الإدارة في الدولة ، وانتقال مقاليد الحكم لنساء السراي وأغوات باب السعادة والمقرين من السلطان ، وأخذ التعيين في وظائف الدولة الهامة لا يخضع للكفاءة والمقدرة ، والتسلسل الوظيفي بحسب القوانين والأعراف التي كانت جارية من قبل ، وإنما راح يتم بطريق الالتماس والحماية والرشوة التي كانت تدفع للوالدة سلطان وللوزير الأعظم ، ولمن لهم تأثير على السلطان^{٣٤٦} . وقد ساعد على نمو نفوذ السراي ، وتدخلاته في شئون الدولة، انغلاق السلاطين على أنفسهم وعدم احاطتهم بالأوضاع الداخلية والخارجية في الدولة . ولما كان الوزراء عديمي

Akgunduz , Osmanli Kanunnameleri , I. / 211-121 ^{٣٤٣}

V. Ronke , XVI. XVII. asirda Osmanli ve Ispanya Kiralligi , ^{٣٤٤}

s. 148 - 149

Osmanli Tarihi , III./ 43 , 118 . ^{٣٤٥}

Osmanli Tarihi , III. / 118 - 119 ^{٣٤٦}

الخبرة أو الكفاءة ، كانت توجه إليهم من أصحاب النفوذ الأوامر التي لم يكونوا يملكون أمامها سوى الخضوع .

وهكذا ، سحبت إدارة شئون الدولة من يد هؤلاء الوزراء ، فلم تعد للفرمانات التي كانت تصدر بمعرفتهم عن الديوان الهمايوني نفس الأهمية القديمة ، بعد أن صار أصحاب النفوذ يستصдرون خطوطاً همايونية بما يريدون من السلطان نفسه^{٣٤٧} ؛ فكانت ضربة عظيمة لمنصب الصدارة العظمى الذي كان الدعامة الثانية بعد السلطان لنظام الدولة الداخلي ، وكانت لها آثاراً بعيدة على ولايات الدولة في الداخل ، وعلى جبهات القتال في الخارج .

والحقيقة ، أنه لم يستطع أحد من الوزراء استعادة نفوذه ، ومن ثم استعادة سيطرته ، كوكيل مطلق للسلطان ، على مقاليد الإدارة والحكم وقيادة الجيوش حتى تولية آل كوبرلي الصدارة العظمى (١٦٥٦م / ١٠٦٦هـ) . فقد حملت هذه الأسرة على عاتقها مهمة الإحياء الأخيرة للدولة العثمانية ، واستعادة السلطات من مراكز القوى ، والقضاء على العصاة ، وإصلاح الحالة المالية ، ثم الانطلاق إلى وسط أوروبا مرة أخرى ، في صحوة ما قبل الهزيمة والانهيار الكامل . على أن هذه الحيوية ، لم تستطع القضاء على أصل الداء الذي كان كامناً في السراى العثماني ، وقابعاً في جنبات الروح المعنوية لرجالات الدولة وجندها . ومنذ ذلك الحين ، بدأ البناء العثماني في الانهيار من الداخل ، حيث راحت تتردد بين جنباته أصدااء الضربات من الخارج .

ج - تدهور التشكيلات العسكرية : لقد احتل التهاون في تطبيق قوانين التشكيلات العسكرية في الدولة المقدمة من الأسباب التي أدت إلى ضعف هذه التشكيلات . والحقيقة أن امتناع سليم الثاني عن توزيع هبة الجلوس على جنده ، وعدم خروجه على رأسهم في الحملات أفقده هيئته أمام جند القاپو قولي . على أن

التدهور الحقيقي في هذا التشكيل بدأ في عهد مراد الثالث ، إثر تهاون الدولة في تطبيق " قانون الديوشيرمه " ، وتسرب الغرباء إلى صفوف جند المركز بطرق عديدة ، وبدون تعليم أو تدريب ، تحت اسم " قول قارداشي " ، وذلك للاستفادة من امتيازات جند الإنكشارية . ولما احتاجت الدولة أعداداً إضافية من جند المشاة في حروبها مع النمسا (١٥٩٣-١٦٠٦م / ١٠٠١-١٠١٥هـ) ، سعت الدولة لزيادة جند الانكشارية ، وذلك بإلحاق العديد من القرويين بالفرقة تحت اسم " سكيان " نظراً لتعذر توفير جند من خلال نظام " الديوشيرمة " . فكان لزيادة هؤلاء الجند زيادة كبيرة خلال مطلع القرن ١٧م / ١١هـ ، أثر عظيم في زيادة أعباء الخزينة العامة للدولة ، وعجزها عن أداء مرتبات الجند ، ومن ثم ظهور حركات عصيان متكررة سواء في مركز الدولة أو في ولاياتها^{٣٤٨} .

وإذا كانت الحاجة إلى زيادة أعداد جند المشاة المسلح بالبنادق في الحروب قد أثرت تأثيراً سلبياً على جدوى جيش سپاهية التيمار الذي كان يعد القوة الضاربة في الجيش العثماني ، إلا أن تأثر نظام التيمار بحالة الخلل التي كانت تعاني منها أجهزة الدولة وبفساد الأوضاع الإدارية في المركز كان أشد . فقد بدأت مقاطعات التيمار والزعامة والخاص توجه لغير المستحقين لها بطريق الرشوة والمحسوبية ، وبحسب " نظام الالتزام " ، مما أدى إلى اختلال " نظام التيمار " منذ عهد مراد الثالث ، وانتشار آثار ذلك السلبية على الحالة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة خلال القرن ١٧م / ١١هـ^{٣٤٩} .

ولما كانت القوة العسكرية في الدولة هي العنصر الأساسي في قيامها ، وأول ما انعكست عليه آثار الخلل الداخلي وفي ساحات القتال ، فقد فكر بعض السلاطين إصلاح هذه المؤسسة كالسلطان عثمان الثاني الذي دفع حياته ثمناً لذلك ثم السلطان

^{٣٤٨} Uzuncarsili , Kapukulu Ocaklari , I./ 477 vdd.

^{٣٤٩} Mehmed Ipsirli , " Osmanli Devleti Teskilati " , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , s. 241 vd

مراد الرابع بعد ذلك ؛ كما سعى لذلك أيضا الصدور العظام من أسرة كوبريللى .
إلا أن هذه المحاولات الإصلاحية ، لم تكن جذرية تتعدى التدابير العنيفة والإجراءات
الزجرية ؛ ولذلك ، راحت هذه القوة العسكرية تسير بخطى سريعة نحو الانهيار .

د - الخلل الاقتصادى والمالى : لقد كان تحول الكثير من أراضي
الدولة إلى نظام الالتزام ، ثم تحولها بعد عام ١٥٩٠م / ٩٩٨هـ إلى أملاك خاصة
تحت اسم "مالكانه" لمن بأيديهم هذه الالتزامات ، من أهم نتائج احتلال " نظام
التيمار " ، حيث أدى ذلك إلى إحداث الخلل بالحالة الاقتصادية للدولة ، وزيادة
نفوذ الأعيان في الولايات . ولما تضاعفت أعداد الجنود من ذوى المرتبات ،
ومطالبتهم بالحصول على امتيازات الانكشارية المالية ، ازدادت أعباء الخزينة
المثقلة^{٣٥٠} .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان لإغراق الأسواق العثمانية بالفضة التى جلبت
من العالم الجديد في التسعينات من القرن السادس عشر (١٥٨٠م / ٩٨٨هـ) أثر
عظيم في الارتفاع المفاجئ للأسعار ، ومن ثم في معاناة فئات رجال الدولة من
أصحاب الدخول الثابتة ، وفي مقدمتهم جند القابو قولى (الباب السلطان) من
ضغوط اقتصادية ومالية كبيرة^{٣٥١} . ويمكننا ربط حركات العصيان التى راح جنود
القابو قولى يقومون بها والتجاوزات التى أقدم عليها جند سپاهية التيمار وأصحاب
الوظائف الأخرى في الولايات وحتى القضاة ، وسعيهم لجمع وتحصيل رسوم
وعائدات مخالفة للقانون من الرعايا ، وهجرة هؤلاء من قراهم وتركهم الأرض
خرابا ، ربطها بهذه الأزمة المالية التى واجهت الدولة ، وتسببت في فقدان العسا
العثمانية لقيمتها وفي إلحاق العجز بميزانية الدولة ، ومن ثم زيادة الضرائب الدورية
وتحصيل ضرائب " العوارض " الاستثنائية من الأهالي بشكل سنوي دائم . وهكذا ،
أدى هذا الخلل الاقتصادي والمالى في الدولة إلى اضطراب عام في الأوضاع الأمنية

^{٣٥٠} . B. Yediyildiz , " Osmanli Toplumu " , a.g.e. , s. 502 .

^{٣٥١} خليل اينالچق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٩٣ - ٩٦ .

والاجتماعية في الدولة منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ ، وعلى مدى القرن ١٧م/١١هـ .

هـ - حركات العصيان : لم تر الدولة العثمانية حركات

عصيان من قبل على النحو الذي شهدته منذ أواخر القرن ١٦م/١٠هـ ، وخلال القرن ١٧م/١١هـ ، حيث كانت أسباب هذه الحركات تنحصر من قبل في مطالبة الجند بالهبات والعطايا ، أو التذمر لسوء الأحوال في الجبهات . ولكن تلك الحركات التي ظهرت خلال هذه الفترة استندت على عوامل الخلل التي راحت تعاني منها الدولة من ضعف سلطة السلطان ، وعدم خبرة نائبه المطلق ، ومن ثم عصيان أوامرهما ، وسيطرة نساء ورجال القصر على مقدرات البلاد ، وإدارة شئون العباد بحسب المصالح الشخصية ، وانتشار الترف وسوء الخلق بين رجال الدولة ، مما نشر الشعور بعدم الرضاء بين الجند وأصحاب الحرف في مركز الدولة ، وحتى بين الولاة أنفسهم في الولايات^{٣٥٢} .

وقد كان الانهيار الاقتصادي الذي نتج عن الأزمة المالية في الدولة ، وفقدان قيمة العملة الذي أدى إلى آثار اجتماعية في أنحاء البلاد ، وتسريح جند " السكبان " بعد انتهاء الحروب ، وزيادة نفوذ جند المركز وبخاصة الإنكشارية ، واهتزاز نظام التيمار ، وتحويل أراضيهم إلى التزامات ، وفرار القرويين نظراً لثقل الضرائب الواقعة عليهم ، واستعمال وظائف الدولة لجمع الثروات ، واستيلاء قواد الفرق العسكرية على الوظائف المحلولة ، وبيعها لغير المؤهلين بطريقة المزايدة ، واختراق الفساد للمؤسسة العلمية ، وتعيين القضاة في المناصب ببذل الرشاوى، مما كان سبباً في ضياع الحقوق بين الناس ، وتعذر إيجاد من ترفع إليه الشكاوى فينصف المظلوم و يقيم العدل ، كل هذه العوامل المتداخلة ، كانت أسباباً مباشرة لتفجر حالات العصيان العسكري والمدني في مركز الدولة وفي أنحاء البلاد ، وبخاصة في الأناضول .

ففي ظل فراغ السلطة في استانبول ، راح رجال الدولة يستخدمون جند القابو قولى ويثيرونهم كوسيلة ضغط على بعضهم البعض في صراعاتهم لنيل الوظائف الهامة ، الأمر الذي أدى إلى بذور بذور الشقاق بين عنصرى الجيش العثماني في المركز ، "الانكشارية" و"السوارى"^{٣٥٣} . وقد وصلت تجاوزات هؤلاء إلى حد تمكنهم من قتل السلطان عثمان الثانى (١٦٢٢م/١٠٣١هـ) الذي حاول إصلاح مؤسستهم ، حيث انتقلت مقاليد الأمور في البلاد إليهم منذ ذلك الحين ، وصاروا من أهم مراكز القوى التي يحسب حسابها في مركز الدولة . وقد استمرت حركات العصيان حتى استطاع كوبرلى محمد باشا (١٦٥٦-١٦٧٩م/١٠٦٦-١٠٩٠هـ) إخمادها في مركز الدولة واستعادة سلطة الدولة المسلوقة .

ومهما يكن من أمر ، فقد وقعت خلال القرن ١٧م/١١هـ فقط ، نحو ثلاثة عشر حركة عصيان كبرى في الدولة ، اشتركت فيها الفرق العسكرية ، وأرباب الحرف ، ورجال الدول ونساء السراي ، فكانت بحق مظهراً جلياً لحالة الاضمحلال التي كانت تتعرض لها الدولة في مؤسساتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية والقضائية . وإذا كانت الحركات التي قامت في أعوام ١٦٥١م/١٠٦١هـ، و١٦٥٦م/١٠٦٦هـ، ١٦٨٨م/١٠٩٩هـ تحمل أسباباً اقتصادية ، فإن الحركات العشرة الأخرى كانت نتيجة التحريض والصراع على السلطة والنفوذ في الدولة ، حيث راح ضحيتها بعد السلطان عثمان ، السلطان إبراهيم أيضاً ، وبعض الوزراء العظام ووالدات السلاطين^{٣٥٤} .

و - ضعف تماسك أرجاء الدولة : لَمَّا كانت ولايات الدولة جزءاً لا يتجزأ من كيانها السياسي ، فقد أثرت عوامل ضعف سلطة السلطان ، والتهاون في تطبيق القوانين ، وسيطرة رجال ونساء القصر واضطراب أوضاع الجيش وخلل

^{٣٥٣} عصمت بارماقسزاوغلى ، " الدولة العثمانية خلال القرن ١٧ " ، دراسات في التاريخ العثماني ،

ترجمة وتقديم وتعليق سيد محمد السيد ، ص ١٣٩ - ١٤٢ ؛ F. Emecen , s. 46 - 47 .

^{٣٥٤} " الدولة العثمانية في القرن ١٧ " ، ص ١٤١ - ١٤٥ .

الحالة الاقتصادية والمالية ، تأثيراً سلبياً بشكل مباشر على مدى تماسك العلاقة بين مركز الدولة وولاياتها . فقد بدأ يتولى خلال هذه الفترة ، الولايات ولاية تعوزهم الكفاءة والمقدرة ، وحسن سياسة الأمور ، فانعكس ذلك على مدى نجاحهم في إدارة البلاد ، وبدء ظهور القوى المحلية التي راحت في ظل ضعف هؤلاء الولاة تسيطر على مقاليد البلاد ، وتسلب من ممثل السلطان سلطاته تدريجياً ، وتوجيه الأحداث بما يخدم مصالحها ، ويرسخ أقدامها^{٣٥٥} .

وإذا كانت هذه القوى المحلية لم تسع ، في محاولتها لاستعادة نفوذها وسلطتها في البلاد ، للخروج على سلطة الدولة ، خلال هذه المرحلة ، إلا أننا نلاحظ أن الولايات الأوروبية للدولة كان هدفها الأساسي الخروج على الحكم الإسلامي للدولة العثمانية ، الأمر الذي جعل هذه الولايات ذات الأغلبية المسيحية [اليونان ، المجر ، الافلاق والبغدان ، صربيا وبلغاريا] تتحين فرصة هذه الاضطرابات في مركز الدولة ، وبدأت تتصل بالباباوية ، والدول الأوروبية المحاربة للدولة ، وتتلقى منهم الدعم والمادي والمعنوي في خروجهم على الإدارة العثمانية في حركات عصيان مستمرة^{٣٥٦} ، الأمر الذي زاد من ضعف تماسك هذه العلاقة بين الدولة العثمانية وتلك الولايات بصفة خاصة ، ومهد لها السبيل للمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية .

وهكذا ، يمكننا أن نقرر أن عوامل الانهيار الداخلية ، كانت البداية الحقيقية لتاريخ انهيار الدولة العثمانية الطويل ، وأن محاولات الإصلاح لمؤسسات الدولة تلك التي أصابها الخلل ، خلال هذه المرحلة ، والتي استمرت حتى أواخر القرن ١٧م/ ١١هـ واستهدفت إصلاح نظم الدولة العسكرية والمالية في المقام الأول على نفس الأصول القديمة التي وضعها محمد الفاتح ، وسليم الأول ، وسليمان القانوني ، وتمت

^{٣٥٥} محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤) ، القاهرة د.ت. ، ص ١٥٢

وما بعدها .

^{٣٥٦} " الدولة العثمانية خلال القرن ١٧ " ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، ١٣٣ - ١٣٥ .

على يد مراد الرابع وصدور عظام آل كوبريللى ، استطاعت أن تُمَد في مرحلة الانهيار هذه لأكثر من قرن من الزمان ، وإن العوامل الخارجية التي كان لها تأثير على حالة الانهيار في الدولة ، لم تؤت ثمارها إلاّ بعد أن شبّ الخلل في أنحاء الدولة ، وتصدّع بنائها على نحو ما رأيناه بالفعل .

ثانيا - محامل الانهيار الخارجية :

لقد كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية ، قامت على هدف إستراتيجي هو الغزو والجهاد . وكانت مؤسستها العسكرية ، هي دعامة قوتها ، حيث مثلت مؤسساتها الأخرى ، الجبهة الداخلية التي تقف وراء قوتها العسكرية ، ولذلك ارتبط نموها وازدهارها بمدى ما كان يحققه هذا الجيش من إنجازات على الصعيد الخارجي للدولة .

زهكذا ، كانت الإنجازات الخارجية للدولة ، أثر من آثار القوة العسكرية العثمانية. فمن خلالها ، استطاع العثمانيون الانتقال بإمارتهم الصغيرة إلى مصاف الدول العظمى ؛ فاتسعت شرقاً وغرباً معتنقة فلسفة الدولة العالمية ، ووجهت السياسة العالمية حتى أواخر القرن ١٧م/١١هـ . وقد حافظ السلاطين العثمانيين الأوائل على هذه المكانة الخارجية للدولة . فكما حرص القانوني حتى نهاية حياته (١٥٦٦م/٩٧٤هـ) على ترسيخ مكانة الدولة العالمية في الخارج ، استطاع صقوللي محمد باشا بخيرته العسكرية ، وحنكته السياسية المحافظة على هذه المكانة طوال فترة حكم سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م/٩٧٤-٩٨٢هـ) ، ومن ثم لم تنعكس مظاهر الخلل الداخلي على الدولة في إنجازاتها الخارجية إلا في عهد مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥م/٩٨٢-١٠٠٣هـ) . فكانت لعوامل الاضطراب التي طرأت على كافة مؤسسات الدولة ، ومنها المؤسسة العسكرية ، أعظم الأثر على بدء فقدان فلسفة الغزو والجهاد لتأثيرها لدى العثمانيين ، واهتزاز فلسفة الدولة العالمية في الداخل والخارج .

ومن ناحية أخرى ، إذا كانت الدعوات الصليبية لمواجهة الزحف العثماني في أوروبا ، بدأت تستيقظ مرة أخرى إثر هزيمة الأسطول العثماني في لباتو (ابنه باختي) عام ١٥٧١م/٩٧٩هـ ، إلا أن هذه الدعوات لطرد العثمانيين من أوروبا المسيحية ، راحت تزداد كثافتها ، بعد أن بدأت عوامل الخلل الداخلية في الدولة تتكشف آثارها في ساحات القتال وعلى موائد المفاوضات ، وإثر إخفاق الدولة في إصلاح مؤسساتها ، ووقف حالة التردّي فيها ، فضلاً عن تطوير نظامها القديم الذي كان سبباً في قوتها وازدهارها .

وكانت عناصر القوة الأوروبية التي راحت تتراكم على مدى القرنين ١٦-١٧م/١٠-١١هـ ، ومن خلال الاكتشافات البحرية ، والتوسع التجاري ، والتطور العلمي والتكنولوجي في الزراعة والصناعة ، وإعادة بناء النظم الاقتصادية ، قد بدأت تؤتي أوكّلها عقب حرب الثلاثين عاما بين الدول الأوروبية (١٦١٨-١٦٤٨م/١٠٢٧-١٠٥٨هـ) التي انتهت بعقد مؤتمر " وستفاليا " عام ١٦٤٨م/١٠٥٨هـ ، مما زاد أركان التحالف الأوروبي تماسكاً^{٣٥٧} . وبذلك ، تمخض الوفاق الأوروبي عن نجاح التنسيق بين هذه الدول لمواجهة الدولة العثمانية ، ومحاولة طردها من أوروبا ؛ وتجسد هذا الوفاق فيما عرف باسم " التحالف المقدس " الذي جمع بين الأعداء من الدول الأوروبية ضد العثمانيين إثر هزيمتهم أمام فيينا عام ١٦٨٣م/١٠٩٤هـ^{٣٥٨} .

والحقيقة ، أن هذه المرحلة قد تمخضت عن نقطتي تحول ، انتهى كل منها بعقد معاهدة بين الطرف الأوروبي والعثماني ، تنازل فيه الثاني للأول ، في المرة الأولى (زسيتوا توروك ١٦٠٦م/١٠١٥هـ) عن عنصر من عناصر تفوقه السياسي ، وفي المرة الثانية (كارلوفيجه ١٦٩٩م/١١١١هـ) عن الشريط الحدودي الذي

^{٣٥٧} نادية محمود مصطفى ، " العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٧٩

- ٨٠ ، ١٠٢ .

^{٣٥٨} Uzuncarsili , Osmanli Tarihi , III. / 460 vd

كان يفصل بين الطرفين (بلاد البحر ، ومملكة اردل ، وبولونيا ، ومقاطعة اوكرانيا) ، حيث انتقلت المواجهات بعد ذلك إلى عقر دار الدولة العثمانية .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان القرن ١٧م/١١هـ عصر التحولات الحضارية العالمية بحق ، حيث أثبتت الأحداث أن الدعوات الأوروبية لحشد القوى العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية ، وتوجيهها من خلال تحالف صليبي متماسك للقضاء على الحكم الإسلامي في أوروبا ، ومن ثم على جزء عظيم من كيان الدولة العثمانية فيها ، كانت أقوى تأثيراً في المتغيرات العالمية من محاولات الإصلاح السطحية وغير الجذرية للمؤسسات العثمانية على نفس الأسس التي قامت عليها ، والسعي لإحياء روح الغزو والجهاد من جديد^{٣٥٩} .

والحقيقة أن عوامل انهيار الدولة العثمانية الخارجية قد ارتبطت ارتباطاً مباشراً بمدى نجاح التحديات الخارجية في تقوية جبهتها الداخلية ، وانعكاس ذلك على مواجهتها مع الدولة العثمانية ؛ ومدى تأثير ذلك في النيل من مقوماتها الأساسية ، وتحطيم دفاعاتها الداخلية والخارجية ، ومحاولة فصل أطرافها أو إضعاف روابطها مع المركز .

لقد واجهت الدولة العثمانية تحدياً خارجياً أساسياً ، تمثل في أوروبا المسيحية ، وكان وراء معظم عوامل الانهيار الخارجية التي واجهتها الدولة العثمانية منذ القرن ١٧م/١١هـ ، وتحدياً خارجياً ثانوياً ، تمثل في الدولة الصفوية الشيعية ، وكان دعامة هامة للتحدي الأول بإستزافه القوى العثمانية في حروب لا طائل ورائها .

١ - التحدي الأوروبي :

لقد قام هذا التحدي على مقومات ثلاثة هي :

^{٣٥٩} " العصر العثماني الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٨٠ .

أ - العداء القديم بين الإسلام الذي تمثله الدولة العثمانية ،
والمسيحية التي تمثلها أوروبا ، واعتبار الصراع بين الطرفين جولة ، هي امتداد لما
مضى من جولات .

ب - الرغبة العارمة في استعادة المناطق التي فتحها المسلمون
عموماً ، والعثمانيون خصوصاً ، وعلى رأسها " بيت المقدس " ، ومركز الكنيسة
الشرقية في القسطنطينية .

ج - الحرص على تخليص المسيحيين في أنحاء العالم ، وبالأخص في
أرجاء الدولة العثمانية من الحكم الإسلامي ، والسعي لتحويل المسلمين إلى أكثرية
مستضعفة .

لقد أدرك الغرب أنه لا يمكنه تحقيق هذه الأهداف الاستراتيجية بعيدة
المدى، طالما كان هناك تشكيل سياسي للدولة الإسلامية ، يحميه جيش يعتنق فلسفة
الغزو والجهاد . ولذلك ، سعى هذا التحدي الأوروبي لتماسك العالم المسيحي ،
واتخاذ الأسباب المادية والمعنوية لحيازة القوة والتفوق ؛ وسعى من ناحية أخرى
لمحاولة تفريق العالم الإسلامي وتفكيكه ، واتخاذ الأسباب المادية والمعنوية الموجبة
لإضعافه والهيمنة عليه^{٣٦٠} . وفي سبيل ذلك ، راح هذا التحدي يتلمس السبل للنيل
من كيان الدولة العثمانية وتفكيكه بالتدريج ، ثم إذاخته جزءاً جزءاً ، وذلك من
خلال عوامل ثلاثة ، كان كل منها نتيجة مباشرة للأخرى، وتفرعت عنها عوامل
ثانوية عديدة ، أخذت تفتت مقاومة الدولة العثمانية الداخلية والخارجية بالتدريج
حتى انهيارها .

^{٣٦٠} شكيب ارسلان ، " مائة مشروع لتقسيم تركيا " ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ - ٢٥٨ -

العامل الأول - التحولات التقنية والمالية والاقتصادية الأوروبية :

بينما كانت الدولة العثمانية تعيش فترة محاض عميقة الأثر واسعة الامتداد ، منذ أواخر القرن ١٦م / ١٠هـ - وخلال القرن ١٧م / ١٠هـ ، راحت نتائج اليقظة الأوروبية تتراكم وتتمحض عن تحدٍ عظيم يهدد وجود الدولة العثمانية العالمي . فقد تزامن انتشار روح الابتكار في العديد من الأفطار الأوروبية مع الرغبة في توظيف ما نتج عن هذه الابتكارات من ثورة صناعية لمواجهة العالم الإسلامي ، ومحاولة الالتفاف حوله عبر البحار الشرقية^{٣٦١} . وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا مواجهة أولى تلك المحاولات التي تتمثل في سعى البرتغاليين لقطع طريق التجارة الشرقية خلال النصف الأول من القرن ١٦م / ١٠هـ ، إلا أنه على أثر سيطرة الهولاندين والإنجليز على المحيط الهندي بعد عام ١٥٩٠م / ٩٨٨هـ ، وقطعهم لطريق تجارة الهند تماماً عن منطقة الشرق الإسلامي ، بدأت تجارة البهار تأتي إلى الأراضي العثمانية عن طريق أوروبا^{٣٦٢} ؛ فكان لهذا التطور أثر عظيم في تعرض الخزينة العامة للدولة لضربة قوية في دخلها من الجمارك التي كانت تفرضها على هذه التجارة عند مرورها عبر الأراضي والمواني العثمانية . وقد أدى ذلك إلى انحصار نشاط التجار المسلمين داخل العالم الإسلامي ، واحتلال رعايا الدولة من غير المسلمين مقام الصدارة في حركة التجارة الخارجية .

ولما تمكن الإنجليز من فتح طريق تجاري جديد عبر روسيا شمالاً ، منذ أواسط القرن ١٦م / ١٠هـ ، وعلى اثر اتخاذ الشركة الروسية - الإنجليزية من موسكو مركزاً تجارياً للأقمشة الصوفية ، والحديد والسلاح المتوجه نحو الغرب ،

^{٣٦١} كولز ، العثمانيون في أوروبا ، ص ١١٢ - ١١٣ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

^{٣٦٢} خليل ايناللق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٩٦ - ٩٧ ؛ فاروق عثمان اباطة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح على مصر .. ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

حيث استطاعت موسكو حينئذ إحكام السيطرة على تجارة الفرو العالمية ، ضعف المركز الإستراتيجي لتجارة الدولة العثمانية شمالي البحر الأسود أيضا^{٣٦٣} .

وفي ذلك الحين ، راحت الآثار السلبية للاكتشافات الأوروبية في أمريكا تنعكس على الدولة العثمانية منذ العقدین الأخيرين من القرن ١٦م/١٠هـ ، في شكل إغراق الأسواق العثمانية بالفضة الأمريكية التي جلبها التجار الأوروبيون من العالم الجديد ، الأمر الذي أحلّ بميزان العرض والطلب في الأسواق العثمانية . فكان هؤلاء التجار يقومون بشراء المواد الخام والمصنعة من الأهالي والمنتجين بأسعار تفوق ما يدفعه التجار والحرفيون المحليون، مما جعل هذه الطاقة الشرائية الجديدة ، سبباً في زعزعة الاقتصاد العثماني وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الخام في الأسواق العثمانية ، الأمر الذي كان له آثار بعيدة المدى أيضا على معاناة أرباب الحرف والصنائع في الدولة والقضاء على العديد من الصناعات^{٣٦٤} .

والحقيقة ، أن هذه التحولات التقنية والاقتصادية والمالية الغربية ، قد استفادت كثيرا من الوضع المتميز الذي احتله رعايا الدولة من غير المسلمين ، ومن المعاهدات التي كانت تعطي للتجار الأجانب حقوقا تجارية متميزة في طول الأراضي العثمانية وعرضها ، حيث راحت هذه الامتيازات تتطور سريعا بفعل هذه المتغيرات ، وأخذت منذ أواخر القرن ١٧م/١١هـ تسلب من الدولة نفوذها على حركتها الاقتصادية الداخلية ، فضلا عن الخارجية منها^{٣٦٥} .

^{٣٦٣} خليل اينالچق ، العثمانيون في عصر النشأة والازدهار ، ص ٩٨ .

^{٣٦٤} B. Yediyidiz , “ Osmanli Toplumu “ , s. 499 - 500 ; Mubahat Kutukoglu , “ Osmanli Iktisadi Yapisi “ , Osmanli Devleti Tarihi ve Medeniyeti , s. 573 - 577 .

^{٣٦٥} Mehmed Ipsirli , “ Osmanli Devlet Teskilati “ , s. 205 - 206 .

Osmanli Tarihi , III. 2 Kisim, s. 116 -117

العامل الثاني - تتابع المواجهات العسكرية :

إذا كانت الخلافات المذهبية والانقسامات السياسية قد مثلت السبب المباشر لفشل التحالفات التي عقدت بين الدول الأوروبية خلال القرنين ١٥-١٦م / ٩-١٠هـ ، فقد كان تأجيج روح الجهاد لدى العثمانيين في فتوحاتهم صوب أوروبا ، هو العامل الحاسم في إلحاق الهزائم المتتالية بهذه التحالفات . فمنذ انتقال العثمانيين للطرف الأوروبي ، لم تتوقف الباباوية في روما عن دعوة دول وشعوب أوروبا لنبذ الخلافات والتحالف لطرد العثمانيين ، وفي نفس الوقت ، لم يتوان العثمانيون عن توسيع نطاق حملاتهم في الغرب^{٣٦٦} .

والواقع أنّ هذا الصراع العثماني - الأوروبي الذي استمر لعدة قرون من الزمان ، كان صراع مصير ، لم يتخل عنه طرف من الطرفين في أحلك الظروف^{٣٦٧} . غير أن تراكم عوامل القوة الاقتصادية والعسكرية الأوروبية ، منذ أواخر القرن ١٦م / ١٠هـ وعلى مدى القرن ١٧م / ١١هـ ، وتوالد عوامل الخلل في مختلف مؤسسات الدولة العثمانية خلال نفس الفترة تقريباً ، كان له آثاره المدمرة على الكيان العثماني برمته خلال العقدين الأخيرين من القرن ١٧م / ١١هـ .

لقد اعتبرت دولة الهابسبورج نفسها الدرع الواقى لجميع المسيحيين في أوروبا ، حيث راحت تستقطب الكثير من المتطوعين البروتستانت والكاثوليك في مواجهاتها ضد الدولة العثمانية . وإذا كانت هذه التحالفات المسيحية قد أوقعت ضربة شديدة بالعثمانيين عام ١٥٧١م / ٩٧٩هـ في لبانتو (ابنه باحتي) ، حيث تحطم لأول مرة حاجز الرهبة من الجيش العثماني ، إلا أنها لم تلق نجاحاً يذكر في بلاد البحر حتى العقدين الأخيرين من القرن ١٧م / ١١هـ . وعلى الرغم من أن الحرب العثمانية - النمساوية (١٥٩٣-١٦٠٦م / ١٠٠٠-١٠١٥هـ) لم تحدث

^{٣٦٦} شكيب ارسلان ، مائة مشروع لتقسيم تركيا ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

^{٣٦٧} Paul Wittek, Osmanli Imparatolugunun Kurulusu , s. 8 - 9

أي تغيير يذكر في خط الحدود بين الطرفين ، إلا أنّ حركة إحياء الغزو والجهاد التي قادها الوزير الأعظم أحمد باشا كوبريللي نحو أوروبا ، وفرضه على أثرها سيادة الدولة على أردل عام ١٦٦٤م/ ١٠٧٥هـ ، وعلى كريت عام ١٦٦٩م/ ١٠٨٠هـ ، وعلى القازاق عام ١٦٧٨م/ ١٠٨٩هـ وعلى بولندا وأوكرانيا عام ١٦٨١م/ ١٠٩٢هـ ، كانت سببا في عودة موجة الرعب من العثمانيين في أوروبا مرة أخرى^{٣٦٨} .

وقد زاد من حشد هذا الشعور العدائي الأوروبي ، توجه الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا في حملة صوب المجر مرة أخرى ، ودخولها عام ١٦٨٢م/ ١٠٩٣هـ ؛ فأعلن الهابسبورج أن هذه الحرب موجهة ضد العالم المسيحي الغربي ، وسعوا لجمع المساعدات من الدول الأوروبية . وعلى الرغم من أنّ العثمانيين استطاعوا الزحف حتى أبواب فيينا ، ومحاصرتها عام ١٦٨٣م/ ١٠٩٤هـ ، إلا أنّ هزيمتهم أمامها ، ثم انسحابهم السريع وغير المنظم ، شجع أوروبا لعقد حلف مسيحي ضم كل من النمسا وبولندا والبندقية عام ١٦٨٤م/ ١٠٩٥هـ ، ثم انضمت إليه روسيا عام ١٦٨٦م/ ١٠٩٧هـ ؛ وبذلك اجبروا العثمانيين على الحرب في أوروبا فوق جبهات متعددة^{٣٦٩} .

وهكذا ، بدأ انهيار الحكم العثماني في أوروبا ، فتخلت الدولة عن بودين أي بودابست (١٦٨٦م/ ١٠٩٧هـ) ، والموره (١٦٨٧م/ ١٠٩٨هـ) ، وبلاد المجر حتى بلغراد. وخلال هذه الحرب راحت روسيا تمثل معول هدم ثنائي مع النمسا للكيان العثماني في أوروبا ، وذلك باحتلالها ميناء " آزاق " على البحر الأسود . وأخيرا أعلنت هزيمة الجيش العثماني عند " زانتا " عام ١٦٩٧م/ ١١٠٩هـ ، النهاية للطموحات العثمانية في حكم أوروبا^{٣٧٠} ؛ حيث كشف هذا التراجع الكبير للجيش

^{٣٦٨} . F. Emecen , s. 45-46 , 54 - 55 .

^{٣٦٩} " الدولة العثمانية في القرن ١٧ " ، ١٢٧ - ١٢٨ .

^{٣٧٠} . F. Emecen , s. 55 - 56 .

العثمانية على طول الجبهات الأوروبية شمالاً وغرباً وجنوباً ، عن إخفاق محاولات آل كوبريللي لبث الحيوية في مؤسسات الدولة ، وروح الجهاد في جيشها مرة أخرى ، ومن ثم إيذاناً ببدء انهيار الجبهة الغربية ، وسقوط خطط دفاعها الأول ، فضلاً عن توقف الفتوحات العثمانية في أوروبا نهائياً. فكان هذا العامل السليبي أثراً عميقة على الأوضاع الداخلية للدولة العثمانية ، كان أهمها :

١ - الانهيار المعنوي للمؤسسة العسكرية العثمانية التي حُمِلت نتيجة هذا الإخفاق، الأمر الذي أدى من ناحية إلى الشعور بالعجز التام أمام الجيوش الأوروبية فيما بعد ، ومن ناحية أخرى إلى التدمير وإحداث الاضطرابات في مركز الدولة لآتفه الأسباب .

٢ - بدء موجات الهجرة العكسية للمسلمين من الأراضي المفقودة إلى مختلف ولايات الدولة الأوروبية ، مما أدى إلى أزمات اجتماعية واقتصادية حادة.

٣ - ازدياد الأعباء المالية على خزينة الدولة ، لمواجهة النقص في مواردها من الأراضي المفقودة .

٤ - تشجيع الشعوب الأوروبية التابعة للدولة ، وبخاصة غير المسلمين منهم ، على الخروج على الإدارة العثمانية ، ورفع راية العصيان .

٥ - تشجيع الجبهة الشرقية على الاستفادة من ضعف الحالة العسكرية للجيش العثماني ، من ثم من حالة عدم التوازن التي كانت تمر بها الدولة خلال هذه الفترة .

العامل الثالث - المعاهدات السياسية :

لقد ارتبطت المعاهدات السياسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية سلباً وإيجاباً ارتباطاً وثيقاً بالنتائج العسكرية التي كان يحققها كل طرف . فنتيجة لامتداد الفتوحات العثمانية الواسعة في أوروبا لعدة قرون متتالية ، ترسّخت بين الطرفين أعرافاً دبلوماسية فرضت على الطرف الأوروبي - وكان الطرف الأضعف آنذاك -

مبدأ التبعية للطرف العثماني . وقد استمر هذا الوضع قائماً حتى توقيع معاهدة زسيتوا توروك (١٦٠٦/١١١٥هـ) التي أعقبت حرباً بين الطرفين دامت أربعة عشر عاماً . فقد أقرت المادة الأولى من هذه المعاهدة التي تضمنت سبعة عشر مادة ، إلغاء الجزية التي كان قد فرضها سليمان القانوني على النمسا في معاهدة ١٥٣٣م/٩٤٠هـ اعترافاً من العثمانيين بتنازلهم عن المطالبة بأراضي المجر الموجودة تحت الإدارة النمساوية ، وأنهت المادة الخامسة فعالية حقيقة التفوق العثماني ، وذلك برعاية حق المساواة بين السلطان العثماني وإمبراطور النمسا دبلوماسياً ، ووضعت المادة السابعة الأساس لتدخل عناصر خارجية في أي خلاف يقع بين الدولة العثمانية وأي من الدول الأوروبية^{٣٧١} .

وتعتبر معاهدة كارلوفيجه نقطة تحول في السياسة العثمانية بحق ، حيث تحولت الدولة العثمانية أمام التكتلات الأوروبية إلى دولة مهزومة ، وشعرت بالحاجة الماسة لتعويض ما فقدته في جبهات القتال على مائدة المفاوضات ، ولكن ، هل نجحت في ذلك ؟ فقد عقدت هذه المعاهدة بين الطرف العثماني من ناحية والحلف الأوروبي (النمسا ، وبولندا ، والبندقية ، وروسيا) من ناحية أخرى ، إثر هزيمة زاتنا عام ١٦٩٧م/١١٠٩هـ، حيث راحت الدول الأوروبية تتعامل مع الدولة العثمانية كدولة مهزومة . ولذلك ، أخذت مواد هذه المعاهدة توطد أقدام الحلفاء فيما استولوا عليه من أراضي في أوروبا ؛ فاعترف العثمانيون بموجبها بسيادة النمسا على المجر عدا ولاية "طمشوار" ، وأصبحت "بلغراد" منطقة فاصلة بين الدولتين ، وتنازلت عن "المورة" و"دالماتيا" للبنادقة ، وعن "قمانيجة" و"بودوليا" لبولندا ، وعن "آزاق" لروسيا التي وطأت أقدامها بذلك البحر الأسود لأول مرة^{٣٧٢} .

^{٣٧١} " العثمانيون الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٧٨ ؛ 96 / III. Osmanli Tarihi

^{٣٧٢} " العثمانيون الى بداية المسألة الشرقية " ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ 91 - III. Osmanli Tarihi

فكانت هذه هي الخطوة الأولى في الانسحاب العثماني من أوروبا ، ومن ثم في عملية تفكيك أوصال الدولة العثمانية التي استمر لأكثر من قرنين ونصف من الزمان .

والحقيقة أن بحث بنود المعاهدة في مؤتمر أروبي ضم الدولة العثمانية كطرف مهزوم إلى جانب التحالف المسيحي ، وبوساطة إنجلترا وهولندا ، إشارة إلى بدء التنسيق الدبلوماسي بين الدول الأوروبية لتحقيق أكبر مكاسب ممكنة على مائدة المفاوضات ، كما كان ارتضاء الدولة العثمانية وساطة أوروبية على هذا النحو ، بداية لقبولها التدخلات الأوروبية في علاقاتها الدبلوماسية ، الأمر الذي كانت له آثار بعيدة المدى خلال القرنين ١٨-١٩م / ١٢-١٣هـ على توجه الدولة السياسي في الداخل والخارج .

٣ - التوجه الصفوي :

لقد قام هذا التحدي على دعائم أساسية يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أ - العداء الشديد لأهل السنة ، ومحاولة إضعاف دولتهم .

ب - الحيلولة دون توحيد العالم الإسلامي السني في الشرق وفي الغرب .

ج - الادعاء بالأحقية في حكم العراق وشرق الأناضول ، ومحاولة نشر المذهب الشيعي .

لم تتردد الدولة الصفوية ، منذ قيامها ، في الإعلان عن تلك المبادئ إعلاناً عملياً ، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية السنية المذهب تفتح جبهة قتال دائمة في الشرق ، كانت من أهم عوامل استنزاف قوتها حتى أواسط القرن ١٨م / ١٢هـ . وإذا كانت الدولة العثمانية ، في عصر الازدهار ، قد استطاعت أن تنال بعض المكاسب بفضل قياداتها الحكيمة ، إلا أن الدور الذي لعبته الدولة الصفوية في إعاقة الاتصال بين الشعوب الإسلامية السنية في وسط آسيا والهند وبين الدولة العثمانية ، وفي التنسيق بينها وبين الجبهة الأوروبية للنيل من العثمانيين وفرض حلولاً إجبارية عليهم ، قد مثل معول هدم ذا أثر فعال منذ أواخر القرن ١٦م / ١٠هـ وطوال

القرن ١٧م / ١١هـ . فكما كان الصفويون يوجهون تحركات التجمعات التركمانية الشيعية في شرق الأناضول ، ويثيرونها في الأوقات الحرجة ، لم يتأخروا عن تأجيج نيران حركات عصيان الجلاي التي كان لها آثار مدمرة على هيكل الدولة الاجتماعي والاقتصادي والعسكري^{٣٧٣} .

وهكذا ، حاول الشاه عباس الأول الاستفادة من الأوضاع المضطربة في الدولة ، وبخاصة في منطقة الأناضول ، فراح يستولى على تبريز وروان وكنجه ودريند ونخجوان ؛ وسعى للتضييق على العثمانيين اقتصاديا محاولاً تحويل طريق الحرير إلى ميناء "بندرعباس" الذي أقامه على خليج البصرة ، والاستعانة بطريق موسكو ، حيث عقد الاتصالات مع الإنجليز لهذا الغرض . وقد وجه العثمانيون العديد الحملات العسكرية للتصدي لسياسة الشاه هذه ، غير أن المعاهدة التي عقدت بين الطرفين عام ١٦١٢م / ١٠٢٧هـ ، أسفرت عن الاعتراف للصفويين بالسيادة على تلك المناطق ، ثم أن الهزيمة التي تلقتها الجيوش العثمانية في الحرب التي اشتعلت مرة أخرى فيما بين ١٦١٥-١٦١٨م / ١٠٢٤-١٠٢٧هـ ، والاضطرابات التي وقعت في مركز السلطنة في استانبول ، قد شجعت الشاه على الاستيلاء ببغداد وشمال العراق عام ١٦٢٤م / ١٠٣٣هـ . وإذا كانت الحملات التي جردتها الدولة صوب الشرق لاستعادة بغداد ذات الأهمية الاقتصادية العظيمة للدولة أعوام ١٦٢٥م / ١٠٣٤هـ ، ١٦٢٩-١٦٣٠م / ١٠٣٩هـ ، لم تسفر عن نتيجة تذكر غير استنزاف القوى العثمانية بشكل متزايد ، فقد تمكن السلطان مراد الرابع من استعادتها عام ١٦٣٨م / ١٠٤٨هـ ، حيث عقدت بين الطرفين معاهدة " قصر شرين " (١٦٣٩م / ١٠٤٩هـ) التي رسمت الحدود بين الدولتين بشكل نهائي^{٣٧٤} .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد اضطرت أحيانا لإعادة فتح الجبهة الشرقية مرة أخرى لوقف تعديلات إيران على الأراضي العثمانية ، إلا أنها كانت تحاول

Osmanli Tarihi , III./229 -230 , 345 vd.^{٣٧٣}

F. Emecen , s. 47 - 48^{٣٧٤}

الاستفادة من حالة الاضطراب الداخلي في إيران خلال القرن ١٨م/١٢هـ لتعويض ما كانت تفقده من أراض على الجبهة الأوروبية وعلى موائد المفاوضات . غير أن هذه الحملات الشرقية للدولة لم ينتج عنها سوى استنزاف جديد للقوى العثمانية ، الأمر الذي يسر على التحالفات العسكرية ، والوساطات الدبلوماسية الأوروبية مهمتها في إضعاف وتفكيك الدولة العثمانية.

مما سبق يتضح لنا أنّ ضعف السلاطين العثمانيين ، وتعذر ظهور وكلاء لهم على مقدرة وكفاءة ، أدّى إلى تفكك السلطة المركزية ، والحكم المطلق للسلطان ونائبه ، حيث راحت تتنازعها مراكز القوى في السراي العثماني . والحقيقة أنّ المؤسسة العسكرية وتشكيلاتها المركزية والمحلية ، كانت أكثر مؤسسات وتشكيلات الدولة تأثراً بهذه الأوضاع المتردية ، مما كان له آثار عميقة ، نتج عنها ظهور حركات عصيان وتجاوزات ليس لها حدود في الداخل وهزائم عسكرية في الخارج . وكما كانت لعوامل الخلل هذه آثارها المدمرة في مركز الدولة ، كان لها أيضاً انعكاسات خطيرة على تماسك أرجائها في الولايات.

ومما لا شك فيه ، أن التداعيات الخارجية لعوامل الخلل في الدولة العثمانية ، كانت أشد وطأة ، وأعظم أثراً على كيان الدولة منذ مطلع القرن ١٧م/١١هـ ، حيث تمكنت التكتلات المسيحية الأوروبية من الاستفادة من تفوقها التقني والعسكري والاقتصادي والدبلوماسي ، وراحت تحاصر الدولة العثمانية عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، وتفرض عليها إعادة التفكير في جدوى التمسك بنظمها ومؤسساتها بل وقيمها الأصيلة . وهكذا ، راحت الدولة العثمانية تتخلى عن مبدأ الغزو والجهاد ، وتلتزم بمبدأ المسالمة ، والتعلق بأهداف الدبلوماسية الأوروبية ، وتراجع عن اعتقادها بعلمية الدولة ، وسيادتها على الممالك الأوروبية ، ومن ثم اهتزت ثقتها بما يمكن أن يحققه إصلاح المؤسسات والنظم العثمانية القديمة من حيوية للدولة حتى تستطيع مواجهة التفوق الأوروبي المتزايد .

فإذا كانت عوامل الخلل في الدولة العثمانية قد ظهرت لأول مرة في مؤسساتها الداخلية ، حيث انعكست آثارها على إنجازاتها الخارجية ، فإنه على أثر استسلام الجبهة الداخلية للدولة ، انفسح الطريق للتحدي الأوروبي ، وانتقلت إليه توجيه مقدرات الدولة العثمانية خلال القرن ١٨م / ١٢هـ ، وأصبح مستقبل الدولة رهينة لطموحات الدول الأوروبية المتصارعة ، روسيا والنمسا في القسم الأوروبي ، وفرنسا وإنجلترا في الشرق الإسلامي . وقد عبر المستشرق الفرنسي بيستيل G. Pistel عن هذا التحول الإستراتيجي الذي أنهى مراحل الصراع الطويلة مع الدولة العثمانية في صالح الطرف الأوروبي بقوله :

" .. أن محاولة فهم الأوروبيون للنظم العثمانية ، برهن على المدى الطويل أنه خير ضمان لكفاءة أوروبا ، وخير دافع لها للثورة على العثمانيين والتغلب عليهم ، وإن مثل هذه الدراسات المتأنية برهنت على أنها أفضل لأوروبا من التعصب الأعمى ، حتى أن العثمانيين لم يحاولوا فهم أوروبا الغربية بنفس القدر الذي حاول فيه الأوروبيون فهم النظم العثمانية." ٣٧٥ .

* * *

كانت تلك هي أسباب انهيار الدولة العثمانية ، حيث بدأ التفاوض منذ ذلك الحين على تقسيم أملاكها بين الدول الأوروبية . إلا أن إدراك التحالف الأوروبي المسيحي لما كان يمكن أن يحدثه تقسيم الدولة العثمانية من أزمات قد تهدد الكيان الأوروبي نفسه لتضارب مصالحهم، جعله يتبنى سياسة هدم البناء العثماني من الداخل ، مع بقاء هيكله الخارجي . وقد اعتمدت أوروبا في تنفيذ هذه السياسة على عدة عناصر مرحلية ، بدأت بالضغوط العسكرية لتضييق أوصال الدولة العثمانية، والضغوط الدبلوماسية لترسيخ المكاسب العسكرية ، وفتح الأبواب للتمثيل الدبلوماسي الدائم ، وتوسيع محيط الامتيازات الأجنبية في أنحاء الدولة ، وللمسيطرة

٣٧٥ العثمانيون في أوروبا ، ص ١٦٠-١٦١

على الاقتصاد العثماني ، وفرض تبعيته لأوروبا ، وحماية رعايا الدولة من غير المسلمين ، وتشجيع السلاطين ورجال الدولة على إحداث التغييرات على النمط الأوروبي وبخاصة في النظم العسكرية .

والحقيقة أن هذه التغييرات أي ما عرف آنئذ باسم الإصلاحات ١٩ ، قد اتسعت حتى شملت كافة نظم الدولة الإدارية والمالية والاقتصادية والقضائية ، وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية . ولم يأت القرن ١٩م / ١٣هـ حتى كانت الدولة العثمانية قد سلمت قيادها تماما للدول الأوروبية التي راحت تُعرف منذ ذلك الوقت باسم " الدول الكبرى " ، وذلك بإعلان فرمان " التنظيمات " عام ١٨٣٩م ، ثم " الإصلاحات " عام ١٨٥٦م ، وأخيرا " المشروطة " أي الدستور والبرلمان عام ١٨٧٦م ثم عام ١٩٠٨م ، عن نهاية الدولة العثمانية، حيث لم يبق من كيائها القديم سوى اسمها " الدولة العلية العثمانية " .

أن القضية التي كانت تؤرق أوروبا لم تكن الخلاف حول تقسيم الدولة العثمانية ، ولكن الطريقة التي يمكن بها تقسيم أملاكها الشاسعة ومناطق نفوذها الممتدة ، والنتائج التي يمكن أن تتمخض عن هذا التقسيم . ولذلك ، لم تختلف دول أوروبا حول ضرورة طرد العثمانيين من أوروبا ، ومنح الاستقلال لولاياتها الأوروبية : زائما قامت بتنفيذ هذا الهدف بشكل تدريجي منظم ، بالتنسيق فيما بينها . فلم ينقض القرن ١٩م / ١٣هـ ، حتى لم يبق للعثمانيين قوة تذكر في أوروبا . أما على صعيد ولايات الدولة العربية والإسلامية ، فقد راحت أوروبا المسيحية تتقاسمها فيما بينها ، وتقضى على أية محاولة يمكنها أن تحدث بعثا جديدا بأي شكل . والواقع أن الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م ، جاءت لترسيخ تقسيم العالم الإسلامي بين الدول الأوروبية ، تنفيذاً لإحدى مشروعات التقسيم القديمة ، ومن ثم إعلان الانتصار المسيحي الأوروبي على العالم الإسلامي . ولم يكن إعلان مصطفى كمال أتاتورك عن إلغاء السلطنة ١٩٢٢م ، ثم إلغاء الخلافة ١٩٢٤م ، سوى تأيين لدولة استمرت على فراش الاحتضار لأكثر من قرنين ونصف من الزمان .

المصادر والمراجع

أولا - العربية :

- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٣ .
- بول كولز ، العثمانيون في أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ القاهرة ١٩٩٣ .
- خليل اينالچق ، " العثمانيون في عصر النشأة والازدهار " ، دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة وتقديم وتعليق سيد محمد السيد ، القاهرة ١٩٩٦ .
- سيد محمد السيد ، " دستور العمل في النظام الإداري والمالي في ايمالة مصر خلال مطلع القرن ١٨م/١٢هـ " ، مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الفرات ، الازيف ، العدد الأول ٢٠٠٥ .
- شكيب ارسلان ، " التعصب الأوروبي لم التعصب الإسلامي ، ومائة مشروع لتقسيم تركيا " .
- حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض ، ج ٣ ، القاهرة ١٣٥٢ .
- عصمت بارماقسز اوغلو ، " الدولة العثمانية في القرن ١٧ " ، دراسات في التاريخ العثماني ، ترجمة سيد محمد السيد ، القاهرة ١٩٩٦ .
- فاروق عثمان اباطة ، أثر تحول التجارة العالمية الى رأس الرءاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن ١٦ ، دارالمعارف د.ت
- محمد أنيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط الحديث ١٥١٦-١٩١٤ القاهرة د.ت .
- _____ ، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤) ، القاهرة د.ت

ثانيا - التركية :

- Aka Ismail ، " X. yuzyildan XX.yuzyila kadar Milletlerarasi Siilik " (التشيع من القرن العاشرة إلى القرن العشرين) Tarihte ve Gunumuzde Siilik Sampozyumu (13-15 Subat 1993) Istanbul 1993
- Akgunduz Ahmed ، Osmanli Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri (القوانين العثمانية وتحليلاتها الشرعية) I. ، Istanbul 1990
- Babinger, Franz, Osmanli Tarih Yazarlari ve Eserleri (المؤرخون العثمانيون وآثارهم) ,cev. Coskun Uçok , Ankara 1982
- Emecen , Feridun , " Osmanli Siyasi Tarihi, Kurulustan Kucuk Kaynarcaya " (التاريخ السياسي العثمانية من مرحلة التأسيس حتى

- (معاهدة كجوك قينارجه) , Osmanli devleti ve Medeniyeti Tarihi , Editor Ekmeleddin Ihsanoglu , I. , Istanbul 1994
- Gokyay , Orhan Saik , “ Dusturu’l-amel “ , TDV. IA. , cilt X. _ Inalcik , Halil , “ Turkler (Osmanlilar)” , XII. /2
 - Ipsirli , Mehmed , “ Osmanli Devleti Teskilati” (تشكيلات الدولة) , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi (الدولة العثمانية وتاريخها الحضاري) , Istanbul 1994
 - Kutukoglu , Mubahat , “Lutfu Pasa Asafnamesi “ (آصاف) , Prof. Dr. Bekir Kutukoglu’na Armagan , Tarih Arastirma Merkezi, Istanbul 1991
 - _____ , “ Osmanli İktisadi Yapisi “ (البناء الاقتصادي) , Osmanli Devleti ve Medeniyeti Tarihi , Istanbul 1994
 - Ozcan , Abdulkadir , “ Osmanli Askeri Teskilati “ (التشكيلات العسكرية العثمانية) , a.g.e. , Istanbul 1994
 - Renke , Von Leapold , “ on altinci ve on yedinci asirda Osmanlilar ve Ispanya Kiralligi “ (العثمانيون ومملكة أسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) ,cev. Halid Ilteber, Bati Dillerde Osman’li Tarihleri (التواريخ العثمانية في اللغات الغربية) , Istanbul 1971
 - Selaniki , Mustafa , “ Tarih-i Selaniki “ (تاريخ سلانيكي) , nsr. M. Ipsirli , I.-II. , Istanbul 1989.
 - Ismail Hakki Uzuncarsili , Osmanli Tarihi (التاريخ العثماني) , I. 4.bas., Ankara 1982
 - _____ , Osmanli Tarihi (التاريخ العثماني) , II. 4. bas. , Ankark 1983
 - _____ , Osmanli Tarihi (التاريخ العثماني) , III./ bolum I. , 3.bas. , Ankara 1983
 - _____ , Osmanli Devletinin Saray Teskilati , 3. bas. Ank.1984

- _____ , Osmaanli Devleti Teskilatinden Kapukulu Ocaklari (اوجاقات القابوقولي من التشكيلات العثمانية) , I.,2.bas.,Ank.1984
- wittek Paul , “Osmanli Imparatorlugunun Kurulusu“ (تأسيس الإمبراطورية العثمانية) , cev. Guzin Yalter , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri , Istanbul 1971
- _____ , “ Ankara Bozgunundan Istanbul Fethine kadar “ (الدولة العثمانية من هزيمة أنقرة وحتى فتح استانبول) ,cev. Mualla Suerdem , Bati Dillerinde Osmanli Tarihleri, Istanbul 1971

الفصل الرابع

المظاهرة الحضارية للدولة العثمانية

خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار

المظاهر الحضارية للدولة العثمانية

خلال مرحلتَي التأسيس والإزدهار

(١٢٩٩-١٥٧٩م / ٦٩٩-٩٨٧هـ)

من المعروف أن المجتمع العثماني نشأ كبقية المجتمعات التركمانية التي سكنت الأناضول خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ، مجتمعاً قبلياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من ملامح . وقد تميز هذا المجتمع القبلي العثماني الذي سكن مناطق الحدود السلجوقية - البيزنطية من الأناضول ، تميز بما تميزت به مجتمعات غربي الأناضول الحدودية الأخرى من ثقافة الغزو والجهاد والحركات الصوفية التي شملت أغلب مناطق الأناضول خلال هذه الحقبة والأعراف التركمانية . وقد شهد هذا المجتمع العثماني في أقصى الحدود الشمالية الغربية من الأناضول تطوراً ملحوظاً خلال أواخر القرن ١٣م / ٧هـ ، بعد أن بدأ أفرادُه يسكنون المدن المفتوحة ويقيمون بؤر حضارية شكلت نواة لمجتمعات حضرية صغيرة غربي الأناضول . ومن ثم ، يعتبر فتح بورصة عام ١٣٢٦م / ٧٢٦هـ ، واتخاذ أورخان هذه المدينة الهامة عاصمة لإمارة آل عثمان ، ثم فتح العاصمة البيزنطية القديمة " نيقية " (إزنيق) عام ١٣٣٧م / ٧٣٧هـ ، مرحلة هامة من مراحل تحول المجتمع العثماني من مرحلة التنقل والترحال إلى مرحلة التحضر والإستقرار . والحقيقة أن هذا التحول كان تحولاً جزئياً للمجتمع العثماني ، ففي الوقت الذي كان فيه قسم من المجتمع العثماني دائم التنقل مع الفتوحات المستمرة للإمارة الناشئة ، كان قسم آخر يفضل الإستقرار سواء في المدن أو المناطق الخصبة المفتوحة حتى أن المؤرخين يؤكدون استمرار عمليات نقل وإسكان العشائر التركمانية في المناطق المفتوحة من شرقي أوروبا حتى أواسط القرن ١٦م / ١٠هـ .

ولما كانت الإمارات الحدودية التي نشأت غربي الأناضول تخضع خلال مراحل تطورها المختلفة لدولة السلاجقة الكبار ، ثم لسلاجقة الأناضول ، ثم للإلخانيين (مغول الأناضول) ، فقد انتقلت أغلب النظم والأعراف الإدارية والمالية والعسكرية والقضائية والاجتماعية لهذه الدول إلى تلك الإمارات الحدودية . وعلى الرغم من أن التراث التاريخي والحضاري والثقافي لهذه الإمارات الحدودية ومنها إمارة آل عثمان يؤكد الارتباط الأصيل بين نظم وقوانين وتشكيلات إمارة عثمان والإمارات التركمانية الأخرى بنظم وقوانين وتشكيلات الدول الإسلامية السابقة على هذه الإمارات والمعاصرة لها ، فإننا نصادف بعض المؤرخين الأوروبيين يروج للإدعاء بأن الكثير من نظم وتشكيلات الإمارة ثم الدولة العثمانية قام العثمانيون بنقله عن بيزنطة .

والحقيقة أن المؤرخين العثمانيين راحوا يردون على هذه الفرية في عدد من الدراسات الأكاديمية المؤتقة ، ويؤكدون بأن الدول الإسلامية المتعاقبة راحت تطوّر نظمها وتشكيلاتها وتنقلها عصر بعد عصر . فمثلاً تأثرت دولة السلاجقة الكبار بنظم العباسيين والقره خانيين والغزنويين ، تأثرت أيضاً بالمظاهر الحضارية في المناطق التي خضعت لهم في إيران وخوارزم وأذربيجان والعراق وإيران والشام ومصر والأناضول . وكما ورث المغول والمماليك أملاك الدولة العباسية والدولة السلجوقية ، استفادوا من نظم وتشكيلات العباسيين والسلاجقة وخوارزمشاه والأيوبيين والإلخان . وبناء على ذلك فإن العثمانيين الذين اعتنقوا الإسلام على المذهب السني الحنفي ، ورثوا أملاك سلاجقة الأناضول ، ثم راح إلخان المغول يسيطرون عليها بعد ذلك ، فتأثروا بالنظم والتشكيلات المختلفة لهؤلاء السلاجقة والإلخان في الأناضول وتأثرهم بنظم المماليك في مصر والشام وتشكيلاتهم³⁷⁶ .

³⁷⁶ تشير هذه الدراسات إلى أن تأثر العثمانيين بالدول الإسلامية السابقة عليها والمعاصرة لها والمشاركة معها في العقيدة ، أقرب منها إلى تأثرها لمثل هذه النظم والأعراف البيزنطية التي كانت موجودة في الأناضول ، وحتى إذا سلمنا حداً بأن الدولة العثمانية تأثرت ببعض نظم وأعراف السكان الروم في الأناضول ، فإن الثقافة الإسلامية التي حملها العثمانيون راحت تصبغ مثل هذه النظم والأعراف

يتضح لنا مما سبق أن العثمانيين تأثروا أحياناً ونقلوا أحياناً آخري العديد من نظمهم عن الدول الإسلامية السابقة عليهم والمعاصرة لهم ، وأن الأعراف التركمانية وثقافة الجهاد والمجتمع الصوفي ، كلها كشفت عن نفسها عند صياغة هذه النظم والتشكيلات ، وأن نظم وتشكيلات العثمانيين راحت تتطور وفقاً لمراحل تطور المجتمع العثماني من مجتمع قبلي إلى مجتمع شبه قبلي ومن تشكيل إمارة تحت قيادة الأمير الغازي ، إلى تشكيل دولة ومجتمع حضري تحت قيادة السلطان العثماني، وذلك حتى وصوله إلى شكل إمبراطورية مترامية الأطراف تحت قيادة شخصيات فذة من السلاطين والأمراء^{٣٧٧}.

أسرة آل عثمان :

أشرنا في الأبواب السابقة إلى أن أسرة آل عثمان تنتسب لعشيرة قايي من عشائر الأوغوز التي انتقلت خلال النصف الثاني من القرن ١٣م/٧هـ إلى أقصى شمال غرب الأناضول تحت ظروف قاسية ، وأن هذه الأسرة سكنت منطقتي سكود ودومانيح، حيث احتلت موقعها في المجتمع الحدودي بسرعة ، وراحت تباشر حركات الغزو والجهاد تحت قيادة أبناء جوبان . وعلى أثر انهيار دولة سلاجقة الأناضول ، وقيادة عثمان غازي لغزاة الحدود في منطقة امتدت من اسكيشهر وحتى بورصة ، وانتساب

بالصبغة الإسلامية وتوجه وفقاً لمبادئ الدين الإسلامي . وراح هؤلاء المؤرخون يسوقون أمثلة كثيرة حول تأثر النظم والقوانين والتشكيلات العثمانية بمثلتها في الدول الإسلامية السابقة عليها والمعاصرة لها ، كانتقال نظام التيمار من الغزنويين إلى السلاجقة ومنهم إلى العثمانيين ، وانتقال منصب قاضي عسكر من المماليك إلى العثمانيين ، وانتقال نظام المماليك كحرس السلطان الخاص من دولة المماليك إلى العثمانيين في شكل جند الباب السلطاني ، وغيرها: M.F.Köprülü, Bizans Müesseselerinin Osmanlı Müesseselerine Te'siri Hakkında bazı mülahazalar, THITM, sy.I, s.190; I.H.Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Teşkilâtına Medhal, Ankara 1941, IX-XIV, 1vd.

³⁷⁷ بخصوص علاقة الدين بالدولة لدى العثمانيين وأثر هذه العلاقة في تأسيس الكيان العثماني الأول ، أنظر : Kapatepe Şürü, " Osmanlı'da Din-Devlet İlişkisi", Osmanlı , Ankara 1999, I/56-66; Dursun Davut, "Osmanlı Devleti'nde Din-Devlet İlişkileri Üzerine Bazı Notlar", Osmanlı, VI/67-74

هذه الفتوحات للأمير الغازي عثمان ، راحت تسمى الإمارة من بعده باسم " إمارة عثمان " ، والأمراء الذين خلفوه في إدارتها باسم " أبناء عثمان " . وهكذا ، تعاقب أبناء عثمان في حكم المناطق التي فتحها عثمان غازي ورفاقه بعد أن أثبتوا جدارتهم في قيادة العشيرة من فتح إلى فتح ، حيث راحوا يسندون المناطق التي المفتوحة إلى أمراء العشيرة من رفاق الجهاد .

مشكلة المعتلاء العرش لدى العثمانيين : وكان الأمير الغازي ينتخب من

بين أفراد أسرة عثمان وبمعرفة رجال الإمارة وأمرائها من رفاق الجهاد أصحاب النفوذ . وإذا كان تعيين الأمير تك السلطان العثماني قد تم بهذه الطريقة حتى معركة أنقرة ١٤٠٢م / ٨٠٥هـ ، إلا أن صراع أبناء بايزيد علي الإنفراد بالعرش ، جعل هذه الطائفة من الأمراء أصحاب النفوذ في الدولة ينقسمون في تأييدهم لأبناء بايزيد . ولذلك استمر هذا الصراع لأكثر من أحد عشر عاماً حتى تمكن محمد جلبي من الإنفراد بالحكم وتوحيد جناحي الدولة عام ١٤١٣م / ٨١٧هـ . وعلي الرغم من أن الكثير من أفراد هذه الأسر صاحبة النفوذ في الدولة قضى عليهم خلال مرحلة الفتور هذه ، فقد استمرت بعضها وعلي رأسها أسرة جاندarli تمارس نفوذها في تعيين وعزل السلطان العثماني حتى بداية عهد محمد الفاتح (١٤٥١م / ٨٥٥هـ) . وهكذا ، بدأ السلطان العثماني منذ عهد محمد الفاتح يقبض علي مقاليد السلطة ، ويستبدل تلك أمراء تلك الأسرات صاحبة النفوذ في الدولة بخدمه الخاص ، فعين من خدم الباب العالي هؤلاء الولاة والوزراء وقواد الجيوش ورجال الدولة ، وقادهم في تحقيق مشروع الدولة العالمية .

والحقيقة أنه اعتباراً من عصر محمد الفاتح ، راح رجال الدولة وجند السلطان الخواص المعروفون باسم " يكيچري " يلعبون دوراً هاماً في ترشيح أحد أبناء السلطان العثماني للجلوس علي العرش . وذلك ، حتي تم اقرار قاعدة تعيين أكبر أبناء السلطان العثماني سناً خلفاً لوالده اعتباراً من سلطنة مراد الثالث (١٥٧٤ / ٩٨٢هـ) .

والحقيقة أنه لم يكن لدي أسرة آل عثمان قانون أو عرف معين لإعتلاء عرش السلطنة ، فلم نصادف تقليد ثابت أو قاعدة مطردة لتعيين الإبن الأكبر أو الأصغر

محل أبيه السلطان . ولما كان السلاطين العثمانيين يحرصون علي اعداد أبناءهم جميعاً لتولي أحدهم مهمة السلطنة مستقبلاً بتعيينهم علي بعض الإمارات الهامة لتدريبهم علي الحكم والإدارة وقيادة الجيوش ، وكان مفهوم وراثه العرش عندهم يعطي هذا الحق بشكل متساو لكل أبناء الحاكم بلا استثناء ، وأن تمكن أحدهم للجلوس علي العرش أمر بيد الله تعالي ، وأنه إذا تمكن أحد أبناء الحاكم الجلوس علي العرش أولاً يكون قد اكتسب الصفة الشرعية للاعتراف به وأن أخوته المنافسين له يكونوا عندئذ خارجون علي السائطة الشرعية للدولة ويحق له قتلهم .

وهكذا ، كانت مسألة الصراع علي العرش لدي العثمانيين التي شهدناها خلال مرحلتي تأسيس الدولة وازدهارها ، كانت نتيجة مباشرة لهذا المفهوم . وهذا، ما دعى السلطان محمد الفاتح لإقرار مبدأ قتال من تيسرت له السلطنة من أبناء السلطان لأخوته لخدم الفتنة في البلاد ، وجعل سليم الثاني يقرر عدم تعيين جميع أبناءه علي الولايات للتدريب علي الحكم والقيادة ، واقتصره علي الابن الأكبر سناً فقط وحجز بقية الأبناء في السراي السلطاني حتي إذا تولى الأخ الأكبر السلطنة قام بقتل بقية أخوته اتقاءً للفتنة التي هي أشد من القتل . ومن الواضح أن عملية القتل هذه في مثل هذه الحالات لا يجوزها الشرع لأن هؤلاء الأخوة لم يخرجوا علي الحاكم ولم يحدثوا أي فتنة، وإنما قتلهم كان من باب التقية . وكان هذا النظام قد شرع في تطبيقه ابتداءً من عهد مراد الثالث (١٥٧٤م/٩٨٢هـ) واستمر حتي عصر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣م/١٠١٢هـ) . وبذلك ، انتهى عصر قتل الأخوة والإكتفاء بحجزهم في السراي ، وأصبح تعيين أكبر أبناء السلطان سناً قانوناً معمول به حتي نهاية الدولة^{٣٧٨} .

³⁷⁸ أنظر في هذا الخصوص : Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâtı, Ankara 1984, s.39-42, 45-59; keza bk. Yusuf Halacoğlu, XVI-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkilâtı ve Sosyal Yapı, Ankara 1996, s.1-6; Özcan Abdulkardır, “ Fatih’in Teşkilât Kanunnamesi ve Nizâm-i Alem için Kardeş Katli Meselesi”, İÜ. EF. Derih Dergisi, İstanbul

سلطات السلطان العثماني : لقد كان السلطان العثماني وفقاً للنظام

المركزي الذي أرسى دعائمه محمد الفاتح ورسخه السلاطين من بعده ، كان هو مصدر جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وكان يساعده في تنفيذ كل هذه السلطات تشكيلات الدولة المركزية ومؤسساتها . فكان يساعده في سلطاته التشريعية جميع أعضاء الديوان الهمايوني . وكان يعونه في سلطاته القضائية والشرعية شيخ الإسلام وقضاة عسكر ونواهم سواء في مركز الدولة أو في الولايات . أما سلطاته التنفيذية فكانت تتمثل في اقرار ما تقره دواوين الدولة وعلي رأسها الديوان الهمايوني ، وتنفيذ هذه القرارات بمعرفة الصدر الأعظم والوزراء وأمراء الأمراء والدفتردارية وقضاة العسكر والولاة وقواد الجيوش ومختلف الفرق العسكرية والأقلام الإدارية في الدولة .

وهكذا ، كان للسلطان العثماني الحق في استعمال أي فرد من أفراد الدولة بقوة الصلاحيات المخولة له ووفقاً للعادات التركمانية الجارية والنظم الإدارية المتعارفة . وعلي الرغم من هذه الصلاحيات المطلقة كان علي السلطان عرض شئون الدولة علي الديوان ، أو تحويلها إلي مؤسسات الدولة المتخصصة المختلفة لإتخاذ قرارها الفني أولاً قبل اصدار أي قرار قطعي فيها ، حيث يكون القرار الأخير للسلطان . وهكذا ، كان أي قرار يصدره السلطان بخصوص موضوع ما ويطرح علي الديوان ويلقي قبولاً من الناحية الشرعية ، قانون معمول به في أنحاء الدولة . ومما تقدم يتضح لنا أن قرارات السلطان العثماني كان مقيدة في الواقع بالعديد من القيود الشرعية والقانونية والعادات والأعراف التركمانية ، وذلك علاوة قرارات الديوان الهمايوني .

وكان السلاطين العثمانيين يباشرون شئون الدولة في وقت السلم والحرب ، حيث كانوا حتى عهد محمد الفاتح يرأسون الديوان الهمايوني بأنفسهم ، فينظرون في كافة شئون الدولة الهامة ، ويصدرون القرارات بخصوصها . واعتباراً من أوائل عهد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م/٨٥٥-٨٨٦هـ) ، بدأ السلطان العثماني يتابع مناقشات

الديوان الهمايوني من غرفة أعلي الديوان تعرف باسم " قصر العادل " ، حيث كانت تعرض الأمور الهامة التي تحتاج رأي السلطان عليه في " غرفة العرض " . وفي حالة مرض السلطان كان ينوب عنه في رئاسة الديوان وزيره الأعظم . وقد استمر تقليد حضور السلطان لجلسات الديوان الهمايوني ومتابعته لشئون إدارة الدولة بنفسه حتي وفاة سليمان القانوني (١٥٦٦م/٩٧٤هـ) ، حيث عزف السلطان سليم الثاني ثم السلاطين العثمانيين من بعده عن حضور جلسات الديوان والإكتفاء بعرض الوزير الأعظم والوزراء والدفتردارية القضاة وآغا اليكيجري لشئون الدولة الهامة عليه في غرفة العرض .

ومن ناحية أخرى ، كان السلاطين العثمانيين خلال عصري التأسيس والإزدهار يخرجون علي رأس جيوشهم في الحملات العسكرية الكبرى ، ويعثون بقوادهم وأمرائهم إلي مختلف الجبهات ، ولم تصادف أي من هؤلاء السلاطين يتقاعس عن الخروج وقيادة جيوشه بنفسه حتي عهد سليم الثاني (١٥٦٦م/٩٧٤هـ) . وكان هؤلاء السلاطين يقومون بإدارة شئون الدولة من جبهات القتال ، فيصحون معهم أعضاء الديوان الهمايوني وممثلين عن أقلامه المختلفة ، فيعقدون الديوان كمعادتهم ، ويعينون التعيينات ويصدرون القرارات في كافة شئون الدولة ، ويرسلون الفرمانات إلي جميع الجهات . وعندما كان السلطان يضطر للبقاء في مركز الدولة ، كان يعين الصدر الأعظم أو أحد وزراء الدولة نائباً عنه ليقوم مقامه في قيادة الجيوش تحت اسم " سردار أكرم " ٣٧٩ .

نظم الدولة العثمانية . تشكيلاتها ومؤسساتها :

المقصود بتشكيلات الدولة رجال الدولة ووزرائها وأمرائها وقوادها وقضاها ونواها وجندها وإداريها وكافة موظفيها الذين يباشرون أعمالهم في مختلف مؤسساتها ويتقاضون مرتبات عينية أو مادية دورية من الخزينة العثمانية . والحقيقة أن الإنجازات

³⁷⁹ بخصوص صلاحيات السلطان العثماني التشريعية والتنفيذية والقضائية ومسئوليته المختلفة ، أنظر :

Akgündüz Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tehlîlleri, c.I., İstanbul 1990, s.204-207

التي حققتها الإمارة العثمانية في مراحلها الأولى قامت علي أكثاف الغزاة الأوائل من رفاق عثمان غازي . فلما اتسعت مساحة الإمارة اضطر الأمير العثماني لتشكيل ديوان للنظر في شئون الإمارة المتزايدة ، وراح يستعين برفاق الجهاد بتوجيه الأراضي المفتوحة إليهم لإدارتها . وبذلك راحت مساحة المساهمات في إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية تزداد بزيادة رقعتها ، حيث راح يساهم في بناء صرح الدولة جهاز كبير من خلال مؤسسات عديدة خضعت كلها من خلال نظام مركزي محكم للسلطان العثماني.

وكانت الإمارة العثمانية ثم الدولة العثمانية التي نشأت كواحدة من الإمارات التركمانية المستقلة عن الدولة السلجوقية في الأناضول ، قد خضعت لكافة المظاهر الحضارية التي كان متعارف عليها في الدولة الإسلامية . ولذلك ، تميزت الملامح الحضارية للإمارة العثمانية منذ البداية بامتزاج العادات والتقاليد التركمانية التي كانت سائدة في الأناضول آنذاك بالعلوم والأعراف الإسلامية التي انتقلت إليهم من خلال احتكاكهم بالدولة الإسلامية في الشرق . فكانت نظم وتشكيلات الدولة المركزية واحدة من أكثر المظاهر التي عكست هذا الامتزاج الحضاري في الدولة العثمانية .

الديوان الهمايوني :

أطلق اسم " ديوان همايون " علي ذلك الديوان الكبير الذي يعد المرجع الأول المسئول عن إدارة كافة شئون الدولة العثمانية . ولقد عرف العثمانيون أصول السديوان منذ عصر اورخان غازي . ومما لا شك فيه أن العثمانيين قد تأثروا في ذلك بما كانت عليه تشكيلات الدولة الإسلامية السابقة ، خاصة دولة سلاجقة الأناضول .

ويعتبر الديوان الهمايوني القلب النابض للدولة العثمانية حتي أواخر القرن ١٧م؛ فكان ينظر في كافة شئون الدولة السياسية والعسكرية والإدارية والمالية والعرفية والشرعية والقضائية ويصدر القرارات بخصوصها بعد مناقشتها من قبل الهيئات المتخصصة بالديوان ، ويشرف علي ادارتها بما يحقق الترابط والتفاعل بين مؤسسات الدولة المختلفة .

وكان الديوان الهمايوني يعقد يومياً تحت رئاسة السلطان العثماني نفسه في أي مكان يحل به ، وذلك حتي أوائل عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١ م) ، حيث تركت رئاسة الديوان المباشرة بعد ذلك لوكيله المطلق الصدر الأعظم . ومنذ ذلك الحين أصبح السلطان يتابع مناقشات الديوان وأعماله من شرفة تطلق على صالة الديوان أطلق عليها اسم " قصر العادل " .

وكانت هيئة الديوان ، وعلى رأسها السلطان والوزير الأعظم والوزراء وقضاة العسكر والدفتردارية والتوقيعي (النيشانجي) ورئيس الجاويشية (چاوش باشي) وكتبخدا البوايين (قهرچيلر كتخداسي) ، تبدأ أعمالها بأمر الدولة الهامة ، حيث كانت تناقش المسائل الخاصة بالسفرء ، والردود علي مختلف الإستفسارات ، والنظر في احتياجات الولايات ، ومشاكل العلاقات الثنائية مع الدول الأخرى ، وشكاوي الأهالي، ودعاوي الأراضي وغيرها . وعقب اصدار القرارات النهائية في مثل هذه الأمور، كان يبلغ محتواها للجهات المعنية . وكان الوزير الأعظم ينظر في أمور الدولة الإدارية والعرفية عموماً ، حيث كان يقوم بالإستماع للدعاوي والشكاوي والطلبات سواء من إداري الدولة أو رعاياها ، وتحويل أعمال الديوان علي الأعضاء ، كل حسب تخصصه . وكان التذكرة جي (كاتب التذاكر) يقرأ أمامه تلك الطلبات والعروض بصوت مرتفع بالمناوبة مع الكتبة الآخرين ؛ ثم يقوم بتسجيل القرارات الصادرة في ذلك الخصوص . وكان الوزير الثاني يقوم بمعاونة الوزير الأعظم في النظر في الدعاوي إذا لزم الأمر ، علي ألا يصدر قرار عزل أو تعيين أو حتي علاوة .

أما الدعاوي الشرعية والمرافعات ، فكانت تحول إلي قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول ، وقاضي استانبول ، حيث كان كل منهم يستمع للدعاوي الخاصة به في حدود صلاحياته ، ويقوم بتحويلها بعد ذلك إلي المحاكم المختصة في أرجاء الدولة . وكان الوزير الأعظم يستفسر من القاضي عن الدعاوي ذات الأهمية الاستراتيجية للدولة ، حيث كان يطلب إعادة النظر فيها إذا ما راوده الشك في الحكم الصادر . أما أمور الأراضي ، فكانت تحول إلي النيشانجي (التوقيعي) الذي كان مكلفاً

بوضع علامة طغراء السلطان علي الفرمانات والبراءات والمناشير في الديوان الهمايوني ؛ كما كان يسمح للوزراء في الديوان بمساعدة التوقيعي في وضع علامات الطغراء إذا لزم الأمر ذلك . أما رئيس الدفتردارية (الدفتردار باشي) فكان يضع توقيعه المعروف بـ "التوقيع المذيل" (بنجه) علي أوراق ومعاملات الأمور المالية التي يقوم الوزير الأعظم بتحويلها إليه ، حيث كان يبين كلما اقتضت الضرورة ذلك الوضع المالي للمسائل المختلفة المعروضة عليه .

وكانت الأمور التي لم تنته معاملاتها في الديوان والتي لا تحتاج إلي العرض علي السلطان سواء الرسمية منها أو الخاصة ، كانت تناقش في ديوان الصدر الأعظم عقب انتهاء اجتماعات الديوان الهمايوني .

وكانت أعمال هذا الديوان تبدأ بعد صلاة الصبح وحتى وقت الظهيرة يومياً حتي النصف الثاني من القرن ١٦ م ، حيث صارت الاجتماعات تعقد بعد ذلك أربعة أيام أسبوعياً فقط ، هي السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفي أواخر القرن ١٧ م ، انخفض عدد جلسات الديوان الهمايوني إلي يومين ، هما الأحد والثلاثاء من كل أسبوع . واعتباراً من النصف الأول من القرن ١٨ م ، أهملت اجتماعات الديوان الهمايوني تماماً ، حيث حولت أعماله إلي ديوان الوزير الأعظم الذي اطلق عليه اسم " الباب العالي " . وأصبح لا يدعي الديوان الهمايوني للإنعقاد إلا مرة واحدة كل ثلاثة أشهر ، وذلك لتوزيع مرتبات جند خدم الباب (قايو قولي) أو لاستقبال حملة عسكرية أو سفير أجنبي من الخارج . إلا أنه في النصف الثاني من القرن ١٨ م ، سمح لهيئة الديوان الهمايوني بالإجتماع يوماً واحداً في الأسبوع للنظر في شكاوي الرعية .

وعقب انتهاء أعمال الديوان كان الوزير الأعظم والوزراء وقضاة العسكر والدفتردارية وأغا اليكيجرية ، يعرضون تقاريرهم الموجزة علي السلطان في " حجرة العرض " أربعة أيام في الأسبوع . ثم صار العرض بعد ذلك يومي الأحد والثلاثاء أسبوعياً . وقبل دخول أعضاء هيئة للعرض علي السلطان ، كان الوزير الأعظم يحصل أولاً علي الإذن بالمقابلة ، وعندئذ كان أغا اليكيجري يبدأ بالدخول إلي الحضرة

السلطانية ، حيث كان يعرض الأمور للخاصة باوجاهه علي السلطان بعد أن يكون قد عرضها من قبل علي الوزير الأعظم . وبعد خروجه ، كان يتقدم كل من قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول إلي حجرة العرض ، حيث كانوا يقرأون تلخيصاتهم علي السلطان ، وينتظرون أوامره . وعقب خروج قضاة العسكر ، كان الوزير الأعظم وبقية الوزراء ودفتردار الروميلي والأناضول والنشائجي يدخلون تباعاً ، فيعرضون علي السلطان تلخيصاتهم ، ويحصلون علي موافقته في أمور الدولة الهامة . وبعد انتقال أعمال الديوان الهمايوني إلي الباب العالي ، كان الصدر الأعظم يطلب الإذن لمقابلة السلطان وعرض تلخيصاته والفرمانات والبراءات التي يلزمها توقيع السلطان ، حيث يبلغ يوم وساعة ومكان مقابلته مع السلطان³⁸⁰ .

الوزير الأعظم (الصدر الأعظم) : وهو وكيل السلطان المطلق في كافة

شئون الدولة العثمانية الإدارية والعسكرية والعرفية . وقد عرف العثمانيون في البداية منصب الوزارة علي النحو الذي كان مطبقاً في الدول الإسلامية السابقة ، حيث كان الوزير مكلفاً بإدارة كافة شئون الدولة عدا العسكرية منها ، وكان يتم اختيار لهذا رجلاً من رجال العلم والفضل لشغل هذا المنصب . وقد استمر توجيه هذا المنصب لهذه الفئة من رجال الدولة حتي وصول جاندارلي خليل خير الدين باشا لمنصب الوزارة في اواسط عهد مراد الأول .

وكان جمع القيادة العسكرية مع منصب الوزارة وتوجيهه لخير الدين باشا أثناء فتوحات الروميلي ، نتيجة للنجاحات التي أحرزها الوزير المذكور هناك بحسن تصرفه في استخدام الصلاحيات الواسعة التي منحت له سبباً ، الأمر الذي أوجب ضرورة جمع شئون الدولة الإدارية والعسكرية في يد رجل واحد في الدولة منذ ذلك الحين . وهكذا ،

³⁸⁰ بخصوص تفصيلات أكثر حول الديوان الهمايوني وأعضائه ومسئوليته وأعماله وأقلامه ، أنظر :

Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Merkez ve Bahriye Teşkilâtı, s.1-64; Mumcu Ahmed, Hukuksal ve Siyasal Karar Organı Olarak Divan-i Hümayûn, Ankara 1976, s.24-71

علا منصب الوزارة ، فأخذ صورة أكثر تطوراً عما كان موجود في الدول الإسلامية السابقة في المنطقة ، حيث حاز الوزراء الذين أتوا بعد جاندارلي باشا علي نفس الصلاحيات الواسعة في شئون الدولة الإدارية والعسكرية ، وصاروا المرجع الأساسي فيها .

وقد بدأ إطلاق اسم " وزير أعظم " علي الوزير الأول في الحكومة العثمانية بعد منح صاحب المنصب لهذه الصلاحيات المطلقة وبخاصة بعد أن صار في الدولة أكثر من وزير . ولما زاد عدد الوزراء اعتباراً من النصف الأول من القرن ١٦م / ١٠هـ لم يتجاوز عددهم عن أربعة وزراء حتي أواخر عهد السلطان القانوني . وهكذا ، أقر القانون العثماني تعيين الوزير الثاني في منصب الوزير الأعظم . وعقب اختيار السلطان للوزير الأعظم ، بحسب ما يجري عليه العرف في الدولة ، كان السلطان يدفع إليه بخائمه السلطاني كناية علي وكرائه المطلقة في كافة شئون الدولة .

كان الوزير الأعظم هو أكبر رئيس للدولة بعد السلطان ، وكانت كلمته وأمره تعتبران إرادة السلطان وفرمانه . وكان ينظر في كافة مصالح الدين والدولة في البلاد ، ويحافظ علي نظام السلطنة ، فيقر الحدود والقصاص ويأمر بالحبس والنفي ، وبتطبيق أحكام التعزير والاعدام ، ويستمع للدعوي ، وينفذ أحكام الشريعة الغراء ، ويرفع المظالم ، ويدير عموم شئون السلطنة ، كما كان يجري تعيينات الأيالات والولايات والسناجق وغيرها ، ويوجه الوظائف العلمية إلي مستحقيها ، ويوزع علوفات عسكر القابو قولي كل ثلاثة شهور بالديوان ، فكانت كل هذه الأمور وغيرها تنفذ بعد موافقته وتحت إشرافه ، وذلك بوضعه علامة " بيورلدي " علي معاملاتها . أما بخصوص معاملات الوزراء وقضاة العسكر وشيخ الإسلام ، فكان الوزير الأعظم يحصل أولاً علي موافقة السلطان قبل إجرائها . وكان الصدر الأعظم يدير كافة شئون الدولة هذه من خلال الديوان الهمايوني أولاً ، حيث كان يتم النظر في هذه الأمور في دواينة الخاصة "ديوان العصر" (اكندي ديواني) ، و "ديوان الجمعة" ، و "ديوان الأربعاء" .

ومن ناحية أخرى ، كان السلاطين العثمانيين العظام خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار ، يكلفون الوزراء العظام بقيادة بعض الحملات العسكرية ، إلا أنه عقب ترك السلاطين الخروج علي رأس الحملات الحربية اعتباراً من عهد سليم الثاني ، كلف الوزراء العظام بهذه المهمة كوكلاء عن السلاطين ، حيث كان يطلق عليهم عندئذ لقب " سردار أكرم " . وقبل خروجهم للحملات ، كان الصدور العظام يعينون وكيل عنهم لمباشرة شئون الدولة في المركز اطلق عليه اسم " قائمقام الصدارة " . وكان الصدر الأعظم يتقاضى مقاطعة " خاص " مقابل خدماته في الدولة³⁸¹ .

وزراء القبة : وهم وزراء الديوان الهمايوني ، أطلق عليهم هذا الاسم نسبة للديوان الجديد الذي أنشأ في عهد سليمان القانوني تحت اسم " قبة نشين " . ونظراً للقانون الذي كان معمول به في الدولة العثمانية فإنه كان علي الوزير أن يتدرج في مناصب إمارة السنجق " سنجق بلكك " ، ثم إمارة الأمراء (بكربكلكي) ، ثم إمارة أمراء الروميلي ، والخدمة في كل منها لفترة طويلة حتي يصل في النهاية إلي منصب الوزارة . وقد ظل هذا القانون ساري المفعول حتي النصف الثاني من القرن ١٦ م ، حيث دب الفساد في هذا التشكيل وصار لا يراعي فيه هذا التدرج الوظيفي ، فكان أمراء أمراء الولايات يعينون في منصب الوزارة مباشرة دون تقلدهم لمرتبة إمارة أمراء الروميلي قبلها .

وكان وزراء الديوان الهمايوني يأخذون مكائهم في مقدمة رجال الدولة ، حيث كان يستفاد من تجاربهم وكفاءتهم ومطالعاتهم في مناقشات شئون الدولة المختلفة داخل الديوان الهمايوني وخارجه أو بخصوص أمور الدولة السياسية الهامة ، كما كانوا يقومون

³⁸¹ أنظر في هذا الخصوص : Uzunçarşılı, Merkez ve Bahriye Teşkilatı, s. 111-170; keza bk. Ayn. Mlf., Osmanlı Tarihine ait yeni bir vesikanın ehemmiyeti ve izahı ve bu münasebetle Osmanlılarda İlk vezirlere dâir mütala'a", Belleten, III/9, Ankara 1939, s. 99; Aydın Taneri, Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluş Döneminde Vezir-i A'zamlık, Ankara 1974

بمعاونة الوزير الأعظم في الإستماع للدعاوي وأيضاً مساعدة أعضاء هيئة الديوان الآخرين كالنشانجي في وضع علامات الطغراء السلطانية عند زيادة أعمال الديوان الهمايوني . وبالإضافة إلى هذه المهام الإدارية التي كان وزير القبة مكلف بها في مركز الدولة ، فقد كان يكلف أحياناً بالخروج علي رأس أحدي حملات الدولة ، وعندئذ كان يحمل لقب " سردار " أو " سر عسكر " أي قائد العسكر .

ولما كانت طائفة الوزراء في الدولة العثمانية صاحبة أعظم صلاحيات إدارية وعسكرية بعد الصدر الأعظم مباشرة ، كان أقدم وزير يطلق عليه اسم " وزير ثان " ، حيث كان يحتل المكانة العظمي في الديوان بعد الوزير الأول أي الوزير الأعظم ، وكان المرشح الأول لمنصب الصدارة العظمي بحسب القانون العثماني .

وكانت رتبة الوزراء تنحصر في وزراء القبة الذين يباشرون مهامهم في مركز السلطنة وعلي رأس الحملات العسكرية حتي أوائل القرن ١٦م / ١٠هـ . إلا أنه علي أثر ضم أملاك الدولة المملوكية في الشرق ، والشعور بالحاجة لتعيين أشخاص من أصحاب الصلاحيات الواسعة لتوطيد حكمها وسيطرتها علي هذه المناطق المفتوحة حديثاً والبعيدة عن المركز وذات الأهمية الإستراتيجية للدولة كمصر ، وجهت هذه المهام أولاً لبعض من وزراء القبة كمصطفى باشا الوزير الثاني ، وأحمد باشا الوزير الثاني أيضاً الذين عينا علي التوالي ولاية علي مصر . وقد شرعت الدولة بعد ذلك في تعيين وزراء غير وزراء القبة علي أقاليمها الهامة مثل مصر وبغداد واليمن وبودين . وبناءً علي ذلك ، انقسمت فئة الوزراء في الدولة إلى قسمين :

الأول - وزراء داخل : وكانوا يمثلون وزراء القبة الموجودين بالمركز . وفي أوائل القرن ١٧م بدأ منح رتبة الوزارة هذه أيضاً للدفتردار والنشانجي والقبطان باشا ، حيث كان عدد وزراء الداخل هؤلاء يتأرجح فيما بين ٨-١٠ وزراء . ولكن في أواخر القرن ١٧م ، صار عدد وزراء القبة فقط ثلاثة وزراء ، وذلك علاوة علي الوزراء مسن أصحاب المناصب .

والثاني - وزراء خارج : وهم وزراء الولايات الهامة بالدولة . وكان وزراء الخارج هؤلاء يقعون في المرتبة الثانية بعد وزراء الداخل بحيث كان وزير الخارج يرقى لرتبة وزير الداخل بمركز السلطنة . ويذكر مصطفى سلانيكي أفندي في تاريخه أنه في أواخر القرن ١٦م ، كان بالدولة ١٣ وزيراً منهم سبعة وزراء الداخل وستة من وزراء الخارج أي وزراء الولايات . وفي القرن ١٧م زاد عدد الوزراء جميعاً إلى أكثر من ٢٣ وزيراً ، حتى أن الدولة اضطرت لتعيينهم في الأيالات التي كانت توجه لإمراء الأمراء من قبل . وبذلك ضعف منصب الوزارة بالدولة ، وبخاصة عقب انتقال كافة أعمال الديوان الهمايوني إلى الباب العالي في أوائل القرن ١٨م^{٣٨٢} .

قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الروميلي (السدرين) : هم رجال

العدل الذين كانوا يقومون بإقرار الشرع في أرجاء الدولة وينظرون في أمور الدولة ورعاياها الشرعية والقضائية . وتؤكد المصادر المعاصرة على أن منصب قاضي العسكر بالدولة العثمانية قد انتقل عن تشكيلات دولة المماليك أو دولة سلاجقة الأناضول بطريق مباشر أو غير مباشر .

ففي عهد أورخان بك كان منصب قضاء بروسة هو أعلى منصب قضائي في الدولة ، ولم يكن قد ظهر منصب قاضي العسكر بعد . إلا أنه بعد ذلك عرف منصب قاضي العسكر في التشكيلات العثمانية كمَنْصب علمي يصل صاحبه في النهاية إلى مرتبة الوزارة . وحتى عام ١٤٨٠م ، كان هناك قاضي عسكر واحد فقط ، وكان يشغل أعلى مقام في الدولة بعد الوزير الأعظم والوزراء . وفي أواخر عهد محمد الفاتح ، انقسم منصب قاضي العسكر إلى قسمين : قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول ، وذلك بعد أن وطدت الدولة سيطرتها على جناحيها في الأناضول والبلقان ، وزادت مسؤوليات قاضي العسكر فيهما . وعقب ضم السلطان سليم الأول لمناطق شرق الأناضول ونواحي مرعش وملاطية ، استحدث منصب قضاء ثالث بإسم " قاضي عسكر

³⁸² بخصوص وزراء القبة وأهم المهام المكلفين بها في الدولة أنظر : Uzunçarşılı, Merkez

ve Bayriye Teşkilatı, s. 186-210

العرب والعجم " للنظر في أمور تلك النواحي . وفي البداية ، كان قاضي العسكر هذا يتخذ من ولاية ديار بكر مركزاً له ، إلا أنه بعد بسط السلطان سليم لنفوذه علي سوريا ومصر نقل مركزه إلي استانبول ، حيث صار ضمن هيئة الديوان الهمايوني . ولكن ، سرعان ما ألغي هذا المنصب بعد ذلك وحولت أعماله إلي قاضيعسكر الأناضول .

فحتى أواسط القرن ١٦ م ، لم يكن هناك تدرج واضح للوصول لمنصب قاضي العسكر ، إلا أنه بعد ذلك أصبح تعيين القاضي المعزول عن قضاء استانبول أو أدرنه في منصب قاضيعسكر الأناضول قانون معمول به ، كما تقرر ترقية قاضيعسكر الأناضول أو من هو في مرتبته ليتولي منصب قاضيعسكر الروميلي . ولكن ، إعتباراً من أواخر القرن ١٦ م ، لم ترعى هذه القاعدة في أحيان كثيرة . وبعد أن اكتسب منصب شيخ الإسلام الصدارة في التشكيلات العلمية في الدولة ، صار هذا المنصب يوجه إلي القضاة المعزولين عن قضاء الروميلي . وكانت المدة العرفية لبقاء قضاة العسكر في مناصبهم حتي القرن ١٧ م سنتين متتاليتين ، ولكن انخفضت هذه المدة بعد ذلك إلي سنة واحدة ، توجه بعدها المنصب إلي أحد قضاة العسكر القدامي أو إلي قاضيعسكر جديد حسب التدرج الوظيفي في المؤسسة القضائية بالدولة .

كان قاضيعسكر الروميلي أعلي مرتبة من قاضيعسكر الأناضول ، حيث كان يرجع إليه في كافة أمور الدولة الشرعية التي تحوز علي أهمية استراتيجية ، وذلك علاوة علي ما كان ينظر فيه من الأمور القضائية والشرعية للولايات الموجودة ضمن منطقة الروميلي . وكان قاضيعسكر الأناضول يقوم بمساعدة قاضيعسكر الروميلي أثناء قيامه بالاستماع للدعاري الشرعية والقضائية في الديوان الهمايوني وفي مجلس الوزير الأعظم ، وذلك في حالة زيادة الدعاري الشرعية والمعاملات القضائية التي يلزم نظرها في تلك الدواوين . وكان قضاة العسكر يعرضون مطالعاهم وتعييناتهم والأمور الشرعية والقضائية الخاصة بمنطقة كل منهم والتي تحتاج للعرض علي السلطان في أيام العرض عقب انتهاء أعمال الديوان الهمايوني ، وكانوا في عرضهم يقرأون دفاتر القضاة " أقضيه دفترلري " التي كانوا يبينون فيها أسماء القضاة المرشحين للتعيين . وكان قاضيعسكر

الروميلي يقوم بنفسه بالإشراف علي دفاتر تسجيل المرشحين لمناصب القضاء أو التدريس في الدولة ، ودفاتر ملازمتهم علي الحضور إلى مجلسه بشكل منتظم للحصول علي شهادة بأهليتهم لمنصب القضاء أو التدريس حسب اختيارهم ، ثم تعيينهم بالدور وفقاً لأقدميتهم ومراتبهم في ملازمة مجلس قاضي العسكر .

وكان يمكن لقضاة العسكر تعيين القضاة ممن يتقاضوا يومية قدرها ١٥٠ والمدرسين من ذوي يومية ٤٠ أقحه . أما المناصب القضائية الكبرى التي يطلق عليها "مولوية" من ذوي يومية ٣٥٠ - ٥٠٠ أقحه ومناصب التدريس التي تزيد يوميتها عن ٤٠ أقحه فكان تعيينها ينظر من قبل الوزير الأعظم بنفسه . وبعد ظهور منصب شيخ الإسلام ، صارت معاملات تعيين هذه المناصب الكبرى تجري بعرض شيخ الإسلام ، حيث كان شيخ الإسلام يقوم بعرض تلخيص هذه التعيينات علي الصدر الأعظم الذي يقوم بدوره بعرضها علي السلطان والحصول علي موافقته عليها .

ومن ناحية أخرى ، كان قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول يعقدان ديوانيهما كل يوم عدا يومي الثلاثاء والأربعاء في منازلهم ، حيث كانوا ينظرون في الأمور التي حوت إليهم . وكان يعمل تحت أشرف قضاة العسكر هيئة من كتبة الديوان للقيام بشتون التحريرات الشرعية والقضائية يطلق علي كل منهم اسم " تذكره جي " ، وذلك علاوة علي المحضرين الذين كان عددهم يتجاوز العشرين ، وكانوا يقومون بعملية احضار المدعي والمدعي عليه للديوان

وكانت مناصب القضاء بالدولة العثمانية عموماً تتفاوت بحسب مقدار المرتب اليومي الذي يحصل عليه أصحابها . فحتى عهد محمد الفاتح ، كانت مرتبات قضاة العسكر اليومية تؤدي لهم من الحاصلات الشرعية للمناطق القضائية لكل منهم ، حيث كان كل منهم يحصل علي يومية قدرها ٥٠٠ أقحه ، إلا أن هذه المرتبات اليومية صارت بعد ذلك توزع عليهم من الخزينة . ومن ناحية أخرى ، كان قاضي عسكر الروميلي يحصل علي مقدار آخر من الأموال من القسمة العسكرية الخاصة بالولايات والجزر الملحقه بالروميلي . أما قاضي عسكر الأناضول فكان يحصل علي مثل تلك الأموال

من واردات القسمة العسكرية الخاصة بمناطق الأناضول ومصر وسوريا والعراق . وفي القرن ١٦ م ، كانت نصف رسوم البراءة التي كانت تحصل من المناطق القضائية التي يقوم كل من قاضي عسكر الروميلي وقاضي عسكر الأناضول بتعيينها تضبط للخزينة ونصفها الآخر يوزع علي قضاة العسكر وأتباعهم من الكتبة والمحضر باشي والودادارية . أما قضاة العسكر الحاليين للتقاعد ، فكانت تخصص لهم محصلات أحدي المناطق القضائية التي يطلق عليها اسم " أربالق " كمرتبات معاش سنوية ، أو يمنحوا ما قدره ١٥٠ أقجه كتقاعدية^{٣٨٣} .

الدفتردار : لقد أطلق العثمانيون لقب " دفترداريء ممالك " علي من يقوم بإدارة شئون الدولة المالية . وبالرغم من أنه ليس هناك معلومات صريحة عن بدء استخدام تعبير " دفتردار " عند العثمانيين ، إلا أنه من المرجح أن يكون العثمانيون قد استحدثوا هذه الوظيفة في عصر ييلدرم بايزيد (١٣٨٩-١٤٠٤ م) . وقد أكدت المصادر العثمانية أن منصب " الدفتردار " كان موجوداً في تشكيلات الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن ١٥ م .

وطبقاً لما أورده قانون نامء السلطان محمد الفاتح ، فإن الدفتردار في تشكيلات الدولة يعتبر وكيل السلطان للشئون المالية . أما الصدر الأعظم وكيل السلطان المطلق فكان يعتبر ناظراً لكافة الشئون المالية العامة في الدولة . وكانت خزائن أموال ودفاتر الدولة المالية لا تفتح ولا تغلق إلا في حضور الدفتردار .

وفي النصف الثاني من القرن ١٥ م ، كان تعيين دفتردار الأموال ، أو أمين الدفتر أو شهر أميني أو القضاة من ذوات ٣٠٠ أقة يومياً ، تعيينهم في منصب دفتردار باشي قانوناً معمولاً به ، كما كان رئيس الكتاب يعين أحياناً في منصب الدفتردار . وبعد زيادة عدد الدفتردارية في مركز الدولة ، كان دفتردار الأناضول عادة ما يرقى

383 فيما يتعلق بمنصب قضاء العسكر في الدولة العثمانية وتطور صلاحياته ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilâtı, Ankara 1984, s.151-159; ayn. Mlf., Merkez ve Bahriye Teşkilatı, s.228-237; Akgündüz, Osmanlı Kanunları ve Hukukî Tahlilleri, I/226-228

فيعين في منصب رئيس الدفتردارية (باش دفتردار / روميلي دفترداري) . وقد قرر قانون
نامهء الفاتح منح الدفتردار لمقاطعة " خاص " كراتب سنوي له.

في البداية ، كان يرأس المؤسسة المالية في الدولة العثمانية ، دفتردار واحد ،
حيث زاد عدد الدفتردارية باضطراد مع اتساع الدولة وتشعب شئونها المالية . وبذلك
أطلق علي الدفتردار الأول اسم " باش دفتردار " أو " روميلي دفترداري " ، وكان ينظر
في الأمور المالية الخاصة بمنطقة الروميلي ، ومعاملات الدولة المالية الهامة . ويأتي بعده
" دفتردار الأناضول " الذي اختص بالنظر في الشئون المالية الخاصة بمنطقة الأناضول .
ويرجح أن يكون منصب دفتردار الأناضول قد استحدث في عهد بازيد الثاني (١٤٨١ -
١٥١٢ م) . وعقب دخول ولايات شرق الأناضول وسوريا ومصر تحت إدارة الدولة في
عهد سليم الأول (١٥٢١ - ١٥٢٠ م) ، استحدث منصب دفتردار ثالث باسم " دفتردار
العرب والعجم " للنظر في شئون تلك المناطق المفتوحة ، حيث كان هذا الدفتردار يقيم
في حلب إقامة دائمة حتي يتيسر له إدارة الأمور المالية هناك عن قرب . وفي أواسط
القرن ١٦ م ، انفصلت الشئون المالية للمناطق الساحلية التي كانت ملحقة من قبل
بدفترداية الروميلي والأناضول ، وألحقت بها مقاطعات استانبول ، حيث شكل منها
جميعاً منصب دفترداري آخر لإدارة شئونها المالية عرف باسم " شق ثان دفترداري " .

وبذلك صار هناك ثلاثة مناصب للدفتردار في مركز السلطنة هي : باش
دفتردار ، ثم يأتي بعده " أناضولي دفترداري ، وأخيراً شق ثان دفترداري . وكان باش
دفتردار بمثابة الناظر علي الدفتردارية الآخرين ، حيث كان ينظر في الأمور المالية اللازمة
العرض علي الديوان الهمايوني والتي ترد من قبل دفتردارية الآيالات ودفتردارية الحدود
أيضاً . وفي عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) استحدث منصب دفترداري
رابع باسم " شق رابع " للنظر في الشئون المالية الخاصة بمقاطعات " خاص " الموجودة
بسواحل " طونه " ، إلا أنه سرعان ما ألغي بعد ذلك بفترة وجيزة . وفي عام
٩٨١هـ / ١٥٧٣م انقسم منصب دفتردارية العرب والعجم إلي خمسة أقسام هي
دياربكر ، الشام ، أرضروم ، طرابلس شام ، وحلب . وفي عام ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م

انفصلت عن دفتردارية الأناضول أيالتي سيواس وقرمان ، حيث صار لكل منها دفتردارية مستقلة . وهكذا أطلق علي مناصب الدفتردارية المستقلة هذه في الأيالات اسم " كنار دفتردارلقلري " . وبعد ذلك وعقب انضمام مناصب دفتردارية التيمار إليها تغير اسمها فصارت تدعي " خزينة دفتردارلقلري " .

ويعتبر الدفتردارية أعضاء أساسيون في الديوان الهمايوني ، فيتابعون مناقشاته ، وتُحول إليهم المسائل التي تتعلق بالأمر المالية والتي تخص كل منهم . وكانوا يدخلون لغرفة العرض مع الوزراء في أيام الثلاثاء فقط من كل أسبوع ، حيث كانوا يقومون بعرض ملخصات للأمر المالية التي تخص كل منهم وتقديم الإيضاحات حولها . وكانت العادة المتبعة تقضي بمقابلة الدفتردار للصدر الأعظم ومناقشته معه المسائل المالية الواردة بالتلخيص الذي سوف يعرض علي السلطان في حجرة العرض ، وحصوله علي موافقته قبل دخوله للحضرة السلطانية . وبعد عرض الدفتردار أموره المالية علي السلطان كان يقبل الأرض ، ثم يهم بالخروج . أما إذا كان الدفتردار علي رتبة وزير ، كان يقف بجوار الوزراء في الحضرة السلطانية .

وكان دفتردارية المركز يقومون بالنظر في الأمور المالية الخاصة بكل منهم في الديوان الدفتري الذي يطلق عليه أيضاً " دفتردار قابوسي " ، حيث يسمعون الدعاوي والشكاوي المالية ، وتوجيه المقاطعات التي تتبع منطقتهم ، وتتبع تحصيل الأموال الميرية من الملتزمين ، وحبس المتهاونين منهم والذين عليهم ديوان ، وإصدار الأحكام ذات الطغراء في تلك الأمور إذا استدعت الضرورة ذلك . وكان كل دفتردار يضع توقيعاً عليه خلف كل ورقة معاملات تصدر عن دائرته .

وهكذا ، كان باش دفتردار مسئول عن كافة المعاملات المالية في الدولة بالدرجة الأولى . وبالرغم من أن دفتردار الأناضول ودفتردار الشق الثاني كانا يصحبه في كل تحركاته ، إلا أنهما لم يكونا يتدخلان في الأمور المالية العامة للدولة ، عدا ما يخص مناطقهما . أما إذا تقرر خروج باش دفتردار لإحدى الحملات العسكرية للدولة ، كان دفتردار الأناضول يقوم بالوكالة عنه في مركز الدولة باستانبول . وكان جميع أعضاء

هيئة الباب الدفتری يعتبرون من أتباع الباش دفتدار . إلا أنه كان هناك خمسة أفراد من أرباب الوظائف يقومون بتنفيذ الأحكام المالية وتتبع اجراءات التنفيذ وتحصيل الواردات وغيرها من الأمور المالية للدولة³⁸⁴ .

النشائي (التوقيعي) : وهو أحد أعضاء الديوان الهمايوني الأساسيين ، بل هو الرئيس الأعلى للديوان الهمايوني خلال القرن ١٦ م . وقد عرف النشائي أو التوقيعي بإسم " طغرائي " أيضاً . وتبين المصادر أن وظيفة التوقيعي أو " الطغرائي " هذه قد عرفت في الدول الإسلامية السابقة ، حيث انتقل لقب طغرائي عن تشيكلات مؤسسة ديوان الطغراء السلجوقية إلى العثمانيين ، ولم يعرف تعبير نشائي في التشيكلات العثمانية إلا ابتداء من النصف الأول من القرن ١٥ م .

وكان النشائي الذي كان يطلق عليه أيضاً اسم " مفتي القانون " ، ينتخب ممن تتوافر فيهم قدرات الإحاطة الكاملة بقوانين الدولة وتشريعها التنظيمية ، وتنظيم وتأليف القوانين واستخلاصها من مصادر الشرع الشريف ، وكان يستفاد من أفكارهم وتوصياتهم في هذه الأمور أثناء مناقشات الديوان الهمايوني ، حيث كان هذا يتطلب ضرورة احاطتهم بعلوم الفقه والشريعة والتاريخ والأدب واللغات الإسلامية بدرجة تتيح لهم الإيفاء بمتطلبات مثل هذه الوظائف الهامة . وكان النشائي بإعتباره رئيساً للديوان الهمايوني يقوم بالنظر في أمور المكاتبات المختلفة وبالحفاصة الرسائل التي كانت توجه للحكام ومناشير وبراءات الوزراء وتدقيق مسوداتها ، كما كان وضعه للطغراء الذي يمثل توقيع السلطان أعلي المعاهدات والمناشير والأحكام والفرمانات ، يعتبر أحدي وظائفه الأساسية المباشرة التي أكتسب من خلالها صفته كـ " طغرائي " لتحريرات الدولة الرسمية . وكان رئيس الكتاب وأمين الدفتر وكافة رؤساء أقلام الديوان أتباعاً له . كما كان له حجرة خاصة به بجوار الديوان الهمايوني ، يقوم فيها بالنظر في أمور الدولة المناط بها مع أعضاء هيئته ومساعدية بعد انتهاء أعمال الديوان ، وبخاصة توجيهات

³⁸⁴ بخصوص الدفتدار والتشيكلات المالية في الدولة العثمانية ، أنظر : **Uzunçarşılı** ،

Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teşkilâtı، s.319-337

أراضي الدولة . وكان النشائجي يطلع علي المناشير والقوانين المحررة من قبل رئيس الكتاب والتي لا تتعلق بالمنصب ، حيث كان يجري عليها التصحيحات اللازمة . ولما كان النشائجي ليس من أعضاء الهيئة التشريعية أو التنفيذية في الدولة ، وإنما كان رئيس هيئة التحريرات بالديوان الهمايوني ، فلم يكن لديه من الشئون الخاصة بوظيفته ما يعرضه علي السلطان في " غرفة العرض " ليأخذ موافقته عليها .

وكان النشائجية ينتخبون من بين أرباب المناصب العلمية عموماً ، ومن كانوا علي كفاءة عالية في أمور الكتابة والتحرير . فكانوا يعينون من مدرسي الداخل أو من مدرسي صحن ثمان حتي أوائل القرن ١٦ م ، وبعد ذلك صار هذا المنصب يوجه لرئيس الكتاب الذي يظهر كفاءة ومقدرة للقيام بإعباء هذا المنصب . وكان النشائجي يمنح مقاطعة " خاص " كمرتب له من الدولة^{٣٨٥} .

أمير الأمراء (بكلوبكي) : انتقل هذا المنصب للعثمانيين عن الدولة السلجوقية . وكان يوجد في التشكيلات العثمانية الأولي أمير أمراء واحد فقط للإشراف علي كافة شئون الجيش العثماني ، حيث كان صاحب نفوذ في أمور الدولة بعد السلطان مباشرة . وأول أمير أمراء كان سليمان باشا ابن أورخان غازي ، حيث وجهت هذه الوظيفة بعد وفاة سليمان باشا للالا شادين باشا . وخلال عهد مراد الأول ، وعلي أثر تعيين جاندارلي خليل باشا قائداً للجيش انخفضت أهمية منصب أمير الأمراء . ولما اتسعت فتوحات الروميلي انقسم هذا المنصب إلي قسمين : أمير أمراء الأناضول ، وأمير أمراء الروميلي ، حيث كان الأخير أعلي مقاماً ونفوذاً من الثاني . ومع توسع الدولة العثمانية خلال القرن ١٥ م/٩ هـ ، ازداد عدد أمراء الأمراء في الدولة ، حيث أضيف لصاحب هذا المنصب العديد من الصلاحيات الإدارية علاوة علي وظائفه العسكرية ، وأصبح منذ ذلك الحين أمير الأمراء والياً علي ولاية أطلق عليها اسم " إمارة أمراء " .

³⁸⁵ بخصوص وظيفة التوقيعي في الديوان الهمايوني ، أنظر : Uzunçarşılı, Merkez ve

Bahriye Teşkilatı, s. 215-237

ولما كانت الأعراف العثمانية تقضي بتوجيه الأراضي المفتوحة للأمراء الذين قدموا خدمات جليلة للدولة ، فقد نقلت الدولة عن الدول السابقة عليها نظام التيمار ، حيث كانت توجه هؤلاء الأمراء الولايات والمقاطعات وفقاً لهذا النظام . فكان يوجه لأمير الأمراء ولاية زعامت أو خاص بحسب درجته ، حيث كان يترك له خراجها مقابل خدماته العسكرية والإدارية التي يقدمها للدولة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح هذا المنصب منصباً إدارياً عسكرياً يباشر صاحبه صلاحياته في الولاية التي أقطعها بما فيها المناطق السنجقية . وهكذا ، تعددت مناصب إمارة الأمراء ، وأصبحت مرادفه للمنصب الإداري أو المنطقة الإدارية التي عرفت بـ " الولاية " . ولكن ، بقي مناصبي إمارة أمراء الروميلي وإمارة أمراء الأناضول يحافظات علي تميزهما بين إمارات أمراء الدولة ، حيث كانا من الأعضاء الأساسيين في الديوان الهمايوني يتحدث كل منهما عن شئون الولايات التابعة له . غير أن كان صاحب منصب أمير أمراء الروميلي أعلي درجة من صاحب منصب أمير أمراء الأناضول ، في حالة ترقيته يصبح من وزراء الدولة .

وعقب سقوط الدولة المملوكية وضم ولاياتها الشرقية للأملاك العثمانية ، بدأت توجه هذه المناطق المفتوحة حديثاً لأمراء أمراء ليس بطريق التيمار ، ولكن بطريق الساليانه . وبذلك يكون هذا منصب إمارة الأمراء قد أخذ شكلاً إدارياً بحتاً ، حيث بدأ تعيين هؤلاء لإدارة هذه الولايات (إمارات الأمراء) مقابل مرتب سنوي عرف باسم "ساليانه" .

وكان أمير الأمراء يقع تحت ولايته جميع الأمراء السناجق الموجودين في نطاق مقاطعة الخاص التابعة له ، حيث كان يقودهم وقت الحرب في الحملات العسكرية عندما تصدر الأوامر له بذلك . وكان أمير الأمراء بقيم بصفة دائمة في مقر ولايته وقت السلم ، حيث يقوم بإدارة شئونها بمعاونة هيئة ديوانية تشبه إلى حد كبير هيئة الديوان الهمايوني . وهكذا ، أصبح أمير الأمراء صاحب صلاحيات عسكرية وإدارية ومالية وقضائية مطلقة في ولايته باعتباره وكيل السلطان المطلق في الولاية . وكان علي أمير

الأمراء القيام بالتفتيش علي شئون الأمراء السناحق في ولايته ، ويرفع المشكلات الهامة والمتعلقة بولايته علي مركز الدولة لمناقشتها ، واصدار قرار بشأنها .

ولما كان أمير الأمراء يدعي للحرب ، كان عليه أن يقوم بالخروج علي رأس الأمراء السناحق التابعين لولايته وسباهية مقاطعات التيمار والزعامة والخاص . وعندئذ ، كان أمير الأمراء يترك في مركز ولايته من ينوب عنه في إدارة شئون الولاية ، وغالباً كان يقوم بهذه الوظيفة القائمقام في مركز الولاية ، والقضاة في المناطق السنجقية والقضائية المختلفة في الولاية ، وذلك حتى عودة الأمراء من الحملات .

الأمراء السناحق : وكانوا يتبعون إدارياً وعسكرياً لأمير الأمراء . وكان الأمير السنجق هو المسئول عن كافة الأمور الإدارية والعسكرية والأمنية للمناطق السنجقية الواقعة تحت إدارته بما فيها مقاطعات التيمار . وكان مرتب الأمير السنجق عبارة عن خراج مقاطعة تيمار تكبر أو تصغر بحسب درجته وأقدميته . وعند الإعلان عن خروج حملة ، كان أمير السنجق يقوم بجمع كافة أصحاب مقاطعات التيمار الواقعة تحت إدارة سنجقيته ، ويتوجه بهم إلى الحملة تحت قيادة أمير الأمراء التابع له . وكان أبناء السلاطين الذين كان يطلق عليهم اسم " چليي سلطان / شهزاده لر " والذين كانوا يعينون عن مناطق سنجقية في الأناضول أو في الروميلي ، يحصلون علي صلاحيات أعلى من الأمراء السناحق الآخرين ، حتي أنهم كانوا يتقدمون في بعض الأحيان علي أمراء الأمراء في الدولة .

التقسيمات الإدارية : كانت الأراضي العثمانية تنقسم إلى أربعة مناطق إدارية متتالية في الإتساع ، وهي إمارة الأمراء التي تحتوي علي مناطق سنجقية ، والمناطق السنجقية التي تحتوي علي مناطق قضائية ، والمناطق القضائية التي كانت تنقسم إلى قري أو ضواحي .

كنا قد أشرنا آنفاً بأن إدارة الولايات العثمانية كانت توجه بصفة أساسية إلي أمراء الأمراء حتي أواخر القرن ١٥م/٩هـ . وقد قسم العثمانيون فتوحاتهم الأولى إلي

إمارتين في البداية ، هما : إمارة أمراء الروميلي ، وإمارة أمراء الأناضول . وعلاوة على هاتين الإمارتين ، كان هناك في الأناضول عدة سناجق مختارة توجه إلى أبناء السلاطين ، بالإضافة إلى بعض السناجق الإستراتيجية الهامة في المناطق الحدودية من الروميلي أطلق عليها " سنجقية أقينجي " ، وكان أمراء هذه السناجق أكثر حرية من غيرهم . وبعد القضاء على إمارة قرمان والسيطرة على منطقة سيواس في الأناضول ، صارت كل منهما إمارة أمراء مستقلة تحت إدارة أمير أمراء . وبذلك ، تعددت المناطق الإدارية في أنحاء الدولة .

وهكذا ، اكتسب اصطلاح إمارة الأمراء منذ ذلك الحين معنى المنطقة الإدارية . ولما تعددت إمارات الأمراء في منطقتي الروميلي والأناضول إعتباراً من أواسط القرن ١٥م/٩هـ ، أصبح مركز إمارة أمراء الأناضول مدينة أنقرة ، ثم نقلت إلى كوتاهية . أما مركز إمارة أمراء الروميلي فكان مناستير ثم نقل إلى فيلية . وعقب فتح المناطق الشرقية والجنوبية من الأناضول ، وضم سوريا ومصر والعراق ومناطق البحر ، أضيفت إي ولايات الدولة ولايات جديدة وهامة ، حيث اعتبرت الجزائر وتونس منطقة إدارية تابعة لقبطان البحر العثماني ، ثم شكل منها خلال النصف الثاني من القرن ١٦م/١٠هـ إيالات مستقلة . وقد بلغ عدد ولايات الدولة خلال هذه الفترة ٣٦ ولاية ، منها تسعة تدار بنظام الساليانه ، أما بقيتها (٢٧) فكانت تدار بنظام التيمار .

وهكذا ، كانت الإيالات (الولايات) العثمانية تنقسم إلى قسمين ، قسم يتقاضى أميرها مرتب سنوي ويطلق عليه اسم " ساليانه لي " ، وقسم آخر لا يحصل على مرتب سنوي ويطلق عليه اسم " ساليانه سز " . وكانت أكثر إيالات الدولة لا يحصل أمرائها على ساليانه سنوية . ومن الولايات التي لا يحصل أميرها على راتب سنوي : الروميلي وبودين والأناضول وقرمان وذو القدر وسيواس وأرضروم ودياربكر وحلب والشام وطرابلس ، وكان أميرها يوجه إليه بدلاً من الراتب السنوي مقاطعة زعامت أو خاص .

أما الولايات التي كان يحصل أميرها علي مرتب سنوي ، فكانت عبارة عن إيلات مصر والحبشة وبغداد والبصرة واليمن ومنطقة الحجار وبعض السناحق في إيالة قبطان البحر في الجزائر . فكانت الدولة تقوم بتوجيه الموارد المالية لهذه الولايات إلى ملتزم كل عام ، حيث كان قسم من الواردات السنوية لهذه الولايات يوزع كمرتبات علي أمير الأمراء والسناحق والجنود وموظفي الدولة ، وقسم آخر علي خدمات الدولة الميرية ، وإلتزامات الولاية ، وما يتبقى يرسل إلى خزينة الدولة كخزينة إرسالية .

وعلاوة علي هذه الولايات ، كان هناك في شرق الأناضول سناحق وولايات أخرى اعترفت بالنفوذ العثماني عليها ، حيث حررت لأمرائها براءات باعتبارهم مالكيين لها مدي الحياة ، تعطيهم الحق في توريثها لأعقابهم ، حيث كان هؤلاء يدفعون قدراً من الضرائب السنوية للدولة ويقدمون الخدمات العسكرية المطلوبة منهم عند الضرورة ، واطلق علي هذه المناطق الإدارية اسم " سربست ميرميرانلق " ٣٨٦ .

³⁸⁶ بخصوص مناصي إمارة الأمراء وإمارة السنحق ودورها العسكري والإداري في تشكيلات الدولة العثمانية ، وتحول هذين المنصبين إلى مناصب إدارية ، ومكانتهما في التقسيم الإداري العثماني ، أنظر: Metin Kunt, Sancaktan Eyalette : 1550-1650 Arasında Osmanlı Ümerası ve İl İdaresi, İstanbul 1978; Orhan Kılıç, "Klasik Dönem Osmanlı Taşra Teşkilâtı : Beylerbeyiler / Eyaletler, Kaptanlıklar, Voyvodalıklar, Melikler (1362-1799)", Türkler, c. X/887-898; Fatma Acun, "Klasik Dönem Eyalet İdare Tarzı Olarak Tımar Sistemi ve Uygulaması", Türkler, c. X/899-908; Nejat Göyünç, "Osmanlı Devleti'nde Taşra Teşkilâtı", Osmanlı, c.VI/77-88; Mehmet Ali Ünal, Osmanlı Devleti'nde Merkezî Otorite ve Taşra Teşkilâtı", Osmanlı, c.VI/111122

التشكيلات العسكرية لدي العثمانيين

لقد كان للنظم العسكرية لدي سلاجقة الأناضول والإلخانيين والمماليك تسأثر متفاوت علي التشكيلات العسكرية العثمانية . فقد كانت القوات العثمانية تنقسم إلي ثلاثة أقسام أساسية :

• قوات القابوقولي .

• قوات الولايات (وتشمل قوات الحدود) .

• القوات البحرية .

كان جند القابوقولي يتشكل من فرق أو ما عرف باسم " اوجاق " من المشاة والفرسان . وكان يمثل المشاة في هذه المرحلة ، اوجاقات الـ " يكيچري " (يكي چري/ الإنكشارية) ، والجه جي (المهمات) وطوبجي (المدفعية) . أما الفرسان ، فكانت فرقة واحدة في البداية . وكانت هذه القوات المركزية تتقاضى مرتبات دورية وترتبط بالسلطان ارتباطاً شخصياً ، حيث كانت تصحبه أينما وجد .

أما جند الولايات ، فكانوا يتشكلون من جند " السواري " ويعرفون باسم "تيمارلي سباهي" أي سباهية التيمار ، وجند المشاة ، والمسلم والعزب وقوات الغزاة المهاجمين (آقينجيلر) الذين كانوا يتركزون علي الحدود الغربية للدولة . وقوات البحرية في هذه المرحلة كانت عبارة عن البحارة التركمان وبعض فرق العزب ، حيث كان سباهية التيمار يشاركون في الخدمة في الأسطول العثماني في زمن الحرب .

أولاً - قوات مركز الدولة / الـ " قابو قولي " (الدرجاء العالي) :

كان أورخان قد قام بوضع أساس أول تشكيل عسكري عامل في الإمارة العثمانية بتوصية من أخيه علاء الدين والقاضي جاندارلي قره خليل ، حيث تم اختيار عدد زاد مع زيادة الفتوحات من الشبان التركمان ، وتشكيل جماعتين منهم ، الأولى من المشاة ، وهم جند الـ "يايا" والثانية من الفرسان وهم جند الـ "سواري" (مسلم) .

وقد قامت هذه قوات العشائر التركمانية بتحقيق نجاحات عظيمة في زمن أورخان غازي وأوائل عصر مراد الأول . وعلي الرغم من تشكيل جماعات جديدة عرفت باسم "القاير قولي" منذ ذلك الحين ، إلا أن هذه القوات التركمانية استمرت تعمل في تشكيلاتها علي نفس النظام القديم حتي أواسط القرن ١٥ م ، حيث راحت تستخدم بعد ذلك في خدمات الجيش كالنقل وسنك المعادن وانشاء القلاع وأعمال الترسانة البحرية وغيرها .

وعلي أثر اتساع الفتوحات في مناطق البلقان وسقوط عدد كبير من الأسري في يد القوات العثمانية وتزايد مقدار الخمس الذي يؤخذ من هؤلاء الأسري للحاكم في الوقت الذي زادت فيه حاجة الدولة لأعداد اضافية من الجنود ، اقترح جاندارلي خير الدين باشا ارسال هؤلاء الشبان من الأسري إلي العائلات التركمانية في الأناضول ليخضعوا للتربية الإسلامية ويتعلموا اللغة التركية ، ثم يُتخذ منهم بعد عودتهم جند جديد " يكي چري " . وبالفعل بدأ تنفيذ هذه الفكرة من خمس الأسري القادرين علي الحرب، وتم تشكيل فرق " عجمي اوغلان" و " يكي چري " لأول مرة في زمن مراد الأول .

فرقة " عجمي اوغلان " : أسست هذه الفرقة لأول مرة بغرض تشكيل أوجاق الكيچري في منطقة غاليبولي . وكان الشبان الأسري يسجلون في هذه الفرقة بعد عودتهم من الأناضول ، حيث كانوا يقيمون هناك لفترة حتي يتعلمون العادات والتقاليد الإسلامية واللغة التركية . وكانوا يتقاضون يومية مقدارها أقيچه واحدة . وبعد خدمتهم في هذه الفرقة (اوجاق) لفترة كانوا يرسلون إلي أوجاق (فرقة) الكيچري ، حيث كانوا يتقاضى كل منهم ٢ أقيچه يومياً .

وكانت فرقة أبناء العجم (عجمي اوغلان) هذه تنقسم إلي ثمان بلوكات ، حيث كان هؤلاء يعرفون أيضاً باسم " پنچيك اوغلاني " (أبناء الخمس) نظراً لأن هذه الفرقة كانت تشكل من خمس الأسري المقررين كضريبة للدولة .

وعقب موقعة أنقرة ، ونتيجة لتوقف الفتوحات العثمانية والصراع الداخلي علي العرش ، لم تقع معارك يمكن للدولة من خلالها وقوع القدر اللازم من الأسري لبقاء فعالية فرقة عجمي أوغلان . ولذلكُ شرع في الحصول علي أطفال النصاري بمقادير معينة من الرعايا في منطقة الروميلي بموجب قانون عرف باسم " ديوشيرمه " . وبعد تنشأة هؤلاء الغلمان ، كانوا يرسلون إلي قري الأناضول للخدمة هناك لفترة ، حيث يسجلون عند عودهم أيضاً في فرقة عجمي أوغلان . وكان ذوي المميزات الخاصة والملكات الفطرية من هؤلاء الديوشيرمة يرسلون للسراي العثماني ، حيث كان هؤلاء يخضعون لنشأة خاصة في القصور السلطانية الخارجية ، ثم يرسلون إلي السراي السلطاني بعد ذلك . وكان بقية الذين يتخرجون من هذه الفرقة يتوجهون بعد ذلك إلي أوجاق الكيجري وأوجاق الجبه (المهمات) وأوجاق الطويجي (المدفعية) والترسخانه^{٣٨٧} .

أوجاق الكيجري / الإنشطارية : وهم فرقة المشاة الخاصة بالسلطان

العثماني، شكلت في عام ١٣٦٣ م . وكان هذا الأوجاق يأخذ أفراداً من أوجاق عجمي أوغلان ، حيث كان يوزع عليهم مراتب دورية وفقاً لكفاءة كل منهم ولأقدميته . وكان أوجاق الكيجري أعلي فرق القابوقولي مكانة ونفوذاً في مركز الدولة ، وكانوا يلتفون حول السلطان وقت الحرب . وقد انقسم أوجاق الكيجري إلي بلوكين في عام ١٤٥١ م . وكان لكل بلوك معسكرات خاصة يقيم فيها يعرف باسم " أورطه " ، حيث كان يرأس البلوك " جوربه جي " أو " بلوكباشي " .

وكان أغا اليكيجري أكبر قائد لفرقة الكيجري ، حيث كان يأتي بعده "سكبان باشي" . كما كان هناك ضباط آخريين في هذه الفرقة منهم كتخدا الأوجاق وباش چاوش ومحضر أغا وغيرهم . كما كان كاتب أوجاق الكيجري أو أفندي الكيجري من أعظم أفراد هذه الفرقة مكانة بعد أغا الكيجري وسكبان باشي ، حيث كان يرأس هيئة من أرباب القلم لمعاونته للنظر في شئون الأوجاق وبالأخص المتعلقة منها

³⁸⁷ بخصوص نظام الديوشيرمه ، انظر : Nejat Göyünç, "Kuruluş Devrinde Askerî Teşkilât ve Devşirme Düzeni", Osmanlı, c.VI/558-560

بالمرتبات الدورية للفرقة ، وكان الوزير الأعظم شخصياً يقوم بتعيينه وعزله . وكان أفراد فرقة اليكيچري يتقاضون مرتباتهم مرة كل ثلاثة شهور في ديوان يعرف باسم "غلبه ديواني" .

وقد تعددت وظائف جند اليكيچري بين المهام الإدارية والعسكرية والأمنية ، حيث كان قسم منهم يقفون لحماية الديوان أثناء اجتماعاته بطريق المناوبة . وعقب انتهاء أعمال الديوان ، كانوا يعودون إلى ثكناتهم ثانية . أما عندما يخرج السلطان إلى احدي الحملات فكانوا يخرجون معه ، بحيث لا يترك في المعسكرات سوى المسنين منهم . وفي حالة عدم خروج السلطان إلى الحملة كانت فرق اليكيچري تخرج تحت قيادة أكبر ضباط الأوجاق ، وذلك لأن آغا اليكيچري كان لا يخرج إلا بصحبة السلطان نفسه . وكانت هذه الفرقة تأخذ موقعها في موضع القلب من الجيش العثماني عن يمين ويسار السلطان ومن حوله ، حيث كان يصطف أمامهم فرق المدفعية ، وأمام المدفعية كانت فرق العزب الخفيف تأخذ موقعها في مقدمة الجيش .

وكان آغا اليكيچري هو القائد الأعلى للأوجاق ، وهو المسئول عن كافة شئون الفرقة أمام السلطان . فكان يعقد ديوان تحت رئاسته يعرف باسم " آغا ديواني " يدير من خلاله شئون الفرقة ، وذلك بالإشتراك مع أغوات الفرق الأخرى في الجيش ، فكان يناقش فيه كافة الأمور المتعلقة بالأوجاق ، وكان أفندي اليكيچري أو كاتب الأوجاق أحد أعضاء هذا الديوان الرئيسيين . وكان آغا اليكيچري يرقى إلى مرتبة سوارى القابوقولى أو يرقى كسباهية تيمار . أما جندي اليكيچري فيرقى إلى سوارى القابوقولى أو سباهية تيمار . وقد وصل عدد أفراد فرقة اليكيچري حتى نهاية عصر القانونى إلى حوالي ١٢٠٠٠ فرد ، ولم يزد عن هذا القدر خلال مرحلة ازدهار الدولة .

أوجاق جبه جي / المصمات : وتعني كلمة " جبه " الدرع وما يلزم الجندي في ساحات القتال . وقد حمل هذا الاسم لدى العثمانيين معنى اصطلاحى ، حيث اطلق على فرقة " جبه جي " التي تقوم بأعمال صناعة وصيانة آلات السلاح وكافة احتياجات جند الييچري كالأقواس والسهم والدروع والسيوف والبنادق والبلط والبارود

والرصاص وغيرها . وكان جند هذه الفرقة يقومون بنقل لوازم الحرب اللازمة للجنود اليكي جري بالحمال والعربات ، حيث يوزعونها علي الجنود في جبهات القتال ، ثم يقومون بجمعها بعد الحرب ، واصلاح ما يحتاج إلي اصلاح ، ومن ثم يحفظ بها في مخازن الأسلحة .

وكان جنود هذه الفرقة أيضاً يأتون من فرقة " عجمي أوغلان " . قد قسم هذا الأوجاق إلي بلوكات متعددة يعرف كل منها باسم " اورطه " . وكان أكبر ضابط في اوجاق الجبهه جي ، هو " جبهه جي باشي " ، حيث يأتي بعده كتخدا الأوجاق . وكان لكل أورطه ضابط يعرف باسم " بلكباشي " .

اوجاق الـ " طوبجي " / المدفعية : كان هذا الأوجاق قد استحدث لسبك المدافع وصناعة قذائفها والعمل عليها . ويعد هذا الأوجاق احدى أوجاقات مشاة القابوقولي . وكان العثمانيون قد استخدموا المدافع لأول مرة في الجيش العثماني في معركة قوص أووا عام ١٣٨٩م . وقد انقسمت هذه الفرقة إلي بلوكات بعضها يقوم بسبك المدافع وبعضها الآخر تقوم بالعمل عليها . ولم تكن المدافع تُسبك في المصانع الموجودة بمركز الدولة ، حيث كانت الضرورة تقتضي في أحيان كثيرة سبك هذه المدافع أمام القلاع أثناء حصارها ، وذلك كما حدث في حملات المورة والأرناؤوط في عهد مراد الثاني وأثناء فتح استانبول .

وكان الجنود المنتسبين لهذه الفرقة يأتون أيضاً من أوجاق أبناء العجم . أما أكبر ضباط أوجاق الطوبجي فهو " طوبجي باشي " . وكان أفراد بلوكات هذه الفرقة يصطفون وقت الحرب أمام جند البيي جري ، حيث كانوا يقومون بحمايتهم من هجمات الأعداء بالمدافع التي كانت تأخذ موقعها من المقدمة . أما في وقت السلم فكان جند المدفعية يقومون بمهام خاصة لحماية قلاع استانبول أو قلاع الدولة المختلفة وبالأخص في المناطق الحدودية ، وذلك بطريق المناوبة . وفي أواخر القرن ١٥م / ٩هـ — تفرع من هذه الفرقة فرقة أخرى ، عرفت باسم " اوجاق سائقي عربات المدافع " ،

وكان العرض من انشائها هو سد العجز في تحمل أعباء نقل المدافع الضخمة في ميادين القتال .

أوجاق سوارى القابوقولي : وإذا كان أوجاق البيي جري (يكيچري)

الذي يمثل مشاة فرق القابوقولي قد حاز علي اهتمام عظيم من الدولة ، فقد كان نصيب فرسان فرق القابوقولي من هذا الاهتمام منقطع النظير . ولذلك راحت أوجاقات البيي جري والسواري تحقق إنجازات مبهرة علي مدي قرنين ونصف من الزمان خلال مرحلتى تأسيس الدولة وازدهارها .

وكان جند السواري يصلون إلي هذا الأوجاق بعد ترقيةهم من قسم خدم السراي الداخلي والخارجي ، أو من أوجاق البيي جري أيضاً . وكان الوزير تيمورطاش باشا كان قد اقترح تشكيل هذا الأوجاق في عصر مراد الأول ، حيث قسم في البداية إلي بلوكين أساسيين : بلوك سپاه وبلوك سلاحدار . وبعد ذلك ارتفع عدد بلوكات هذا الأوجاق إلي ستة بلوكات ، وذلك باضافة أربعة بلوكات جديدة هي : علوفه جيان يمين وعلوفه جيان يسار ، وغرباء يمين وغرباء يسار . وكان أوجاق السواري يرتبط بشخص السلطان نفسه كارتباط فرق البيي جري تماماً ، إلا أنهم كانوا أعلي درجة ومرتبة من فرقة البيي جري التي كانت أكثر نفوذاً في الدولة .

واعتباراً من أواسط القرن ١٥م أصبح بلوك السباه أعظم سواري القابوقولي مقاماً ، حيث كان يؤخذ أبناء رجال الدولة إلي هذا البلوك في المرحلة الأولى من تشكيل الدولة العثمانية . وقد انقسم هذا البلوك بمرور الوقت إلي ثلاثمائة بلوك ، وكان عدد أفراد كل بلوك يتراوح ما بين ٢٠-٣٠ سوارى، وكان يطلق عليه اسم "فيرمزي بايراق" . وبعد ذلك استحدثت بولك السلاحدار أو ماعرف أيضاً باسم " صاري بايراق " . وكان بلوك السلاحدار يتقدم في المرتبة علي بلوك السباه حتي عصر محمد الفاتح ، إلا أن دخول أبناء رجال الدولة إلي بلوك السباه منذ ذلك الحين رفع مقام هذا البلوك فوق بلوك السلاحدارية الذي انقسم بدوره إلي ٢٠٠ بلوك بالتدريج . وكان بلوك السباه أكثر

بلوكات السواري يومية ، حيث كانت كافة المرتبات اليومية لكافة البلوكات الأخرى أقل منه ، وذلك بحسب درجة كل منها .

وكان جند أوجاق سواري القابوقولي يخرج إلى الحملات الحربية مع السلطان ، حيث كانوا يحيطون به عن اليمين واليسار ، فيسير السباه عن اليمين ، أما السلاحدارية فيسيرون عن اليسار . وكان جند هذين البلوكين يقومون في الحرب بحماية معسكر السلطان ، أما البلوكات الأخرى فكانت تقوم علي حماية سناجق السلطنة سواء وقت الحرب أو في المعسكرات وحماية أحمال الجيش ومونه وخزائنه . وكان أفراد أوجاق سواري القابوقولي يقيمون في مناطق مراعى خضراء لا تبعد عن مركز السلطنة كثيراً ، وذلك لرعي حيواناتهم . أما أسلحتهم فكانت عبارة عن السهام والأقواس والقلقان والدروع والحرايب والبلط والخناجر والسيوف القصيرة وغيرها .

وكان لكل بلوك من بلوكات سواري القابوقولي أغا مستقل ، فكان سباه أغاسي وسلاحدار أغاسي أعلاهم مرتبة ، وكان لكل بلوك رئيس يعرف باسم "بلوكباشي" ، كما كان هناك ضباط آخرون في تلك البلوكات مثل الـ "كتخدا" ³⁸⁸ .

ثانياً - قوات الأيالات / حشره قوتلري :

وتمثل هذه القوات القوة الدافعة الأساسية في الجيش العثماني . تحتوي هذه القوات علي عنصر أساسي يتمثل في قوات سواي التيمار ، وعناصر مساعدة تختلف باختلاف نوع الولاية وطبيعتها الإدارية الجغرافية والعرفية . وأغلب هذه القوات لا تتقاضى مرتبات من خزانة الدولة ، إلا أن بعضها يشبه كثيراً قوات المركز من حيث نظمها الإدارية والمالية . والرئيس الأعلى لهذه القوات هو أمير الأمراء في كل ولاية .

³⁸⁸ فيما يتعلق بتفصيلات أكثر حول جند الباب السلطاني الذي يطلق عليه اسم " قابو قولي " ،

أنظر: Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Teşkilâtından Kapukulu Ocakları, I-II, Ankara 1984; keza bk. Özcan Abdulkadir, "Osmanlı Devleti'nin Askerî Yapısı", Türkler, X/107-114; İrina Ye. Petrosyan, "Osmanlı Devleti'nin Kuruluşu ve Yeniçerilerin Kökeni", Türkler, X/129-135

قواته سوارى التيمار : تعتبر تشكيلات سوارى التيمار هي أقوى حجر

أساس للدولة العثمانية ، حيث كان لها الدور الرائد والخدمات جليلة في اتساع الدولة والوصول بها إلى مقام الإمبراطوريات العظمى في العالم . وتقوم تشكيلات سوارى التيمار على نظام اقطاعي عرف في التاريخ العثماني باسم " نظام التيمار " . والحقيقة أننا شاهدنا مثل هذا النظام لدى الدول الإسلامية والتركية قبل العثمانيين . وقد وصلت الدولة العثمانية بهذا النظام إلى درجة الكمال بتطبيقه في الفتوحات التي قامت بها والمناطق التي ضمتها في الشرق والغرب . فوفقاً لهذا النظام كانت الدولة تقوم بالتنازل عن العشور والرسوم التي كانت تحصل من الأهالي في تلك المناطق المفتوحة وتركها لسباهية التيمار أو السوارى مقابل خدماتهم العسكرية لدى الدولة .

وكانت مقاطعات التيمار هذه التي توجه إلى أمراء الدولة على مختلف درجاتهم تنقسم إلى ثلاثة أقسام وفقاً للعشور والرسوم التي كانت تحصل منها . فكان " التيمار " يبدأ عشوره بألف أقة ويصل إلى ١٩٩٩٩ أقة . أما المقاطعة التي يبدأ خراجها من ٢٠ ألف أقة ويصل إلى ١٠٠ ألف أقة فيطلق عليها اسم " زعامت " ، والمقاطعة التي يزيد خراجها عن ذلك القدر فتعرف باسم " خاص " .

وكان هذه الرسوم والعشور السنوية التي كانت تحدد بمعرفة الدولة وتخصص سواء لسباهية التيمار أو لأصحاب المقاطعات من الأمراء ورجال الدولة ، لا تحول إلى خزينة الدولة ، وإنما كانت تترك لأصحاب المقاطعات ، حيث كان هؤلاء يقومون بتحصيل تلك العشور والرسوم المتروكة لهم بالذات أو بواسطة وسيط مقابل قيامهم ببعض الوظائف العسكرية في الدولة وخروجهم إلى الحملات مع جندي سوارى يطلق عليه اسم " جبه لي " أو عدة جنود مدرين ومجهزين بالأسلحة والرخائر ، وذلك وفقاً لحجم التيمار الموجه إليه . وقد حدد القانون أعداد جنود الـ " الجبه لي " التي يكلف كل سباهية تيمار أو أمير بتجهيزهم للحرب وفقاً لمساحة مقاطعاتهم وخراج كل منها ، حيث كانت كافة مصاريف الجبه لي يؤدها صاحب المقاطعة . وكانت تسحب المقاطعة من السباهية الذي لا يخرج للحملات العسكرية دون عذر مقبول ، كما كانت تجري

علاوات علي من يقوم بالمهام الموكلة إليه . وكان علي السباهية أو صاحب الأرض أن يقيم في المنطقة الخاصة به . وعندما كان يتوفي صاحب التيمار ، كان يحول جزء من أراضي التيمار إلى ابنه الذكر ، وإلا يتم تعيين أكبر ضباط التيمار علي المقاطعة المنحلة .

وكان سباهية التيمار ينقسمون إلى عدة بلوكات في كل سنجق . وكان لكل بلوك رؤساء للعسكر يعرف كل منهم باسم " صوباشي " ، و " بايراقدار " و " جاوش " .

وكان كل عشرة بلوكات تحت إمرة " أميرألاي " . وكان أمراء الألاي هؤلاء يذهبون إلى الحملات عند وقوع حرب ما تحت إمرة أمراء السناجق الموجودين ضمن مناطقهم .

وكان هؤلاء أيضاً يخرجون تحت قيادة أبناء السلاطين أو أمراء الأمراء . وفي أثناء الحملة كان عشير السباهية يقومون بالمناوبة في البلاد سواء لحماية مناطقهم وتأمين الاستقرار والأمن فيها أو تسوية وإتمام شئون اخوانهم الذين خرجوا إلى الحملات ، كما كانوا يقومون بمباشرة شئون أراضيهم .

وقد ضعف هذا الجيش منذ الربع الأخير من القرن ١٦م/ ١٠هـ — ، وذلك عقب زيادة الحاجة لجند المشاة لحروبها في البحر ، وتحويل الكثير من مقاطعات التيمار إلى ملك خاص ، واشتغال حركات العصيان في مختلف مقاطعات الأناضول ، الأمر الذي أحدث اضطراباً عاماً في نظام التيمار ، ومن ثم في جيش التيمار .

جند العزب : وهم جنود المشاة الخفيف في الجيش العثماني . وكانوا يختارون من الشباب التركماني الأعزب في مختلف مناطق الأناضول ومن كانت لديهم قوة وكفاءات قتالية مميزة . وكانت مصاريق هؤلاء تلقى علي عاتق المناطق التي جمعوا منها .

أما أسلحتهم فكانت عبارة عن السهام والأقواس والسيوف العريضة . وكان يؤخذ جندي عزب واحد من بين عشرين أو ثلاثين مئزلاً طبقاً لإحتياجات الدولة . وكان هؤلاء يقدر أعدادهم بنحو ١٥ - ٢٠ ألف عزب تقريباً .

وكانت هذه الفرقة تتخذ موقعها في ميدان القتال أمام جيش المركز ، حيث كانوا يتعرضون للهجوم الأول ، وخلف هؤلاء كانت المدافع تتخذ مواقعها ، وخلف

المدافع كان جند البني يجري يحيطون بالسلطان في قلب الجيش . وعند بداية المعركة كان جند العزب هؤلاء يفتحون صفوفهم يمينا ويساراً ، حيث يتيحون لفرق المدفعية فتح نيرانها علي العدو . وقد استحدثت بعد ذلك فرق عزب أخرى للقيام بمهام أمنية في قلاع الدولة وفي عرض البحار . وقد بلغ عدد بلوكات العزب خلال القرن ١٠م / ١٠هـ حوالي ٩٢ بلوك ، في كل بلوك حوالي ٧-٨ أفراد . وكانت هذه الفرقة يختلف مواقع عملها في كل ولاية بحسب طبيعة الولاية .

أقينيچيلر / المهاجمون / الغزاة : وهم قوات من الفرسان الخفيف ، تم تشكيلهم من الشبان التركمان أيضاً . وتحتل هذه الفرق مواقعها علي حدود الدولة بصفة دائمة . وكانت هذه القوات تقوم في البداية بالهجمات علي أراضي الأعداء ، حيث كانوا يحصلون من الأسري الذين يقعون في أيديهم علي معلومات خاصة ببلادهم . وكانت أهم الوظائف الموكلة إلي فرقة المهاجمين هذه ، استكشاف مناطق العمليات وكشفها للجيش العثماني ، وفتح الطريق للجيش بعد عملية كشف أراضي الأعداء ، والحيلولة دون تشكيل واقامة العدو كمائن في طريق الجيش ، والمحافظة علي المحصولات الموحودة في الأماكن التي سيمر بها الجيش حتي لا يقوم العدو بتخريبها ، وأسر الأسري للحصول علي المعلومات اللازمة عن العدو ، واقامة الكباري والجسور بعد تعيين ممرات الأنهار . ولذلك ، كانت فرق المهاجمين تتقدم عن القسم الأعظم من الجيش بأربعة أو خمسة أيام . وكان لهذه الفرق تأثير معنوي علي أهالي المناطق التي يُعد لفتحها ، نظراً للدور الذي كانوا يقومون به في تمهيد معنويات أهالي المناطق الأصليين لإستقبال الجيوش العثمانية .

وكان الغزاة المهاجمون يأخذون مواقعهم في أماكن مختلفة من حدود الدولة . وكانت كل مجموعة منهم تقع تحت قيادة " أقينيچي " ، وكل ألف فرد تحت قيادة " بكباشي " وكل مائة تحت قيادة " يوزباشي " ، وكل عشرة تحت قيادة " أون باشي " ؛ وكان يقود كل هؤلاء رئيس أعلي هو " أقينيچي قومانداني " أو " أقينيچي بكسي " أو " أقينيچي سنحق بكسي " . وكانت جماعات المهاجمين هذه تتمركز في مناطق الروميلسي

المختلفة علي شكل أوجاقات مستقلة ، وكان كل أوجاق يعرف باسم قائده ، حيث اشتهر من هؤلاء اسم أورانوس بك ، وميخال اوغللري ، وطوراخان بك وغيرهم . وقد نعت هذه الفرق دور عظيم في الفتوحات العثمانية في البلقان ووسط أوروبا حتي أواخر القرن ١٦ .

وعلاوة علي هذه الفرقة ، كان هناك فرقة أخرى تشبهها في الوظائف الموكلة إليها ، هي فرقة " دليلر " . وهي كانت تتشكل من الفرسان الخفيف ، يشتهر أفرادها الذين يعينون من التركمان بالشجاعة منقطعة النظر ، وكانوا يقومون بالمهام الموكلة إليهم تحت قيادة امراء الأمراء وأمراء السناحق التابعين لهم . وتعتبر هذه الفرقة من قوات الحدود التي ظهرت في أوائل القرن ١٦م / ١٠هـ^{٣٨٩} .

ثالثاً - القوات البحرية العثمانية :

لقد بدأ النشاط البحري العثماني عقب ضم نواحي إزميت وإمارة قراسي خلال عصر أورهان غازي ، حيث استفاد العثمانيون من سفن إمارة قراسي التي كانت تمتلك اسطولاً متكاملأ . وبعد عبور العثمانيين إلي الروميلي ، وفي أواخر القرن ١٤م / ٨هـ ، وبعد أن تمكنوا من ضم إمارات صاروخان وأيدين ومنتشه البحرية ومصادرة العثمانيين لأساطيلها ، وراحوا ينشئون أول ترسانة لهم في خليج شبه جزيرة غاليبولي ، أصبح للدولة العثمانية اسطولاً بحرياً . ولكن هذا الأسطول الناشئ لم يكن يقارن بأساطيل البندقية القوية بحال . إلا أنه بعد العديد من التجارب البحرية القاسية مع البنادقة ، بدأت البحرية العثمانية تكتسب الخبرة والدارية تدريجياً . وهكذا ، استطاع الأسطول العثماني يمثل تهديداً فعلياً لأمبراطورية طرابزون علي البحر الأسود في عهد مراد الثاني ، حتي

³⁸⁹ فيما يتعلق بقوات الولايات ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/566- 575; keza bk. Özcan Abdulkadir, " Osmanlı Devleti'nin Askerî Yapısı", Türkler , X/114-117; Seyyid Muhammed Es-Seyyid, "Osmanlı Askeriyesinde ve Askerî Tarihinde Mısır'ın Yeri", Türkler, X/159-171

وصل عدد القطع البحرية التي شاركت في محاصرة القسطنطينية في عهد محمد الفاتح نحو ثلاثمائة قطعة من مختلف الأحجام .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأسطول العثماني خلال عهد الفاتح تمكن من اكتساب الخبرة باحتكاكه المستمر بالبنادقة ، حيث بدأت البحرية العثمانية تشهد مرحلة جديدة في عهد بايزيد الثاني علي أثر رغبة الدولة في أداء واجبها في انقاذ مسلمي الأندلس . وخلال عهد سليم الأول ، وعلي اثر ضم أملاك المماليك في الشام ومصر ، حرص السلطان العثماني علي إعداد الأساطيل القوية لمواجهة تعديات البرتغال في البحر الأحمر والأسبان في البحر المتوسط . غير أن سليمان القانوني ، استطاع خلال عهده من السيطرة علي البحار المتوسط والأحمر والأسود سيطرة مطلقة بتشكيل قبطانية البحر تحت قيادة بربروس خير الدين باشا لأول مرة عام ١٥٣٤م/٩٤١هـ ، حيث انشأت ترسانات جديدة في البحر المتوسط وبحر مرمرة وخليج السويس .

والحقيقة أن العثمانيون لم يعانون من صعوبات تتعلق بتوفير لوازم بناء السفن . وكان الأسطول العثماني يعتمد علي السفن نصف الشراعية المعروفة باسم " قادرغه " ، وكان هذا النوع أكثر أنواع السفن الحربية ضخامة في هذه الفترة . وكان يعمل علي كل سفينة قادرغه نحو مائة محارب علاوة علي عمال الشراع وغيرهم ، بحيث كان مجموعهم يبلغ ٣٠٠ فرد . كما كان هناك أنواع أخرى من السفن الأكبر حجماً كسفن الماونه ، بحيث كان مجدافها الواحد يحركه سبعة رجال ، وتحمل ٢٥٠ محارب و٢٤ مدفع . وكان القبطان باشا يستعمل سفينة أكبر من ذلك بكثير تعرف باسم "باشطارده" تحمل علي ظهرها نحو ٨٠٠ رجل علاوة علي المدافع وجنود المدفعية . وكان العثمانيون يعتمدون خلال هذه المرحلة علي جند اللوند والعزب والبحارة التركمان في إدارة شئون الأسطول ، كما كانت بقية الفرق العسكرية تشارك في المعارك البحرية التي تخوضها الدولة^{٣٩٠} .

³⁹⁰ فيما يتعلق بتطور تشكيلات الدولة العثمانية البحرية ، أنظر : Uzunçarşılı, Merkez ve Bahriye Teşkilâtı, s.389-340; keza bk. Gencer Ali İhsan,

وهكذا ، يكون السلاطين العثمانيين قد نجحوا في تأسيس دولتهم والدفع بها إلى الرقي والإزدهار بمساعدة تشكيلات إدارية ومالية وقضائية وعسكرية فذة وعديدة ومن خلال مؤسسات كانت الأكثر تطوراً ونظماً ودقة خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار . وكان يقف خلف هذا الصرح العظيم قاعدة دينية وعلمية واجتماعية ، كان لها أبلغ الأثر في تحقيق حالة من الاستقرار والرقي في المجتمع العثماني علي اختلاف أجناسه وأديانه ولغاته ، واتساع جغرافيته ، وقوة التحديات التي واجهها خلال مرحلتي التأسيس والإزدهار .

“Osmanlı Türklerinde Denizcilik”, Türkler, c.X/569-589; İdris Bostan, “Beylikten İmparatorluğa Osmanlı Denizciliği”, Osmanlı, c.VI./122-128 ، كذا بخصوص الجيش العثماني في عصر الإزهار ، أنظر : Cemalettin Taşkıran, “Yükselme Döneminde Osmanlı Ordusu”, Osmanlı, c.VI./561-568

المؤسسات العلمية في الدولة العثمانية

لم تكن الأراضي العثمانية بعيدة عن التأثير الحضاري الإسلامي ومؤسساته العلمية والاجتماعية وحركته الفكرية بحال . فقد كانت إمارة آل عثمان جزء لا يتجزأ من أراضي الدولة السلجوقية السنية ، حيث ورثت هذا الموروث الحضاري للدول الإسلامية السابقة عليها . ولما كانت المؤسسات العلمية في مصر وسوريا وإيران ووسط آسيا خلال القرنين ١٤-١٥م / ٨-٩هـ أكثر رقياً وازدهاراً من مدارس الأناضول ، فقد كان طلبة العلم في مناطق الأناضول يتوجهون إلى تلك البلدان للتخصص في العلوم المختلفة . ونذكر من هؤلاء داود القيصري الذي تلقى تعليمه في القاهرة ، ومحسن القيصري في الشام وقارا خواجه علاء الدين في إيران ، وقاضي زاده رومي موسي في خراسان وما وراء النهر ، وفناري محمد حمزه وصماونه لي بدر الدين محمود في القاهرة ، وعلاء الدين الرومي في سمرقند .. وغيرهم .

والحقيقة أن منطقة الأناضول والإمارات التركمانية بها زحرت بالكثير من العلماء والأدباء الذين ساهموا في ظهور معالم اللغة التركية العثمانية خلال القرن ١٤م . وعلى أثر ظهور الخطر التيموري في شرق ووسط الأناضول في مطلع القرن ١٥م/٩هـ، فرّ الكثير من علماء ومشايخ الإمارات التركمانية المختلفة إلى الطرف الأوروبي ، حيث راح سليمان جلبي الذي كان قد أعلن سلطنته في أدرنه يستقبل هؤلاء العلماء ويعين لهم الرواتب الدورية ، مما نشط الحركة الأدبية والثقافية في الدولة خلال هذه المرحلة .

وعقب فتح استانبول عام ١٤٥٣م/٨٥٧هـ ، حرص السلطان محمد الفاتح علي جعل هذه المدينة الإستراتيجية تأخذ مكانها اللائق كواحدة من المراكز الثقافية الهامة في العالم الإسلامي . وهكذا ، راحت حركة النشاط العلمي والثقافي تعلن عن نفسها خلال عهد الفاتح بعد أن عاد الدارسون والعلماء من كافة أنحاء العالم الإسلامي ليتخذوا من عاصمة الإسلام في اسلامبول مركزاً لهم . ومن بين هؤلاء العلماء الذين عادوا للأراضي العثمانية الشيخ محمد الجذري والشيخ أحمد الجذري ، وابن عربشاه ،

وهي تتجى عبد الواحد ، وفخر الدين العجمي ، وفتح الله الرياضي . وقد راح يتزايد نزوح العلماء إلى الأراضي العثمانية في النصف الأول من القرن ١٦م / ١٠هـ . وبعد تأسيس الدولة الصفوية في إيران عام ١٥٠٢م / ٩٠٨هـ راح الكثير من علماء وصناع إيران المهرة يهاجرون إلى الدولة العثمانية هرباً من الدولة الشيعية . وعلي أثر ضم أملاك دولة النمانيك في الشام ومصر والعراق بما فيها مركز الخلافة الأموية والخلافة الفاطمية والخلافة العباسية ، وأصبحت استانبول حاضرة الخلافة الإسلامية ، صارت ملاذ كل ملهوف وملجأ كل مظلوم ومأوى كل طالب حكم ومال ، ومقر العلماء والفقهاء في العالم الإسلامي .

لم يكتف العثمانيون بضم الخواضر والمراكز الإسلامية ، وفتح الممالك الأوروبية فحسب ، بل حرصوا علي نقل العشائر التركمانية والراغبين من العلماء والفقهاء وأرباب الطرق الصوفية من الأناضول إلى المناطق التي فتحت حديثاً وفقاً لبرنامج محدد ، حيث تمكن هؤلاء من اكساب تلك المناطق المفتوحة الطابع الإسلامي التركي بوضع الأساس فيها للمؤسسات العلمية والإجتماعية المختلفة .

المؤسسات العلمية في الدولة العثمانية : لقد اهتم أورخان غازي الذي

وضع الأساس الأول للدولة العثمانية بوضع النواة الأولى للمؤسسات العلمية والاجتماعية اهتمامه بالمؤسسات الإدارية والعسكرية والقضائية المختلفة في الدولة . فخطي الخطوة الأولى في هذا الخصوص باقامته مدرسة بحوار العمارة والجامع الكبير الذي أمر ببنائه في إزنيق . وقد أقيمت هذه المدرسة في عام ١٣٣١م / ٧٣١هـ أي عقب فتح المدينة التي اتخذها مركزاً له ، حيث عين عليها داود القيصري بيومية قدرها ٣٠ أقچه . وبعد مدرسة إزنيق ، أسست مدرسة أخرى في بورصة عام ١٣٣٥م / ٧٣٥هـ ، وذلك بعد أن حولت كنيسة بورصة الكبيرة إلى جامع ، وأقيم حولها حجرات للطلاب ، وأوقف عليها الأوقاف .

وخلال عهود مراد الأول وييلدرم بايزيد ومحمد جلبي ثم مراد الثاني ، شهدت الحركة العلمية في الدولة ازدهاراً تدريجياً ، حيث راح كل سلطان يقيم مؤسسات علمية

في كل الأراضي المفتوحة ، وأخذ رجال الدولة وامراتها يقلدون السلاطين في ذلك ، حيث كانت هذه المؤسسات التعليمية عاملاً هاماً لإنتشار الثقافة الإسلامية في مناطق الروميلي خلال فترة قصيرة . ومن ناحية أخرى ، فقد حافظ العثمانيون على المؤسسات التي كانت الإمارات التركمانية قد أقامتها من قبل ، فأوقفت على الأوقاف ، وعين عليها العلماء . وخلال النصف الأول من القرن ١٥م/٩هـ ، أصبحت أدرنة مركزاً حصيناً للدولة العثمانية ، حيث حلت مدارسها محل مدارس بورصة ، حيث قام مراد الثاني اقام فيها المدارس ودار الحديث والجوامع والعمارات والمعلمخانة والمسافرخانه والمولويخانه . وقد استمرت مدارس أدرنة تحافظ على مكانتها المتصدرة بين مدارس الدولة حتي افتتاح مدارس "صحن ثمان" في استانبول خلال عهد محمد الفاتح . وقد قسمت هذه المدارس إلى مدارس عالية ومدارس متوسطة ومدارس ابتدائية . وكانت المواد الدراسية في هذه المدارس تنحصر في العلوم الدينية والفلسفية والرياضية والأدبية .

وخلال عهد سليمان القانوني ، وعلى أثر شعور الدولة بالحاجة لتدريس العلوم الرياضية الطبية ، أقام السلطان أربع مدارس لتدريس علوم الرياضيات ، وذلك علاوة على مدرسة دار الحديث ومدرسة الطب ، حيث أطلق عليها جميعاً اسم "مدارس السلمانية" عام ١٥٥٦م/٩٦٣هـ في حجرات جامع السلمانية .

وقد قسمت هذه المدارس لعدة أقسام نظراً للدروس التي كانت تلقى بها : مدارس التلويح ، ومدارس المفتاح ، ومدارس حاشية التجريد ، ومدارس الداخل والخارج ، وذلك علاوة على مدارس الصبيان التي كانت تقوم بتعليم مبادئ القراءة والكتابة والنحو والصرف للصبية الصغار .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الغرض الأساسي من تأسيس مثل هذه المدارس خلال مرحلة تأسيس الدولة العثمانية ، هو توفير فئة من الإداريين المهرة من ناحية ، وفئة أخرى من المدرسين الذين يمكنهم أن يضطلعوا بالعملية التعليمية مستقبلاً ، وفئة ثالثة لتخريج القضاة والحكام في الولايات المختلفة . والحقيقة أن هذه المدارس نجحت في القيام بهذه المهمة خلال هذه المرحلة .

تطور الأوضاع الأدبية في الدولة العثمانية خلال مرحلة التأسيس :

لقد أرتبطت الأوضاع الأدبية في الممالك العثمانية خلال هذه المرحلة بالأحوال التي كانت موجودة في الأناضول بصفة عامة خلال القرن ١٤م/٨هـ . فكما صادفنا اهتمام أمراء الأناضول باللغة التركية وتحويلها إلى لغة كتابة ، لعب العثمانيون منذ وقت مبكر دور هام لجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية للدولة العثمانية ، فظهرت بوادر الآثار الأدبية تترأ وشعراً محررة باللغة التركية خلال هذه الفترة . فلما ضم العثمانيون الكثير من إمارات الأناضول ، انتقلت المؤسسات العلمية والاجتماعية التي كانت موجودة بهذا الإمارات إلى العثمانيين ، كما دخل العديد من العلماء والأدباء في تلك المناطق في خدمة السراي العثماني ، فلعبوا دوراً بارزاً في تطور اللغة التركية ونشاط الحركة الفكرية في تلك المناطق . وهكذا ، يكون العثمانيون قد حرصوا علي توحيد التيار الثقافي والأدبي في الأناضول كما سعوا علي توحيد الأناضول سياسياً من قبل ، لتكون القوة الدافعة لنقل الثقافة الإسلامية - التركية إلى المناطق المفتوحة شرقي أوروبا .

المرحلة الصوفية في الأناضول : لقد عاشت طرق الآخيان والبابائية

والمولوية في الأناضول أزهي عصورها في الأناضول خلال مرحلة تأسيس الدولة العثمانية، حتي أننا نصادف التأثير الواضح لهذه الطرق الصوفية علي كافة إمارات الأناضول التركمانية دون استثناء . فقد نشأت طريقة الآخيان والبابائية (الآلب) في المحيط العثماني منذ البداية ، حيث أصبح لها نفوذ كبير في مختلف أنحاء الممالك العثمانية . وهكذا ، وجدنا العديد من الآثار الصوفية المنظومة والمنثورة تنتشر في الأناضول بغرض الدعوة إلي مثل هذه الطرق فشهدنا دواوين عاشق باشا ويونس إمرة وسلطان ولد وغيرهم .

والحقيقة أن الإمارة العثمانية قد استفادت خلال مرحلة تشكيلها الأولي من نفوذ رؤساء طريقة الآخيان ، فمثلما كان الشيخ أدب عالي واحد من علماء هذه الطريقة ، كان القادة الغزاة آخي حيدر وآخي محمود رفاق عثمان غازي في الجهاد ، وجاندرلي قره خليل كانوا ينتمون لهذه الطريقة . وقد استمر نفوذ الآخيان علي إمارة

آل عثمان حتي النصف الأول من القرن ١٥ م . ومن ناحية أخرى ، كان للطريقة السي عرفت باسم ببائي تأثير عظيم في الأناضول أيضاً خلال القرن ١٤ م ، حيث اهتمت الإمارة العثمانية بالغزاة المنتسبين لهذه الطريقة ، فكانت تقيم لهم الزوايا وتعين لهم الرواتب . وخلال عصر مراد الأول دخل المنتسبين لهذا الطريقة من الآلب إلى فرقة اليي جري التي كانت قد شكلت حديثاً . وقد انتشرت الببائية في مختلف مناطق الأناضول ، حيث شوهدها أتباع كثيرون في ولايات سيواس وجوروم ويوزغات وإزمير وباليكسير وقونية ونواحيها .

حماية العلماء والمفكرين في الدولة العثمانية : لقد كانت حماية

السلطين العثمانيين للعلماء في الدولة ، سبباً لجذب الكثير من رجال الفكر والفن من مختلف المراكز الثقافية في العالم الإسلامي إلى مركز الدولة العثمانية . ومن ثم قام هؤلاء العلماء والفنانون بمساهمات عظيمة في تطور اللغة التركية من خلال ما كانوا يؤلفونه من آثار باسم الأمراء والسلطين العثمانيين ، مما أدي إلى سرعة تقدم وازدهار الحياة الثقافية في الأناضول . فمثلاً حرص سليمان باشا ابن أورخان ، ومراد الأول وييلدرم بايزيد وجاندارلي خليل خير الدين ، وإبنه علي باشا علي حماية وتشجيع العلماء في القرن ١٤م/ ٨هـ، كان لسليمان جلبي ومحمد جلبي ومراد الثاني وتيمورطاش باشا وأومبور بك وغيرهم في القرن ١٥م/ ٩هـ ، دور بارز في الاهتمام بالعلماء وتعيين الرواتب الدورية والعينية لهم . فكان لهذه الحماية أثر ايجابي في حركة التأليف والترجمة بالتركية للعديد من الكتب والآثار في مختلف فروع العلم .

والحقيقة أن حماية العلماء في الدولة العثمانية ازداد باطراد مع ازدهار الدولة العثمانية خلال عهود محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني ، حيث كان لذلك عظيم الأثر علي تطور الحركة العلمية في الدولة العثمانية مواكبة بذلك حركة الفتوح في الشرق والغرب والشمال والجنوب .

المؤسسات الاجتماعية لحبي العثمانيين :

كما شاهدنا العثمانيين يقومون بتأسيس العديد من المؤسسات التعليمية في المناطق التي فتحت أو ضمت حديثاً إلى أراضيهم ، نصادف أن المؤسسات الاجتماعية قد شهدت رواجاً يوافق الاتساع المطرد في حدود الدولة . وقد تعددت هذه المؤسسات في الدولة العثمانية ، فشملت الجوامع والعمارات والمستشفيات ومنازل القوافل والكباري والخانات والحمامات وسواقي السبيل والزوايا وغيرها ، حيث أوقفت الأوقاف علي هذه المؤسسات لصيانتها والصرف عليها وعلي القائمين علي شئونها حتى تستمر ممارسة خدماتها الاجتماعية بدون تقصير، كما كانت الدولة تخصص قسم من الضرائب التي يتم تحصيلها من الرعايا للمحافظة علي هذه المؤسسات حتى تستمر تلعب دورها المميز في المجتمع العثماني .

الجوامع : كانت الجوامع تأتي علي رأس المؤسسات الاجتماعية في الدولة ، حيث كان المسجد منذ صدر الإسلام يقوم بدوره كمسجد للعبادة ومنتدى لاجتماع المسلمين ينظرون فيه شئوهم ويأخذون فيه قراراتهم ويفصلون فيه في مشكلاتهم ، ويتلقون فيه تعليمهم . ولذلك لعب الجامع هذا الدور الرائد في الدولة العثمانية خلال مرحلة التأسيس . وعلي الرغم من ذلك ، فقد كانت الجوامع التي أنشأها أورخان غازي ومراد الأول وييلدرم بايزيد وچلي محمد ومراد الثاني من الأمراء والسلاطين العثمانيين ، الموجودة في بورصة وأدرنة وإزنيق ، وذلك علاوة علي جوامع ياشيل جامع الذي أقامه جاندارلي خليل خير الدين والجامع الذي أنشأه بايزيد باشا في أماسيا وغيرها من الجوامع الكثيرة التي أنشأها السلاطين والأمراء العثمانيين في مختلف أنحاء الدولة ، كانت تمثل نماذج معمارية فريدة وعالية القيمة.

وقد اتسع نشاط بناء الجوامع والمساجد خلال مرحلة ازدهار الدولة فشمل كافة المدن المفتوحة والتابعة للدولة ، فشهدنا جوامع الفاتح وبايزيد والسلطان سليم والشهزاده ومهرماه والسليمانية ومحمود باشا ومراد باشا ونيشانجي وجاندارلي زاده إبراهيم باشا وصقوللي محمد باشا في استانبول ، كما شهدنا آثار سلاطين عصر

الإزدهار ووزرائهم وولاتهم في مختلف ولايات الدولة لا تقل عظمة ولا قيمة عن تلك التي أقيمت في مركز الدولة .

العمارات : وهي أحدي المؤسسات الاجتماعية التي امتد أثرها وعمّت فائدتها إلي عصرنا الحديث . وكانت هذه العمارات عبارة عن أماكن يأوي إليها كل ذي كبد رطب من الإنسان والحيوان ، تقيّة الحر والبرد يوفر له فيها الماء والطعام ، وكافة احتياجات المحتاجين والأيتام وطلاب العلم وابن السبيل . فقد أنشأ أورخان غازي أول عمارة مع مدرسة إزنيق ، كما أنشأت أسرة جاندarli في إزنيق أيضاً ثلاث عمارات حتي صارت العمارات الموجودة هناك سبع عمارات . أما في بورصة ، فكان هناك أربعة وعشرين عمارة أقامها الوزراء والأمراء علاوة علي العمارات الكبرى التي أمر بإنشائها كل من مراد الأول وييلدرم بايزيد ومحمد جلي و مراد الثاني خلال مرحلة تأسيس الدولة ، وأوقفوا عليها الأوقاف . وقد قام أمراء الدولة بالإسهام في إنشاء مثل هذه العمارات في كافة ولايات الدولة . وقد زادت اسهامات السلاطين والأمراء في عهد الإزدهار ، حيث شملت كافة انحاء الدولة العثمانية خلال عهود محمد الفاتح وبايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني .

المستشفيات : وتعد المستشفى التي أمر بييلدرم بايزيد بإنشائها في عام ١٣٩٩م / ٨٠١هـ في شرق مدينة بورصة وبحوار المسجد عند أولوداغ ، أول مستشفى يقيمها العثمانيون . وقد حررت لهذه المستشفى وقفية عام ١٤٠٠م / ٨٠٣هـ ، حيث تبين الوقفية أن السلطان بايزيد طلب من السلطان المملوكي الظاهر برقوق أن يرسل إليه طبيب متفقه في الطب للعمل في هذه المستشفى ، فأرسل إليه طبيب يدعي شمس الدين الصغير . وكان في هذه المستشفى ثلاثة اطباء وفردين من الصيادلة ، وفردين من ملاحظي المرضى وطباخ وخباز وغيرهم من الخدمة . ولما ضم العثمانيون ولايات سيواس وأماسيا وتوقات وچانقري وقسطموني وقونية ، أقرروا شروط الأوقاف التي اوقفت علي مختلف المؤسسات ومنها المستشفيات ، حيث استمر العمل فيها وفقاً لشروط الوقف .

وقد أنشأ محمد الفاتح مستشفى عقب إقامته مدارس صحن ثمان عام ١٤٧٠م/٨٧٥هـ ، وأوقف عليها الأوقاف . وفي عهد بايزيد الثاني قام أقام السلطان مستشفى في أدرنه ، وإلى جوارها مدرسة للطب عام ١٤٨٥م/٨٩٠هـ . وفي عام ١٥٣٩/٩٤٦هـ ، أمرت حرم سلطان زوجة سليمان القانوني ببناء مستشفى إلى جوار جامع خاصكي سلطان في استانبول . كما أمر السلطان سليمان القانوني بإنشاء مستشفى إلى جوار كلية السلمانية عام ١٥٥٥م/٩٦٣هـ . ولم يتردد وزراء الدولة وأمرائها في المساهمة في إقامة المتشفيات في كافة أنحاء الدولة والإهتمام بما كان موجود منها وتدعيمة ووقف الأوقاف عليه.

منازل القوافل والخانات :

وهي تلك المنازل التي كانت تقام على انطرق في المدن والضواحي . وكانت هذه المنازل تختلف عن بعضها البعض ، فكان يطلق على المنزل الذي توجد في صحنه فسقية وفناء واسع اسم " كره وت " ، أما المنزل الذي له حدود معلومة فكان يعرف باسم " كروانسراي " . ولم يكن بهذه المنازل حجرات ، بل كان الأفراد يجلسون على الكروت ويتكثون عليها . وما يميز هذه المنازل عن الخانات التي كانت موجودة على الطرق أيضاً ، هو أن تلك الخانات كان بها حجرات تشبه حجرات الفنادق اليوم إلى حد كبير . وكان الكروانسراي عبارة عن منزل استضافة عام يرد إليه المسافرين ، حيث كان أي شخص يمكن أن يتزل في هذه المنازل بصرف النظر عن ملته أو دينه أو مذهبه ، فكان له حق الأكل والشرب والنوم ثلاثة أيام . وكانت الدولة تضع على مثل هذه الأماكن أفراد منابذة لحماية قوافل المسافرين والتجار من أي هجوم يمكن أن يتعرضوا له عند مرورهم من الأماكن الخطيرة والوديان السحيقة . وكان هؤلاء المناوبون يقيمون بجوار طرق السفر .

الزوايا :

لقد لعبت هذه الزوايا دوراً هاماً في تأسيس الدولة العثمانية ، حيث كانت هذه الزوايا تُمنح لأفراد طرق الأخيان والآلب كوقف . وكانت تقع عموماً في أطراف المدن والضواحي وفي القرى وعلى الطرق . أما أصحاب هذه الزوايا الذين كان يطلق عليهم إسم زاويه دار ، فكانوا يقومون بزراعة الأراضي التي تُمنح لهم حول الزاوية

كوقف ، حيث كان يصرف دخل هذه الأراضي علي الزاوية . وكان لكل مسافر يمر علي الزاوية مكان للطعام والشراب والنوم³⁹¹ .

³⁹¹ بخصوص اسهامات الدولة العثمانية العلمية والاجتماعية وتفاعلهم مع الحركة الحضارية في العالم

الإسلامي خلال عصري التأسيس والإزدهار ، أنظر : Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, II/583-590, 637- 646

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- بنجيك قانوني ، مكتبة عارف أفندي ، رقم ١٧٣٤
- خضر إلياس ، تاريخ أندرون ، استانبول ١٢٧٦
- عارف محمد ، قانون نامه آل عثمان ، تاريخ عثماني أنجماني مجموعه سي ،
العلاوة ، استانبول ١٣٣٠
- عاشق باشا زاده ، تواريخ آل عثماني ، نشر علي بك ، استانبول ١٣٣٢
- عبد الرحمن باشا قانوننامه سي ، ٣ جزء ، استانبول ١٣٣١
- عبد الرحمن و فيق ، تكاليف قواعدي ، استانبول ١٣٢٨
- فنديقلي محمد أغا ، سلاحدار تاريخي ، ج ١ ، استانبول ١٣٣٤
- قوانين يكيچريان ، مكتبة السليمانية ، أسعد أفندي رقم ٢٠٦٨
- قوجي بك ، رساله ، نشر أحمد كمالی أقسوت ، استانبول ١٩٣٩
- كاتب جلبي ، دستور العمل في اصلاح الخلل ، استانبول ١٢٨٠
- كتاب مستطاب ، نشر يشار يوجل ، انقره ١٩٧٤

ثانياً - المراجع

- Acun Fatma, "Klasik Dönem Eyalet İdare Tarzı Olarak Tımar Sistemi ve Uygulaması" خلال (نظام التيمار كطرز لإدارة الإيالة خلال
Türkler, c. X/899-908, العصر العثماني الأول)
- Akgündüz Ahmed, Osmanlı Kanunnameleri ve Hukukî Tehlîlleri (القوانين العثمانية وتحليلاتها الشرعية) c.I., İstanbul 1990, s.204-207
- Aydın Taneri, Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluş Döneminde Vezir-i A'zamlık (الوزارة العظمى في عصر تأسيس
Ankara 1974, الإمبراطورية العثمانية)

- Bostan İdris, “Beylikten İmparatorluğa Osmanlı Denizciliği” (البحرية العثمانية من الإمارة وحتى الإمبراطورية), Osmanlı, c.VI/122-128
- Dursun Davut, “Osmanlı Devleti’nde Din-Devlet İlişkileri Üzerine Bazı Notlar” (بعض الملاحظات حول علاقة الدين والدولة في الدولة العثمانية), Osmanlı, VI/67-74
- Gencer Ali İhsan, “Osmanlı Türklerinde Denizcilik” (البحرية عند الأتراك العثمانيين), Türkler, c.X/569-589
- Göyünç Nejat, “Kuruluş Devrinde Askerî Teşkilât ve Devşirme Düzeni” (التشكيلات العسكرية في عصر التأسيس ، ونظام الديوشيرمه), Osmanlı, c.VI/558-560
- Göyünç Nejat, “Osmanlı Devleti’nde Taşra Teşkilâtı” (تشكيلات الولايات في الدولة العثمانية), Osmanlı, c.VI/77-88
- Halacoğlu Yusuf, XVI-XVII. Yüzyıllarda Osmanlılarda Devlet Teşkilâtı ve Sosyal Yapı (تشكيلات الدولة لدى العثمانيين خلال القرنين ١٦-١٧م والبناء الاجتماعي), Ankara 1996
- İrina Ye. Petrosyan, “Osmanlı Devleti’nin Kuruluşu ve Yeniçerilerin Kökeni” (تأسيس الدولة العثمانية ، وأصول اليكيجري), Türkler, X/129-135
- Kapatepe Şürü, “Osmanlı’da Din-Devlet İlişkisi” (علاقة الدين Osmanlı , Ankara 1999, I/56-66
- Kılıç Orhan, “Klasik Dönem Osmanlı Taşra Teşkilâtı : Beylerbeyiler / Eyaletler, Kaptanlıklar, Voyvodalıklar, Melikler (1362-1799)” (تشكيلات الولايات العثمانية في العهد الأول ، إمارة Beylerbeyiler / Eyaletler, Kaptanlıklar, Voyvodalıklar, Melikler (1362-1799)), Türkler, c. X/887-898
- Köprülü M.F, Bizans Müesseselerinin Osmanlı Müesseselerine Te’siri Hakkında bazı mülahazalar (بعض الملاحظات حول تأثير المؤسسات البيزنطية علي المؤسسات العثمانية), THITM, sy.I

- Kunt Metin, Sancaktan Eyalete : 1550-1650 Arasında Osmanlı Ümerası ve İl İdaresi-١٥٥٠-الأمراء العثمانيين في الفترة ما بين ١٦٥٠ ، وإدارة الولاية) (Istanbul 1978
- Mumcu Ahmed, Osmanlı Devleti'nde Siyaseten Katl القتل الديوان الهمايوني كجهاز صاحب قرار تشريعي Ankara 1985
- Mumcu Ahmed, Hukuksal ve Siyasal Karar Organı Olarak Divan-i Hümayûn (الديوان الهمايوني كجهاز صاحب قرار تشريعي) Ankara 1976
- Özcan Abdulkadir, “Osmanlı Devleti'nin Askerî Yapısı” (البناء العسكري للدولة العثمانية), Türkler, X/107-117
- Özcan Abdulkadir, “ Fatih'in Teşkilât Kanunnamesi ve Nizâm-i Alem için Kardeş Katli Meselesi” (قانون تشكيلات الفاتح), IÜ. EF. Derih Dergisi, İstanbul 1982, sy. 33, s.7-57
- Seyyid Muhammed Es-Seyyid, “Osmanlı Askeriyesinde ve Askerî Tarihinde Mısır'ın Yeri” (مكانة مصر في العسكرية العثمانية) (Türkler, X/159-171
- Taşkiran Cemalettin, “Yükselme Döneminde Osmanlı Ordusu” (الجيش العثماني في عصر الإزدهار), Osmanlı, c.VI./561-568
- Uzunçarşılı I.H., Osmanlı Devleti Teşkilâtına Medhal (المدخل لتشكيلات الدولة العثمانية), Ankara 1941, IX-XIV, 1vd.
- _____, Osmanlı Devletinin Saray Teşkilâtı, Ankara 1984
- _____, Osmanlı Devleti Merkez ve Bahriye Teşkilatı (التشكيلات المركزية والبحرية في الدولة العثمانية), Ankara 1943
- _____, Osmanlı Tarihine ait yeni bir vesikanın ehemmiyeti ve izahı ve bu münasebetle Osmanlılarda İlk vezirlere dâir mütala'a” (أهمية وثيقة جديدة تتعلق بالتاريخ العثماني،

Belleten, III/9, وإيضاحاتها ، ومطالعة حول الوزراء الأوائل لدى العثمانيين)
Ankara 1939, s. 99-133

- _____, Osmanlı Devletinin İlmiye Teşkilâtı (التشكيلات العلمية في الدولة العثمانية) Ankara 1984
- Uzunçarşılı, Osmanlı Devleti Teşkilâtından Kapukulu Ocakları (أوجاقات القابو قولي من تشكيلات الدولة العثمانية) I-II, Ankara 1984
- Ünal Mehmet Ali, Osmanlı Devleti'nde Merkezî Otorite ve Taşra Teşkilâtı (السلطة المركزية لدى الدولة العثمانية ، والتشكيلات المحلية) Osmanlı, c.VI/111-122

الختامة

مما تقدم يتأكد لنا أن قبائل الترك الرحّل الذين خرجوا من أعماق آسيا وانتشروا في أنحاء مختلفة من العالم ، راحوا يعتنقون الإسلام ويشاركون في صياغة الحياة السياسية في الدولة الإسلامية مشاركة فعّالة ، ويؤسسون دولاً عظيمة كان لها دور بارز في ضخ دماء جديدة في شرايين دولة الإسلام ومواجهة التحديات المتجددة وتنشيط حركة الفتوح في الشرق وفي الغرب .

فقد أعلن برکه خان بدخوله الإسلام وتأسيس دولة القره خانيين في بلاد ما وراء النهر ميلاد عنصر جديد في بناء الدولة الإسلامية أخذ على عاتقه رفع راية الإسلام ونشر حضارته في ربوع بلاد الترك ، ولم يألو جهداً في ذلك حتى صارت بلاد ما وراء النهر النبع الصافي الذي راح يمد العالم الإسلامي بعشائر الترك المتمسكين بأهداب الدين الإسلامي حتى وصلت إلى وسط أوروبا غرباً والمحيط الهندي جنوباً وبلاد سيبيريا شمالاً وبلاد الصين شرقاً . ولم يكد نجم القرخانين في الخفوت حتى ظهر في الأفق نجم جديد سطع لامعاً في سماء العالم الإسلامي ، لم يفرط في الاتجاه في الفتوح الإسلامية نحو الجنوب لأول مرة . ذلك هو نجم الغزنويين الذين حملوا النور والهدى إلى بلاد الهند ، ولم يتأخروا عن البذل والعطاء حتى انتشر الإسلام في ربوعها يقدم رسالته الخالدة للحضارة البشرية في تلك المنطقة .

وبينما كان الغزنويون يضعون نواة الحضارة الإسلامية في بلاد الهند والسند والأفغان ، ظهر كوكب منير في سماء الدولة الإسلامية أخذ على عاتقه عبئ التصدي للتحديات التي واجهت الدولة الإسلامية ، وراح يحو بنوره الوضاء كل أثر للحركة الشيعية المتطرفة التي نالت من نفوذ الخلافة العباسية وشقت صف العالم الإسلامي ، ويفتح الباب أمام إشراق شمس الإسلام على ربوع بلاد الروم . كان السلاجقة هم ذلك الأمل الجديد الذي قضى على البور الشيعية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ووضع جداً لتعديات الروم على حدود الدولة الإسلامية ، وفتح الطريق أمام العشائر التركمانية

لتسريح في آسيا الصغرى ويتحدّد الأمل في فتح حاضرة الدولة البيزنطية في القسطنطينية من جديد .

وفي الوقت الذي كان فيه نور هذا الكوكب يركن إلى الزوال ، أشرقت في أقصى الحدود الغربية للدولة الإسلامية وفي شمال غربي شبه جزيرة آسيا الصغرى (الأناضول) شمس كان ضياؤها أكثر شمولاً وأعمّ أثراً وأبعد مدى . وكان هذا الأمل قد انتقل في رحلة عسيرة من أقصى بلاد الترك غرباً حتى وصل إلى تلك المناطق الحدودية ليشترك في الدفاع عن الثغور الإسلامية وغزو بلاد الروم . ولم يكد يمر قرن من الزمان حتى أعلن عن شروق شمس جديدة في غربي الأناضول وشرقي أوروبا ، هي شمس الدولة العثمانية .

والحقيقة أن الدولة العثمانية خلال عمرها المديد مرت بمراحل طويلة من التأسيس والإزدهار قبل الوصول إلى مراحل الضعف والإنهيار التي كانت أكثر ثقلًا وأطول زمناً . فمع أفول شمس القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري كان قد أعلن عن ميلاد الدولة العثمانية . والحقيقة أن هذا المولود الجديد للدولة الإسلامية راح ينشأ على الغزو الجهاد منذ أول يوم حتى اشتد ساعده وقوي بنيانه واحتل مكائنه في الدولة الإسلامية نتيجة النجاحات المتتالية التي حققها في أوروبا . وإذا كان هذا العضو الجديد في أسرة العالم الإسلامي راح يتعرض لأزمة كبرى أطاحت بقسم كبير من إنجازاته في الشرق والغرب على يد سفاح الشرق تيمورلنك ، إلا أنه تمكن بعزم من حديد من تجاوز المحنة ، وعاد أقوى قبضة وأشد شكيمة وأمضى سيفاً عن ذي قبل خلال نصف قرن من الزمان .

لم يكد يمضي على اعلان قيامها قرن حتى حاصرت الدولة العثمانية القسطنطينية لأول مرة . ولم يتنهد ما مرت به من ملهات خلال مرحلة الفتور عن تجديد العزم لفتح حاضرة الدولة البيزنطية ، بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك ، كان فتحها على يد " نعم الأمير " سمي رسول الله وبسيف " نعم الجيوش " ،

اعلاناً لميلاد الإمبراطورية العثمانية ، وبداية عصر السطوة والإزدهار الذي امتد لما يقرب من قرن ونصف من الزمان .

لقد كان سقوط بيزنطة ، القسطنطينية ، استانبول ، في يد العثمانيين بداية لسقوط بقية معاقل دولة الروم الشرقية . وكان دحر التحالفات الصليبية الأوروبية أكثر من مرة وفي أكثر من ميدان بداية لميلاد قوة دولية جديدة في مطلع العصر الحديث ، وكان اتخاذ القسطنطينية عاصمة دائمة للدولة العثمانية والسعي لجعلها تأخذ مكانها اللائق بين حواضر العام الإسلامي اعلاناً عن ميلاد قيادة اسلامية جديدة تضع إحدى قدميها في الشرق والقدم الأخرى في الغرب . فخلال عصور محمد الفاتح ، وسليم الأول وسليمان القانوني أمكن للدولة العثمانية تحقيق طموحاتها في العالم الإسلامي باعلانها كقيادة جديدة أعادت الجمع بين السلطتين المدنية والدينية وقادت العالم الإسلامي لتحقيق السطوة المطلقة في العالم لمدة تربو على قرن من الزمان . فلم تززع مكانتها تحالفات الدول الأوروبية واتفاقيات الشرق والغرب ، فأمكن لها دحر الهابسبورج في البر والبحر حتى حاصرت فيينا وفرضت سلطتها المطلقة في بلاد المجر وانتزعت شمال أفريقيا من أيديهم ، وبسطت نفوذها على البحر المتوسط ، وتمكنت من تأديب الشيعة واستعادة العراق وشرق الأناضول من أيديهم وانتزعت العاصمة الصفوية في تبريز غير مرة وأحبطت محاولاتهم للتربص بالشام ومصر وإعادة المذهب الشيعي إليهما والاتفاق مع الحلف الصليبي الغربي ، وتصدت لتعدييات البرتغال في البحار الشرقية والبحر الأحمر وأفسدت مساعيهم للتعدي على الحرمين الشريفين وتحويل التجارة الشرقية وقطع الشريان الإقتصادي الحيوي عن العالم الإسلامي ، ودعّمت المقاومة القرمية للتصدي للروس الذين حاولوا الاستيلاء على ميراث دولة ألتون أوردو في بلاد القفقاس والقرم حتى حدثت من الخطر الروسي لأكثر من قرنين من الزمان .

والحقيقة أن حياة الدولة كحياة الشعوب تقاس بانجازاتها السياسية والحضارية الباقية . ولم يكن هذا الإنجاز العثماني الكبير يتجاوز هذه الحقيقة بحال . فلا بد أن يكون علي رأس هذا الإنجاز الضخم رجال علي نفس المقدرة والقوة والسمو . فلا يمكن

لعاصر ضعيفة وأرواح خاوية غير مؤمنة بما تبذل من أجله النفس والنفس ، لا يمكن لها أن تقيم صرح عظيم يقاوم عوامل الخلل لأكثر من ثلاثة قرون من الزمان . فقد قام علي هذا الصرح مؤسسات إدارية وعسكرية ومالية وقضائية واجتماعية راسخة البنيان ، وتشكيلات عملت في هذه المؤسسات دون تمييز في الجنس والدين واللغة ، وكان فيها مبدأ المساواة والبقاء للأصلح والأمنع للدين وللدولة . حتى إذا بدأ الفساد يدب في هذه المؤسسات وتلك التشكيلات ، راحت عوامل المقاومة الذاتية تفعل فعلها ، وسدح مظاهر الفساد بكل قوة لما يقرب من قرن من الزمان ، ولم تؤثر في هذا البنيان العظيم إلا بعد أن نالت عوامل الخلل من الأسس التي قامت عليها الدولة لأول مرة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الدولة العثمانية لم تفرط خلال رحلتها من النشأة والنمو إلى الإزدهار والفتوة في حماية العالم الإسلامي من الحملات الصليبية في الشمال والجنوب ، ولم تتواني عن مواجهة الزحف الشيعي من الشرق ، ونجحت إلى حد كبير خلال القرن ١٦م / ١٠هـ من الخروج بالعالم الإسلامي آمناً علي أراضيه ودينه وثرواته فضلاً عن أنها مدّت فتوحاته ، وأعلنت سطوته المطلقة علي العالم لأكثر من قرن من الزمان .

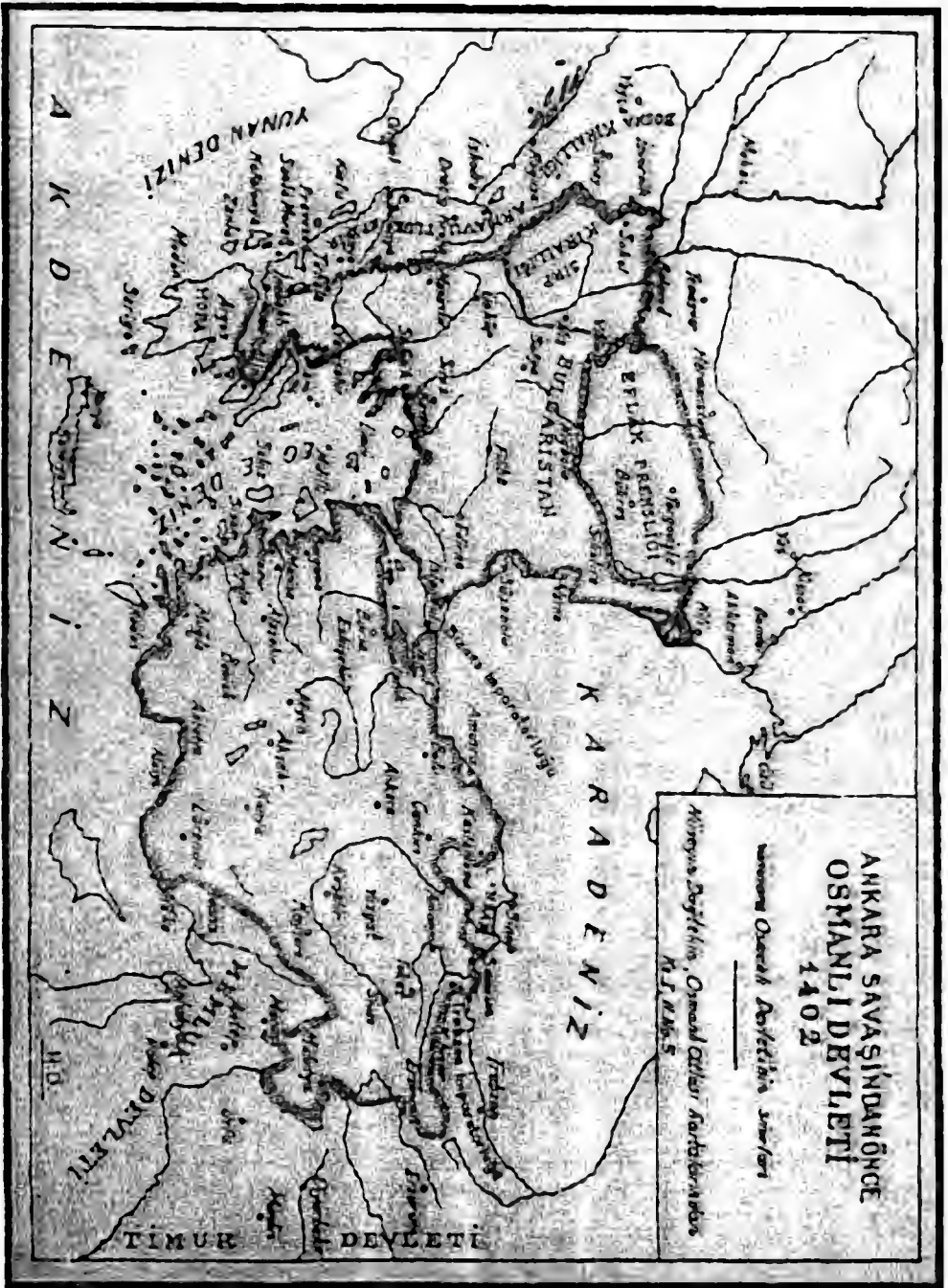
الخـرائـط

رقع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

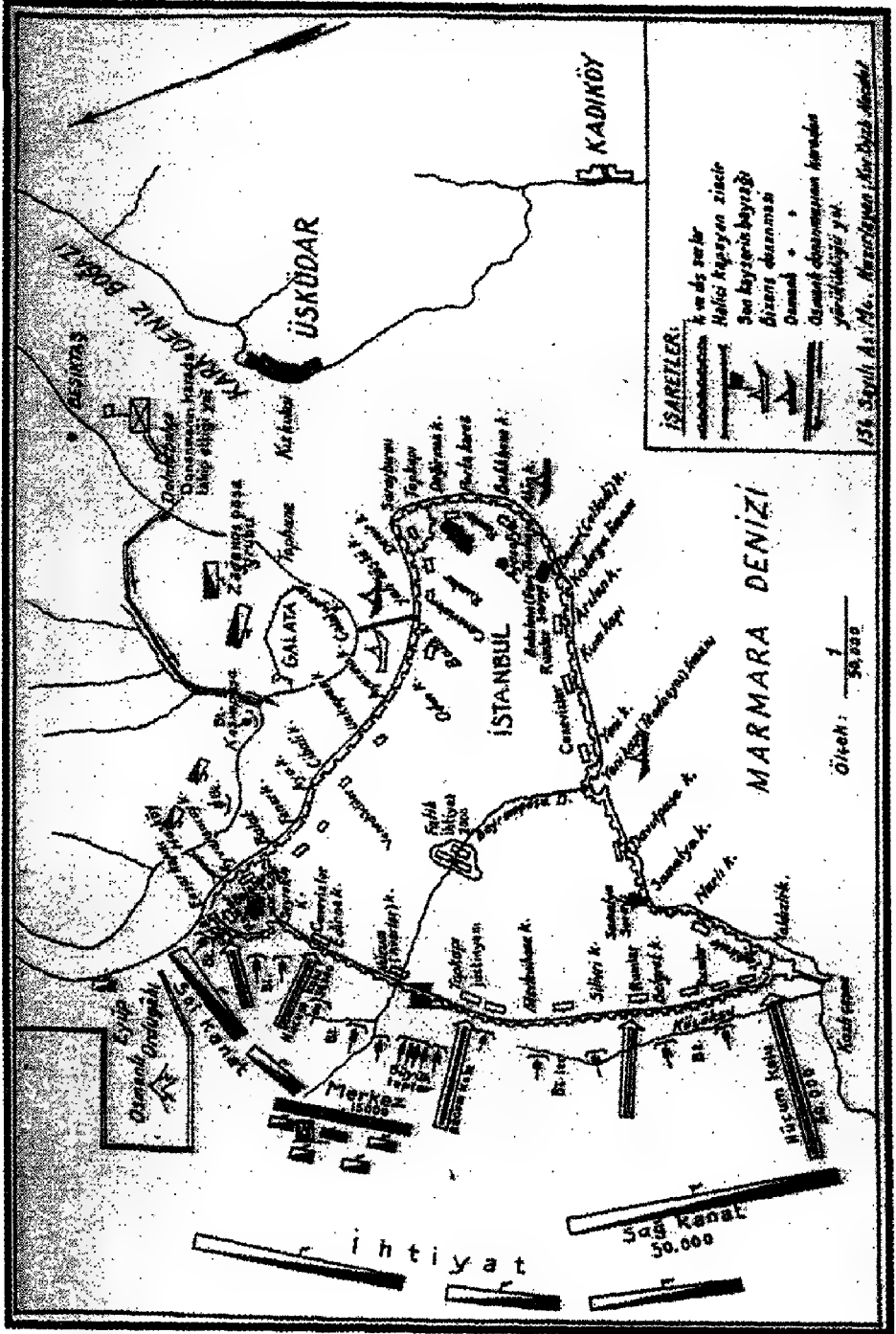
- ۴۰۴ -



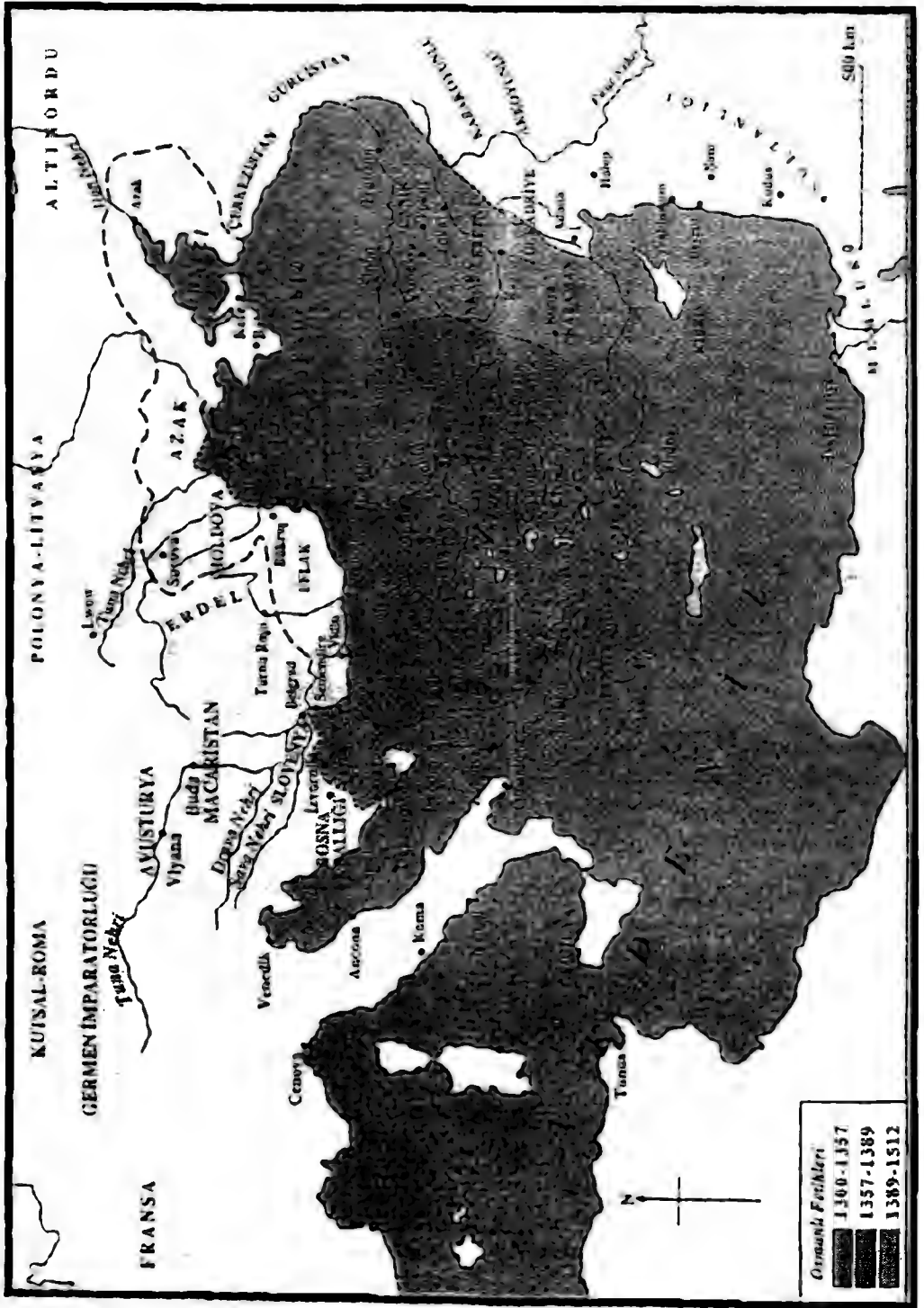
إمارة آل عثمان ضمن الإمارات التركمانية في الأناضول
 خلال النصف الأول من القرن ١٤م (نقلاً عن أوزون جارشلي ج ١)



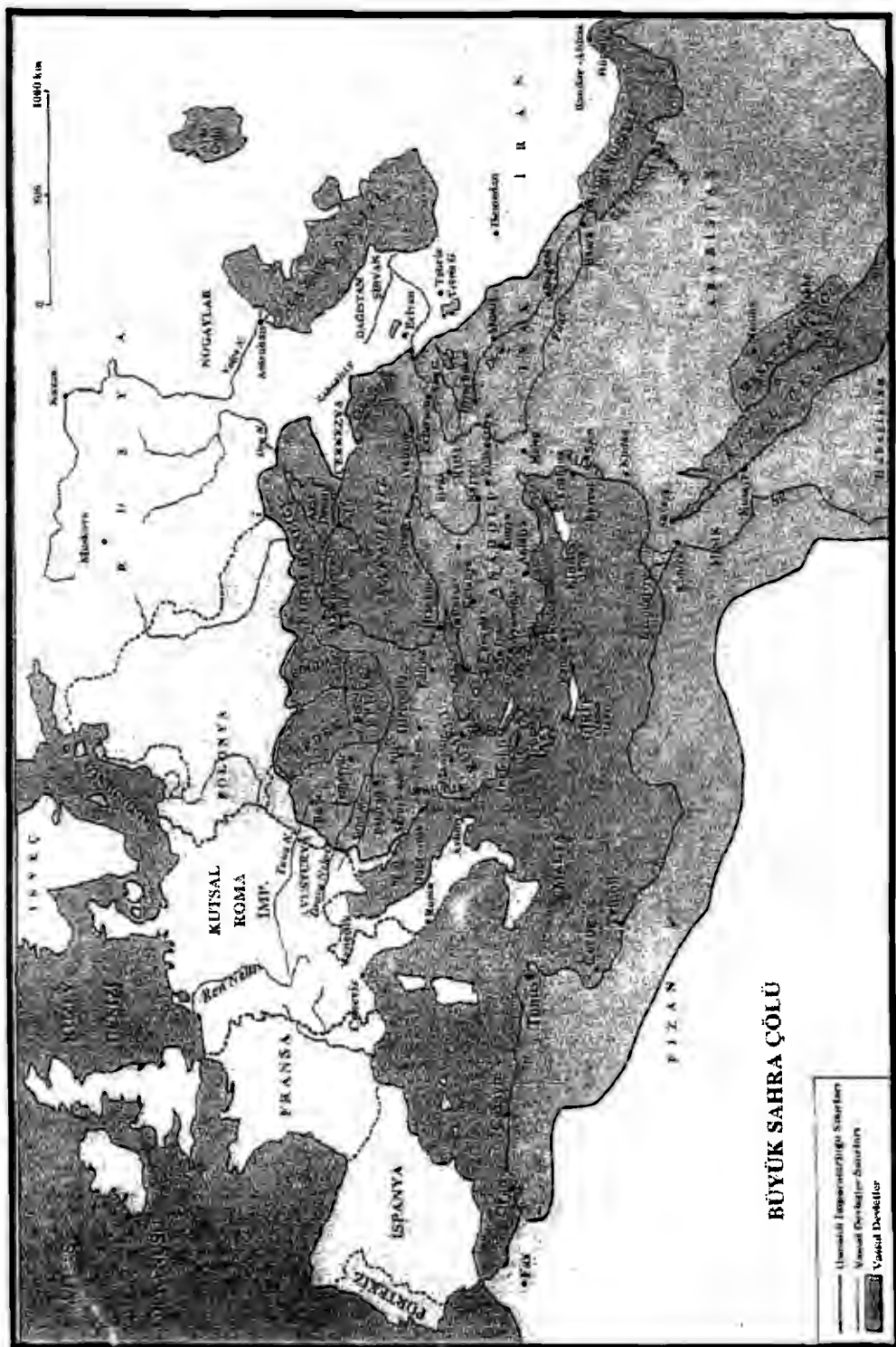
الدولة العثمانية في نهاية مرحلة التأسيس الأولي (نقلاً عن أوزون جارغلي ج ١)



حصار القسطنطينية



الدولة العثمانية في الفترة ما بين ١٣٠٠-١٥١٢م (نقلًا عن موسوعة توركلر)



الإمبراطورية العثمانية خلال أواسط القرن ١٦م (نقلاً عن موسوعة توركلر)

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

من إصدارات مكتبة الأديب

